مجلة فكرية سياسية فصلية
تصدر عن مركز رواق بغداد للسياسات العامة

REWAQ BAGHDAD CENTER

رئيس مجلس الإدارة : **عباس العنبوري**
رئيس التحرير : **د. علاء حميد إدريس**
نائب رئيس التحرير: **علي حسون**
مدير التحرير: **أنور المؤمن**
سكرتير التحرير: **سارة صباح**

هيأة التحرير: **أحمد الحلو**
حسن الصراف
د. عقيل حبيب
سامان نوح
د. قيس الموسوي
د. عدنان صبيح
ياسر صالح
حسين البياتي

الهيأة الاستشارية: **د. آرثر كويزني - فرنسا**
إبراهيم العبادي - العراق
د. ثناسي كمباناس - أميركا
جواد علي كسّار - العراق
زيد العلي - أميركا
سعيد الغانمي - استراليا
فاريبا باجوه - إيران
د. فرح الصفار - العراق
د. مارسين الشمري- أميركا
ماري كوراود - فرنسا
د. محمد فيزال بن موسى - ماليزيا
د. مظهر محمد صالح - العراق
د. ناظم عودة - السويد
أ.د نبيل زوين - العراق

مواقع التواصل الاجتماعي: **رسل علاء**
مدير العلاقات العامة: **آية الحكيم**
المسؤول المالي: **يقين سعدي عبد الامير**

العدد العاشر - كانون الأول - 2023
رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (2631) لسنة 2023
alrewaq.magazine@rewaqbaghdad.org
info@rewaqbaghdad.org
+964 783 577 4086
+964 783 577 4081

GRAPHIC BY

المحتويات

ملف العدد
الحصار الاقتصادي على العراق
1990 ـ 2003 ..الاحوال والاهوال

افتتاحية الرواق بقلم د. عباس العمبوري
كي لا تموت ذاكرتنا 4

بحوث

ثلاثة عشر عمراً من الحصار
بانوراما لتوثيق ما حدث في العراق
د.علي جواد وتوت 6

الحصار على العراق (1990 - 2003)
تمظهرات الصدمات الاقتصادية
كامل داوود 42

طريق الموت الطويل:
الحصار والمشهد الشعري في تسعينيات العراق
د. عذراء ناصر 51

انعكاسات الحصار الاقتصادي على الهجرة والنزوح في العراق
د. أحمد قاسم 64

العقوبات الاقتصادية والنساء في العراق
د. اسماء جميل رشيد 75

ظاهرة «المُعاد» في التسعينيات
التمثّلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية
محمد غازي الاخرس 86

القوات المسلّحة العراقية في ظل الحصار الاقتصادي
بين تَرِكَة التدمير وقسوة الحصار
الفريق الركن حسن سلمان البيضاني 93

مقالات

الآثار النفسية – الاجتماعية للحصار الاقتصادي على العرا ق (1990 - 2003)
د. رضا حسّا ن حميدي 106

تلفيق الخطاب البعثي من العَلمانية إلى الإيمان
احمد صحن 113

مشكلا ت الفن التشكيلي العراقي في زمن الحصار
سهيل سامي نادر 120

غناء الجوع وَموسيقى الفوضى- قراءة في فن الحصار الاقتصادي
د. نصير جابر 130

الجنوبيو ن المُحاصرو ن يبحثون عن مُنقذ
د. محمد د عطوان 135

الحر ب التي أهملَها العالم
المواجهة العسكرية الباردة بين الولايات المتحدة والعراق (1991 - 2023)
قيس قاسم العجر ش 143

كلما ت من زمن الحصا ر
حيدر الجراح 148

الحروب والحصارات والعزلة الإنسانية (1991 - 2003) -مؤشرات اجتماعية وتربوي-
علي عبد الأمير عجام 154

ذاكرة بائع كتب في شارع المتنبي الحصار الاقتصادي والحصار الثقافي
د. علي المرهج 162

الحصار والتغيّر الاجتماعي - التعليم أنموذجًا -
د. وعد إبراهيم خليل 172

سياسات مقارنة

الحصار بين النظام والمعارضة قبل 2003 - دراسة مقارنة
أنور المؤمن 176

تقدير موقف

الاقتران المرن: الأسلمة في زمن الجوع
د. ياسر عبد الحسين 186

ترجمة

حصار حتى الموت
جون بيلجر - ترجمة: د. عذراء ناصر 198

ملف العقوبات على العراق
إعداد موسى أشرشور 214

كتاب الرواق

درء المجاعة عن العراق
مذكراتي عن سنين الحصار (1990 – 2003) **عرض أنور المؤمن** 221

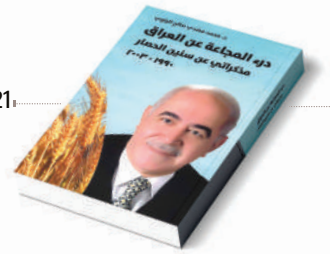

المركز والأقليم

عقد من التراجع الكردي ..
هل بات كيانُ الإقليم الدستوري مهددًا بالضياع؟
سامان نوح 228

حوار

مع د. مظهر محمد صالح 234

مع د. مهدي العلاق 248

الرواق الأخير **بقلم د. علاء حميد إدريس**
الوجه الآخر للحصار! 256

كي لا تموت ذاكرتنا.

عباس العنبوري

لم اتخط الثالثة عشر ربيعاً يوم قرر فارس الامة العربية " المزعوم" غزو احدى شقيقاته بعد ان افنى عشرات الآلاف من شعبه في حربٍ عبثية امتدت لثمان سنوات. يومها قبضت على عُنقي – بفاصل لم يتجاوز الثلاثة اشهر- كمَّاشتي "اليتم والحصار" كأقسى ما يمكن ان يربى انساناً في مثل تلك السني. اذ توالت بعد 2 آب-اغسطس 1990 عشرات الاحداث. ولكن بقيت معايشة الحصار الاقتصادي الخانق بكل تفاصيله وتعقيداته واحداً من اقسى ما مرّ على ذاكرتي وذاكرة الاعم الاغلب من العراقيين ممن عايشوا ظروف الحصار واكتووا بناره في تسعينيات القرن الماضي. فالاحداث العابرة في حياة الفرد، رغم ما لها من تأثير في تشكّل وتكون الشخصية الانسانية، وبلورة الصفات العامة للمجتمع، الا ان تجاوز آثارها السلبية يبقى في دائرة الامكان. اما التحديات العامة التي يواجهها المجتمع باجمعه، فلا يمكن تخطيها دون دراسة تفكيكية تحليلية دقيقة، لقراءة الاحداث، ومعرفة الآثار، وما يترتب عليها من نتائج ينبغي اخذها بنظر الاعتبار عند اصحاب القرار وواضعي السياسات العامة للدولة.

ونحن الذين ذقنا مرارة الخبز الاسمر، وسمعنا اصوات الباعة الدوّارة المتعالية في الصباح والمساء: خبز يابس، نخالة، بطاله (قناني) للبيع. نحن وحدنا، نمتلك ذاكرةً خاصة، يُحليها البيبسي المعبأ محلياً بألوان صناعية والمضغوط بغاز لا نعرف له اصلاً، وطعوم نقنع انفسنا بأنها تشابه الطعم الاصلي. نحن وحدنا، نعرف كيف نشبع بطوننا بالباذنجان والبطاطا المقلية بزيت طعام كثيف يعلق بقاع الفم وجانبيه ونحلي ايامنا بخبز مقلي بالزيت ومغموس بالدبس. كما نعرف كيف يمكن ان تباع اثاث البيوت لتفترش العائلة الارض من اجل تأمين لقمة عيشها!.

... نحن الذين خبرنا ما تعنيه العملة الاصلية المعلّمة بالخط والنخلة والفسفورة، والتي تكشفها اجهزة خشبية صغيرة لا تخلو منها ابسط محلات البقالة لتجنب العملة المزيفة، رغم ان جميعها -اي العملة- يحمل صورة فارس الامة المزعوم!

ولأننا "أمة العراق" المعاصر، لا نألف التوثيق، وتضيع علينا آلاف الاحداث دون تدوين، وتتآكل ذاكرتنا يوماً بعد يوم، لغياب الاعمال الفكرية الفنية التي توثق الاحداث البارزة في حياتنا -كأمة ومجتمع-، حتى مرت علينا حرب الثمان سنوات، والانتفاضة الشعبانية، وجرائم البعث ثم الحصار، دون محاولات توثيقية حقيقية تحفظ الذاكرة، بل وتصنعها عند الاجيال القادمة، التي تسمع منا شفاهاً وقد لا تصدقنا وصارت الان محل جدل ونقاش.

لكل ذلك، ايدت وشجعت فكرة كتابة هذا العدد من مجلة (الرواق) عن دراسة وتفكيك مرحلة (الحصار) التي مرت على العراق في تسعينيات القرن الماضي والسنين الاولى من قرننا الحالي.

لا يمكن لآلاف الصفحات ان تسرد يومياتٍ قاسية مرت على ملايين العراقيين تحت وطأة الكفاف، بعد ان طحنتهم رحى الجوع والفاقة. حسبنا وبمقدار ما نستطيع، ان نراكم المحاولات، وان نديم زخمها، وان نزرع بذرة لفكرة هنا وفكرةٍ هناك. أملاً في زيادة الوعي وكشف الخبايا والخفايا، وكسر الجمود الذي جعلنا ننشغل بهمنا اليومي الذي نحن فيه، ونؤخر مراجعة ايامنا التي مضت،على ضرورة ذلك لفهم حاضرنا، والاستعداد لمواجهة مستقبلنا، أننا نقوم بعمل يحيي الذاكرة ويعمل على ان لا تموت في معمعة الجدالات الساخنة والسياسات المتعجلة.

الراعي

ثلاثة عشر عمراً من الحصار
بانوراما لتوثيق ما حدث في العراق

د. علي جواد وتوت
باحث أكاديمي في سوسيولوجيا السياسة

مدخل

ثلاثة عقود وسنين ثلاثْ، تُلكم هي المدة التي تفصل بين كتابة هذه الورقة وبين ما حصل من أحداث في سنوات الحصار على العراق؛ لذا تبدو المحاولة الحالية لتوثيق ما حصل متأخرةً جداً، وهي قد تنجح في استعادة، أو في توصيف، ما قاساه العراقيون، لكنها بلا شك ستكون عكس ذلك في تقديم دروس لمجتمع أثبت على الدوام أن ذاكرته سمكيّة.

تبدو فترة الحصار الاقتصادي على العراق الذي امتد لثلاثة عشر سنةً شاخصةً في أذهان من عاشوا فيها؛ ليس لأنها كانت فترة عصيّة عليهم، ولكن لأنها غيّرتهم الى الابد. بالمقابل، يعاني المهتمون أو الباحثون الذين يودّون الكتابة عن هذه الفترة الأكثر سواداً وظلمةً في تاريخ المجتمع بالعراق، من أنها الأقل توثيقاً موضوعياً في مختلف المجالات والعلوم الإنسانية، ومن ضمنها التأريخ، والاقتصاد، وأهمها الجانب الاجتماعي، ناهيك عن الجانب النفسي[1]؛ ليس لكونها تضمنت سكوتاً متعمداً من المجتمع الدولي، ولكن بسبب الصمت الذي تعوّد العراقيون تقبّله بفعل قسوة وجور النظام الدكتاتوري أيضا.

ومـن دون الدخول فـي التفاصيل، فإن الحصـار الدولي علـى العـراق فُرض بفعـل قـرار مجلس الأمـن الدولي (661) الصادر في السـادس من آب/ أغسـطس 1990، ونصّ علـى إقرار عقوبات اقتصاديـة خانقة على العراق لتجبـره علـى الانسـحاب الفـوري مـن الكويـت، لكنّهـا اسـتمرت حتـى بعد تحقـق ذلك الانسـحاب لنحو ثلاث عشرة سنةً.

وعلـى الرغم مـن أن البنـود الأصلية لقـرار الحظر أعلاه قضَـت بتحريم كل أنـواع المعاملات التجارية مع العراق وتجميد أمواله في الخارج، إلا أنها نظرياً استثنت الغذاء والمواد الطبية(2)، لكن مع تجميد الأموال والحسابات العراقيـة في البنوك العالمية، ومـن دون عوائد تصدير النفـط، لم يسـتطع العـراق دفع فاتورة الاسـتيراد، لذا أصبح هذا الاستثناء لا معنى له.

سـأحاول فـي ورقتي أن أقـدّم اسـتعراضاً موجزاً لأهم الأحـداث منـذ ذلك الصبـاح الأغبر يوم الثانـي من آب/ أغسـطس 1990(3)، الـذي أعلنـت فيـه إذاعـة بغداد الرسمية أن قوات عراقية دخلت الجارة الكويت لتساعد انقلابـاً حدث هناك. هـذه الأحداث التي لم أجد لها في كثير من الأحيان ما يوثّقها سوى ذاكرة العراقيين الذين عاشـوها، والتوثيـق هـذا أسـاس الذاكرة التي تشـكّل سِـمة للحضارة الإنسـانية تميّزها، وكانت هذه الأحداث كما يأتي:-

لماذا كان الحصار؟

وهو سـؤال طال السـكوت عنه اجتماعياً بفعل الخوف مـن الدكتاتوريـة سـابقاً، وبفعـل الخجل من طـرح هذا السـؤال مرة أخرى فيما بعد، فـلا تجد من يتحدث عنه، وممـا يعـزز مثل هذا السـكوت هو التواطـؤ على أن ما حدث للعراقيين مُبرّر بفعل قبول بعضهم لقرار الدكتاتور أو مشاركته فعل الغزو.

لقـد كان الحصـار الاقتصادي نبتـةً سـامةً، ونتيجةً لقرار النظام الدكتاتوري باحتلال دولة الكويت، وقرار الاحتلال أو الغـزو (كمـا تصفـه الجهـات الكويتيـة) هـو تجسـيد للدكتاتورية الحقّة، فلم يعلم بقرار الدكتاتور إلا قلة من أزلامه المتزلّفين، بل يقال إنه قام بتصفية وعزل كل من عارض قرار غزو الكويت الجارة المسالمة.

احتلال دولة الكويت

فـي الثاني من آب/ أغسـطس 1990، عبـرت قطاعات كبيـرة من الجيـش العراقي الحـدود الكويتيـة العراقية باتجـاه مدينـة الكويت، وتوغّلـت المدرّعـات والدبابات العراقيـة في العمـق الكويتي وقامت بالسـيطرة على مراكـز حكومية رئيسـة في شـتّى أنحاء الكويـت[4]. كما قام الجيش العراقي بالسيطرة على الإذاعة والتلفزيون الكويتـي، وتم اعتقـال الآلاف من المدنييـن الكويتيين بالإضافـة إلـى أعـداد كبيرة مـن الأجانـب الذيـن كانوا موجوديـن فـي الكويـت في ذلـك الوقـت، والذين تم استعمالهم كرهائن لاحقاً[5].

قـام النظـام الدكتاتـوري ولأغـراض دعائيـة بتنصيـب حكومـة صورية مؤقتة في الكويـت، مدّعياً أنها قامت بالثـورة على حُـكّام الكويت من (آل الصُباح) وطلبت من العراق مسـاعدتها، وذلك من الرابع من آب/ أغسطس 1990 حتى الثامن من الشـهر ذاته، أي لمدة أربعة أيام، لكـن الدكتاتور أعلن بنفسـه وأمام جمع مـن القوميين العـرب أنـه وافق على ضـمّ الكويت إلى العراق رسـمياً لتكـون (حالـة واحدة)، عـادّاً إياهـا المحافظـة العراقية التاسـعة عشـر[6]. وكدليـل لعمليـة الضم تلـك أصدرت وزارة الداخلية مثلاً لوحاتٍ للسيارات الكويتية تجعل من الكويـت إحدى محافظـات العراق. كما أن كمّاً كبيراً من جداريـات الدكتاتور وُضعت هناك في السـاحات العامة وأمام المباني الحكومية التي تشغلها تشكيلات الحرس الجمهوري والخاص.

آنذاك، بدأت عمليات سـلب ونهب واسـعة النطاق من قبل القوات العراقية شملت جميع مرافق دولة الكويت، كان هدفها كل شـيء، من أبسـط المواد الغذائية على رفوف الأسـواق والجمعيـات الحكوميـة الكويتية، إلى جميـع مـا تحويه وزارات ومؤسسـات الدولـة الكويتية، وبـدأت حملة منظمة لنقل ما تم الاسـتحواذ عليه إلى العـراق. ارتكب الجيش العراقـي العديد من الجرائم في الكويت، كعمليات الإعدام من دون محاكمة التي كانت تجرى أمام منزل الضحية وبحضور أسرته[7].

أخفقـت المسـاعي العربية طوال ما يقرب من خمسـة أشـهر لحل الأزمة تماماً، لكن الدكتاتور وفي واحدة من الشـطحات التي أظهرها للعلن ربط انسحاب جيشه من

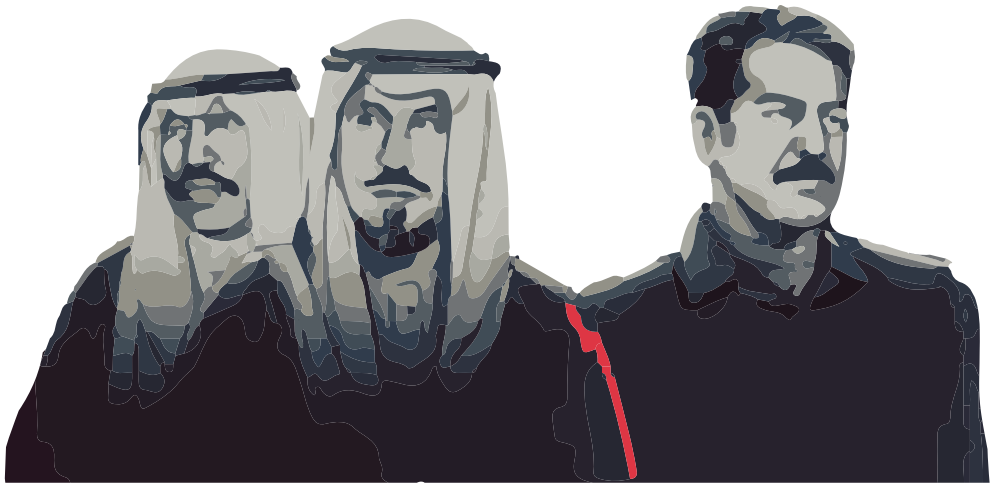

الكويت بشكل غريب بانسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية المحتلة ولبنان والجولان، وانسحاب سوريا من لبنان، وذلك فيما دُعي بـ(مبادرة الثاني عشر من آب/ أغسطس 1990)، وقد رُفض هذا المقترح على الفور من دول التحالف[8].

وبين 12 آب/ أغسطس وحتى شهر كانون الثاني/ يناير، زارت وفود كثيرة الدكتاتور لثَنيهِ عن البقاء في الكويت، لكنه رفض كل تلك العروض. أخيراً، وقبل أسبوع من الموعد الذي حدّده مجلس الأمن الدولي وقيادة التحالف لبدء العمليات العسكرية، وتحديداً في (11 كانون الثاني/ يناير 1991)، التقى أمين عام الأمم المتحدة، (خافيير بيريز دي كويار) بالرئيس العراقي (صدام حسين)، لكنه لم يستطع إقناعه بالانسحاب أو حتى الدخول في مفاوضات بشأن الانسحاب[9].

ومن جهةٍ أخرى، كان الدكتاتور قد أعلن قُبيل يومين من بدء الحرب، في لقاء مع رؤساء الصحف العراقية يوم (13 كانون الثاني/ يناير 1991)، موجّهاً كلامه إلى قادة الجيش والجنود وإلى العراقيين جميعاً بأن (دول التحالف تمتلك معدّات وتقنيات حديثة، وربما يقومون بتزوير صوتي أو دبلجته في بيان أطلب فيه انسحابكم من الكويت، فلا تصدّقوا هذه الأخبار لأننا لن ننسحب من الكويت التي هي فرعٌ عاد إلى الأصل، وهي المحافظة التاسعة عشرة من محافظات العراق)[10].

أما آخر الخطوات التي قام بها الدكتاتور قبيل يوم من موعد الحرب، وتحديداً في 14 كانون الثاني/ يناير 1991؛ فهي إجراء تحوير على (علَم العراق) وذلك بإضافة عبارة (أللّه أكبر) مكتوبة بخط يدِهِ[11]، ربما في خطوةٍ تُنبئ عن توجهه الأيديولوجي (الإيماني!!) في سنوات الحصار[12]، وسيظل هذا الملف (أي قضية علَم العراق) محل خلاف بين العراقيين حتى العام 2008 حينما أُجري التعديل الأخير عليه.

أما الاستعدادات على الأرض؛ فقد كانت على قدم وساق، وتمثّلت بزيادة عدد القوات العراقية البرية الموجودة في الكويت، والتي زارها الدكتاتور في منتصف كانون ثاني/ يناير من العام 1991، أي قبل الحرب بيوم تقريباً، واستمع لما يقوله جنوده من مهاترات شَعبوية [شعارات وأهازيج (هوسات) غير منطقية وتثير السخرية في معظم الأحيان[13]، وسأل عن أحوالهم المعيشية في ظلّ سبعة أشهر من الحصار على الكويت، وخاط معهم (مرقة الهواء والرز)[14] الذي طبخته مطابخ القوات ذلك اليوم، وخاط معها أعمارهم على طريق الموت بعد شهر ونصف من تلك الزيارة.

وفي واحدة من الشطحات التي أظهرها الدكتاتور للعلن ربط انسحاب جيشه من الكويت بشكل غريب بانسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية المحتلة ولبنان والجولان، وانسحاب سوريا من لبنان

نهب الكويت وسرقتها

نتـج عـن ملف الاحتـلال أنْ عمِـل النظـام المقبور على تعزيـز سـلوك (الفرهود) وثقافتـه عنـد العراقيين، بعد أن كان قـد بدأهـا فـي سـبعينيات القـرن الماضي في مصـادرة بضائع كل من يخالـف قوانينه الجائـرة[15]، بأن يسـمح للعامـة بنهب تلـك البضائع والمحـلات، وتطوَّر هـذا السـلوك إبّـان احتلال القصبـات والمـدن الإيرانية فـي حرب الخليـج الأولى[16]، ليعمل على إباحة وسـرقة مقدّرات ومؤسسات الدولة الكويتية واحدة تلو الأخرى منـذ الأيام الأولى، على الرغم من أن عقوبات تصل إلى حدود الإعـدام قد أعلنها الدكتاتور بإزاء جرائم السـرقة التي قد يرتكبها أفراد ضدّ (أشـخاص أو مؤسسات) في الكويت[17].

لكن ذلك لم يكن سـوى غطاءً لتبرير السـرقة المنظّمة التـي قامـت بها أجهزة رسـمية وشـخصيات بـارزة في النظـام المقبور على رأسـها (علي حسـن المجيد/ علي كيمياوي) الحاكم الرسـمي (لمحافظـة الكويت)!! فهو مع (عدي صدام حسين) و(حسين كامل) قاموا بارتكاب عمليات سـرقةٍ منظّمة لحسـابهم الشـخصي، وبخاصة تلـك الممتلكات الموجودة في قصور الأمراء الكويتيين (مجوهـرات وسـبائك ذهبية، ومقتنيـات وأعمال فنية، وسيارات فاخرة ... وما إلى ذلك)[18].

لكـن فيما بعد، قنّنت هذه السـرقة على مدار الأشـهر التاليـة قبل حـرب الخليج الثانية، حتى أرسـلت كل وزارة بتشـكيلاتها فرقاً عنهـا لتجرد وتنهـب ممتلكات وأثاث ومتعلقات الوزارة النظيرة لها في دولة الكويت، وكانت حصـة وزارة التعليم العالي من هـذا النهب المنظّم كل أثـاث جامعـة الكويـت ومكتبتها العملاقـة التي ملأت أروقة مكتبات الجامعات العراقية الناشئة آنذاك[19].

وبالمثل، كان النهب المنظّـم لإذاعة وتلفزيون الكويت مـن نصيب (عـدي صـدام حسـين)، وبخاصـة المعدّات الحديثـة التي سـينتفع بها بعد عامين مـن ذلك التاريخ ليفتتـح محطتـه الإذاعية (إذاعـة الشـباب) الخاصة به، والتي شـهدت تغييـراً في نمط البرامـج؛ إذ كانت عبارة عن محطة تذيع الأغاني من ساعة افتتاحها صباحاً وحتى سـاعة إغلاقها في الثانية عشـرة، ومن بعدها بسـنتين سـيفتح بتلـك المعـدّات قناته التـي دعاهـا بـ(تلفزيون الشـباب) الذي سيسير سـيرة (إذاعة الشباب) من ناحية البرامـج، مثلمـا شـهد تحـولاً فـي النظـام التلفزيونـي المسـتخدم؛ فقد ظلّت التلفزيونات العراقية تسـتخدم نظـام (سـيكام) الفرنسـي في حقـل التـردد الـ(هرتزي) للتلفزيـون الملـون[20]، فيمـا كانت المعـدّات والأجهزة التـي نهبَها (عدي صدام) تشـتغل بنظام (بال) الألماني الشـائع في أنحـاء أوروبـا، ولذلك لم تسـتقبل كثير من التلفزيونـات الملونـة الموجـودة في البيـوت العراقية آنذاك بث تلفزيون الشـباب مـا لم يتم موافقتها لنظام (بال)[21].

كل عمليـات السـرقة المنظّمـة هـذه شـجّعت أفـراد القـوات المسـلحة (الحـرس الجمهـوري والتشـكيلات الأخـرى) علـى ممارسـة أفعـال النهب والسـرقة لتملأ الأسـواق العراقيـة بالبضائع التي سُـرقت من الكويت،

كان النهب المنظّم لإذاعة وتلفزيون الكويت من نصيب (عدي صدام حسين)، وبخاصة المعدّات الحديثة التي سينتفع بها بعد عامين من ذلك التاريخ ليفتتح محطته الإذاعية (إذاعة الشباب) الخاصة به

أصدر المرجع الراحل المحقق (أبو القاسم الخوئي) فتواه الشهيرة بأن (من صلّى في الكويت عليه أن يقضيها؛ لأنها أرض مغصوبة ولا تصحّ فيها الصلاة وسائر العبادات، كما حرّم بيع وشراء وتداول السلع الكويتية المأخوذة غصباً

فتشاهد أجهزة التبريد (المكيّفات) والثلاجات التلفزيونات وأجهزة الصوت (المسجّلات) وغيرها من ماركات (علامات تجارية) كان العراقيون يسمعون عنها ولا يرونها في حياتهم البائسة، مثلما صارت السيارات الأميركية الفارهة تسير لأول مرة في شوارع المدن العراقية[22]، ومثلما انتشرت السلع والبضائع والأثاث وكاسيتات أفلام الفيديو وكاسيتات الأغاني (الأشرطة الصوتية) الأصلية لأول مرة في السوق العراقية. كان سوق (الباله) في المدن العراقية، وبخاصة في البصرة والناصرية لأنها كانت الأقرب إلى دولة الكويت، قد امتلأ بكل ما يمكن تصوره من بضائع وسلع من سيارات وأثاث وأجهزة كهربائية[23]، فضلاً عن الأطعمة والأغذية، التي ظل بعضها يملأ رفوف المحال طويلاً[24]. وأضحى المشهد أن دولةً استُبيحت وتمّ بيعها (خردة) على أرصفة المدن العراقية. سرق الجنود العراقيون وأجهزة النظام الأمنية وحتى أناس عاديين كل شيء من الكويت، دورها ودوائرها وجمعياتها وأسواقها ومحلاتها ومعارضها، سرقوا حتى أسخف الأشياء وأقلها ثمناً[25].

لكن موقف فقهاء الشيعة الكبار كان ضد عملية احتلال الكويت؛ فقد أصدر المرجع الراحل المحقق (أبو القاسم الخوئي) فتواه الشهيرة بأن (من صلّى في الكويت عليه أن يقضيها؛ لأنها أرض مغصوبة ولا تصحّ فيها الصلاة وسائر العبادات[26]، كما حرّم بيع وشراء وتداول السلع الكويتية المأخوذة غصباً - نهباً من الكويت -، وقد أصدر باقي مراجع النجف الأشرف كالسيد (السيبزواري) والسيد (السيستاني) والشيخ (البروجردي) والسيد (الغروي) والسيد (بحر العلوم) فتاوى مماثلة[27].

أما على المستوى الشعبي في مدن الوسط والجنوب؛ فكان أغلب الأفراد ضد هذا الغزو، إذ عرفوا أن هذا الفعل سيقود إلى حرب جديدة وهم الخارجون تواً من أتون حرب طويلة الأمد مع إيران أكلت الأخضر واليابس من أحلامهم، كما أنهم نظروا لمن يتعامل بالأشياء والبضائع الكويتية المسروقة، ولاسيما أولئك المنخرطون في تنظيمات البعث والأجهزة الأمنية للنظام، بنظرة مَقت وسخط، فكثير من العراقيين لم يشترِ بضاعة كويتية، ولم يُدخلها بيته استجابةً لفتاوى الفقهاء الشيعة الكبار، وتجنباً للحرام، مثلما أن المبادئ الأخلاقية لعراقيين كثيرين منعتهم من اقتناء السلع الكويتية. لكنهم جميعاً، وهذه هي المفارقة، سيدفعون ثمن تلك الممتلكات حصاراً وجوعاً على كل المستويات ولسنوات طويلة.

الحرب بصورتها الصادمة

شكّلت حرب الخليج الثانية ملفاً صادماً آخر؛ فالحربُ، أيّ حرب، لاشك أنها تُهلك الحرث والنسل، لكن هناك فرقٌ كبير بين حرب تقع بين الجيوش على الحدود، وأخرى يغزو أو يتمكّن فيها جيش من احتلال كل بقعة أرض

في بلد الجيش الآخر، حينذاك لا تكون الحرب بين جيش وآخر، بل بين جيش مدجّج بأحدث الأسلحة وبين مجتمع خائف.فعلى الرغم من أن حرب الخليج الأولى (الحرب العراقية الإيرانية) استمرت لسنوات ثمان طويلة؛ لكنها كانت حرباً على الحدود، أو لأكُنْ أكثر تحديداً وأقول إنها مسّت أولئك الجنود من (ولد الخايبة) الذين كانوا على الحدود. ثم كانت بعض المدن العراقية الحدودية قد تكون اكتوَت بنيران تلك الحرب في بعض سنواتها، كما هو الحال مع البصرة حمّالة الهمّ العراقي، أو أطراف محافظة الكوت، أو بعض قصبات محافظة ديالى، وقد قُصفت بغداد مرّات عدّة بصواريخ بعيدة المدى. غير ذلك، لم تَعنِ الحرب للمواطن المدني سوى نتائجها المتمثلة بأخبار المعارك وتوابيت القتلى ولافتات العزاء. لكن الحال تغيّر مع حرب الخليج الثانية؛ فكما تُدين تُدان، وغزو دولة ومجتمع آمنَين مثل الكويت كان إشارة لما سيحدث في العراق بعد ثلاثة عشر عاماً من ذلك التاريخ، فالحرب (تحرير الكويت) حُدّد لها موعد تندلع فيه ما لم ينسحب الدكتاتور وجيشُه عن احتلاله الفجّ لدولة الكويت، وهو ما لم يقبل به الدكتاتور حتى الليلة التي سبقت موعد اندلاع الحرب.

ففي الساعات الأولى من صباح يوم الخميس 17 كانون الثاني/ يناير 1991، بدأ قصف التحالف الواسع لمعظم المدن العراقية[28]، حيث باشرت قوات التحالف حملة قصف جوي متواصل ومدمّر شاركت فيه الطائرات الأمريكية والبريطانية والسعودية، فضلاً عن صواريخ (كروز) الباليستية التي أطلقتها السفن الأمريكية، فضربت دوائر ومؤسسات حكومية عدّة كانت من بينها (المقرّات العسكرية والأمنية والحزبية)، فضلاً عن (مراكز الاتصالات) و(محطات الكهرباء) و(ومنشآت تكرير وتوزيع النفط والوقود) و(محطات تصفية المياه وضخّها) وكذلك الكثير من المصانع والمشاريع ومخازن الحبوب ومعامل الخبز، ومصانع الحليب ومخازن المواد التموينية، والأسواق المركزية، التي كانت توفر شيئاً من حاجة البنية التحتية والخدماتية للعراقيين الذين بدأوا بعد أكثر من ستة أشهر على بدء الحصار الاقتصادي يكتوون بناره. لكن بعد يوم واحد من انطلاق حرب الخليج الثانية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية ضد العراق عام 1991، نفّذت بغداد تهديدها بقصف المدن الإسرائيلية، غير أن إسرائيل، وبطلبٍ من الولايات المتحدة، لم تردّ على القصف العراقي.

سُمعَتْ انفجارات القذائف الأميركية وصواريخ (توما هوك كروز) في معظم البيوت العراقية التي اهتزت بفعل تلك الضربات، إذ خرجت أكثر من ألف طلعة جوية خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى من عملية عاصفة الصحراء لضرب أهداف عسكرية عراقية، وذلك على مدى اثنين وأربعين يوماً[29]. إلا أن العاصمة العراقية بغداد كان لها النصيب الأعنف والأشد من القصف؛ فقد استُهدفت المنشآت العسكرية ومراكز الاتصالات ومبنى البرلمان والمطار ووزارة الدفاع ومقرّات وأماكن أخرى عديدة، مما أوقع عدداً كبيراً من الضحايا المدنيين بين سكان العاصمة العراقية. ولم يقتصر الدمار على بغداد؛ بل شمل جميع المدن العراقية الكبرى والأهداف العسكرية كافة، فضلاً عن قوات الجيش العراقي التي كانت تحتل الكويت.

وحتى الملاجئ التي احتمى فيها المواطنون لم تكن ملاذاً آمناً لهم أمام القصف الصاروخي البري والجوي والبحري المركّز لقوى التحالف؛ ففي يوم الثالث عشر من شباط/ فبراير 1991 وقع حادث قصف ملجأ العامرية في بغداد، الذي شكّك بروايات التحالف الدولي عن الحرب النظيفة والأسلحة الدقيقة التي تصيب أهدافها بدقة وتقلل إلى حدٍّ كبير من الخسائر المدنية، لكن ملجأ العامرية أظهر الكُلَف البشرية لعمليات عاصفة الصحراء[30]، فقد أدّى الانفجار الثاني إلى مقتل وتفحّم (408) أشخاص، بينهم (261) امرأة، و(52) طفلاً، أصغرهم لم يتجاوز عمره (7) أيام، بحسب الإحصاءات الرسمية العراقية[31].

وفي الثالث والعشرين من كانون الثاني/ يناير 1991، بدأ الجيش العراقي بعملية صبّ ما يقارب مليون طن من النفط الخام في مياه الخليج العربي فقط لتكوين بقعة زيتية مميتة للحياة في البيئة البحرية في الخليج، كما عمل على إحراق آبار النفط في الكويت لتكوين دخان كثيف يعرقل عمليات القصف الجوي، وقد غطّت سحب الدخان محافظات الجنوب والوسط جرّاء تلك الحرائق.

أجبرت قوات التحالف الدكتاتور المقبور على أن يصدر بياناً مصوّراً بالانسحاب من الكويت، ولم يرضوا بأن يعلن هذا الانسحاب وزير الدفاع أو قائد الأركان العراقيَّين[32]، وسيتم ضرب الجنود العراقيين المنسحبين في الطريق الدولي الرابط بين الكويت والعراق في واحدة من أكبر جرائم الحرب بحق الجيش العراقي، على الطريق السريع رقم (80)، على بعد حوالي (32) كيلومترا غرب مدينة الكويت. ففي ليلة السادس والعشرين من شهر شباط/ فبراير من سنة 1991، كان عشرات الآلاف من الجنود العراقيين، وبعض المدنيين، ينسحبون باتجاه العراق، بعد أن تم الإعلان عن وقف إطلاق النار، عندما أعطى الرئيس الأمريكي (جورج بوش) الأوامر لجيشه بإبادة الجيش العراقي المنسحب. قامت الطائرات المقاتلة التابعة لقوات التحالف آنذاك بالتحليق فوق قوافل الجيش العراقي المنسحب، ثم قامت بتفجير الآليات والعربات التي تقدّمت القافلة، والتي كانت في المؤخرة لغلق الطريق ومنع أي شخص كان من الفرار، ثم قامت، ولساعات عديدة دون انقطاع، بقصف القوافل بمختلف أنواع القنابل، فكان الأمر أشبه بأمواج تليها أمواج من القنابل.

أسفرت هذه المجزرة عند انتهائها عن تدمير ما يقرب من ألفَي عربة عراقية، وخلّفت ما يقرب من عشرة آلاف جثة محروقة ومبتورة الأطراف مُلقاةً على أطراف الطريق على امتداد عشرات الكيلومترات،فيما أصبح يُعرف بـ(طريق الموت)[33]. وبعضٌ من تركيز الباحث على هذه القضية، أي مجزرة (طريق الموت) كان بفعل الخسائر الكبيرة في الأرواح التي أنتجتها هذه المجزرة، كما أن أهمية هذه الحادثة في أنها ستكون المحرّك المباشر للانتفاضة الشعبية (الشعبانية) التي حدثت بعد ذلك بأيام.

انتهت الحرب بتلك العملية بعد إيقاف إطلاق النار، لكن الطائرات الأميركية ظلّت تمارس طلعاتها اليومية في الأجواء العراقية، من الشمال إلى الجنوب، كما أن عمليات قصف للعراق حصلت لمرات متتالية بعد ذلك، منها قصف العراق في ليلة (26 يونيو 1993) بأمر من الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) كرد انتقامي وتحذير بعد اتهام عملاء المخابرات العراقية بمحاولة اغتيال الرئيس الأمريكي السابق (جورج بوش) الأب خلال زيارته للكويت (14–16 نيسان/ أبريل 1993)[34]، وكانت من نتائج عمليات القصف تلك مقتل الفنانة (ليلى العطار) التي أشاع الإعلام الرسمي التابع للنظام المقبور أنها كانت قد رسمَت صورة للرئيس (بوش) على أرض مدخل فندق الرشيد، فكان الداخلون يدوسون الصورة بأقدامهم، وأن الأميركيين قتلوها انتقاماً، لكن الرواية الأكثر دقة هي أن الفنانة وزوجها قُتلا بالصدفة لأن بيتهما كان خلف مبنى المخابرات العامة في المنصور[35].

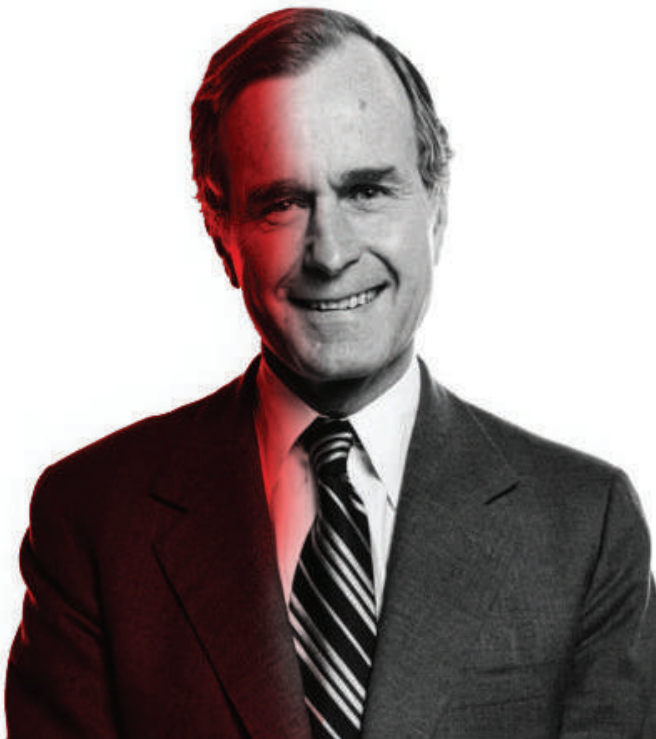

في ليلة السادس والعشرين من شهر شباط/ فبراير من سنة 1991، كان عشرات الآلاف من الجنود العراقيين، وبعض المدنيين، ينسحبون باتجاه العراق، بعد أن تم الإعلان عن وقف إطلاق النار، عندما أعطى الرئيس الأمريكي (جورج بوش) الأوامر لجيشه بإبادة الجيش العراقي المنسحب.

نهاية الحرب.. العراق لم يعد واحداً

منذ انتهاء حرب الخليج الثانية التي أطلق عليها الأمريكان: (عاصفة الصحراء) ودعاها (صدام حسين): (أم المعارك)، أُدخل العراق فيما سُمّي بـ(نفق الحصار المظلم)؛ فبعد الهزيمة المدوّية التي كشفت عن الاختلال الكبير في موازين القوى بين قوات التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة وبريطانيا (وأكثر من ثماني وثلاثين دولة أخرى أرسلت قوات لتشارك في تلك الحرب)[36]، وبين القوات المسلحة العراقية، وخروج الأخيرة بخسائر كبيرة على جميع المستويات، (ما يقرب من مئة ألف قتيل، وثمانين ألف أسير، وخمسة وسبعين ألف جريح)[37]، كما تُظهر ذلك بعض الإحصائيات. وفقَد النظام الدكتاتوري كثيراً من سيطرته على محافظات إقليم كردستان؛ إذ صادق الاتحاد الأوروبي في الثامن من نيسان/ أبريل عام 1991 على خطة لإنشاء ملاذٍ آمن تابع للأمم المتحدة في العراق من أجل حماية الأكراد، فضلاً عن تحديد منطقة محظورة على الطائرات العراقية في شمال العراق وجنوبه في أغسطس عام 1992.

هكذا تفكّك العراق وانسلخت كردستان العراق عن بقية أجزائه وأصبحت شبه دولة مستقلة، بعد أن مُنع النظام الدكتاتوري من التحليق بطائراته الحربية بحدود عرض معروفة على منطقتين في الشمال والجنوب، ومُنع الطيران العراقي من التحليق، وبقي الطيران الأميركي والبريطاني وحدَهما يجوبان سماء العراق ويهاجمان مواقع الصواريخ والمدفعية المضادة للجو، التي كان يجري نقلها من مكان لمكان يوماً إثر يوم طوال النصف الأول من عقد التسعينيات، بعد أن حاولت قيادة الدفاع الجوي العراقية التمويه عليها، فلم تُفلحْ.

كل ذلك (احتلال الكويت والهزيمة في الحرب والانسحاب المخزي وما تبع ذلك) قد أدّى في آذار/ مارس 1991 إلى اندلاع انتفاضة واسعة في المحافظات الجنوبية والشمالية للبلاد، إلا أن القمع الواسع لها من قبل قوات النظام أدّى إلى إجهاضها. ومع أن النظام الدكتاتوري خرج مهزوماً شرّ هزيمة من معركة الكويت، إلا أن قوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية سمحت له باستخدام الطائرات المروحية، التي استخدمها بفاعلية هي وما تبقّى من قوات الحرس الجمهوري لقمع انتفاضة المدنيين في الجنوب والشمال ضد نظامه.

انتفاضة آذار/ مارس 1991.. إجو.. إجو[38]

شهد عام 1991 واحدةً من أكثر عمليات القمع وحشيةً شملت معظم المدن العراقية، وتحديداً المدن الشيعية والكردية، وأدّت إلى مقتل عشرات الآلاف من معارضي النظام، فضلاً عن امتلاء المعتقَلات حينها بآلاف المعارضين، وعشرات المقابر الجماعية التي تم الكشف عنها بعد احتلال العراق وإسقاط الدكتاتور في نيسان/ أبريل 2003.

لكن ذلك الحدث الجلل لم يوفَّ حقه من قبل المهتمين بهذه المرحلة؛ فالكتابات عن الانتفاضة محدودة، أو إنها لم تَرَ النور لغاية الآن، وظلّت مجرد أفكار في أذهان أصحابها، وهي بذلك شأنها شأن المرحلة التي ستليها من سنوات الحصار المفجعة، لم توثّق. وأقول (حدث جلل)؛ لأنها ستشكّل أول محاولةٍ وطنية[39] قام بها العراقيون في أكثر من اثنتي عشر محافظة، وذلك لكسر حاجز الخوف المرعب الذي بناه نظام البعث الدكتاتوري لثلاثة وعشرين عاماً.

إن قصة الانتفاضة وما رافقها من أحداث تحتاج إلى مجلدات لا تتسع لها هذه العُجالة، والقصد أن مُناقشة تلك القضية برؤيةٍ موضوعية تتطلب الكثير من البحث والتدقيق، لذا لابدّ أن نجيب عن مجموعة تساؤلات تخص هذه القضية: لماذا حصلت الانتفاضة كإحدى الصفحات المنسيّة في تاريخ الحصار الدولي على العراق؟ وكيف بدأت لحظاتها الأولى؟ وكيف انتشرت كالنار في الهشيم بين مدن وأقضية الوسط والجنوب؟ وأخيراً، كيف انتهت؟

لاشك أن عوامل عدّة كانت وراء حدوث انتفاضة 1991، منها ما هو متصل بحرب تحرير الكويت من براثن الغزو الصدامي، وما تعرّض له الجيش العراقي من هزيمة وإذلال، وما قدّمه من خسائر إثر انسحابه في طريق الموت، وهروب الضباط الكبار الموالين للنظام المقبور باتجاه العراق، ونجاتهم بأرواحهم وترك جنودهم عُرضةً للموت تحت رحمة الطائرات الحربية التي قامت بقتل

عوامل عدّة كانت وراء حدوث انتفاضة 1991، منها ما هو متصل بحرب تحرير الكويت من براثن الغزو الصدامي، وما تعرّض له الجيش العراقي من هزيمة وإذلال

الآلاف منهم في الطريق الرابط بين البصرة والكويت، الأمر الذي خلق حالة من الغليان والتوتر والغضب والنقمة بين الناس من جرّاء فداحة الخسائر المادية والبشرية التي لحقت بالعراق.

لكن من عوامل الانتفاضة ما هو متصل بطبيعة وممارسات النظام الدكتاتوري للبعث طوال سنين حكمه، التي اتسمت بتبنّي سياسات طائفية (تجاه الغالبية من الشيعة) وعنصرية (تجاه المكون الكردي)، مستأثراً بمقدّرات الدولة تحت سيطرة أقلّية حزبية ومذهبية وعشائرية حاكمة، أدخلت البلد بحروب عبثية عديدة كان أولها حرب الخليج الأولى مع إيران التي استمرت ثماني سنوات، ثم أعقبها بعد أقل من عامين احتلال الكويت وخوض حرب الخليج الثانية، اللتان كلّفتا العراق مقتل مئات الآلاف من الشباب الأبرياء، فضلاً عن الأسرى والجرحى والمفقودين، وتدمير البنية التحتية للبلد وتلاشي مقدّراته الاقتصادية.

أما كيف بدأت الانتفاضة؛ فيقال (والعهدة على القائل) إن ضابطاً (أو نائب ضابط) يقود دبابة وصلت بما يشبه الأعجوبة عبر طريق الموت الممتد من الكويت إلى البصرة، وتحديداً في ساحه سعد (وسط مدينة البصرة)، أطلق قذيفة باتجاه إحدى الجداريات التي تحمل صورة الدكتاتور المقبور والتي كانت تملأ الشوارع، فكانت تلك إشارة البدء لانتفاضة عارمة قام بها شباب من محافظات الجنوب والوسط ضد سلطة الدكتاتور وأزلامه، وتكاد المصادر المختلفة التي اطّلع عليها الباحث تُجمع على هذه الرواية[40].

بعدها استولى الشباب المنتفضون على مراكز الشرطة، والمقرات الحزبية في البصرة، ثم بعدها انضم إليهم آلاف السكان (الثائرين)، فتوسع الشباب في انتفاضتهم، واستولوا على أسلحة بعض معسكرات الجيش ووضعوا أيديهم على ما كان في مستودعاتها من مواد تموينية، واستغلّ الفوضى ضعاف النفوس لنهب الدوائر والممتلكات العامة.

وصلت إشارات هذه الانتفاضة إلى معظم محافظات جنوب ووسط العراق في بداية شهر آذار/ مارس 1991، وسأحاول التركيز على مظاهر الانتفاضة في مدينة الديوانية التي عاش الباحث تفاصيلها، والتي بدأت فيها الانتفاضة من أطراف المدينة واتجهت بعد ذلك نحو مركزها، وذلك في يوم السابع من آذار/ مارس 1991، واستمرت لمدة أسبوعين تحديداً؛ إذ مع يومها الرابع عشر بدأت قوات الحرس الجمهوري حملة قصف مكثف بالصواريخ والمدافع الثقيلة على أماكن تجمّع الثوار في المدينة، لكن لنعُد إلى ما حدث في الديوانية منذ البدء.

لقد بدأ كل شيء تقريبا في يوم الأحد الثالث من آذار/ مارس 1991، وفي ظل انقطاع تام للتيار الكهربائي

توقع المنتفضون بمساعدة الولايات المتحدة في توفّر الحماية من الدكتاتور لكن توقعاتهم خابت بعدما أصدر (جورج بوش) الأب قراره بعدم دخول بغداد

والبـث الإذاعي والتلفزيوني، فعـاد التواصل بين الناس ومعهم، عبر وسـيلتين من عقود السـتينيات في القرن الماضي، هما نشرات الأخبار الإذاعية في بضع محطات أو إذاعات دولية تتسـم بالمصداقية وأهمها إذاعة (بي بي سـي)[41]، وإذاعتـي (مونت كارلو) و(صـوت أميركا)، التـي نقلت عن مصـادر موثوقة أنّ ما دعـا إليه الرئيس الأميركـي مـن الثورة علـى الدكتاتور[42] قـد تحقق في مدينة البصرة ومدن أخرى في الجنوب العراقي.

أما السـبيل الثاني للتواصل؛ فكان سـيل الشائعات التي تنتشـر بين الناس بسـرعة، وكانت واحدة من أخطر تلك الإشـاعات أن الثوار الإسـلاميين الشـيعة قد سـيطروا علـى مـدن البصرة والناصريـة والعمارة، وهـم قادمون باتجاه الديوانية خلال اليومين القادمين، وظلّت شـائعة (إجـو.. إجو) تتـردد أصداؤها حتى فـي اجتماعات أعضاء حزب البعث المقبور وأجهزته الأمنية[43].

هكـذا تذكُـر بعـض المصـادر، أن رتليـن مـن السـيارات التـي تحمـل عدداً مـن المنتفضين تقدّمـا باتجاه مدينة الديوانيـة صبـاح يوم الخميس السـابع مـن آذار/ مارس 1991، أحدهمـا مـن قضـاء الحمـزة الشـرقي يقـوده أحد شـيوخ العشـائر الكبيرة، وهو الشـيخ (حسـين علي الشـعلان)[44]، فـي حين وصـل رتلٌ آخر قاده أحد شـباب الانتفاضـة[45] مـن قضاء الشـامية عبر ناحية الشـنّافية، حيث مقـر كتيبة الدبابات المؤقـت لأزلام النظام، وقد سيطر الشـباب المنتفض على الكتيبة وهزموا عناصرها بمسـاعدة الشـرفاء من أبنـاء المدينـة[46]، وتجمّعا في مركـز مدينـة الديوانيـة، مما أسـهم في تحريـر المدينة مـن قبضة سـلطة الدكتاتـور، فهـرب أزلام النظام من منتسـبي جهاز الأمن والمخابرات وحتى البعثيين وأفراد الجيـش الشـعبي إلى مناطـق عشـائرهم أو مناطقهم ومدنهم الأصلية، متنكّرين في معظم الأحيان.

وسـرعان ما هاجـم المنتفضون مراكز الشـرطة العادية فـي مختلف أحيـاء المدينة (كمركز شـرطة الجمهوري، وحي رفعت، والجلبية، والإسكان، وغيرها) التي سلّمت مقراتهـا غالبـاً دون مقاومة تُذكر، بعد هـروب ضباطها ومنتسـبيها، كمـا هاجمـوا مركز شـرطة الإجـرام الذي شـهد بعض المقاومـة من قبل منتسـبيه، وخرج بعض الشباب وهم يعلنون سقوط نظام (صدام حسين)، مما زاد من الهيجان الشـعبي، فتوجّهـت مجاميع كبيرة نحو

الدوائـر الحكوميـة، وبخاصـة مخازن الأسـواق المركزية التي تمتلئ بالبضائع التموينية؛ للاستيلاء على ما فيها. أمـا شـباب الانتفاضة؛ فقد توجّهـوا لمهاجمة مديريات (الاسـتخبارات) و(المخابرات) و(الأمـن) في المحافظة، وقد واجهوا مقاومة من منتسبي تلك الأجهزة، لكنها لم تسـتمر، وعملوا على فتح سجونها وإخراج من كان فيها من السـجناء الأبريـاء، وكان من نتائج هـذه الاقتحامات تحرير مجموعة من الأسـرى الكويتييـن الموجودين في سـجن مديرية الأمن، الذين ظلّ النظام لسنوات طويلة ينكـر وجودهم، فقام المنتفضـون بإيوائهم وإطعامهم ثم توفير الإمكانات لعودتهم إلى بلادهم[47].

وما إن اصبح يوم الثامن من شهر من آذار/ مارس 1991، حتـى كانـت الديوانيـة قـد تحررت من سـيطرة سـلطة البعث الغاشـمة، وعاشـت أجواء الحريـة والانعتاق من الديكتاتوريـة، وجـدار الخوف مـن قمـع الدكتاتورية بدأ بالتهاوي منذ ذلك الحين.

اجتمـع قـادة الانتفاضـة[48] بعد فرض سـيطرتهم على المدينة في مقـر الفرقة الأولى، لكنهم انتقلوا للتجمّع فـي جامع (السـيد عبـاس الزاملـي) الواقع في وسـط المدينـة، ممـا أعطـى انطباعـاً عـن توجّـه الانتفاضـة الإسـلامي، برغـم تنـوع توجهـات قادتهـا، واختـلاف مشـاربهم. وهنـا، ولتطميـن النـاس؛ فقـد دعـت إدارة الانتفاضة في الديوانية وكلاء المواد الغذائية لاستلام الوجبة التموينية الشهرية - التي يطلق عليها العراقيون (الحصـة) - لشـهر آذار/ مـارس، فيما بدأ بعض الشـباب المنتفـض بنصـب نقـاط تفتيش في الشـوارع الرئيسـة للمدينة.

وفي اسـتعراض لأحـد الباحثيـن للمحافظـات العراقية المنتفضة، يشـير إلـى أن الأحداث في تلك المحافظات قـد اقتصـرت علـى المحافظة نفسـها، عـدا محافظة القادسـية (الاسـم الذي أطلقتـه الدولة عليهـا)؛ حيث كان للمنتفضيـن فكـرة التعـاون مع بقيـة المحافظات ضد النظام[49].

لقـد كان المنتفضون يتوقعون أن تسـاعدهم الولايات المتحدة وتوفّر لهم الحماية من الدكتاتور وما تبقّى من جيشـه، وما كان بحوزته مـن دبابات وطائرات ومدفعية ضدهـم، لكن توقعاتهم خابت بعدما أصدر (جورج بوش) الأب قـراره بعـدم دخول بغداد، وبـدا ذلك بوضوح بعد اليـوم الخامس من الانتفاضة، حيث كان نقص الخدمات جليـاً؛ إذ لا يوجد ماء صافٍ للشـرب ولا كهرباء ولا دواء ولا إمدادات[50].

بالمقابل، اندلعت الانتفاضة في كوردستان العراق بعد أيام قليلـة من اندلاعها في محافظـات جنوب العراق، وهي وإن كانت في جانب منها قد تميّزت بعفويتها، لكن اختلافهـا الرئيس عـن الانتفاضة في الجنوب والوسـط هو مسـاهمة أفـواج الدفاع الوطنـي (الجحوش) فيها، حيـث انقلـب عدد كبير منهم على السـلطة وسـاهموا في إشـعال الانتفاضة، كما أن دخول تنظيمات الأحزاب الكرديـة إلى المنطقة الشـمالية سـاهم فـي ديمومة الانتفاضة وفي وصولها إلى مدينة كركوك[51].

أخيراً، وكخلاصة عن الانتفاضة الشـعبية عام 1991 في مـدن الجنوب والوسـط العراقـي، فإنه يمكـن اختزالها بالقول وبشـكل قاطع بأنها قـد اندلعت بصورة عفوية ومن دون تخطيط مسبق، وأن التأثير والاستلهام الذي حصـل إنمـا هـو تأثيـر داخلي محض أسـهم فيـه القمع الوحشـي لنظـام البعـث طوال سـنوات حكمـه، مثلما أسـهمت فيه هزيمـة الكويـت ومجزرة طريـق الموت، أي إن محافظـة تؤثر بمحافظة ومدينة بأخرى ومنطقة بأخرى، وهكذا.

كمـا أن المنتفضيـن تعاملـوا بحسـن نية مع مـن تبقّى مـن أزلام النظـام، فلـم يقومـوا بتمشـيط مناطقهـم ومحلاتهـم مـن بقايـا رموز النظـام البعثـي ومن بعض معاقـل الاسـتخبارات والأمـن الصدامـي والشـرطة المحليـة؛ وذلك لكـون الديوانية، حالهـا كأي مدينة من محافظات الوسـط والجنوب، مجتمع عشـائري، فأزلام النظـام مـن رجال أمـن وأعضاء فـي حزب البعـث، لهم صلاتهـم القرابيـة مع المنتفضيـن، وهذا ما منـع الثوار المنتفضيـن غالبـاً من اسـتئصال شـأفة هـؤلاء، غير أن الرفـاق البعثييـن وأعضـاء الأجهزة الأمنيـة الذين هربوا وأخفَـوا أنفسـهم طـوال مـدة الانتفاضـة، صـاروا اليد الضاربـة لقـوات النظـام الدكتاتوري[52]، وهـذا ما حصل بعد هجوم قوات الحرس الجمهوري على مدنهم.

كمـا أنها (أي الانتفاضة) افتقدت للقيادة الموحدة، ولا أقصد هنا القيادات المحلية، التي أدّى معظم شخوصها

مـا عليهم مـن واجبات فـي مدنهـم ومحافظاتهم، بل أقصـد القيـادة علـى المسـتوى الوطنـي؛ وذلـك لأن النظـام الدكتاتـوري لـم يتـرك مجـالاً لأي شـخصية أو توجّـه سياسـي أن يبرز، فكان افتقاد العـراق لمثل هذه الشـخصيات أو التوجّهـات. ولم يكن هنالك أي تنسـيق أو ارتبـاط أو تبـادل معلومات بين المجاميـع المنتفضة فـي المحافظـات التي سـيطر عليها المنتفضـون، مما أفقد الانتفاضة وحدة العمل المشترك، واتخاذ القرارات المهمـة خلال أيـام الانتفاضـة. ففي مدينـة الديوانية، حتـى الذيـن قاتلوا ودافعـوا ببسـالة وضحّـوا بحياتهم علـى أطراف المدينـة، وتحديداً منطقة نهـر الحفار في اللحظات الأخيرة من الانتفاضة، كان أكثرهم يقاتل دون أن يرتبـط بمسـؤول معيـن أو يتلقّـى الأوامـر من جهة قيادية معروفة، بـل كان الجميع يقاتلون بروح الجماعة لغاية نبيلة، هي الخلاص من قمع دكتاتورية البعث.

ولكـن يبـدو أن الانتفاضات الوطنيـة لا تنجح دون دعمٍ دولي، وربما ثمّة من يعترض على ما نذهب إليه بالقول (إن حـرب الخليـج الثانية كانت ضد النظـام الدكتاتوري)، غيـر أننـا لا نحتـاج إلـى كثيـر مـن النباهـة للقـول إن التحالف الدولي أبقـى على الدكتاتور ونظامه الضعيف والمُسـيطَر عليه، كأحد الحلـول المؤقتة لغاية الوصول إلـى ترتيـب نظـام آخـر لحكم العـراق، وهو ما سـيتضح لاحقـاً، فضلاً عن أن ذلك كان مدعوماً بطلب من بعض دول الإقليم كالأردن والسعودية.

أما كيف انتهت الانتفاضة؛ فتلك قصة أخرى، إذ بدأ ذلك بإرسـال النظام الدكتاتوري لقـوات (الحرس الجمهوري) التي لا تتورع عن ارتكاب أسـوأ الأفعال وأشـد الجرائم، ومـا تبقّى له من جنود من هزيمة الكويت، فملأ أراضي محافظات الوسط والجنوب بالمقابر الجماعية لمدنيين أبريـاء لـم يشـترك معظمهم فـي تلـك الانتفاضة؛ لأن قادة الانتفاضة ومعظم شخوصها الفاعلة كان بعضهم قد استُشـهد وهو يقاتل النظـام، فيما لاذ معظم من بقـي منهـم بالفـرار إلى (رفحـه) في السـعودية أو إلى ايران.

قمعت قـوات الحـرس الجمهوري الانتفاضـة، فحدثت مذابـح علـى يد قـادة النظـام العراقي، وعلى رأسـهم ابـن عـم الرئيس (علي حسـن المجيد) المشـهور بـ(علي كيمـاوي)، الـذي عيّنه (صـدام) وزيـراً للداخليـة وكلّفه بمهمـة قمـع الانتفاضـة، برفقـة وزير الدفاع (سـلطان هاشـم أحمـد) ورئيس هيئـة التصنيع العسـكري وصهر الرئيس (حسـين كامـل المجيد) وشـقيقه (صدام كامل المجيد)، وغيرهم من القادة الموالين، الذين استخدموا كل مـا فـي جعبتهم من أسـلحة كالصواريـخ والمدافع البعيـدة المـدى ليقتلـوا عشـرات الآلاف مـن الأبريـاء ويتمكنوا من إخماد وقمع الانتفاضة[53].

لكـن قـوات الحـرس الجمهـوري التـي دخلـت المدينة ظلّت تفتّش وتبحث عن المنتفضين والسلاح في جميع أحيـاء المدينة، ودخلت بيوت الناس بيتـاً بيتاً للبحث عن أي شـباب لاعتقالهـم، مـع التركيز على تلـك البيوت أو الدور التي اشـترك أبناؤها في الانتفاضة أو كانوا أعضاء فاعليـن فيهـا، وكان يتم تمييز هؤلاء عبـر تقني (المخبر السـري)، وإذا ما تم اعتقـال هؤلاء أو لم يتم اعتقالهم، فتتـم دعـوة النـاس إلـى نهـب هـذه البيـوت ومن ثم هدمها، بل سـيفعل الشيء نفسـه بـ(جامع سيد عباس الزاملـي) فيتـم تفجيـره بالديناميت وتسـويته بالأرض، بعد إسـقاط منارته بقذيفة مدفع!! وهو ما حدث حتى للمراقد المقدسة في النجف وكربلاء.

مـا يثيـر الدهشـة والذهـول هنـا هـو مقـدار القمـع ووحشـيّته التي لم يمارسـها حتى النظـام النازي، فمن إعدامـات جماعيـة دون محاكمـة، إلـى عمليـات دفـن جماعي لأبرياء من الرجال والنسـاء والأطفال، إلى وضع رؤوس المعتقلين بماسـكة القطـع الحديدية (المنغنة) ثـم عصرهـا حتى ينفجـر الـرأس، أو إجبارهم على شـرب الوقـود وإطـلاق الرصاص عليهـم لتفجيرهـم، أو وضع الديناميـت في رقابهم ثم تفجيرها ... وغيرها من جرائم وحشية مما يندى له جبين الإنسانية.

وقد ضمّت المقابر الجماعية، التي انتشـرت فيما يقرب مـن أربعين موقعاً، آلاف الجثث لرجال ونسـاء من أعمار مختلفـة ومـن مشـارب عـدّة، بـل ضمّـت تلـك المقابر أطفالاً وحتّـى رضّعاً، مثلما ضمّـت معتقلات الرضوانية عشـرات الآلاف أيضـاً[54]. وكان (صـدام كامـل)، صهـر الرئيـس ومرافقـه، يمـارس هوايتـه المحببـة فـي هذا المعتقل بالتدرب على إطلاق النار على أهداف حية من المعتقلين.

بإثر ذلك، نزح عشرات الآلاف من الشيعة وأضعافهم من الأكراد من مدنهم، وبخاصة الحدودية منها، إلى دول الجوار، وبخاصة إيران وتركيا، فيما فضّل بعضهم، وبخاصة مَن اشترك في الانتفاضة، النزوح إلى معسكر (رفحة) في السعودية[55].

وكان حكّام البعث الذين استهدفت الانتفاضة إسقاطهم قد أطلقوا عليها في الأشهر الأولى التي تلت إخمادها تسمية (الغوغاء)، ومن قام بها هم (الغوغائيون)، لكن يبدو أنهم أدركوا أن هذه التسمية لا تتضمن إساءة ضدّها؛ فـ(الغوغاء) لم تعد كذلك بعد ذلك لقاء الدكتاتور بالمرجع (الخوئي) الذي جيء به بالقوة إلى بغداد، وتغيّرت التسمية لتصبح (صفحة الغدر والخيانة)[56].

ودُبجت مقالات عدّة تم نشرها في صحيفة البعث الرسمية (الثورة) بعد قمع الانتفاضة الشعبانية عام 1991، ويقال إن كاتبها هو (صدام) نفسه، وصَفت هذه المقالات مَن قاموا بالانتفاضة بأنهم (أقوام من الغجر) يربّون (الجاموس)، وكانوا قد قدِموا من (الهند)! وستعود المدن العراقية في ظرف أسابيع تحت القبضة البشعة لنظام (صدام)، باستثناء مدن كردستان التي ستنال حكماً ذاتياً تحت مظلة أممية.

عودة سلطة الدكتاتور .. تجارة السلاح

بعد أن بسط النظام الدكتاتوري سيطرته على مدن الوسط والجنوب، أعلن وبشكل فاجأ الكثير من العراقيين أنه مستعد لشراء الأسلحة من الناس، وحدّد في الإعلان أسعار قطع السلاح[57]، كما يتذكر من عاش تلك الأيام، وبخاصة في ظل انتشار السلاح بأعقاب ما حصل في الانتفاضة من نهب واستيلاء الأهالي على السلاح الموجود في مراكز الشرطة ومعسكرات الجيش.

وقد حُدّدت أماكن لتجميع تلك الأسلحة في المدن وأمام المباني الحكومية كما جاء في الإعلان، وذلك في خطوة (ذات أبعاد عدّة)، وبدَت موفقة إلى حدّ كبير فيما بعد، فمن ضمن أغراضها كان سيطرة الدولة على السلاح، وبخاصة بعد أن رأى فعل ذلك السلاح في أيام الانتفاضة التي كانت مسلّحةً غالباً، كما تجلّى غرض آخر بإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أسلحة الجيش العراقي التي تركها من تبقّى من جنوده عند انسحابهم أو هروبهم، فطريق الموت (أو طريق الانسحاب من الكويت) الذي كان يمتلئ بالسلاح الذي لم تعد طائرات قوات التحالف تسمح للقوات العراقية المسلّحة بالاقتراب منه، فتفتّق ذهن أزلام الدكتاتور ومستشاريه

عـن هذه الحيلة لاسـتعادة (خردته)، التـي قدّمت خزيناً جيداً من الأسـلحة الخفيفة والمتوسطة عمل (التصنيع العسـكري) على الاسـتفادة منها مـرة أخرى، لكن ذلك لم يمضِ دون حوادث؛ إذ انفجر كدس أسـلحة كبير أمام المقرّ الحكومي لمحافظة السماوة مخلّفاً خسائر كبيرة، وهذا حادث آخر من تلك الحوادث التي لم تدوّن.

بعد بضعة أسـابيع، سيصبح هناك تجّار متخصصون لهذا النوع من التجارة (تجارة السلاح) التي كانت رسمية هذه المـرة، رغم أنها محفوفـة بالمخاطر من الجانبين (قوات التحالـف والحكومـة العراقية)، ولم تكـد تمضي بضعة أشـهر حتـى أصبحـت ثـروات هـؤلاء التجّار كبيـرة بفعل تلك التجارة وبعلم السـلطات العراقية وبموافقة منها، جرّاء تلك العمليات التي يقومون بها بجلب السـلاح من أرض المعركـة في الكويت، فظهرت فئة (تجّار السـلاح) كأغنيـاء جُـدد فـي مجتمـع يعيش سـنته الثانيـة تحت الحصار الاقتصادي المَقيت.

انتعاش الزراعة

متعكـزةً علـى ما تطبعـه من عملـة ورقية منهـارة (لا تحمـل قيمة خـارج حدود البلد أكثر مـن ورقها وحبرها)، أجزلـت الدولـةُ العطاء للفلّاحين بعد رفع أسـعار شـراء منتوجاتهـم من الحبـوب والرز، فصـار الفلّاحون يمثلون فئـة غنيّـة جديدة، وقـد حذرَتهم بعقوبات قاسـية في حالة عدم زراعة الأرض، أو عدم زراعتها بشـكل كامل، أو ما إلى ذلك، حيث يغرّم الفلّاح هذا المنتوج بشـرائه من السوق وتسويقه إلى مديريات وزارة الزراعة.

وربمـا لأول مرة في تاريخ الدولة العراقية تزدهر الزراعة وتُدعم من قبل الدولة والمؤسسـات الرسـمية، لتصبح فئـة الفلاحين والمزارعين مـن الفئات المرفّهة في ظل حصـار ضرب بأطنابـه معظم الطبقة الوسـطى، وهكذا سيصبح التريّف سمة تضاف إلى خراب المجتمع المتمثل بتراجع الخدمات على كل المسـتويات، فتشـهد نوادي السـهر الليلية مُحدَثي النعمة مـن المزارعين والفلّاحين وهم يصرفـون أموالهم الطائلة علـى الراقصات وبنات الليل، بينما يعيش ملايين العراقيين في ضنك شديد.

هنا سـتبرز سـلوكيات اجتماعية جديـدة؛ فكثير من أهل المـدن مـن ذوي الأصـول الريفيـة تذكّـروا مـع صدمة الحصار أصولهم تلك، وصاروا يزورون أقاربهم هناك في الريـف لكي يحصلـوا على كيس من الحنطة أو الشـعير يسدّون به رمق الحصار، لكن بعض العوائل التي سكنت المدينـة عادت إلـى الريف في عملية هجرةٍ معاكسـة؛ وذلك لكي تدبّر أمورها المعيشية.

أراد (صدام) من خلال الحملة الإيمانية ضرب الإسلام السياسي الشيعي الذي كان قوياً جداً بفعل وجود ايران، وسحب البساط من تحت أقدامه

كمـا أن كل إمكانـات الحواضر ستُسـخّر اجتماعيـاً لراحة الفـلاح صاحـب الثروة المتجـددة كل موسـم حصاد[58]، وسـتنتقل (مضايـف الشـيوخ) التـي كان مكانها نواحي الريـف العراقي في الوسـط والجنوب، إلى وسـط تلك المحافظـات، لتنضـمّ إلى نمـوذج البناء المشـوّه الذي سيسود تلك السنوات (نموذج الدبل فوليوم).

بل إن سنوات الحصار شهدت عودة لافتة لكبار السن من الرجال والنسـاء في مدن الوسط والجنوب العراقي إلى ما كان يلبسه آباؤهم وأمهاتهم، وقد يكون بعضهم قد قضى حياته (أفندياً) يرتدي البدلة المكونة من الجاكيت والبنطلـون عنـد خروجـه، والبيجاما في البيـت، فتراجع في سنوات التسعينيات ليرتدي الزي التقليدي المتمثل بالدشداشـة واليشـماغ والعقال والعباءة العربية، ومن كانـت سـفوراً عـادت لترتـدي حجاباً (شـالاً أو شـيلة أو عصابة جنوبية)، لتشـهد التسعينيات تراجعاً واضحاً لقيم التمدن التي كانت سائدة قبل الحصار.

وإذا ما كان تأثير الحملة الإيمانية، أو حتى صعوبة شـراء صبغ الشـعر، يشـكّلان تفسـيراً واضحاً في حالة النساء، فما الذي يفسّـر تراجع قيم التحضّر في الملبس بشـكلٍ واسـع عنـد الرجال غير هـذا التقدير الاجتماعـي للفلّاح والريف والبداوة؟ في لحظةٍ فارقة تذكّر بمقولة شيخنا

الدكتـور (علـي الـوردي) عن صـراع القيـم بيـن البداوة والحضـارة، وربمّا يعود هذا الصـراع إلى أن الحضارة في العراق لم تستمر بفعل سنوات الحصار، فانقطعت، مما أتاح المجال لتهجم البداوة بأقبح أشكالها.

غيـر أن انتعـاش الزراعـة مثّـل نقطـةً مضيئـة فـي تلك السـنوات؛ فـإذا كان هنـاك مـا يُحسـب مـن حسـنات لفتـرة الحصار الاقتصادي علـى العراق فإن واحدة منها الانتعـاش الحقيقـي للزراعة. مثلما أن مـن عاش أعوام الحصار الجائر على العراق، ويسير في شوارع مدننا اليوم، ربما يتحسّر على النظافة التي تفتقد إليها الشوارع راهناً بفعل التبذير المفرط في كل شـيء (الطعام والشـراب، والأثـاث، وعلب الملابس الجديدة التي تملأ الأسـواق، ومسـتلزمات ومعدّات البناء والإنشـاءات، والسـيارات، والأدوات المتبقيـة مـن تصليـح السـيارات ... وغيرهـا الكثير، في حين كان لكل شيء في سنوات الحصار حاجة يُنتفـع بها منه، فلا تُرمى حتى علـب الكرتون الكبيرة أو تلـك التي يوضـع فيها البيـض (السـيتات) أو بقايا الخبز اليابسة.

الحملة الإيمانية

كانـت الإشـارة الأولـى لتغيّر مـا يدور فـي رأس النظام وتبنّيه أيديولوجيا ذات توجّه غيبي هو توقيعه للخطابات بلقـب (عبد الله المؤمن)، ثم كان تعديل العلم العراقي الذي أضاف إليه (صدام) عبارة (الله أكبر) بخط يده. لكن مـا جرى من أحـداث بعد حـرب الخليج الثانيـة، ووصول العراق الى أسوأ فتراته تحت حكم النظام الدكتاتوري[59]، جعـل النظـام يطبّق ولو على مراحل مـا دعاه بـ(الحملة الإيمانيـة) التـي تزامنـت مع سـنوات الحصار وشـظف العيش الذي كان يعيشه العراقيون.

أراد (صـدام) مـن خلال الحملة الإيمانية ضرب الإسـلام السياسـي الشـيعي الـذي كان قويـاً جداً بفعـل وجود ايـران، وسـحب البسـاط من تحـت أقدامـه، وأن يتولى هو (أي صدام) بنفسـه زعامة الصف السياسـي الديني (السُـني المعتدل) بمقابل تلك الوهابية المتطرفة التي تصدّرها السعودية للعالم الإسلامي.

لقـد اشـتملت حملـة (صـدام) الإيمانيـة الجديـدة في العـراق على التوجيه بزيادة جرعـة دروس التربية الدينية فـي المـدارس، وأصبحـت دراسـة القـرآن إلزاميـة فـي المـدارس كافةً، كمـا تم وضع قائمة عقوبات شـديدة القسـوة تتضمن سـمةً إسـلامية، كقطع يـد اللصوص فـي أماكنٍ مخصصة لذلك[60]، وإلقاء المثليّين من فوق أسـطح البيوت[61]، وقد تضمّنت الحملـة إغلاق البارات والملاهـي الليليـة. كمـا أنشـأ النظـام (جامعـة صدام للعلـوم الإسـلامية)، وجعـل لهـا فروعـاً فـي مناطـق مختلفـة لتدريـب كافـة رجـال الدين، وخُصِّصـت محطة إذاعية لبثّ تلاوات القرآن لمدة (16) ساعة يومياً[62].

وعلى الفور، بدأت ملامح تلك الحملة في الظهور علناً؛ تحجّبـت زوجـات وبنـات العديد مـن قادة حـزب البعث، كمـا جرى تصميم حجاب خاص للنسـاء المتطوعات في قوة (جيش القدس)، التي جرى تدشـينها لاحقاً لتدريب الفلسـطينيين على الأعمال العسـكرية، لكنها اعتمدت علـى إجبار العراقييـن على التطوع فيهـا لتحرير القدس بقيادة القائد الضرورة !!

قرّرت الدولة أيضاً تخفيف عقوبة أي سجين بحفظ أجزاء مـن القـرآن، وربما الإفـراج عنه تمامـاً إذا حفـظ القرآن كامـلا، معتبرة أن حفظ هـذا المقدار الكبيـر من الآيات سيكون بمثابة توبة مقبولة. وجرى تنظيم دورات دينية مكثفـة لأعضـاء حزب البعث ثم لعمـوم الطلاب، وأُلزم شـباب حزب البعـث بحضور الدروس الدينيـة التي كانت تقام في الجوامع[63].

وصدرت توجيهات بإعفاء كل شـخص يبني مسـجداً من الضرائـب، بـل تمنحه الدولة مواد البناء بنصف سـعرها، كمـا قـرّر (صـدام) بناء مسـجد كبيـر فـي كل محافظة سـنوياً، منهـا مسـجد (أم المعارك)، وهو الاسـم الذي منحـه (صـدام) لمعركته مع قـوات التحالف خلال حرب الخليـج الثانية في بغداد، و(مسـجد الرحمن)، الذي كان مُخطَطـاً له أن يكـون أكبر جامع في العالم الإسـلامي ويتّسـع لمليـون مصـلٍ، لكن أعمـال بنائه لم تُسـتكمل بسبب سقوط النظام في 2003[64].

لكن الحملـة الإيمانية جعلت الأمور تنقلب على النظام الدكتاتوري؛ إذ صار الإسلام السياسي السنّي (الوهابي) والإسـلام السياسي الشـيعي (الصدري) أكثر قوة في العراق، وأصبح الشـارع العراقي الميّال إلى الحداثة في الستينيات شارعاً دينياً متطرفاً في التسعينيات.

التفّ حول السيد (محمد محمد صادق الصدر) الأتباع من أبناء الوسط والجنوب رويداً رويداً، ليكوّنوا حركة هي الأكثر تأثيراً في المشهد السياسي لسنوات الحصار.

ففي منتصف التسعينيات انتشرت شعائر دينية كصلاة الجمعة وزيارة المراقد المقدسة بشكل واسع، وشاع إطلاق اللحية وارتداء الدشداشة القصيرة بين الشباب، وشاع استخدام المسواك في تنظيف الأسنان، وانتشرت أشرطة الكاسيت التي تحرّم الغناء وحفلات الأعراس والاحتفالات الشعبية[65].

ها هنا سيظهر السيد (محمد محمد صادق الصدر) - والد السيد مقتدى الصدر - بإذن من النظام وموافقته في البدء، ليقدّم أنموذجاً لرجل الدين الشيعي (العربي هذه المرة) القريب من الواقع[66]، والذي يصدر أحكاماً وفتاوى حول مسائل الحياة اليومية التي يواجهها العراقيون الشيعة المتدينون في سنوات الحصار[67]، وسيلتفُّ حوله الأتباع من أبناء الوسط والجنوب رويداً رويداً، ليكوّنوا حركة هي الأكثر تأثيراً في المشهد السياسي لسنوات الحصار.

أما الاجتماعات الأسبوعية التي سينظّمها السيد (الصدر)، أو صلاة الجمعة التي تُرفع فيها شعارات سياسية واضحة بالضد من الولايات الأميركية (كلا.. كلا.. أمريكا) و(كلا .. كلا إسرائيل)؛ فإن النظام سيشّجعها في البدء، ويسمح بترديدها[68]، لكن مع استمرار الاجتماعات وزيادة أعداد المصلّين في جامع الكوفة وباقي المحافظات، وترديد شعارات وعبارات أخرى، (نُريد.. نُريد.. نُريد..) حول حرية المواكب الحسينية وإطلاق سراح أئمة الجمعة من وكلائه في المحافظات، ستثير حنق النظام وغضبه، فيستشعر قوة السيد (الصدر) وحجم أتباعه الكبير، فيُقدم على اغتياله هو وولديه بعد عودته من الصلاة في يوم 19/ 02/ 1999[69].

الحصار الدولي والدكتاتورية.. تدمير المجتمع

في مقطع شهير من قصيدته الموسومة بـ(عبديئيل)، يخبرنا الشاعر الحلّي الكبير (موفق محمد) عن حياة مدرّس عراقي في زمن الحصار، فيقول:

ماذا يصنع عبد يئيل
في راتبه اللا يكفي يوماً
باع أثاث الدار..
كليتَه اليسرى
باع الدار..
ومدّد جثته في حاوية الأزبال
ويحلم في قبر أوسع
يحلم في قانون الدفن على البلديات[70]

في أثناء لقائه المطول بـ(طارق عزيز) وزير الخارجية العراقي، أشار (جيمس بيكر) وزير الخارجية الأميركي أنكم (إذا لم تنسحبوا من الكويت فإن قوات التحالف ستوجّه لكم ضربات مروعة ستعيدكم إلى عصر ما قبل الصناعة!!) فأجابه (طارق عزيز) بأن (العراق بلد ذو حضارة عمرها أكثر من ثلاثة آلاف عام). ويبدو أن مقولة الوزير الأمريكي تحققت منذ الأيام الأولى للحرب[71].

سياسياً، استطاع العراقيون وبتوجيه مباشر من (صدام) وبجهود منتسبي التصنيع العسكري وحوافزهم المالية العالية، وبعد الدمار الكبير الذي أصاب بناه التحتية في حرب الخليج عام 1991، استطاعوا إعادة إعمار جزء كبير مما دمّرته الحرب، وخاصة ما يتعلق بالأبنية والجسور؛ إذ اعتمدت الحكومة العراقية آنذاك على المواد المحلية من الإسمنت والحديد والطابوق فأعادوا إعمار معظم الجسور، فضلاً عن بناء مشاريع عملاقة في وقتها

(كالجسر ذي الطابقين) وبرج سمّي كالعادة (برج صدام) للاتصالات، وغيرها الكثير. وظهر آنذاك شعار أو مقولة (تبّاً للمستحيل.. عاش المجاهدون.. والله أكبر) [72]. ها هنا سيشتهر برنامج يومي اسمه (الملَف) يقدّمه المخرج الراحل (فيصل الياسري) ليعرض فيه عمليات الإعمار تلك.[73]

مثلما سيبدأ الدكتاتور في ذروة الحصار الاقتصادي الذي فُرض على العراق، وباستخدام خبرات شركات التصنيع العسكري بأمهر المهندسين والفنّيين فيها، بإنشاء سلسلة من القصور[74] والمجمّعات الرئاسية الجديدة الضخمة في مختلف المحافظات، التي سيدعوها استخفافاً بالعقوبات الدولية بـ(قصور الشعب)، والتي على جدرانها الخرسانية الضخمة والعالية حفر الدكتاتور أحرف اسمه الأولى، فضلاً عن أسماء معاركه ضد إيران وغيرها. وستكلّف خزينة الدولة مبالغ مرعبة، وترفع أسعار المواد الإنشائية في الأسواق، لعل أشهرها (قصر السلام) و(قصر السجود).

لكن العراقيين لم ينجحوا في إعادة إعمار كثير من المرافق الأخرى، ولاسيما تلك المتعلقة بالمصانع الحيوية وقطاع الكهرباء؛ إذ إن الحصار الذي فُرض على البلاد منع النظام من استيراد قطع الغيار الأساسية التي دمّرت بفعل الحرب، مما أدّى إلى انهيار كبير في منظومة الطاقة الكهربائية، فضلاً عن كثير من القطاعات الصناعية الأخرى، حيث ستعود الكهرباء في حدود شهر أيار/ مايو 1991 إلى بغداد بواقع ساعتين يومياً، وستمارس عملية تقنين في توزيعها منذ ذلك الحين، وهذا ما سيستمر حتى بعد أكثر من ثلاثين عاماً. ثم ستسمح الدولة للقطاع الخاص بمساعدتها في تزويد الناس بالتيار الكهربائي بسعر أغلى من ذلك الذي تجهّزه المحطات الحكومية، وذلك عبر مولدات اشتراها أصحابها، وتم نصبها في معظم أحياء المدن لتسدّ ولو جزءاً يسيراً من حاجة الناس إلى الطاقة الكهربائية.

وأسهم الحصار الاقتصادي والعقوبات الشاملة المفروضة على العراق في فترة التسعينيات إلى انهيار كبير في البنى التحتية؛ إذ تدهورت الصناعة وتراجع الاقتصاد بشكل سريع مما أدّى إلى انخفاض قيمة الدينار العراقي حينها من أربعة دنانير للدولار الواحد نهاية الثمانينيات إلى نحو ألفي دينار للدولار الواحد منتصف التسعينيات، وتحوّل العراق في سنوات الحصار العجاف من بلد غني ومرفّه نسبياً إلى بلد يعاني شظف العيش.

لكن الحصار لم يتسبب بمعاقبة مسؤولي النظام المقبور في حينها؛ بل إن الشعب هو من دفع الثمن فقط، فكان الدكتاتور وأزلامه وحاشيته يعيشون في الترف نفسه الذي كان قبل الحصار، وحتى مؤيّدوه (من أعضاء حزب البعث الذين انقسموا إلى فئات منهم أصدقاء الرئيس وأولئك يستلمون مكرمات شهرية) وأفراد الأجهزة الأمنية، كان جميع هؤلاء يعيشون حياة مقبولة، وذلك قياساً بباقي أفراد المجتمع، حيث أصبحت المعاناة واضحة بسبب آثار الجوع وانتشار الأمراض، وأصبح المواطن العراقي يعيش في عزلة تامة عن العالم الخارجي، وأصبحت المواد الغذائية بين ممنوع ومفقود. لقد قصمت العقوبات الدولية على العراق ظهور معظم الأسَر العراقية، مثلما تسبب الحصار بهلاك الشعب العراقي.

يبقى أن هناك دوائرَ في وزارات معينة كوزارة الصناعة،

عاش العراقيون أيام الحرب والشهور التي تلتها بحقّ عصرَ ما قبل الصناعة، وظهرت مئات الظواهر الاجتماعية والثقافية والصحية والاقتصادية والدينية السلبية

التـي يديرها صهـر الرئيس (حسـين كامـل) وتضم هيئة التصنيـع العسـكري والكهربـاء، ودوائـر وزارة النفـط، ودوائـر وزارة الزراعـة والري، فضلاً عـن دوائر أخرى، كان موظّفوها يسـتلمون مخصصـات مجزيـة بالمقارنة مع باقـي الموظفيـن فـي وزارات أخـرى لم تحـظَ باهتمام النظام، كما هو الحال مع وزارة التربية ووزارة الصحة.

من دون كهرباء، ومن دون ماء صالح للشرب، ونقص حاد فـي الغذاء والدواء، ومن دون محطات للوقود، سـواء وقود السـيارات أو للطبخ، وافتقاد لأبسـط مستلزمات الحياة، وفي ظل انقطاع وعزل شـديد عن العالم؛ عاش العراقيـون أيـام الحرب والشـهور التي تلتهـا بحقّ عصرَ مـا قبـل الصناعة، وظهرت مئـات الظواهـر الاجتماعية والثقافيـة والصحيـة والاقتصاديـة والدينيـة السـلبية والسـلوكيات الشـاذة والانحلال والانحطاط الأخلاقي والاجتماعي.

البقاء على قيد الطعام .. الحصة التموينية

للإنسـان - كباقي الكائنات الحيـة - قدرته على التكيّف مع أي ظرف يمرُّ به بشـكل يسـاعده علـى البقاء، فهو يتكيّـف مع الظروف الجيـدة مثلما يتكيّف مع الظروف السـيئة، نعم هو يتكيّف مع تلك السـيئة بشكل أصعب أو أبطـأ. وقد لا يكون للجميع القـدرة على التكيّف مع الظروف السيئة، فيقدّمون تضحيات كبرى بهذا الشأن.

ففـي ظل ظـروف الحصـار القاسـية، اختـرع العراقيون طُرقاً جديدة لسـدّ احتياجاتهم، وبدأوا يعيشونها بشكل مختلـف ويبحثون عن البدائل؛ فبدلاً عن مياه المحطات الصالحة للشـرب، صار كثير من الأفراد يلجؤون إلى مياه الأنهـار للحصول علـى الماء لقضاء حاجاتهم الأساسـية كالشـرب وغسل الأواني أو الملابس أو الأجساد. وبدلاً عن البنزين (وقود السـيارات) صاروا يفتحون قناني الغاز السـائل المضغـوط التي لم تُملأ منذ بـدء الحرب بفعل ضرب محطات الغاز، بعدما انتشـرت معلومة أن السائل المتبقـي في القنانـي يصلح أن يكون وقوداً يملؤون به سـياراتهم، كمـا عاد كثيـر منهم إلى اسـتخدام الحطب لطهـي الطعـام، بعـد أن عـادوا للطبـخ علـى أدوات تسـتخدم النفط مثل (الطبـاخ النفطـي، والجولة)، كما اسـتخدموا (اللوكس والفانـوس واللالة) للحصول على الإنارة، و(الرحى) لطحن الحبوب ... وما إلى ذلك.

وصل راتب الموظف منتصف عام 1994 إلى أقل من دولار واحد، مما اضطر السلطة إلى إعلان زيادة الحدّ الأدنى لرواتب الموظفين الشهرية إلى ثلاثة آلاف دينار (أي ما يعادل دولار ونصف)، مع تقليل حصة الفرد من المواد الغذائية

وبسبب شحّته، منعت الحكومة استخدام السكّر في الصناعة، وأصدرت قراراً يعاقب بالإعدام كل من يستخدمه لصنع الحلويات، هكذا ستوصد المعامل الصغيرة للحلويات أبوابها، مثلما تغلق معظم معامل المشروبات الغازية. في حينها قام العراقيون باستخدام مادة (الصودا) وأضافوا لها بعض المُحلّيات لتحلّ مكان تلك المشروبات، إما ما يخص الحلويات؛ فقد أصبحت كل أنواعها تصنع من التمور المحلّية، وعلى رأسها حلاوة التمر المعروفة بـ(المدكوكة) بعد اختفاء السكر!! في حين صارت الأُسر العراقية تعتمد المستعمل كسياسة لتوفير ما تحتاجه من المواد الأخرى، فأمسى الاعتماد على شراء المواد المستعملة، سواء من ملابس أو أجهزة كهربائية أو منزلية أخرى، نمطَ حياة، وأصبح الجميع يعيشون تحت خط الفقر؛ فقد وصل راتب الموظف منتصف عام 1994 إلى أقل من دولار واحد، مما اضطر السلطة إلى إعلان زيادة الحدّ الأدنى لرواتب الموظفين الشهرية إلى ثلاثة آلاف دينار (أي ما يعادل دولار ونصف)، مع تقليل حصة الفرد من المواد الغذائية[75].

إما المواد الغذائية الأساسية؛ فقد اعتمد العراقيون على ما كانت تخصّصه لهم وزارة التجارة من مواد غذائية يُطلق عليها (الحصة التموينية)[76]، وهي تضمّ مجموعة من المواد الغذائية (كالطحين والرز والسكر والشاي وغيرها) توزّعها الوزارة على وكلائها المنتشرين في معظم أحياء محافظات وأقضية ونواحي العراق، لكن تلك المواد لم تكن ذات جودةٍ عالية أو حتى صالحة للاستخدام البشري؛ فالطحين الذي تضمّه الوجبة التموينية كان سيئاً في معظم الأحوال (اسمر اللون) خشن الملمس، وغالباً ما سمعنا من أناس مختصّين يشتغلون في المطاحن بأنه كان عبارة عن طحن حبوب مختلفة (حنطة وشعير ودخن وغيرها من البذور)، لكن الأنكى كما أخبرنا هؤلاء أن الطحين يمكن أن يضمّ أيضاً (نوى التمر) و(فضلات الطيور)، و(جيَف الجرذان الميتة!!)، ولذا كانت ربّات البيوت اللواتي يعلّمن الخبازة في البيوت، حتى لا يتم تبذير أي غرام من طحين الوجبة، يشتكين دوماً من أن الطحين (سيّال)[77]، فتحير من تخبزه في عملية الخبز.

هنا يمكن الإشارة إلى عودة ظهور التنانير الطينية في باحات وحدائق البيوت من جديد، تلك التي تخبز بها جدّاتنا مع سعف كان هو الحطب، وأصبح وقوداً صعب المنال في سنوات الحصار، التنانير الطينية التي كانت قد اختفت منذ نهاية السبعينيات ستتطور إلى تنانير ألمنيوم تشتغل على الغاز مع استمرار الأزمة.

إما الرز، الذي كان العراق يشتهر بأنه ينتج واحدا من أرقى أصنافه، وهو رز (العنبر)؛ فقد وصل إلى أسوأ ما أنتجته السهول والأراضي الغرينية العراقية، بالرغم من كميات المياه الكبيرة التي تستهلكها زراعته. فكانت ربّات البيوت يقضين وقتاً طويلاً وهنّ ينظّفن رز الحصة من الحصى والقشور وباقي الأوساخ، ليتمكنّ من طبخ وجبةٍ واحدة، كما لا تهمل ربّة البيت أية حبّة رز سقطت فتجمعها لتضيفها إلى (الطبخة) التالية. لقد عانت العراقيات بشكل كبير في سنوات الحصار، وكان

نظراً لسوء الظروف الاقتصادية، رفع من عدد الأطفال والطلبة الذين تركوا التعليم واضطرارهم للعمل والتخلّف عن المدارس، لتضطر الأسر للاعتماد على الأطفال لتأمين قوتها

الثقل الأكبر يقع على كاهلهن في تدبير أمور البيت في ظل تلك الشـحّة. أما (الشاي) الذي كان يوزّع في حصة معظم المدن؛ فإنه لم يكن شـاياً، بل بقايا نشارة خشب تُدمـج مع قليل من أوراق الشـاي وصبغ أسـود، لتكون ما يشـبه الشاي، فرائحته لا تطاق، وكان يخْلط مع البُنّ ليصبـح خليطاً لا يحبذه معظـم العراقيين كثيراً ... ومن هذه التفاصيل عشنا الكثير.

غيـر هذا وذاك، فـإن لتوزيع الحصة التموينية الشـهرية تفاصيـلُ أخـرى، تتمثـل فـي أن توزيعهـا كان يتـم عبـر وكلاء وزارة التجـارة، كمـا تمـت الإشـارة آنفـا، وهؤلاء فـي معظمهـم من أصحاب محـال البقالة فـي الأصل، ولمّا كانت الموازين التي يسـتخدمونها ليسـت دقيقة، وليسـت كمـا هـي موازين اليـوم الإلكترونيـة، إذ كانت (مقاطعهـا) مـن النحـاس، ولأن لـكل غرام مـن المواد الغذائيـة قيمتـه فـي تلك الأيـام؛ فقد اشـتكى بعض المواطنيـن مـن وكلائهم بأنهم يطفّفـون في حصتهم الغذائيـة، وقـد أصـدرت السـلطة قـراراً بمراقبـة توزيع الوجبـة مـن قبـل أعضاء حـزب البعـث، فصـار (الرفاق) يجلسـون ليراقبوا عملية وزن مـواد الحصة، كما صدرت تعليمات بأن يتم توزيع الوجبة في سـاعة تسـلّمها من قبـل الوكيـل، وذلك بعد حـدوث حالات سـرقة للوجبة التموينية من محال الوكلاء، وذلك قبل توزيعها.

وإذا كانـت الدولـة تـوزّع المواد الأساسـية، فـإن على الأسـر العراقية أن توفّر باقي المواد التي تكوّن المائدة

اليوميـة، وهنا كان على العراقي أن يتوجّه إلى (علاوي) وأسـواق الخُضَـر التـي يديرهـا القطـاع الخـاص، والتي يحكمهـا قانونهـا الخاص (العـرض والطلـب)، فلم تكن رؤوفـةً بالعراقييـن كذلك، وظلّـت الخُضَـر ترتفع بفعل التضخـم؛ فصناعـة وجبـة منزلية عاديـة (الـرز والمرق)، وعلى الرغم من أن مرقتها تخلو من اللحم، تحتاج إلى ما يوازي راتب شـهر[78]. هكذا تحوّل الباذنجان وبفعل ثمنه الرخيص وتوفّره إلى بديل للحم في سنوات الحصار، مما جعله صديقا للعراقيين وأكسـبه ألقاباً عدّة[79]، أشـهرها ذيوعـاً في سـنوات الحصـار لقب (وحـش الطـاوه)[80]. ومَـن عاش تلك السـنوات يعـرف أن المائـدة العراقية اسـتخدمت الباذنجان كوجبة رئيسـة بطـرق عدة؛ حيث يتـمّ قليُـه بالزيت، أو شـيُّه في التنـور أو الطباخ، فضلاً عـن عمله كمرقة أو (تبسـي) مع الـرز أو بدونه، وطهيه كملفـوف أو محشـي، واسـتخدامه فـي (الطرشـي) العراقي[81].

بات التفكير بملء المعدة والأمعاء من الهموم اليومية، وعاشـت الأسر الكثيرة العدد ضنكاً مرعباً، وأصبح توفير لقمة العيش اليومية هماً كبيراً.

التعليم في الحصار.. المدرِّسون والطلبة

وبفعـل تدنّـي رواتـب الموظفين، ترك عـدد كبير منهم الوظيفة، فضلاً عن بحث مَن بقي منهم عن فرصة عمل ثانيـة لسـد احتياجاتـه؛ إذ كان راتب الموظـف لا يكفي إطلاقـاً، وصار الموظف يعمل صباحاً في دائرة حكومية وفـي المسـاء ربمـا يعمـل نـادلاً فـي مقهـى أو بائعاً للسـجائر في الشارع، أو سائقاً لسيارة أجرة، أو يفتتح له محـلاً لبيع مواد منزليـة أو غذائية، مثلما باع المعلّمون الطماطـم أو الخضـر بعد دوامهم الصباحـي، ممّا جعل بعض الباحثين يشـير إلـى تلك الفترة بأنهـا بداية لتدنّي المستوى الاجتماعي للمعلم ولمستوى التعليم[82].

هنا شـاعت ظاهرة التدريـس الخصوصي على الرغم من تدنّي مستوى التعليم، فصار هذا العمل يشكّل مردوداً إضافيـاً مُجزيـاً لكثيـر من المدرسـين والمعلميـن الذين صار بعضهـم يضغط على الطلبة وربما يقوم بإعطائهم درجات راسبة في درسه، حتى يجبرهم على أخذه مدرسا خصوصيا!! نعم حدثت مثل هذه الظواهر لأول مرة في المؤسسة التربوية.

كل هـذا رفـع من عـدد الأطفـال والطلبة الذيـن تركوا التعليـم؛ نظـراً لسـوء ظـروف أسـرهم الاقتصاديـة، واضطرارهم للعمل والتخلّف عن المدارس وتكرار الأمر، حيث إن المزيد من الأسـر تضطر للاعتماد على الأطفال لتأميـن قوت الأسـرة[83]، وتراجعت أعـداد من يتعلّمون بفعـل عـدم تطبيق إجـراءات قانـون التعليـم الإلزامي. فصارت ظاهرة عمل الأطفال أكثر انتشـاراً ووضوحاً في معظـم المدن العراقية، وبخاصة مدن الفرات الأوسـط والجنـوب العراقـي التي كان سـكانها يعيشـون ظروفاً أشد قسـوة، وكانت أكثر ظواهر عمالة الأطفال انتشاراً هي بيع العلاليك (أكياس النايلون)، كما انتشرت ظاهرة تسوّل الأطفال.

لكـن معظـم الأطفـال العراقييـن أولاداً وبناتاً عاشـوا فـي أيام الحصار مـرارة الجوع والعـوز والحرمان من كل شـيء، وعلى قائمة تلك الأشياء التي حُرم منها الصغار (الحلويات) و(الألعاب).

إما بالنسـبة لمَن ظلّوا على مقاعد الدراسة من الطلبة؛ فقـد تقلّصـت القرطاسـية المجانية التي كانـت توزّعها الدولـة علـى الطلبة، وأصبحـت صناعتها سـيئة للغاية، فالدفاتـر كان مـن الصعـب الكتابة عليها بسـبب وجود خيـوط سـليلوز واضحـة تتخلـل أوراقها، ومـن الصعوبة اسـتخدام المسّاحة لمسح كتابة قلم الرصاص عليها، إذ يتحـول معظم الصفحة إلى سـواد. أمـا أقلام الرصاص نفسها؛ فكانت هشة، ولا يصمد لبّها طويلاً في الكتابة فينكسـر بسـهولة. وصار لزاماً على الأسر أن تشتري من السـوق ما تُكمل به حاجة أبنائها من القرطاسية، فضلاً عن الحقائب التي لم يعد معظم الطلبة يشترونها[84].

أمـا الأبنيـة المدرسـية؛ فأصبحـت متهالكة إلا مـا ندر، وكانـت الدولة عاجزة عن ترميم تلـك التي تضرّرت منها بفعـل الحرب، وبفعل أعمال العنـف في الانتفاضة وما تلاها، ومن ثم بفعل الاندثار في تلك السنوات القاسية، فأصبحـت معظم صفوف المـدارس العراقية لا تحتوي علي زجاج للشـبابيك لتقي الطلاب من البرد، أو الحرّ[85]، كما أن السـبورة الخشـبية السـوداء الموجودة في كل صـفّ صـارت مليئة بالتشـققات وتصعـب الكتابة عليها بالطباشير الذي كان يُصنع بطرق بدائية[86].

كل تلك الظروف القاسية والممارسات قادت إلى تدنّي مستوى التعليم في العراق، وخلقت فجوة في العلوم لتراجع التمويل الحكومي للتعليم، والانقطاع عن نقل الخبرات للدول الأخرى المتقدمة بفعل العقوبات الشاملة، مما ولّد ظاهرة الاستهانة بالشهادة في المجتمع بشكل عام[87].

لأجل البقاء في زمن الحصار.. بيع ما يمكن

لأجل إعانتهم على مواجهة غلاء المعيشة؛ باع العراقيون ممتلكاتهم، بدأوا بما يملكون من مصوغات ذهبية، ثم توجّهوا إلى الأجهزة الكهربائية المعمّرة من مجمّدات وثلاجات وتلفزيونات ومسجلات وكل ما كان بإمكانهم الاستغناء عنه، فضلاً عن الأثاث الخشبي والفرش، فاختفى النضد (فرش المناسبات والضيوف)، وبعدها اختفى (ميز النضد) نفسه!! كما باعت ربّات البيوت الأواني والصحون الصينية (الفرفوري) التي تشكّل موضع فخر واعتزاز لكل ربّة بيت عراقية، لكنّهن وبفعل ضائقة الحصار صِرن يبِعن هذه الأواني واحداً تلو الآخر، ثم اختفت (البوفيه) أو المعرض الذي يضم تلك الأواني.

آنذاك ستزدهر عادة قديمة عند كثير من الأسر العراقية، وهي عادة اقتراض الأدوات، كالسكين و(الهاون) وآلة الثرم، و(الصونده)، والماسحة و(المكرافة) بل حتى المكنسة في بعض الأحيان؛ بفعل تناقص الأدوات، مثلما تكاثرت استدانة المواد الغذائية من قبيل رأس بصل أو ثوم، وحبة (طماطة) أو (بطاطا)، وقليل من الملح، أو الكركم، أو الليمون دوزي، وغيرها من المواد. لم يلقَ العراقيون آنذاك ما يُساعدهم على سد جوعهم سوى بيع ممتلكاتهم وأثاثهم، فكثُرت مزادات بيع الأثاث المنزلي ومحلات بيع السلع المستعملة في كل أسواق المدن العراقية، وهي مجهزة لتبيع كل شيء وأي شيء. مثلما انتشرت محال بيع إطارات السيارات والبطاريات المستعملة، فلم يكن هناك، إلا ما ندر، من يستطيع شراء إطارات جديدة محلية الصنع (إطارات ديوانية) أو بطارية جديدة لسيارته.

لكن وصل الحال ببعضهم إلى بيع أجزاء من بيته، كالأبواب أو الشبابيك أو حتى حديد (شيلمان) السقف لبعض الغرف، مثلما باع المثقفون كتبَهم ثم مكتباتهم بأكملها، وهي أثمن ما يملكون، لكنها لم تكن لتُثمّن غالياً، فصارت تُباع بالأمتار بعد وضعها على الأرصفة، على حدّ قول أحد الكُتبيّين[88].

وبدأت المصانع والمعامل العراقية والمشاريع التجارية الخاصة تغلق أبوابها تاركةً العمّال يبحثون عن فرصة عمل لا يوفرها السوق العراقي المتهالك.

البسطيّات وظاهرة باعة المفرد (الفرط)

حينما كان الفرد يجول في شوارع أية مدينة عراقية في سنوات الحصار، يلاحظ باندهاش أن أرصفة الشوارع في مراكز المدن قد امتلأت بشباب (ربما بعضهم خرّيجو جامعة من مختلف الاختصاصات) وقد افترشوا تلك الأرصفة لعرض بضائعهم، في ما يُدعى بـ(البسطية)، التي تشتمل عادةً على كل شيء، على الرغم من أن بعض هؤلاء قد خصّص (بسطيته) للسجائر أو للمواد الغذائية، أو ما إلى ذلك من سلعٍ يعرضونها، ليضافوا بذلك إلى رتل من النساء (الدلّالات) اللواتي كان عقد الثمانينيات هو سنوات ازدهارهن. كان السبب الأساسي لازدهار البسطيّات هو كونها أسهل عمل خاص؛ فهو لا يحتاج إلى مهارات كبيرة، كما أنه كمشروع لا يحتاج إلا إلى مبلغ بسيط للمباشرة، وكان أسهل مشاريع البسطيّات تلك (بسطية السجائر)، لكن بعض مخاطر هذا المشروع كانت تتمثل بهجوم موظّفي البلدية لترحيل تلك البسطيّات من أماكنها بحجة التجاوز.

من جهةٍ أخرى، وفي زمن ما قبل الحصار، كان العراقيون بعامة، إلا ما ندر، معروفون بين نظرائهم العرب بإسرافهم فوق حاجتهم بكثير، لكن قبل انتهاء (العمر) أو العام الأول للحصار، لم يعد أحد من العراقيين قادراً على شراء علبة من معجون الطماطم، أو علبة من السمن النباتي (تنكة الدهن)، أو حتى كيلوغرام واحد من السكر أو الرز، أو حتى علبة سجائر كاملة، فازدهرت تجارة المُفرد (الفرط كما تُدعى في الدارجة) التي امتهنها مئات الشباب والنساء على أرصفة شوارع مدننا، وخاصةً في مراكزها التجارية وبالقرب من مخازن أو علاوي بيع تلك المواد. فصرتَ تجد باعة مختصّين بالبيع بالتجزئة لمختلف المواد الغذائية (كالطحين والرز

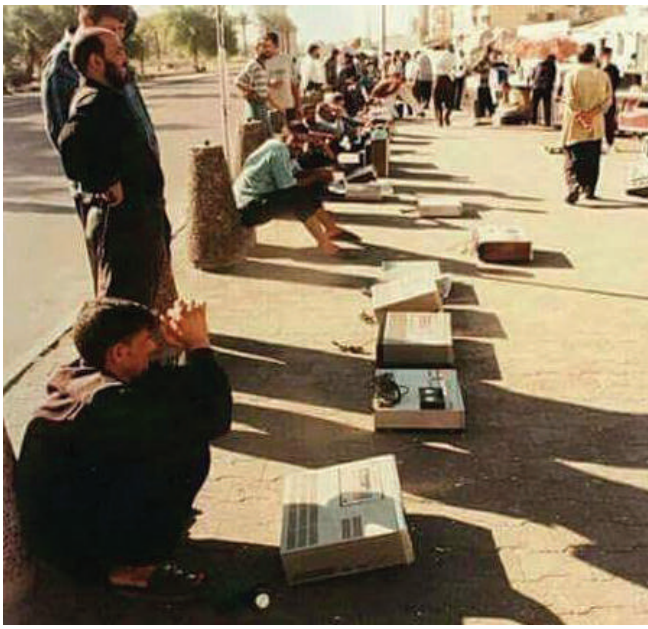

والسكر ومعجون الطماطم والسمنة أو الدهن والبيض وما إلى ذلك)، فتجد ما ترغب بشرائه وقد وضِع في كيس مغلق من النايلون بأوزان تبدأ من مئة غرام وتصل إلى الكيلوغرام، هكذا بعد أن كان العراقيون لا يتحمّلون شراء أقل من طبقة بيض، أو كيس سكر، أو كيس من الطحين، أو علبة سمن نباتي (تنكة دهن)، أصبح الكثير من أرباب الأسر يكتفي بتوفير حاجته اليومية إذا تمكّن من ذلك، وهو ما يمكن للعراقي أن يعتبر مجرد ذكرها في وقتنا الراهن إهانة لمستواه الاجتماعي.

وإذا ما كان بيع بعض المواد الغذائية كالبقوليات وغيرها بهذه المقادير وبأكياس النايلون المغلقة تلك مستساغاً؛ فإن بيع مواد أخرى كمعجون الطماطم و(الدهن) والسكّر وحتى الطحين، بهذه الطريقة يصبح أكثر تعقيداً؛ فكثيراً ما شهدت الأسواق عمليات خداع ونصب من قبل باعة متجوّلين أو أصحاب عربات لهذه المواد بسعر أرخص قليلاً من المعروض في السوق، لكن المشتري الذي سيذهب بهذه البضاعة المزجاة إلى بيته سيكتشف أنه خُدع، وأن كيس النايلون الشفاف والمغلق ذا الـ(100 غم) الذي اشتراه على أساس أنه يحوي (دهنا) سيتفاجأ بأنه هريس بطاطا، أو ما ابتاعه بأنه ربع كيلو غرام من السكر، سيكتشف بأنه ملح، أو يتفاجأ بأن الكيلوغرامين من الطحين الذي اشتراه

في تسعينيات القرن الماضي، تدهورت القدرة الشرائية لمعظم العراقيين، فأصبح كثير منهم يعتمدون على سوق البالات (الملابس المستعملة)، ويعيدون خياطة ملابسهم القديمة ويقلبونها لأكثر من مرة، ويحوّلون الأغطية العسكرية (البطّانيات) إلى (قماصل)

بـ(1500 دينار) وهي ما يعادل نصف راتبه، كان جصّاً.. وكم شهدت أسواق مدننا في التسعينيات من عمليات النصب هذه.

في تسعينيات القرن الماضي، تدهورت القدرة الشرائية لمعظم العراقيين، فأصبح كثير منهم يعتمدون على سوق البالات (الملابس المستعملة) لشراء مستلزماتهم من الملابس، ويعيدون خياطة ملابسهم القديمة ويقلبونها لأكثر من مرة، ويحوّلون الأغطية العسكرية (البطّانيات) إلى (قماصل) يتّقون بها زمهرير الشتاء، ونسي الكثير من أولياء الأمور لبس الملابس الجديدة لهم أو لأبنائهم، أما الأحذية؛ فقد لجأ الناس

ظهرت شركات توظيف الأموال الخادعة لأول مرة في العراق من أمثلة (سامكو) و(علاءكو)، مثلما ظهرت جريمة تزوير العملة العراقية التي قام النظام بطبعها في التسعينيات

لتصليح أحذيتهم بدلاً من شراء الجديد منها.

مثلما ازدهرت محلات تصليح السلع المعمرة وغير المعمرة، فكل شيء يمكن إدامته وتصليحه، ليس السيارات فحسب، بل (الثلاجة) و(التلفزيون) و(المبرّدة) و(المدفأة)، فما لا يمكن استبداله بفعل غلاء ثمنه يمكن تصليحه، ولاسيما أن الأجهزة الجديدة كان ثمنها فوق القدرة الشرائية لمعظم الناس. كان يتم تصليح وادامة كل شيء حتى صحون الفرفوري (الصيني) المكسورة يتم تصليحها، وكذلك كابسات الورق واقلام (السوفت) صار يتم تصليح العاطل منها، بل اصبح كثيرا من الشباب يعمل في بسطيات لتصليح وملئ قداحات البلاستيك ذات الاستخدام الواحد (disposable)، هذه الإدامة، كما نرى، ممّا يمكن أن يُحسب للحصار من حسنات.

وبفعل قساوة الحصار الداخلي والخارجي، تمّت إبادة تقاليد وعادات عراقية أصيلة في التعاون، والإيثار، كانت جزءاً من الفلكلور العراقي والعادات الاجتماعية الأصيلة، وتحوّلت إلى جشع، وصراع، وتنافس، وشراسة، وتمادٍ في الموبقات، وقتل، وسرقة، وذلّ، وخنوع، وحيلة، ومكر، وخداع، وتلاعب، وغشّ، وفساد، ورشوة ... وباختصار، حملت سنوات الحصار بين جنباتها انهياراً لمنظومة القيم الاجتماعية المتعارف عليها.

انتعاش السرقة والجريمة وبداية عصر الفساد

وبما أن الجوع كافر والفقر لا يرحم والعوز شديد على الفرد؛ اضطر بعض الأفراد إلى السرقة، فانتعشت جرائم السرقة وعمليات النصب بشكل مرعب حتى تحوّلت إلى ظاهرة اجتماعية واسعة، بعد أن كانت سلوكاً محدوداً في ثمانينيات القرن الماضي، ولا تتعدى أرقامها نسباً بسيطة؛ ففي سنوات الحصار الخمس الأولى صرتَ لا تستطيع ترك أي شيء في باحة الدار، أو الحديقة، أو المنور، فأي شيء معرّض للسرقة، بدءاً من إطارات السيارات أو بطارياتها، أو جهاز التسجيل فيها، أو الدراجة الهوائية، مثلما أن الملابس التي تُنشر على حبل الغسيل، أو قنينة الغاز، أو منظّم القنينة، أو (أوتوماتيك الكيزر) أو حتى الدجاجة أو بيض تلك الدجاجة، أو القط أو أي حيوان آخر، يمكنك أن تتوقع أن يُسرق[89]. وقد تطورت السرقة وعمليات النصب، فاخترع اللصوص طرقاً غاية في الابتكار[90]، مثلما كانت بعض حالات السرقة إقراراً بالأمر الواقع[91].

إذ تزايدت معدّلات الجريمة بشكل مفزع، كما انتشرت الدعارة بدرجة كبيرة، حتى أن الحكومة سنّت عقوبة الإعدام لبعض المهن المحرّمة مثل القِوادة والبغاء والكثير من أنواع السرقات، وأهمها سرقة السيارات، بل طبّقت عقوبة قطع اليد على السارق الجائع الذي يسرق بيضة أو رغيفاً من الخبز!![92].

كل ذلك ساهم بارتفاع معدلات الجريمة، والعنف الاجتماعي، والرشوة، والانتحار، والسرقة، والتهريب، والبغاء، وجنوح الأحداث، وظواهر اجتماعية أخرى تؤكد الخلل الخطير لبنية المجتمع في العراق.

وعلى الرغم من أنه لا توجد إحصائيات عراقية أو حتى دولية دقيقة لتوثّق هذه القضايا، لكن يمكن الاستدلال

بنشوء ظواهر انحرافية بحدّ ذاتها مصداقاً لما نشير إليه، فقد ظهرت شركات توظيف الأموال الخادعة لأول مرة في العراق من أمثلة (سامكو) و(علاءكو)، مثلما ظهرت جريمة تزوير العملة العراقية التي قام النظام بطبعها في التسعينيات، وآنذاك عرَف العراقيون أجهزة بدائية لكشف العملة المزورة، فصار معظم أصحاب المحال يفحصون بها كل ورقة نقدية يستلمونها من زبائنهم[93]، وقبل ذلك لم يكن هناك تزوير للعملة العراقية التي كانت تُطبع في بريطانيا ودول غربية أخرى بتكلفة كبيرة وبشكل في غاية الرصانة.

كما شاعت عمليات السرقة بالإكراه، (التسليب) بالدارجة العراقية، فصار السفر بين المدن والبلدات خطراً في بعض المحافظات أو المناطق، فهناك طرق من الصعب السير فيها وبخاصة في ساعات الليل[94].

مثلما أن الفساد شاع بصورته المرعبة منذ تلك الأيام؛ فبعد أن كانت وظائفُ أو مهنٌ بعينها وليس كل ممتهنيها من يوصفون بالفساد، كما هو الحال مع (الشرطة)، أثمرت سنوات الحصار عن ممارسة معظم الموظّفين للفساد الإداري أو المالي، وهو ما سيستمر حتى بعد انتهاء سنوات الحصار، بل إنه توسّع بفعل ضعف الدولة؛ فالموظف الذي لا يكفي راتبه ليشتري وجبة طعام واحدة، صار يستغل وظيفته العامة في تحصيل مكاسب مادية أو عينية كبيرة، فلا معاملة من معاملات الناس تُنجز من دون أن يدفع صاحب المعاملة رشوة (أو يدهن السير) كما يقال بالعامية، وشمل هذا جميع الوظائف، حتى الأمنية منها. آنذاك، انتشرت إشاعة بأنك في العراق يمكن أن تفعل أي شيء يخالف القانون، وتخرج ما دمتَ تدفع رشوة، حتى لو شمل ذلك التآمر على (صدام)!![95].

تعميم التردّي.. اللوتو

وبما أن الجوع كافر؛ اضطر بعض الأفراد إلى اتخاذ قرارات مالية مُكلّفة قد تزيد الوضع سوءاً في أحيان كثيرة، كالاقتراض بفوائد عالية، أو الاستدانة، أو لعب القمار، أو شراء ورق اليانصيب، أو العمل بمهن لا تتناسب ومؤهلات الشخص الفكرية والبدنية وخبراته العملية[96]، فظهرت آنذاك جرعة جديدة من كل هذه المظاهر وقف خلفها (عُديّ) الابن الأكبر وغير المتّزن للدكتاتور، فانتشرت محال بيع يانصيب (اللوتو) كما دعاه، الذي يعتمد على توقّع مباريات الدوري العراقي، مثلما ازدهرت المراهنات على سباقات الخيل (الريسزز) في موقع الحلبة الموجود في حي المنصور ببغداد، فضلاً عن تسخير كل ما يمكن أن يجلب له المزيد من الأموال في نهم غريب.

إذ شارك (عدي) رجال الأعمال في مشاريعهم، أو أجبرهم على دفع إتاوات بشكل هدايا تصل إلى مكتبه، أو ما إلى ذلك من وسائل يقاسم فيها رجال الأعمال الكبار أرباح مشاريعهم، بل فعل ذلك حتى مع المطربين والفنانين. وقد اطّلع الباحث آنذاك على قصة واقعية لأحد التجار الكبار في بغداد توضّح مثل هذه الممارسات لابن الديكتاتور[97].

إذاعة وتلفزيون الشباب التابعة لـ(عدي).. في تزوير التاريخ

لا تحتج على حكمي .. لا تحتجّ يا جاهل
بعدك ما شفت ظلمي .. بعدني وياك متساهل
قليلة بحقّك القسوة .. قليلة يالي ما تسوى
ظلّ اسمعني للآخر .. ظل اسمعني يالماكر
متحملك وصابر .. ما فيه الكفاية
بيّه من الألم بركان .. ما يتحمّله إنسان
بحر هموم .. بحر أحزان يا صبري وعنايا
لا تحتج يا جاهل .. أكثر إنتَ تستاهل
إنتَ بالظهر سكين .. أنت من الظلم أظلم[98]

بعض من كلمات أغنية صدرت نهاية عام 1991 للفنان (كاظم الساهر) وصارت تذاع يومياً في إذاعة الشباب، يمكن أن تبيّن نموذجاً للرسالة الإعلامية التي تقدّم للناس في ذلك الزمن.

في مثل هذه الظروف السيئة للحصار، سيُنشئ (عدي) (إذاعة الشباب، 1993)، ومحطة (تلفزيون الشباب 1994) ليحاول أن يقدّم نوعاً جديداً من تنميط الذاكرة!! وعلى الرغم من الحملة الإيمانية؛ فقد قدّم تلفزيون الشباب نمطاً جديداً من البرامج حاول أن يرى ردود فعل الناس بإزائها[99]. فالإذاعة والتلفزيون تكون بدايتهما بالآية (13) من سورة الكهف (نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق إنهم فتيةٌ آمنوا بربهم وزدناهم هدى)، ولكن

فتـرة برامج الأطفال لا تبدأ إلا بعد (صور من المعركة)، تلك المشـاهد المعاد عرضها والتي تذكّر بما حدث في ثمانينيـات القـرن من فظائـع الحرب الطويلـة مع إيران، وبعنـوان (كي لا ننسـى). كان الطريق لأفـلام الكارتون (الرسوم المتحركة) يمرّ عبر عرض صور الجثث المشوّهة لقتلـى إيرانييـن (أو حتـى عراقييـن في بعـض الأحيان). لقـد كبر جيـل الأطفال الـذي كان يتابع تلك المشـاهد ليصبـح بعضهـم عضـواً فـي ميليشـيا (فدائيّـو صدام) التـي كانت قناة الشـباب تعرض مشـاهد من تدريباتهم وهم يركضون وراء حيوانـات مختلفة كالأرانب والكلاب ليصطادوها ويقطّعوا جثثها بأسنانهم!!. ثم تبدأ البرامج التي هي عبارة عن عرض متواصل لأغاني تلك السنوات. وفـي اسـتخفاف واضـح لعقـول العراقييـن مـن قبـل السـلطة الحاكمة، نشرت (صحيفة بابل) التي كان يرأس تحريرهـا (عـدي صـدام حسـين) بدايـة عـام 1995 خبراً عـن ضيـاع البطاقـة التموينية لـ(عـدي)! مثلما نشـرت بعدهـا بأيـام أن زواج (قُصي) النجل الثانـي لـ(صدام) تمّ عبـر بيع أغنـام كان يملكها والده (الفقيـر)، والده الذي حضـر إلى البرلمان بعد فوزه بالاسـتفتاء على بقائه في سـدّة الرئاسـة مدى الحياة، حضر آنذاك ببدلته القديمة - كمـا وصفهـا في خطابـه - التي يعـرف المهتمّون أن خياطاً فرنسياً كان قد خاطها له، وأن ثمنها عشرة آلاف دولار!!![100].

ففـي الوقـت الذي تضاعفت فيه نسـبة سـوء التغذية بيـن الأطفـال العراقييـن دون سـن الخامسـة مـن 12 % إلـى 23 % خـلال المـدة بين عامـي 1991 - 1996، وكذلك ارتفعت نسـبة سوء التغذية الحادّة في الوسط والجنـوب من (3 %) إلـى (11 %) لنفس الفئة العمرية، وتزايد معدل الوفيات للأطفال بشـكل مرعب ومخيف؛ كان الدكتاتور يحتفل وهو يركب عربة من الذهب الخالص بمناسـبة عيـد ميلاده، ويقـدّم لمجموعة مـن الفنانين العرب آلاف البراميل من نفط الجنوب هدية[101].

تغيّر الأذواق وتدنّي الذوق العام

لـم تتغير العادات والأخلاق والقيم فحسـب، بل تغيرت الأنمـاط الحياتيـة كذلـك، فتعمّقـت مظاهـر التـردّي والترهّل إلى الحدّ الذي أفقد المجتمع العراقي سـمات المجتمع المتحضر المتماسـك - ولو ظاهريا - الذي كان عليه قبل استرجاع الكويت[102].

وبالتفاتـة علـى نمط العمـارة العراقية، لـم تعد البيوت العراقيـة المرفّهـة كما كانـت؛ فبفعل ظاهرة السـرقة التـي أصبحـت مسـتفحلة تغيّـر نمـط البنـاء وارتفعـت الجـدران الخارجيـة للبيـت لتواجـه تلـك السـلوكيات المسـتهجنة، فتغيـر نمط الدار أو البيت السـبعيني ذي الحديقة والجدران المنخفضة التي تتيح لعابر السبيل أن يطّلـع على نمط حياة أهل الدار، إلى جدرانٍ عالية تسـوّر المنـازل لتصنـع منهـا شـيئاً آخر غيـر متعـارف عليه في البيئة العراقية.

إذ انتشـر نمط بنـاء الـ (دبل فاليـوم Double Volume) عند النـاس المتمكّنيـن اقتصادياً، فكانـت بيوت هؤلاء خيـر تعبيـر عـن ثقافـة الحصـار؛ فالعمـارة التي سـادت آنـذاك كان الإخفاء والسـرية من أهم سـماتها، بمقابل بيـوت العراقيين في الخمسـينيات وحتى السـبعينيات بجدرانهـا الخارجية المنخفضة، التـي تخبرنا أنها لا تحوي أسراراً لا يمكن للأخرين الاطّلاع عليها، وذلك ابتداءً من أفراد البيت الواحد ووصولاً لممتلكاتهم. أما متوسـطو الحـال؛ فقد اكتفوا فـي زمن الحصار بوضع زجاج القناني المكسـور للمشروبات الغازية على حافة جدران منازلهم لمنـع اللصوص من تسـلّقها، كل ذلك بفعل تزايد جرائم السرقة.

الهجرة القسرية

بالرغـم مـن حـدوث هجـرة ذات طابع سياسـي، عندما اضطـر العديد من الشـيوعيين والاسـلاميين العراقيين الـى الهجـرة فـي اواسـط السـبعينات والثمانينيـات هروبـا من الملاحقات وبطش النظـام، لم يكن كثير من العراقييـن يفكّرون بهجـرة بلدهـم؛ إذ إن العراقي ومع توافر فرص العيش المرفّه لم يكن ليترك بلده، كان هذا هـو السـائد حتى سـبعينيات القرن الماضـي، بل إن من تعـرّض للتهجير من العراقيين ظل دائمـاً يحنّ إلى حياته فـي العـراق، هكذا هـو حال معظـم اليهـود العراقيين وذوي التبعية الايرانية.

لكـن هذا سـيتغير مع سـنوات الحصـار، بفعـل صعوبة الأحـوال المعيشـية التـي بدأت تسـفر عنهـا العقوبات

نشرت (صحيفة بابل) التي كان يرأس تحريرها (عدي صدام حسين) بداية عام 1995 خبراً عن ضياع البطاقة التموينية لـ(عدي)

الدولية المشـدّدة، فضلاً عن سياسـات القمع وتكميم الأفواه التي ظل النظام الدكتاتوري يمارسـها، حيث بدأ كثير من الشـباب بمحاولة الخـروج من البلد، ولكن هذه المحاولة اصطدمت بمعوقات كبيرة، لاشـك أن أهمها هـو أنه لا منافذ كثيرة للهروب منها، إذ امتنعت خمس دول لها جوار حدودي مع العراق عن استقبال العراقيين بشكل رسمي.

لقد كانت حدودنا الأطول مع إيران التي استقبلت آلاف النازحيـن أثناء حـرب الخليـج الثانية والانتفاضـة، إلا أنها لم تكن تقبل بالمسـافرين العراقييـن، لكن الحكومة لم تكن تسمح بالسفر إلى إيران، فضلاً عن أن العراقيين لم تكن لديهم الرغبة بالسفر إلى إيران بفعل مخاوفهم من ملاحقـة أجهزة النظام لاسـرهم في حـال فعلوا ذلك، علـى الرغم من تحسّـن العلاقة الدبلوماسـية مع ايران وسـماح حكومة بغداد للـزوار الإيرانيين بالقـدوم لزيارة العتبات المقدسة في بغداد والنجف وكربلاء.

أما تركيا التي اسـتقبلت كثيرا مـن النازحين الكورد خلال الحرب والأيام التي تلت انتفاضة 1991؛ فإنها لم تسمح للعراقيين بالسـفر الرسـمي إليها. وامتنعت سوريا أيضا عن استقبال العراقيين لانقطاع العلاقات بين النظامين السـوري والعراقي أصلاً منذ عام 1979، ولكنها صارت تسـمح للعراقييـن بالقـدوم إليها بعد عـودة العلاقات الدبلوماسـية فـي العـام 1998. فيمـا لـم تسـمح السـعودية للعراقيين حتـى بأداء مناسـك الحج الا في نهاية التسـعينات، أما الكويت؛ فطردت حتى العراقيين المقيمين لديها، بل حتى الكويتيين من أصول عراقية.

ظلّ الأردن البلد الوحيد الذي يستقبل العراقيين، فأصبح نقطـة انطـلاق العراقيين إلى العالـم، وتواصلهم معه. فكان بعض العراقيين من أصحاب الشـهادات يسافرون عبره إلى اليمن وليبيا، وهي من الدول العربية التي ظلّت تسـتقبل العراقييـن للعمـل فيها. فيما سـكن عراقيون آخـرون فـي الأردن التي كانت ظـروف الإقامة والعمل فيهـا مشـدّدة؛ مـن أجـل العمـل وتحسـين ظروفهـم المعيشية، في حين كانت الأردن محطة لعراقيين آخرين لإكمال معاملات اللجوء إلى دول أخرى.

غيـر أن النظـام الدكتاتـوري المقبـور صـار يفـرض، منذ العام 1994، ضريبةً كبيرة على الراغبين بالسفر مقدارها أربعمئة ألف دينار (أي ما يعادل مئتي دولار)، وهو مبلغ لم يكن يملكه الجميع، فكان من تضطره ظروفه للسفر يُجبَـر علـى الاسـتدانة، أو بيع أثاثـه أو ممتلكاته للإيفاء بهذه الضريبة.

وقدِّرت أعداد الذين هاجروا طوال سنوات الحصار بمليوني عراقـي، توزّعوا على مختلف دول العالـم، كان غالبيتهم من أصحاب الشهادات (الطب والهندسة والتربية) فضلاً عن أصحاب الشـهادات العليـا. وكما هو الحال دائماً، فلا توجد إحصاءات دقيقة توثّق أعداد هؤلاء.

برنامج (النفط مقابل الغذاء والدواء).. نزلة رمضان

بينما تُعد السنوات الخمس الأولى التي تلت حرب الخليج الثانية أكثر السنوات صعوبة على العراقيين نتيجة العقوبات الاقتصادية وعمليات القمع الواسعة التي شهدتها تلك الحقبة، إلا أن حدّة الصعوبات تراجعت نسبياً بعد قرار مجلس الأمن رقم (986) في نيسان/ أبريل 1995 القاضي بالسماح للعراق بالاستئناف الجزئي لصادرات النفط مقابل شراء الطعام والدواء، أو ما يعرف ببرنامج (النفط مقابل الغذاء والدواء)، الذي وافق عليه النظام الدكتاتوري في أيار/ مايو 1996 مجبراً بعد هروب (حسين كامل) وشقيقه (صدام) وزوجاتهما ابنتَي الرئيس إلى الأردن، وكشفه لأسرار أسلحة الدمار الشامل[103].

أدّى قبول الدكتاتور بذلك القرار إلى انهيار الأسواق في العراق (وقد دعا العراقيون ذلك الانهيار بـ نزلة رمضان)؛ فالأسواق العراقية التي كانت مصابة آنذاك بتضخم لولبي - بالمصطلح الاقتصادي - انهارت بشكل مرعب؛ بسبب وسائل الإعلام الرسمية التي ظلّت تردد بيانات وإعلانات عن وصول مواد غذائية بكميات كبيرة إلى الموانئ، وأن العراق تعاقد على كميات أخرى كبيرة، والحق أن الموانئ ظلّت فارغة حتى بعد أكثر من شهرين من الموافقة على ذلك الاتفاق.

لكن المواد الغذائية الأساسية (الطحين والرز والسكر والدهن والمعجون وما إلى ذلك)، والخضر والفواكه، سترتفع أسعارها رويداً رويداً، بينما لم يتم وصول أية تعاقدات لمواد غذائية حتى بعد مرور أكثر من ستة أشهر، كما أن السوق أصابه الركود الذي نتج من هذا الاتفاق، ويحتاج التخلص من الركود ما يقرب العام ليستعيد السوق دورته الطبيعية.

وكان من نتائج ذلك تراكم ديون التجار ومعظم الأفراد، بفعل تناقص قيمة ما يمتلكونه (إذ وصل سعر السيارة الروسية البائسة من نوع فولكا إلى مئة ألف دينار بعد أن كان سعرها قبل موافقة العراق على القرار حوالي ثلاثة ملايين دينار، وقد شمل هذا معظم الأملاك والسلع والمقتنيات)، وحصلت مشكلات وأزمات اقتصادية كبيرة وصغيرة بين الناس، بل نتج عن بعضها جرائم ضد الأشخاص، انتهت بتدخل شيوخ العشائر لحلّها وفقاً للسُنن العشائرية، فالقانون كالمعتاد كان في إجازة.

اغتيال (عدي)

في مساء اليوم الثاني عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر 1996، قطع تلفزيون الشباب الذي يشرف عليه (عدي) بثّ أغانيه ليعلن خبر تعرّض (الأستاذ عدي صدام حسين!!) لمحاولة اغتيال، على الرغم من أن مجرد إعلان تلفزيون الشباب عن الحادث يُعد مؤشراً على تجاوز نجل الرئيس العراقي مرحلة الخطر؛ إذ لو أن حالته الصحية كانت غير مستقرة أو أنه كان في غيبوبة، لما عمد تلفزيون الشباب إلى بث النبأ، بل كان قام بالمهمة التلفزيون الحكومي. على أن مجرد إعلان خبر محاولة الاغتيال على تلفزيون الشباب، لا يقلل من أهمية الحادث ونوع الإصابة وطبيعتها؛ نظراً إلى أبعادها الأمنية والفنية والسياسية[104].

وبالرغم من فشل محاولة الاغتيال؛ فإن العدد الكبير من الرصاصات التي استقرت في جسده أدّت إلى إصابته بإصابات جسيمة استمر علاجها سنوات دون أن يُشفى من آثارها تماماً[105].

وكان (عُدي) قد استعاد مع بداية عقد التسعينيات مكانته في المشهد السياسي والإعلامي، بعد عودته من الاختفاء وتجريده من جميع مناصبه لقتله أحد أفراد حماية الخط الأول لوالده، وهي عقوبته التي قضاها يلعب الورق والروليت في النوادي الليلية في جنيف/ سويسرا، فأصبح فضلاً عن كونه رئيساً لتحرير صحيفتي (البعث الرياضي) و(بابل)، ومجلة (الرافدين)، نقيباً للصحفيين العراقيين، ورئيساً لاتحاد كرة القدم العراقي، ورئيساً للجنة الأولمبية العراقية، ومالكاً لنادي الرشيد الرياضي، ومالكاً لقناة (تلفزيون الشباب) و(إذاعة الشباب)، وبالإضافة إلى كونه مهندساً تخرّج في أواسط الثمانينيات من جامعة بغداد، ومشاركته كطيار في الحرب العراقية الإيرانية، فقد حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية.

اشتهر (عدي) فوق ذلك كله بسلوكه غير المتزن، وفساده الأخلاقي والسياسي والاقتصادي، خاصة خلال السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من عمر نظام

رئيس التحرير: أمير الحلو

سلامات.. زميلنا العزيز

ترجو أسرة «الف باء» من الله تعالى أن يمن بالسلامة والعافية على الزميل العزيز الاستاذ عدي صدام حسين، رئيس ادارة جريدة بابل ورئيس اللجنة الاولمبية بعد تعرضه لاعتداء غادر.

وكان جثمان اثنين قد وصل خلال الايام الماضية مصر الناصع في منطقة المنصور في موقع الاعتداء الاثم الذي تعرض له الزميل العزيز.

وكان ناطق رسمي باسم ديوان الرئاسة قد اعلن ليلة الخميس المنصرم

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلن ناطق رسمي باسم ديوان الرئاسة ان السيد عدي صدام حسين رئيس اللجنة الاولمبية العراقية تعرض مساء امس الى اعتداء جبان غادر اصيب على اثره بجروح وذلك في نحو الساعة السابعة من مساء امس في منطقة المنصور في بغداد. اثناء تجواله هناك بسيارته الشخصية.

واكد الناطق ان حالة السيد عدي صدام حسين الصحية لا تدعو الى القلق وانه يرقد الان في مستشفى ابن سينا مع تمنياتنا له بالشفاء العاجل باذن الله

وذكر الناطق ان التحقيق جار حول الجريمة النكراء.

(صـدام حسـين) بعـد حرب تحريـر الكويت مـن الاحتلال العراقـي عـام 1991؛ فخـلال تلـك السـنوات تحدّثـت تقاريـر صحفيـة ومخابراتيـة عـن انحرافـات ابـن الرئيس الـذي كان والـده يعـدّه لخلافتـه، فشـغل العديد من المناصـب المهمة مثل رئاسـة اللجنـة الأولمبية، فضلاً عن السـلطات غير الرسمية الكبيرة التي كان يتمتع بها. وذكرت التقارير أن محاولة الاغتيال الفاشلة التي تعرّض لهـا (عدي) والعاهة المسـتديمة التي أصيب بها بعدها أدّت إلـى تراجـع حظوظه فـي خلافة والـده ليبدأ نجم شقيقه الأصغر (قصي) بالصعود.

جولات لجان التفتيش الدولية للبحث عن الأسلحة

بعد أسـابيع علـى قرار مجلـس الأمن الدولـي القاضي بنزع أسـلحة الدمار الشـامل من العـراق، المرقم (707) فـي آب/ أغسـطس 1991، بـدأت لجـان التفتيـش أعمالهـا فـي بغداد صبيحـة 21 أيلول/ سـبتمبر 1991، واستمرت نحو 13 عاماً من ذلك التاريخ. وبدأت عمليات التفتيـش بموافقـة العـراق علـى قـرار مجلـس الأمـن وفتـح الطريق أمامهم وتسـهيل جميع المصاعب، وتم إعطاؤهـم الحـق لتفتيش أي مـكان يرغبون بـه، وحتى مكتب رئيـس الجمهورية حينها (صدام حسـين) لم يكن

أصبح عدي فضلاً عن كونه رئيساً لتحرير صحيفتي (البعث الرياضي) و(بابل)، ومجلة (الرافدين)، نقيباً للصحفيين العراقيين، ورئيساً لاتحاد كرة القدم العراقي، ورئيساً للجنة الأولمبية العراقية، ومالكاً لنادي الرشيد الرياضي، ومالكاً لقناة (تلفزيون الشباب) و(إذاعة الشباب)

عائقـا أمامهم، بل تم توفيـر الحماية والمرافقة في أي مـكان ارتحلـوا إليه، وكان قـرار الموافقة قرارا سياسـيا مـن الحكومـة لوقـف الحرب. لكـن ردود فعـل النظام العراقـي تجاه لجان التفتيش عن الأسـلحة (لجنة الأمم المتحدة الخاصة) الدولية، والمعروفة باسم (يونسكوم UNSCOM) تفاوتـت فيمـا بعد. في حين ظلّت العلاقة متوتـرة بين النظام وبيـن لجان تفتيش اليونسـكوم؛ إذ بقي النظام يناور في قضية وجود أسـلحة دمار شـامل أو عدم وجودها أو يُخفي معلومات عن وجود برامجها، طوال مدة وجود صهر الرئيس (حسين كامل) كمسؤول أول عن هذا الملف.

لكـن هروب (حسـين كامل) إلـى الأردن فيمـا بعد آب/ أغسـطس 1995 ولقـاءه رئيس لجنـة التفتيش الدولية (رالـف أكيوس) في عمّان والإدلاء بتصريحات يبيّن فيها أن العـراق تمكّـن مـن إنتاج أنـواع مختلفـة وفعّالة من الأسـلحة الكيميائية والبيولوجية، أعطى لجان التفتيش ذريعة للتشديد على العراق؛ إذ شكّل هذا التصريح الذي أدلـى بـه (كامـل) محطة مهمـة من محطـات الخلاف بيـن العراق ولجنة التفتيش الدولية، ولا سـيما أن هذه اللجنة تشـكلت بضغط سياسـي مـن الولايات المتحدة وليس بإطار قانوني[106].

هكـذا ستنتشـر إشـاعة أن لجان التفتيش صـارت تطلب الوصـول إلـى أماكـن تثيـر جـدلاً حـول مصداقيتها في البحث عن أسـلحة، لكنها بالمقابل تشـير إلى أن الهدف كان إسقاط ما تبقّى من كرامة الدكتاتور وأزلامه، ففي إحـدى المرات وصلت مجموعة من المفتشـين إلى أحد

القصور الرئاسية لـ(صدام)، ولمّا منعتهم أجهزة الحماية الخاصة التي كانت تحرس القصر، اتصل المفتشو بمراجعهم في مجلس الأمن، وحدث هذا أمام كاميرا بعض الصحفيين والإعلاميين الذين كانوا يرافقون تلا الفرق، مما أثار اعتراض النظام الدكتاتوري عبر قنوا الدبلوماسية رافضاً التعاون مع مجموعة المفتشي تلك، ومقاطعة لجان التفتيش المعروفة بـ(يونسكو UNSCOM) بعد ذلك.

أسقطت لجان التفتيش ما تبقّى من كرامة الدكتاتور وأزلامه، ففي إحدى المرات وصلت مجموعة من المفتشين إلى أحد القصور الرئاسية لـ(صدام)

في تلك الفترة، كانت هناك مشكلة أساسية بي العراق ولجان التفتيش فيما يتعلق بزيارة أو تفتيش بعض المواقع، ولاسيما المواقع الحساسة جدا في الدولة العراقية، مثل أبنية ديوان الرئاسة، والقصور الرئاسية، ومجمعات القصور التي كانت موجودة في كل المحافظات العراقية(107). وكانت هناك شكوى عراقية بأن هيئة المفتشين الدولية مخترقة من قبل المخابرات الأميركية، عندما أنشأت ما يسمى بالصندوق الأسود، داخل بغداد، للتنصّت على المكالمات العراقية وتحديد المواقع، وعندما أدرك العراق ذلك، قام بطرد مفتشي أسلحة الدمار الشامل.

وكما شاع، فقد تلقّفت الحكومة الأميركية الفرصة لتزيد التعاون مع أطراف المعارضة العراقية في سبيل إزاحة النظام الدكتاتوري في العراق من السلطة؛ ففي تشرين الأول/ أكتوبر 1998، وقّع الرئيس الأميركي (بيل كلينتون) على قانون تحرير العراق، داعياً إلى (تغيير النظام السياسي)، الذي كان هو الأساس لعملية احتلال العراق في عام 2003.

لكن حكومة الولايات المتحدة لم تكتفِ بالإجراءات السياسية فقط، بل قامت - وكردٍّ على تقليص تعاون العراق مع (لجنة الأمم المتحدة الخاصة) - بعملية عسكرية ضد العراق أطلقت عليها اسم (عملية ثعلب الصحراء [108])(Desert Fox Operation)، التي كانت أشبه بحربٍ مصغّرة، إذ استمرت أربعة أيام (16-19) من كانون الأول/ ديسمبر 1998، شنّت فيها ضربات صاروخية قاصمة استهدفت قتل الرئيس العراقي، مثلما استهدفت مجموعة من المواقع التي رفض النظام دخول مفتشين (يونسكوم [109])(UNSCOM) إليها. مما حدا بمجلس الأمن الدولي إلى إصدار قرار جديد بالرقم (1284) عام 1999، حلّ فيه لجنة (يونسكوم)، وشكّل (لجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش المعروفة باسم (أنموفيك - 110)(UNMOVIC).

الخاتمة

لقد أسهمت سنوات الحصار والعقوبات الدولية التي فُرضت على العراق خلال التسعينيات في وضع نظام (صدام حسين) بحالة من العزلة الداخلية، التي أدّت في النهاية إلى عدم دفاع معظم العراقيين عن النظام عام 2003. لكن الأهم خلال الحصار هو تحطّم واختفاء الطبقة الوسطى من النسيج المجتمعي، هذه الطبقة التي كانت تمثل معياراً للهوية الوطنية، نتيجة التدهور الاقتصادي والسياسي، وليس من السهولة إعادة بناء طبقة وسطى بديلة ومتماسكة، فكان هذا الاختفاء بداية التحول إلى الهويات الطائفية والعرقية منذ تسعينيات القرن الماضي، وظهر ذلك جلياً بعد 2003.

لقد أثبت الحصار مقولات الاقتصاديين (وعلى رأسهم ماركس) بأن الاقتصاد هو المحرك الأكبر لحياة الناس وأخلاقهم وقيمهم، وحتى مُثُلهم العليا، فتحوّلت حياة الناس في العراق بين ليلةٍ وضحاها من الرفاهية إلى الكفاف، وتحوّلت قيم الناس من الكرم والشهامة والنخوة إلى البخل والنذالة وكل ما هو ممقوت من قيم، لقد تحوّل العراق إلى مقبرةٍ جماعية كبيرة خلال الحصار.

ولذلك؛ صار من ترك العراق مهاجراً لسنواتٍ طويلة يتفاجأ حين عودته من كل التغيير الذي أصاب أخلاق الناس وسلوكياتهم، إذ لا أحد يمكنه أن يقدّر التغيّر في الشخصية العراقية بفعل سنوات الحصار والقمع إلا من كان قد خبر الحياة في العراق من أهله، فهو يدرك مقدار التحوّل الذي شهده الناس الذين عاشوا هنا في ظل تلك الظروف التي تمت الإشارة إلى قسم كبير منها، ولا شك أن إغفال بعضها لم يكن مقصوداً، بل كان بفعل عدم التوثيق وتراجع الذاكرة، وفداحة ما تمتّ مواجهته من ظروف منذ أن تم احتلال العراق وإسقاط الدكتاتور في التاسع من نيسان/ أبريل 2003.

الهوامش (Endnotes)

1 - تـكاد التأثيـرات الصحية للحصار هي المجال الوحيـد الذي تم الحديث عنه فـي مقـالات أكاديمية منذ تسـعينيات القـرن الماضي. غير هـذا فقد ظلت مشـاهد توابيـت أو جثامين الأطفال الرضّع وهي تسـير في مواكب شـهرية طويلة هي المشاهد الأكثر رسوخاً في أذهان العراقيين عن السنوات الأولى لفتـرة الحصـار تلـك، لمزيد مـن المعلومات يمكـن مراجعة الرابـط: https:// pubmed.ncbi.nlm.nih.gov/?term=iraq+sanction&filter=yea rs.1992-2003&sort=date

2 - بعـد التعديـل المفتـرض لقرار مجلـس الأمن الدولي والـذي صدر بالعدد (706) فـي الخامس عشـر من آب/ أغسـطس 1991، الـذي كان الهدف منه التضييق على النظام الدكتاتوري فحسب، دون الإضرار بالشعب. موقع الأمم المتحدة، بحسب الرابط: https://undocs.org/Home/Mobile?FinalSy mbol=S%2FRES%2F706(1991)&Language=E&DeviceType=Des ktop&LangRequested=False

3 - يوافق هذا التاريخ العاشر من محرم 1411 وفقاً للتقويم الهجري للشيعة، ولا أعلـم إن كان حـدث احتـلال دولة الكويـت في هذا التاريـخ صدفة، أم إنه مفتعل؛ فمن يعرف كيف يفكر الدكتاتور المقبور يعرف أن هوَسَـه بالسيطرة يمتـد حتـى للتاريخ، وهو ما فعلـه بتأجيله الموافقة على قـرار مجلس الأمن الخاص بالعراق الخاص بانتهاء الأعمال العسـكرية في حرب الخليج الأولى مع إيـران حتـى الثامن من آب/ أغسـطس 1988، لكي يصادف يـوم نهاية الحرب تاريخ 08/08/1988!

4 - دون كاتـب: الكويـت أصبحت محـررة والجيش العراقي هُـزم، عبارة أنهت 7 أشـهر من «مأسـاة» فقدان الوطن باسـترجاع الأرض الغالية، صحيفة الراي الكويتية، 9 فبراير 2011، بحسب الرابط: https://www.alraimedia.com/ article/232072

5 - المصدر نفسه

6 - محمـد سـبيل (تقرير): الجيش العراقي من مـلاذ العرب إلى اللوذ بالفرار.. قصـة الغـزو الـذي أسـلم المنطقـة برمتهـا إلـى المجهـول، صحيفـة البيان الإماراتيـة، 02 أغسـطس 2015، بحسـب الرابـط: https://www.albayan. ae/one-world/arabs/2015-08-02-1.2427930

7 - حنان الذهب (إعداد): حرب الخليج الثانية «عاصفة الصحراء» 1991، موقع درع الوطن، 01-02-2014، بحسـب الرابـط:.https://www.nationshield. ae/index.php/home/details/historyA11991

8 - دون كاتب: يوم غزا العراق الكويت - القصة الكاملة لما حدث، وهل أعطت واشـنطن الضوء الأخضر لصدام حسـين؟، موقع قنـاة الجزيرة، 17/1/2022، بحسب الرابط: https://www.aljazeera.net/politics/2020/8/2

9 - الباحث

10 - دون كاتـب: يـوم غـزا العـراق الكويت - القصة الكاملـة لما حدث، وهل أعطت واشنطن الضوء الأخضر لصدام حسين؟، مصدر سابق

11 - كتـب صـدّام عبـارة «ألـله أكبر» بيـده بهمـزة القطع لا الوصـل، كخطأ إملائـي، وهـو ما أرجّحه، أو أنه كتب ذلك متقصـداً، وأمرَ بأن توضع على علم العـراق، وظلّـت العبـارة مكتوبة حتى عـام 2008 حين حُذفـت همزة القطع «أللـه» وكتبتْ همزة وصل «الله» (ويكيبيديا الموسـوعة الحرة): علم العراق، بحسب الرابط: https://ar.wikipedia.org/wiki

12 - سـيكون هـذا التوجـه واضحـاً فـي خطـاب للرئيـس يعلـن بـدء الحملة الإيمانية (الباحث).

13 - كأنمـوذج للشـعبوية الفارغة، هزج أحد الجنـود لصدام بأن «يهدهم (أي يتركهم) وسوف ينطلقون حتى هولندا (مشاهدة عيانية للباحث)، أو أنهم لم يرضعـوا الـ(نيدو)، وغيرها من الترّهات (أهازيج في اسـتقبال صدام بمحافظة للكويت عام / 1991 تنشـر لأول مرة، بحسـب الرابـط: https://www.you- tube.com/watch?v=B7DFCeAA7V0.

14 - مرقـة الهـواء مكوناتها ماء يضاف إليه بصـل مقلي بالدهن مع معجون وتخلو من اللحم عادة، وهي من أكلات الفقراء (الباحث).

15 - فمـن ضمـن قوانين النظام البعثي في سـنوات السـبعينيات من القرن الماضـي، التـي اعتمدهـا للانتقـام ممـن يخالـف قراراتـه، تنظيـم (مهرجان) فرهـود لمحلاتهـم وممتلكاتهم يشـترك به رجـال الأمـن وأراذل المواطنين (كمـا حصـل لبعـض التجار الشـيعة بتهمة احتـكار قوت الشـعب)، ويمكن إن يقال ذلك عن العوائل العراقية المُسـفّرة (العرب الشـيعة والكورد الفيليين) وهكـذا فـإن الحكومـات تدرج الفرهـود ضمن أجندتهـا في أسـاليب التنكيل بالمتمردين والخارجيـن عـن إرادتهـا (كامـل داود: الفرهود .. مقاربـة تاريخية لسـايكولوجيا المفرهدين (القسـم الأول)، الحـوار المتمدن، العـدد (2003)، في 10/08/2007، بحسـب الرابـط: https://www.ahewar.org/debat/ show.art.asp?aid=105419

16 - مرويات للباحث من قبل ثقات.

17 - نقلت القنوات العالمية بعض ما كان يحدث من سـرقة لكل شـيء في الكويت (الباحث).

18 - برنامج (د. حميد عبد الله: شـهادات خاصة) عن حالات النهب والسـرقة المنظمة عند غزو الكويت عام 1990، بحسب الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=BqXj9l0U2Nk

19 - فضـلاً عـن المشـاهدة العيانيـة للباحـث، (برنامـج د. حميـد عبـد اللـه: شـهادات خاصة): أين اختفت نخلة الذهب من قصر الشـيخ سـعد الصباح بعد غزو الكويت؟ بحسب الرابط: https://www.youtube.com/watch?v=A857au3Nn5Q

20 - عبد الهادي العاني: ما الفرق بين أنظمة PAL و23 ،NTSC فبراير2023، حدونـة رديـف، بحسـب الرابـط:-https://radyf.com/ntsc-pal-and-se cam-video-format-standards

21 - وذلك عبر إرسالها إلى محلات صيانة أجهزة التلفزيون التي كانت تضيف لهـا تقانـات معينة لتصبح قادرة على التقاط البث الملون من جديد (ملاحظة للباحث).

22 - فمـن سـيارات الـ(الفولـكا) والـ(بوليسـكي) الروسـية، والـ(لادا) و(GL) الإيطاليـة، إلـى سـيارات (تويوتـا) و(نيسـان) اليابانيـة، وعـدد محـدود مـن سـيارات الـ(مرسـيديس) و(BMW) الألمانيـة قبـل الثاني من آب/ أغسـطس 1990، ازدهـرت شـوارع المـدن العراقية بسـيارات الـ(GMC) والـ(شـيفروليه) والـ(كاديلاك) والـ(بونتياك) وغيرها من السـيارات الأميركية، بل حتى سـيارات الـ(فيراري) والـ(رولزرويس) الباهظة الثمن (ملاحظة للباحث).

23 - أتذكر أن أحد جيراننا يقيم منذ أكثر من عشـر سـنوات في الكويت وكان فـي زيارة للعـراق حينما حدث احتلال وغزو الكويت، فـكان أن ذهب بعد أقل مـن أسـبوعين ليجـد أن شـقته ومحتوياتها قد سُـرقت بالكامل، كمـا أنه لم يجد من سـيارته سـوى أرقامها، هكذا كان حال معظم المنازل ودوائر الدولة ومؤسساتها (ملاحظة للباحث).

24 - مشاهدة عيانية للباحث.

25 - بتصـرف عـن (كنعـان مكيـة: القسـوة والصمـت، الحـرب والطغيـان والانتفاضة في العالم العربي، كولونيا، ألمانيا، منشـورات الجمل، 2005، ص 27).

26 - عبـد الكاظـم حسـن الجابـري: غـزو الكويـت مـن وجهـة نظـر شـيعية، الاثنيـن،2022-08-29، موقـع نون، بحسـب الرابـط: https://non14.net/ public/150389

27 - نفسه

28 - Charles Pope,»30 years later, Desert Storm remains a powerful influence on Air, Space Forces», 23 Feb. 2021

29 - لمزيـد مـن التفاصيـل عـن سـير المعـارك وكميـات وأنـواع الأسـلحة المسـتخدمة من قبل جيوش التحالف في كل طلعة جوية وقصف للصواريخ فـي كل يوم من أيام حرب الخليج الثانيـة، يمكن مراجعة المواقع الإلكترونية التالية:

https://history.army.mil/html/bookshelves/resmat/desert-storm/index.html

https://www.af.mil/News/Article-Display/

Article/2512938/30-years-later-desert-storm-remains

30 - فقد أسـقطت مقاتلة أمريكية من طراز الشـبح قنبلتين موجهتين بالليزر على مخبأ تحت الأرض كانت قوات التحالف تظن أنه أحد مراكز قيادة الجيش العراقـي. وكان الهـدف مـن الهجـوم هو إدخـال القنبلتين التي تبلـغ زنة كل منهمـا تسـعمئة كيلوجرام إلى داخـل المخبأ من خلال فتحـات التهوية، لكن إحداهمـا أخطـأت هدفها وانفجرت في موقع قريب وأدى انفجارها إلى سـد مخـرج المخبـأ الوحيد. أمـا القنبلة الثانية؛ فاخترقت سـقف المخبـأ وانفجرت وسط أكبر غرفه في الطابق العلوي منه.

31 - كما عرفنا صلاح حسـن بابان: العراقيون يسـتذكرون «اليوم الأسـود».. عندمـا دكّـت القنابـل الأميركيـة الذكية ملجـأ العامرية، موقع قنـاة الجزيرة، 13/2/2021، بحسـب الرابـط: https://www.aljazeera.net/poli-tics/2021/2/13

32 - عرفنـا ذلـك بعد أربـع أو خمس سـنوات، عندما وصلنا مـا كتبه (محمد حسـنين هيـكل) في كتابه (حرب الخليج - أوهام القـوة والنصر، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر).

33 - بعـد مـرور أربـع سـنوات علـى تلـك المأسـاة، حـاول الجنـرال (نورمـان شوارزكوف) تبرير ما كان قد حدث على "طريق الموت" خلال قوله: "لقد كان أول سبب دفعنا لقصف ذلك الطريق السريع القادم من الشمال من الكويت هـو أنه كان هناك عدد كبير من الأسـلحة الثقيلة والمعدات العسـكرية فيه، ولقـد أعطيـتُ أوامر لكل من يقع تحت سـلطتي بأننـي أردتُ كل قطعة من تلك الأسلحة مدمرة تماما. وثانيا، لم يكن هؤلاء مجموعة من الناس الأبرياء الذيـن كانـوا يحاولـون شـق طريقهم إلـى منازلهم عبـورا للحـدود العراقية؛ فقـد كانـوا مجموعة مـن المغتصبين والقتلـة واللصوص الذيـن قاموا بقتل واغتصـاب ونهـب مدينة الكويت، والآن يحاولون الخروج من البلد قبل أن يتم إلقاء القبض عليهم."، موقع دخلك، بحسـب الرابط: https://dkhlak.com/the-highway-of-death

34 - موقع (ويكيبيديا - الموسـوعة الحرة): ضربات صواريخ كروز على العراق (1993)، بحسب الرابط: https://ar.wikipedia.org/wiki1993

35 - وذلك لأن اللوحة المرسومة للرئيس الأمريكي الأسبق على أرض فندق الرشـيد رسـمها فنان شـاب من محافظة ديالى يدعى (محسـن تعبان)، وأن هدف القصف كان مبنى المخابرات العامة في المنصور، بحسب مدير شرطة بغداد، فكان أن أحاله وزير الداخلية (وطبان الحسن) الأخ غير الشقيق لـ(صدام) إلـى التقاعـد بتهمة التقصير (نقلاً عن د. حميـد عبد الله: مقتل (ليلى العطار) بصاروخ أمريكي وإحالة مدير شـرطة بغداد للتقاعد بسـببها، برنامج شهادات خاصة، الموجود على منصة يوتيوب، بحسب الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=J2CaKpqO-zY&t=1s)

36 - تمكنـت واشـنطن من بناء ائتلاف يتجاوز حلفاءهـا الأوروبيين في حلف شـمال الأطلسـي (الناتو)، وكانـت حصيلة هذا التحالـف: (38) دولة، و(750) ألف جندي (75% منهم أميركيون)، و(3600) دبابة، و(1800) طائرة، و(150) قطعـة بحريـة (حـرب الخليـج الثانيـة - الزلزال الـذي عصف بمنطقـة الخليج، موقـع قنـاة الجزيرة الإخبارية، 2/8/2023، بحسـب الرابـط: https://www.aljazeera.net/encyclopedia/2016/11/7

37 - محمـد سـبيل (تقرير): الجيش العراقي من مـلاذ العرب إلى اللوذ بالفرار - قصـة الغـزو الـذي أسـلم المنطقة برمتهـا إلى المجهـول، صحيفـة البيان الإماراتيـة، 02 أغسـطس 2015، بحسـب الرابـط: https://www.albayan.ae/one-world/arabs/2015-08-02-1.2427930

38 - (بمعنى وصلوا وصلوا) (الباحث).

39 - يمكـن أن يعترض أحد المختصين بالشـأن العراقـي ليذكّرنا بانتفاضة عام 1977 المحدودة التي شهدتها محافظتا النجف وكربلاء وأخمدت في يومها (ملاحظة للباحث).

40 - كنعان مكية: القسوة والصمت، الحرب والطغيان والانتفاضة في العالم العربي، كولونيا، ألمانيا، منشورات الجمل، 2005، ص 227

41 - أو لندن العربية كما يدعوها العراقيون.

42 - حنـان الذهـب (إعداد): حـرب الخليج الثانيـة «عاصفة الصحـراء» 1991، مصدر سابق

43 - وفـي يـومٍ ما في تسـعينيات القرن الماضي، ظهـر الدكتاتور في إحدى لقاءاته اليومية ليعترض على تلك الإشـاعة من على شاشة التلفزيون بالقول (مـن ذولـي اللـي إجوكم ... ليـش ما كتلتوهـم) (أي مَن هؤلاء الذيـن أتوا ... ولماذا لم تقتلوهم) كاستهانة بالمنتفضين (مشاهدات عيانية للباحث).

44 - ورد في تقرير لرئيسة الاتحاد العام لنساء العراق من رئيسة فرع القادسية بتأريخ 13/3/1991 (بعد دخول المخربين من جهة قضاء الشـامية ومن جهة قضاء الحمزة بدأ تخريبهم وحرق وسلب جميع بيوت الرفاق والدوائر ومحطة تعبئـة البنزيـن فـي قضاء الحمزة وقتل وسـحل الرفيق (جواد خيـر الله) عضو قيادة شـعبة الحمزة وحرقوا سـيارته، وهذه الحوادث جرت في قضاء الحمزة بتاريخ 4/3، واستمرت بتعاون العشائر هناك، ومعلوماتي أن الشخص المدعو (حسـين علي الشـعلان)، ابن شيخ عشـيرة الخزاعل وهو عضو مجلس وطني لدورتيـن، متعـاون مع المخربين هو وإخوانه، وكذلك (حسـين آل رباط) شـيخ عشيرة بني عارض وعشيرة الجبور، ثم زحفوا باتجاه مركز المحافظة من جهتي قضاء الشـامية وقضاء الحمزة ودخلوا معسكر الديوانية صباح 4/3 في جانب الصـوب الصغير بمدينـة الديوانية، وأحرقوا بيوت الرفـاق والمقرات الحزبية» (نقلاً عن : د. محمد مجيد: من مراجعة أرشيف القيادة القطرية لحزب البعث وهو موجود في Hoover Institute في جامعة سـتانفورد)، بحسـب الرابط: http://saddamscruelty.blogspot.com/2011/10/blog-post.html

45 - الشهيد (رافد حنتوش عبد الحسين)، الذي ولد عام 1960 في الديوانية - وتم إعدامه بتاريخ 1997-4-12.

46 - منهم الشـهيد (عدنان كلول) والبطل (قاسـم العادلي). نقلاً عن مقال للكاتب (نبيل الربيعي).

47 - نقلاً عن أحد المشتركين في الانتفاضة (المهندس ليث عدنان ناجي) من أهالي حي المعلمين القريب من مديرية الأمن (لقاء مع الباحث).

48 - وهم كل من: (الشيخ حسين علي الشعلان)، ورجل الدين (الشيخ محمد الصمياني)، و(العميد توفيق الياسري)، و(العقيد عبد الأمير عبيس)، و(السيد محسن الصائغ)، و(الأستاذ عبد الوهاب هادي). (نقلاً عن ثقات للباحث).

49 - وردت هذه الملاحظة في كتاب قيادة فرع الأمن القومي المرقم ح/12 في 11/3/1991 (صباح أمس قامت عناصر الشـغب في محافظة القادسية بتسجيل أسماء عناصر لغرض التطوع بلغ عددها (2000) متطوع في منطقة جامع سيد عباس وسط المدينة، والذي يعتبر المقر الرئيسي لنشاط المخربين وتحركاتهم، وبعد إكمالهم العدد المطلوب سـيقومون بالتسـرب إلى مدينة بغـداد على شـكل جماعـات تختلـط بالمواطنيـن والعسـكريين العائدين إلى المحافظـات بعـد اسـتكمالهم للأسـلحة والتجهيزات من المعسـكرات التي اسـتولوا عليها ومنها دبابات ومدافع وسيارات عسكرية ومقاومة الطائرات، كمـا قامـوا بنصـب مقاومات الطائـرات فـي المحافظة في وسـط المدينة وبداية الشوارع الرئيسية المؤدية إلى محافظة القادسية، وقد وضعوا سواتر ترابيـة عـدّة بغرض الدفاع عـن المدينة. فيما توزع بقيـة عناصرهم في جميع أنحـاء المدينـة، ووضعـوا مفارز فـي طرق الدخـول إلى القادسـية. أما بصدد الطريق الذي سيسـلكونه؛ فهو طريـق المحاويل، وإذا كانت مدينة الحلة بيد الجيـش العراقي، فإنهم سيسـتخدمون الخط السـريع. وأما بصدد الأسـلحة والأعتدة؛ فقد قاموا بتحضيرها اسـتعداداً لتلك المهمة. وأما بالنسبة لحركة الآليات الثقيلة؛ فقد قاموا بتزويدها بالوقود وتجهيزها للتحرك مع السيارات المدنيـة والعسـكرية وجميع الآليـات الموجودة في المحافظـة، وفضلاً عن ذلـك قاموا بحـرق تجمعات العسـكريين (الثكنـات) داخل المحافظـة). (نقلاً عـن د. محمد مجيد: من مراجعة أرشـيف القيـادة القطرية لحزب البعث وهو موجود في Hoover Institute في جامعة ستانفورد).

50 - هنا أتذكر أن صاحب عربة لبيع النفط في المدينة يدعى (سيد ميري) كان قـد احتفظ بكمية من النفط لمثل تلـك الأيام وقرر بيعها في اليوم الخامس مـن الانتفاضة، في داخـل محلة الفاضلية، فكان أن تجمّعـت عليه الناس من كل حـدب وصوب للحصول على النفط، فما كان من أحد شـباب المنطقة إلا أن اسـتأذن (سـيد ميري) بقيادة العربة ليبعدها عن مركز تجمع هؤلاء الناس تجنبـاً للحـوادث، وصار أصدقـاؤه يهزجون بتلك الأهوسـة الشـهير (بالعربانة

جابوك يا كـ..واد يا سرسري) (مشاهدات عيانية للباحث).

51 - د. محمـد مجيـد: الانتفاضـة الشـعبانية...آذار 1991/ صفحـة الغـدر والخيانة...0، مصدر سابق.

52 - تشـهد علـى ذلـك ظاهرة المخبر السـريّ الـذي يغطّي وجهـه ويعرّف قـوات الحـرس بالمشـاركين الفعليين مـن كل بيت يتـم دخولـه، أو من بين المعتقلين (الباحث).

53 - مشاهدة عيانية للباحث.

54 - كان معتقـل الرضوانيـة يضـم (جملونات) كبيرة، لكنهـا حمّلت بأضعاف قدرتهـا؛ إذ وضعـوا كل (2500) معتقـل فـي (الجملـون) الواحـد، بحسـب روايـة لأحد المعتقلين في الرضوانية (قاسـم الحلفي: فـي ذكرى الانتفاضة الشـعبانية - جرائـم يرويهـا شـهود عيـان لأول مـرة، كربـلاء المقدسـة: الخميس،2022-03-17،).

55 - هاشـم نعمـة: الهجـرة السـكانية وحـرب الخليـج - رؤيـة فـي أنماطها وتأثيراتهـا (دراسـة مـن سـتة أجزاء)، الحـوار المتمـدن، فـي -22/11/2002 04/05/2003، بحسب الرابط: http://www.rezgar.com/debat/show.art.asp?aid=4011

56 - أطلـق النظـام البعثـي الحاكـم تسـمية (صفحة الغـدر والخيانـة) على الانتفاضة الشـعبانية على اعتبار أنها حصلت في الوقت الذي كانت السـلطة فـي حالـة حرب مـع التحالـف الدولي الـذي تقـوده الولايات المتحـدة، وأن مـن المفترض أن لا ينتفض الشـعب العراقي في تلـك المرحلة ضد حكومته الديكتاتورية ويقف معها في حربها ومحنتها التي وضعت نفسها فيها.

57 - وكانت الأسـعار المعلنة كما يأتي: البندقية الكلاشـينكوف بـ(50) دينار، والبندقيـة الـ PKC بـ(100) دينار، والبندقية القناصـة بـ(150) دينار، والقاذفة الـ RBG بـ(250) دينار، كما أن مدفع الهاون له سـعر، والمدفع (52 ملم) له سعر، والدبابة لها سعر ... وهكذا (الباحث).

58 - في موقف حدث أمام الباحث صادف أن نزل أحد الأشخاص من سيارته الفارهـة آنذاك (سـوبر صالون كراون موديل 1990) وهـو يرتدي الزي العربي التقليدي الدشداشة واليشماغ والعقال أمام أحد محلات البقالة، وطلب من صاحب المحل علبة (باكيت) سجائر لأحد الأنواع التي انتشرت آنذاك (Aspin) لكنـه لفظَهـا (أسـبون)، فـكان أن صحّحها له صاحـب المحل بالقـول: (عمي اسـمها أسـبين)، فـردّ عليه الرجـل الريفي (هـي بيش؟) أي كم هو سـعرها؟ فأخبـره صاحب المحـل أنها بـ(750 دينار) فأعطاه (5000) خمسـة آلاف دينار وقال له (هسـه أسـبون لو غير شي)، فأجابه صاحب المحل (لا عمي.. أسبون أسبون).

59 - رجّـح الباحـث (د.عـلاء حميد) أن تبنّي التوجّه الإسـلامي كان بسـبب أن القومية البعثية لم تعد قادرة على أن تكون مصدر طاقة للنظام الدكتاتوري (أحمـد متاريـك: الحملـة الإيمانيـة - كيف قاد صـدام العراق إلـى التطرف؟ ووقـع ارفـع صوتك: 08 نوفمبر 2022، بحسـب الرابـط: https://www.ir-faasawtak.com/iraq/2023/09/05

60 - العقوبـة التـي صدمـت الجميع وتم بثّهـا على تلفزيون العـراق، منصة يوتيوب، بحسب الرابط:

https://www.youtube.com/watch?v=P9m289pWtOY

61 - مثلمـا حـدث مع ثلاثـة من (فدائيي صدام)، الذيـن ألقي بهم من فوق سـطح بنايـة عالية في البصرة بعدما أدينوا بـ(اللـواط) (أحمد متاريك: الحملة الإيمانيـة - كيـف قاد صـدام العراق إلـى التطرف؟ موقع ارفـع صوتك: 08 نوفمبـر 2022، بحسـب الرابـط: https://www.irfaasawtak.com/iraq/2023/09/05

62 - ومـن المفارقة أن (أبو بكر البغدادي) زعيم تنظيم داعش تلقّى دروساً فيها. (أحمد متاريك: الحملة الإيمانية - كيف قاد صدام العراق إلى التطرف؟ موقع ارفع صوتك: 08 نوفمبر 2022، بحسب الرابط:

https://www.irfaasawtak.com/iraq/2023/09/05

63 - أحمـد متاريك: الحملة الإيمانية - كيف قاد صدام العراق إلى التطرف؟ موقع ارفع صوتك: 08 نوفمبر 2022، بحسب الرابط:

https://www.irfaasawtak.com/iraq/2023/09/05

64 - أحمد متاريك: المصدر السابق.

65 - المصدر نفسه.

66 - كمـا يفاخـر أتباعـه، فإن السـيد لم يتـرك فئة اجتماعيـة إلا تحدث عنها وتناولها في خطبه، حتى الغجر لم يهملهم.

67 - انتشـرت طرفـة في منتصف التسـعينيات عن واقعـة حقيقية، تتحدث عـن أن أحـد التجـار ذهب إلـى مرجع من هؤلاء الذين أسـندت لهم الوسـادة (أي الزعامة)، وسـأله: (سـيدنا آني انضربت بوري) بمعنى (تمّ خداعي) فأجابه المرجـع: (خـو ما طلـع دم) أي (لم يخرج منـك دماء) باعتبار أن الاسـئلة التي كانـت توجه الـى المراجع والفقهاء تتعلق بمسـائل الحلال والحرام فحسـب وبلغتهم الدينية (الباحث).

68 - فيما يخص صناعة هوية جماعية خاصة، ميزّ السيد (محمد محمد صادق الصـدر) فـي قيادتـه لصلوات الجمعـة أتباعه بـزيّ خاص هو الكفـن الأبيض، فاعتبـر ذلـك تمييـزاً لزيّهـم الاحتفالـي فـي أثنـاء تظاهراتهـم واحتفالاتهم (ملاحظة للباحث).

69 - أعقبت عملية الاغتيال ردود فعل عنيفة قام بها أتباع السيد ومقلدوه في مدينة الثورة ببغداد، وذلك يوم السبت الذي تلا يوم الاغتيال، فأغلقت المدينة ذلك اليوم واسـتمر الحظر لمدة أربعة أيام، وقتل في تلك الأحداث مـن أهـل تلـك المدينة مـا يقرب من (500) شـخص مـن أتباع الصـدر الثاني (ملاحظة للباحث).

70 - في ديوانه الصادر عام 2012 في الدنمارك.

71 - طـارق عزيـز وجيمس بيكر: نصوص الحرب، المحادثات الكاملة التي جرت فـي جنيف قبيـل حرب الخليـج بأيام، بيـروت، المؤسسـة العربية للدراسـات والنشر، 1992، ص 46

72 - وهي من العبارات التي دبجها الدكتاتور في واحدة من خطبه (الباحث).

73 - وذاعت له جملة (جوامع.. كنائس.. دور عبادة) (الباحث).

74 - يقدّر البعض عددها بـ(مئة) قصر (دون كاتب: أكثر من 100 قصر لصدام حسـين فـي العراق.. هذه حالهـا اليوم، العربيـة نت، فـي: 05 فبراير، 2022، بحسب الرابط:

https://www.alarabiya.net/arab-and-world/iraq/2022/02/05

75 - ظهـرت طرفـة مبكيـة آنـذاك تقول: (في مسـابقة حول أكبـر بلد يضم سحرة، تنافس الهند والصين وبريطانيا وأميركا والعراق، وبينما أخبر ممثل كل بلد عن عدد السحرة في بلده، والعدد في أحسن الأحوال لا يتعدى المئات، فاز العراقي الذي أخبر المتسـابقين أن العراق يضم أكثر من 18 مليون سـاحرا في زمن الحصار؛ وذلك لأن معظمهم يعيش على راتبه البالغ (دولار ونصف) طوال شهر، فكيف يعيش إذا لم يكن ساحراً؟!). (الباحث).

76 - وهـذه المواد كانت تتضمن غالباً (كيلوغراما واحدا من الطحين، ونصف كيلوغرام من الرز، ومئة غرام من السـكر، ومثلها من الشـاي، وربع كيلو غرام من مواد التنظيف)، ولكن كميات تلك المواد شـهدت زيادة بعد عام 1995 (الباحث).

77 - أي إنه لا يلتصق بسطح التنور فيقع في قعره ويحترق (الباحث).

78 - فسـعر الكيلوغرام من الرز ألف دينـار، والكيلو غرام من الطماطم أصبح بسـعر خمسـمائة دينار، وكيلو غرام الباذنجـان بمئتين وخمسـين ديناراً، وربع كيلـو غرام البصل بمئتين وخمسـين دينـاراً، ومئة غرام مـن المعجون بمئتين وخمسـون دينـار، هـذا إذا فرضنـا أن ربّة البيـت كان لديها مخزونهـا من الخبز (الباحث).

79 - مثـل (وحـش الطاوة) و(صديق الفقير) و(قاهـر الجوع) و(مدمر الحصار) (الباحث).

80 - بمعنـى وحـش المقـلاة؛ لطغيانه علـى بقية الأكلات، فلـم يكن هناك غيره في كثير من الوجبات (الباحث).

81 - وحينمـا ارتفعـت أسـعار الباذنجـان فـي السـوق المحليـة (وصل سـعر الكيلوغـرام الواحـد إلى ألف وخمسـمئة دينار) شـاهدت فيها شـيخاً مسـنّاً يصرخ أشبه بالمجنون في طارمة سوق المسقف (الله واكبر .. معقولة كيلو البيذنجان بألف ونص... ولكم احنا منتصرين وهيجي... جا الله يسـاعدج أمريكا وأنت انهزمت بأم المعارك!) (الباحث).

82 - إذ ظهـر الدكتاتـور المقبور فـي أحد لقاءاته بأعضـاء القيادة عام 1993 ليتحدث عن تبرّمه من شكوى المعلمين من العوز، فقال (خلّي يطلع المعلم بعـد الدوام ويشـيل كرك)، ناسـياً أنه لا وجود لمسـطر للعمـال بعد الدوام الصباحـي، ولا وجـود لعمليـات بنـاء أو ترميـم في سـنوات الحصـار إلا نادراً (مشاهدة عيانية للباحث).

83 - أميـن شـحادة (إعـداد): آثـار الحصـار علـى العـراق، موقـع الجزيـرة، 3/10/2004، بحسب الرابط:

https://www.aljazeera.net/2004/10/03

84 - صـارت عوائـل الكثير من تلاميذ الابتدائية وطلبة المتوسـطة تميل إلى خياطـة حقائـب أطفالهـا في البيت، مـن الـ(جنفـاص)، أو الـ(الكليـم) إذا توفر (الباحث).

85 - لكن المدرسة كانت تبذل جهدها للحفاظ على زجاج صورة الرئيس فوق السـبورة وأمـام أنظار الطلاب، ومكتوب تحت الصـورة وبخط واضح (الرئيس القائد صدام حسـين حفظه الله ورعاه) (عبد الرحمن المالكي: معاناة الطلبة أيام الحصار، موقع براثا نيوز، بتاريخ 01/12/2021، بحسب الرابط:

http://mail.burathanews.com/arabic/articles/403830

86 - عبد الرحمن المالكي: المصدر السابق

87 - آنذاك سينتشـر مثل شـعبي قديم عن المسـاواة بين صاحب الشـهادة والجاهل: (خرّيج مرّيج كلها بالابريج) (الباحث).

88 - وهـو الصديـق (ماجد عبـد زغير) صاحـب (مكتبة ماجـد) المعروفة في الديوانية (الباحث).

89 - صار الأغنياء يربّون كلاباً للحراسة، وحدث أن أحدهم يتفاخر بأن كلبه من نـوع الـ(wolfdog) مدرّب لكـي يحمي البيت من اللصـوص، وبعد بضعة أيام سـأله أحـد أصدقائه عـن الكلب، فقال له: لقد سـرقه اللصـوص ولم ينبح أو يصدر صوتاً (الباحث).

90 - واحـدة مـن هـذه الطرق هـو أن يُترك ديـك عرب أو هراتـي في طريق يمـر بمنطقـة نائية، فما إن ينزل صاحب أي سـيارة مارة بهـذا الطريق محاولا الإمساك بالديك، تكون سيارته قد سُرقت.

91 - في مدينتنا، كان أحد الصاغة المعروفين قد سمع صوتا صادراً من كراج البيت، فحمل سـلاحه (بندقية كلاشـينكوف) وسحب أقسـامها ليجد لصّين يفتحان إطارات سـيارته، وحينما هم بأنه سـيرميهما أخبراه أنهما لن يخرجا من البيت حتى يفتحا إطارات سيارته لبيعها غداً، فما كان منه إلا أن أقنعهما بأنه سيشتري الإطارات منهما، وهو ما حصل (الباحث).

92 - رياض سعد: أيام الزمن الأغبر (الحلقة الثانية) استرداد الحق من السراق، الحوار المتمدن، العدد (7143)، في 23/01/2022، بحسب الرابط:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=742633

93 - واشتهرت هنا عبارة (خط ونخلة وفسفورة) للإشارة إلى العملة الأصلية (الباحث).

94 - مثـلاً صار الطريق الرابط بيـن قضاء الحمزة ومدينة الديوانية، الذي يبلغ طوله 30 كيلو متراً، خطراً للغاية لوجود أكثر من عصابة تسليب في الطريق، وقـد حدثت قصص كثيرة مع واحدة من هـذه العصابات التي كانت لا تتورع عن سـرقة سـيارات المواطنيـن العاديين والمسـؤولين ومـدراء الدوائر حتى الأمنيـة منها، وكما حدث مع السـيارة الحكومية لمديـر (دائرة الكهرباء) في الديوانية التي تحمل جهاز اتصالات غالي الثمن، وسيارة (مدير دائرة الري) في مدينة الديوانية، وكان الأول قد قام بدفع مبلغ مالي كبير آنذاك لاسـتعادة سيارته، ومن أمثال هذه القصة الكثير (الباحث).

95 - فمثـلاً: إذ أردت أن تنقـذ ابنك المظلـوم الذي اعتقل بتهمة التآمر على النظـام من حبل المشـنقة وتحول حكمه إلى السـجن المؤبـد، فما عليك إلاّ أن تدفـع مبلغـاً مالياً يتـراوح ما بين (5) إلـى (25) مليون دينار (رياض سـعد: أيام الزمن الأغبر (الحلقة الثانية) اسـترداد الحق من السراق، الحوار المتمدن، العدد (7143)، في 23/01/2022، بحسب الرابط:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=742633

96 - ريـاض سـعد: أيام الزمـن الأغبر (الحلقـة الأولى) الفقير وخيـارات الفقر المتعـددة، الحـوار المتمـدن، العـدد (7124)، فـي 02/01/2022، بحسـب الرابط:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=742633

97 - وكان يُدعى (علاء القاضي)، الذي تم اغتياله فيما بعد في العام 1999. وكنـتُ قـد زرته بمعية أحـد أصدقائه في مكتبـه الكائن فـي القصر الأبيض، وواجهتنا في مدخل مكتبه لوحات حملت (كتب شكر وتقدير) له موقّعة من قبل الرئيس نفسه، وذلك لتبرعه بمبالغ بالعملة الصعبة تتراوح مقاديرها بين (مئة ألف دولار) و(خمسين ألف دولار)، إلى خزينة الدولة آنذاك، ولكنه أسرّنا أن الأسـتاذ (ويقصد عدي) قد أرسل له سيارة مرسيدس شبح (هدية)، وقال بأن عليه الآن أن يرسـل إليه (125) مليون دينار كثمن لهذه الهدية، قائلاً إنه يملك ثلاث سـيارات شـبح وليس بحاجة إلى سـيارةٍ أخرى، لكنه سيرسل على مضض ذلك المبلغ (الباحث).

98 - يمكـن أن نستكشـف بعـد التدقيـق أن هـذه الكلمات هـي خطاب من الدكتاتـور موجّه للنـاس، وإلا فهل يمكن أن نتخيل علاقة عاطفية تسـتكنها هذه الكلمات (الباحث).

99 - عـرض التلفزيـون في أول أسـبوع له (فيلماً إباحيـاً) لكي يرى ردود فعل النـاس، فلمـا جـاءت ردود الفعـل غاضبـة، امتنـع التلفزيـون عـن فعل ذلك (الباحث).

100 - في حديث مع أحد المهتمين (الباحث).

101 - ريـاض سـعد: أيـام الزمـن الأغبـر (الحلقـة الثانيـة) اسـترداد الحق من السراق، الحوار المتمدن، العدد (7143)، في 23/01/2022، بحسب الرابط:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=744663

102 - ريـاض سـعد: أيام الزمـن الأغبر (الحلقة الأولى) الفقيـر وخيارات الفقر المتعـددة، الحـوار المتمـدن، العـدد (7124)، فـي 02/01/2022، بحسـب الرابط:

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=742633

103 - لـن تغيـب عـن ذهـن الباحث تلك الحادثـة التي جرت فـي صباح اليوم التالي لهروب (حسين كامل وشقيقه)، والتي كان بطلها أحد الركاب القادمين من أطراف المدينة (الجلبية) من سـيارة (الفولكا) ونزل مقابل طارمة السوق الكبير في وسـط المدينة، وهو يصيح (ليش شـرد؟) (أي لماذا هرب؟) وما إن بدأ الناس بالتجمعّ حوله، حتى فاجأهم بالصراخ (ليش شرد، جان ياكل بيذنجان مثلنا؟) (أي لماذا هرب؟ هل كان يتناول الباذنجان مثلنا؟).

104 - زكي شـهاب: محاولة اغتيال عدي صدام حسين. المنفذون معارضون أم من أركان النظام؟ صحيفة الحياة اللندنية: 23 - 12 - 1996، بحسب الرابط:

https://www.sauress.com/alhayat/31884195

105 - علاء بشير: كنت طبيباً للرئيس، القاهرة، دار الشروق، 2004،

106 - طـه العانـي: 30 عامـا على انطلاقهـا.. ما أبرز محطـات التفتيش عن أسـلحة الدمـار الشـامل فـي العـراق؟، موقع قنـاة الجزيـرة الإخباريـة، في 21/9/2021، بحسب الرابط:

https://www.aljazeera.net/politics/2021/9/21/30

107 - كان معظـم العراقيين يتندّرون من أن لجان التفتيش كانت قد وصلت إلى خزانات الملابس الداخلية للرئيس وعائلته، فلم الاعتراض الآن؟ (الباحث).

108 - جـاءت عملية (ثعلب الصحراء) على خلفيـة تقرير لرئيس بعثة التفتيش (ريتشارد باتلر) قدّمه إلى مجلس الأمن الدولي في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر عـام 1998 اتهـم العراق فيه بعدم التعاون مع البعثـة الأممية (طه العاني: هدفت لقتل صدام حسـين وتدمير قدرات العـراق.. تعرف على عملية ثعلب الصحراء الأميركية، موقع قناة الجزيرة الإخبارية، في 16/12/2020، بحسـب الرابط: 16/ 12/ https://www.aljazeera.net/news/2020

109 - فـي عمليـة (ثعلب الصحراء)، نفّذت الطائرات الحربية الأميركية (623) طلعـة، ضـد (100) هدف، وألقـت (540) قنبلة، فيما نفّـذ البريطانيون (28) طلعـة جوية، ضد (11) هدفاً، وأدى القصـف لمقتل ما يقرب من (62) جندياً عراقيـاً، وجـرح ضعفي هـذا العـدد، وكذلك مقتـل (82) مدنياً (طـه العاني: هدفت لقتل صدام.. مصدر سابق)

110 - موقع ويكيبيديا (الموسـوعة الحرة): قصف العراق (1998)، بحسـب الرابط: https://ar.wikipedia.org/wiki

الحصار على العراق (1990 - 2003)

تمظهرات الصدمات الاقتصادية

كامل داود

توطئة

طفِقت حالة التدهور والنكوص في العراق بالظهور إبّان السنوات الأخيرة من عقد السبعينيات، وقد شهدت تداعياتٍ على مجمل الأوضاع السياسية والاقتصادية، ثم جاءت الحرب العراقية - الإيرانية التي استمرت قرابة العشر سنوات، فأتت على الأخضر واليابس، وتحول الاقتصاد العراقي من اقتصاد بناء وتنمية إلى اقتصاد حرب؛ فقد أقدمت الحكومة العراقية عام 1986 على طبع الدينار العراقي بلا غطاء من الخدمات أو الإيرادات النفطية الكافية لتتمكن من تمويل نفقات الحرب المتزايدة، ولم يقف التدهور عند هذا الحد؛ فبعد أن وضعت الحرب أوزارها خرج العراق منها مدمَّرا منهكا مثقلا بالديون، تضخمٌ جامح وصل إلى 500 %، وبطالة بنسبة 50 %، ومعدل نمو متدنٍّ بحوالي 2 %، إن هكذا اقتصاد أقل ما يوصف به بأنه اقتصاد رخو، يفتقر إلى الدعامات الأساسية القوية التي تجعل منه اقتصادا قادرا على تجنب الصدمات والنهوض في عمليات إعادة الإعمار[1].

وفي العراق، شكّل النفط أحد روافد ظاهرة الاستبداد، من خلال هيمنة الدولة على كل الموارد الاقتصادية، إنها أسّست كيانها القوي على الاقتصاد الريعي، وجعلت المجتمع هامشا عليها، يستهلك ثرواتها وأفكارها وقيمها، وفقدت الدولة الكفاءة في أداء دورها، وترهلت حتى أصبح البلد يمخر في لجّة من بنية تحتية مدمرة ومشاكل اقتصادية كبيرة، منها البطالة والفقر[2].

وهنا يصح رأي الشهيد (مهدي عامل)؛ إذ لا توجد طبقات مهيمنة، بل طبقات مسيطرة، والسلطة فقط من يصنع الثروة، لا الثروة من يصنع السلطة[3].

إن صورة السبعينيات البرّاقة تلاشت، وحل محلها وضع اقتصادي مظلم وخراب واسع في جميع أنحاء البلاد، وضياع الأمل بالنسبة للأجيال القادمة

وكانت المشاكل الاقتصادية الأخرى التي هيمنت على الاقتصاد العراقي، والمتمثلة بالتضخم، والتسريح الجزئي من الجيش، والبطالة، وتزايد المديونية الخارجية، وتراجع إيرادات النفط، وتآكل قيمة العملة، وتردد القطاع الخاص أو عدم استجابته لتوجهات الحكومة، والنقص الحاد بالموارد المتاحة للبناء والتعمير، وركود الإنتاج، وتدهور المستوى المعاشي، وحالة الفقر العامة، كانت كلها جزءًا من الأعباء التي أجهدت الاقتصاد العراقي لفترة ما بعد الحرب مع ايران[4].

وفي مستهل عام 1990، نُشر تقرير سري حول الأوضاع الاقتصادية في العراق وضعه مصرفي كبير جاء فيه: (إن صورة السبعينيات البرّاقة تلاشت، وحل محلها وضع اقتصادي مظلم وخراب واسع في جميع أنحاء البلاد، وضياع الأمل بالنسبة للأجيال القادمة، تُرى هل هناك ما يمكن عمله لتغيير هذا الواقع المؤلم؟ يحزنني أن أقول إنه في ظل الحكومة الحاضرة لا بد أن يسير الوضع من سيئ إلى أسوأ)[5].

وفي هكذا حال حرجة، قام النظام الأحمق بغزو الكويت، مما أشعل فتيل حرب أخرى سمّيت بحرب الخليج الثانية، فقد ادّعى النظام العراقي بأن هنالك عدداً من الأسباب الاقتصادية تبرر غزو الكويت، تم تكييفها على أساس أنها عدوان اقتصادي ضرره أكبر من ضرر العدوان العسكري. إن تجاوز الكويت لحصصها الإنتاجية المحددة في منظمة الأوبك قد أدّى إلى زيادة العرض الذي نجم عنه تخفيض الأسعار، وذلك أثّر سلبا بدرجة كبيرة على الاقتصاد العراقي الذي يرتكز على تصدير النفط، وادّعى النظام العراقي بأن الكويت اتخذت إجراءات قانونية ذات طابع اقتصادي عملت على المساس بقيمة الدينار العراقي، وأقامت مواقع عسكرية ومزارع ومنشآت على الأراضي العراقية، وتعدّت الكويت على الثروات الطبيعية والباطنية للعراق من خلال سحب البترول من حقل الرميلة[6].

إن حرب الخليج الثانية أجهزت على ما تبقى من الركائز التي سلِمت من حرب الخليج الأولى (العراقية - الإيرانية)، وبعد تلك الأفعال التي قام بها العراق ارتأت الدول الكبرى الممثلة للمجتمع الدولي ومجلس الأمن توقيع تدابير عقابية بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، وأصدر المجلس عدّة قرارات تضمنت عقوبات اقتصادية ودبلوماسية، تمثلت في منع الاستيراد والتصدير وتجميد الأموال العراقية[7]، فكان القرار الدولي رقم (661) لسنة 1990 الذي تضمّن حظرا اقتصاديا شاملا، وإيقاف تصدير النفط بصورة كاملة، قبل أن تبدأ العمليات العسكرية لإجبار القوات العسكرية العراقية على الخروج من الكويت، وسرعان ما أعلنت الحكومة العراقية من إذاعة بغداد في الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة من فجر

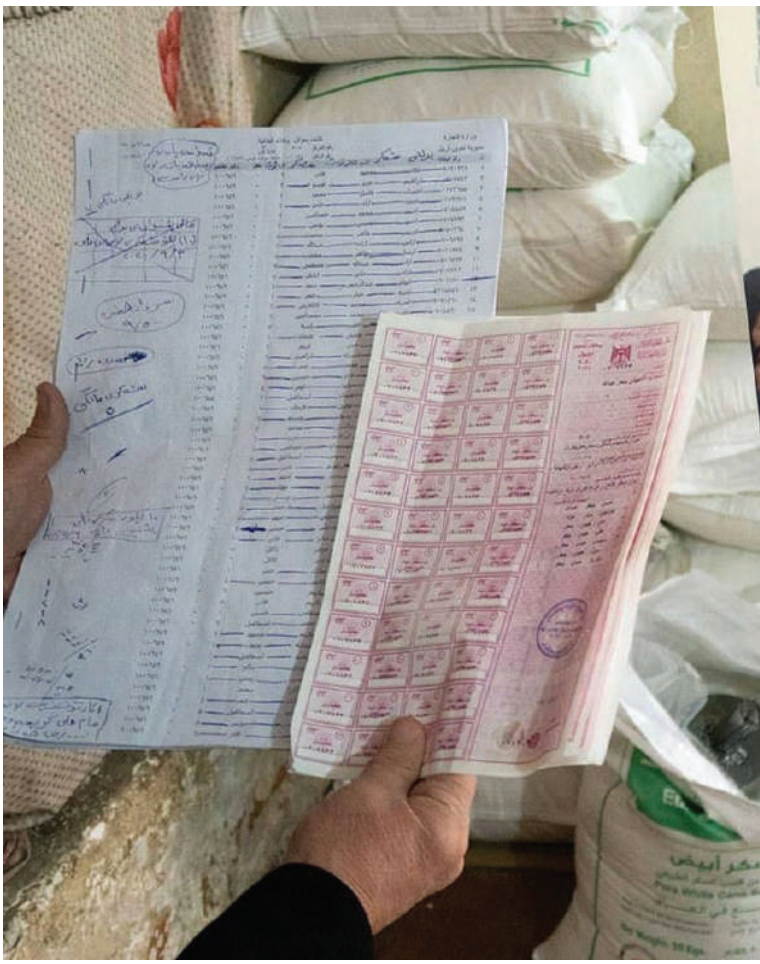

يوم 26 /2 /1991 قرار سحب القوات من الكويت. لـم يكن منـدوب العراق في الأمـم المتحدة (عبد الأمير الأنباري) قد تسـلّم أي إشـارة من حكومته، بل عدّ الأمر من قبيل الإشـاعة عندما سـمعه من الإذاعـات[8]، مثلما كان قـرار غزو الكويت الذي فاجأ رئيس أركان الجيش[9].

اسـتمرت الأوضـاع بالانحطاط وتفاقمت مشـاكل النظـام، ممـا أدى إلى اندلاع انتفاضـة آذار 1991، التـي تعامـل معهـا النظـام بمنتهـى القسـوة والوحشية، وعمّ الدمار والخراب في كل مكان[10].

البطاقة التموينية

بعد شهر واحد من دخول الكويت، أعلنت الحكومة العراقيـة عـن تطبيـق نظـام كان العراقيـون قـد عرفـوه فـي الحـرب العالميـة الثانية؛ فقد سـيطر شـبح المجاعـة علـى النـاس وهرعـوا للأسـواق يتبضّعـون ما يمكـن تبضّعه مـن السـلع الغذائية، لكنهـم فوجئوا بإخفائها من قبل التجار، فسـارعت الحكومـة إلى إصـدار (البطاقة التموينيـة)، وتراجع علـى الفـور إقبال الجمهـور على السـلع الكمالية، بـل إن أغلـب العراقيين أخـذوا يبيعـون مدّخراتهم مـن الذهـب والموجـودات الثمينـة للحصول على مـواد غذائيـة وتخزينهـا، وتراجعـت قيمـة الدينـار العراقـي بنسـبة 1 /20 من قيمته بعـد الثاني من آب 1990.[11]وشـرعت الحكومـة العراقيـة بالتدخل القسري في سعر التوازن بين المطلوب من السلع وكمياتهـا المعروضـة، فأدى ذلك اختفاء السـلعة قبـل أن يحصـل عليها المسـتهلك، الأمر الذي ولّد حرمانـا لقطـاع كبير مـن المواطنيـن. ويظهر ذلك فـي المشـاهد المألوفـة للطوابيـر الطويلـة فـي سبيل الحصول على سلعة استهلاكية معينة (مثل البيـض أو معجون الطماطم ... الـخ) أمام المنافذ الحكومية للتوزيع، وكذلك استفحال ظاهرة السوق السـوداء. هكـذا تكـون نتيجـة اللجوء إلـى التدخل بالأسعار بعيدا عن قوانين العرض والطلب، ولهذه الأسـباب أصدرت الحكومـة (البطاقـة التموينية)، وبها تحدد كميات من السلع الضرورية للاستهلاك علـى هيئـة حصـص محـددة بوثائـق التوزيـع. إن هذه السـلع تكون مدعومة مـن الحكومة، ويكون المسـتهدف بالاستفادة منها هم أصحاب الدخول المنخفضة. إن هذا الإجراء يؤدي إلى تحول جزء كبير من الطلب الكلي إلى (طلب مؤجل)، ويشمل أيضا الطلب على العمل مما يؤدي إلى انخفاض الأجور. وكانـت النتائج تشـير إلى الإخفاق فـي المحافظة علـى قوانيـن آلية السـوق، والحد من التشـوهات الاقتصاديـة والانحرافـات، والأجـدر أن تتـرك اليـد الخفية - كما يسـميها (آدم سميث) - تدير الأسعار والأجـور؛ لأن القوانيـن الاقتصاديـة بُنيـت علـى سـلوكية طبيعية للإنسـان تجـاه المنافع وإشـباع الحاجات من الموارد الاقتصادية المتوفرة.[12]

ومما زاد المشـهد قتامةً، تأثر المستهلك العراقي

قبل ذلك بانفتاح الأسواق وتدفق السلع الأجنبية، فتولدت لديه عادات استهلاكية تتسم بالبذخ والاستهلاك، لذلك لم يعد هنالك متسع للادخار، واستفحل التفاخر الاجتماعي ومحاكاة الآخرين، فكان الاستهلاك الكلي أكبر بكثير من نسبة الزيادة بالدخل القومي[13] في دولة يستحوذ عليها أسلوب الاقتصاد الريعي معتمدا على إيرادات النفط في سد احتياجاته، مقابل ضعف مساهمة القطاعات الأخرى نتيجة لفشل أغلب المشاريع الصناعية الإنتاجية؛ بسبب سوء التخطيط والإدارة وتراجع الإنتاج الزراعي المحلي[14].

وعندما رأت الحكومة إخفاقها في توفير مفردات البطاقة التموينية بشكل سليم، وعدم قدرتها على إدارة الملف الاقتصادي والمحافظة على انسيابية توفر المواد الأساسية في الأسواق، ألقت باللائمة على تجار القطاع الخاص، واتّهمتهم بالتلاعب بـ(قوت الشعب)، وأصدرت في تموز 1992 قرارا بإعدام عشرين تاجرا نُفِّذ في نفس اليوم، رافقه اعتقال أكثر من 400 تاجر آخرين.

جذور التضخم

إن التضخم بالعراق هو تضخم نقدي الجذور، بدأ نتيجة ارتفاع إيرادات النفط منذ مطلع السبعينيات، واستمر بالارتفاع خلال الحرب العراقية - الإيرانية. وفي هذا الجانب، تبرز الحاجة إلى التمييز بين كون النقود ذات قوة شرائية، وبين كونها أداة شرائية؛ فالقوة الشرائية هي قدرتها على اقتناء السلع والخدمات، بينما الأداة الشرائية هي وسيلة الشراء نفسها من نقود وودائع، لذا فقد تكثر أداة الشراء دون زيادة في قوتها الشرائية فيكون التضخم، أو تقل أداة الشراء مع زيادة في القوة الشرائية فيكون الانكماش.[15]

إن تحرير الأسعار في بيئة اقتصادية متهالكة تعاني أصلا من ارتفاع معدلات الطلب الكلي (طلب مكبوت) وعرض محدود، بوجود تدفق نقدي مفرط، يفضي إلى ارتفاع حتمي بالأسعار، وانخفاض بقيمة العملة، وتضخم مضطرد[16] استمرت نتائج التقلبات في قيمة النقود، المتأتية عن التقلبات في المستوى العام لأسعار السلع والخدمات، في إرباك الأنشطة الاقتصادية، وطبقا للنظريات النقدية؛ يصبح من الجائز أن يكون الارتفاع بنفس العلاقة النسبية بين السلع والخدمات قبل الارتفاع[17].

عندما رأت الحكومة إخفاقها في توفير مفردات البطاقة التموينية بشكل سليم، ألقت باللائمة على تجار القطاع الخاص، واتّهمتهم بالتلاعب بـ(قوت الشعب)، وأصدرت في تموز 1992 قرارا بإعدام عشرين تاجرا نُفِّذ في نفس اليوم

وكانت الحكومة العراقية قد أصدرت قبلها قانون رقم 32 لسنة 1986، الذي يُشرّع بيع وتأجير أموال الدولة العراقية، واختارت عددا من المشاريع والأصول وحوّلت ملكيتها إلى القطاع الخاص، مبتغيةً من هذا الإجراء الحصول على زيادة في الإنتاج والتخفيف عن كاهلها الإداري، وبالتالي يمكن أن يكون ذلك مصدرا للتمويل[18].

حاولت الحكومة من خلال هذه الإجراءات الساذجة أن تحد من التضخم، وفي الوقت نفسه استمرت بطبع كميات هائلة من العملة الورقية بتقنية بسيطة يسهل تزويرها، وأربكت التداول بها، فلجأ المتداولون إلى اقتناء أجهزة تكشف التزوير، وشاع حينئذ مصطلح (خط ونخلة وفسفورة) لاستلامها. في البدء تم استيعاب التداول النقدي بعملة من غير غطاء، و يعود ذلك الاستيعاب إلى المخزون من قوة الاقتصاد العراقي الموروثة والخزين من الموارد، واستطاعت الحكومة أن تموّل بهذه

العملة عددا من المشاريع الكبيرة لغرض إظهار سطوتها في كسر الحصار وتحقيق ما أسمته (العبور الناجز)، وكان (الجسر ذو الطابقين) مثالا على ذلك؛ فقد شاع تصريح عن أحد المسؤولين «بأنهم أنجزوا هذا الجسر بكلفة قدرها طن من الورق وبرميل من الصبغ»، والواقع أن المواد الإنشائية جُمعت من الأسواق المحلية بكلف قد دُفعت سابقا عند استيرادها، ناهيك عن أقيام الآليات والوقود وقوة العمل.

عندما رأت الحكومة إخفاقها في توفير مفردات البطاقة التموينية بشكل سليم، ألقت باللائمة على تجار القطاع الخاص، واتّهمتهم بالتلاعب بـ(قوت الشعب)، وأصدرت في تموز 1992 قرارا بإعدام عشرين تاجرا نُفِّذ في نفس اليوم

ظاهرة (سامكو) و خدعة (هرم بونزي)

إن (خدعة بونزي) أشهر نظرية احتيال في التاريخ، تُنسب إلى محتال إيطالي يدعى «تشارلس بونزي»، هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عشرينيات القرن الماضي وبجيبه دولاران ونصف، واستطاع خلال ثمانية أشهر أن يجمع خمسة عشر مليون دولار، وكان هذا المبلغ في حينه ثروة طائلة. استطاع هذا المحتال إقناع عدد من الناس بأنه يستثمر بالقسائم البريدية ذات الأرباح العالية والمضمونة، وتقوم خدعته على الاقتراض من مستثمر اليوم ليدفع أرباح مستثمر الأمس، مع إبقاء الجزء الأكبر من الأموال لصالحه. إن هذه الخدعة شاعت في مصر خلال الثمانينات، وهي من الظواهر التي عُرفت في أثناء الحصار على العراق للأسباب التالية:-

1. عدم ثقة المدّخرين بالمصارف الحكومية لإيداع أموالهم.
2. التآكل اليومي للقيمة الشرائية للدينار العراقي.
3. وجود نمط من الناس يستحوذ عليهم الهوَس في جمع المال والثراء السريع, وهؤلاء هم الوسط الذي يشتغل عليه المحتالون.

وكان الاسم الأشهر الذي برز في هذه الظاهرة هو «سامكو»، عُرف على أنه مستثمر كبير يمكن أن يشغّل الأموال بفوائد من 30 إلى50 %، و استطاع هذا الشاب العشريني الذي لم يكمل الدراسة المتوسطة أن يجمع ثروة قدِّرت بأقل الأحوال بمليار وثلاثمائة مليون دينار خلال ستة أشهر، ويمتلك أسطولا من السيارات الحديثة وعددا من العقارات في مناطق مهمة، ويعمل لديه 131 وكيلا، ويكون بأمرته عدد من المحامين، والغريب بالأمر أنه يثبت تفاصيل عمله المحاسبي بسجل بسيط، بعد أن كان يعمل حلاقا براتب شهري لا يتجاوز 13 دينارا.[19]

استطاع أن يقنع ضحاياه بالفوائد الكبيرة على أموالهم التي يستثمرها لهم في مشاريع تجارية، والواقع أنه ليس هناك أي مشروع، وما المصدر الحقيقي لهذه الأرباح إلا جزء من أموال ضحاياه من المستثمرين الجدد، وهكذا حتى يبدأ عدد المستثمرين بالتناقص، وتغدو الأموال الجديدة أقل من الأرباح الواجب دفعها، ففي هذه اللحظة يتوارى عن الأنظار قبل أن يقع في قبضة القانون، ويترك المستثمرين في حيرة وذهول، غارقين في لجّة من المشاكل والديون.

الصدمة الاقتصادية 1996 (نزلة رمضان)

أدّى استمرار النمو الكبير للعملة في التداول إلى خلق حالة تزامن بين التضخم والركود في أثناء التسعينيات (زمن الحصار الاقتصادي)، ولا بد للعلاقة بين التضخم والبطالة أن تولد ما يعرف (بالتضخم الركودي). لم تستطع الحكومة بكل إجراءاتها مكافحة التضخم، حتى عندما انتهجت

سياسة نقدية انكماشية؛ لأن السياسة الاقتصادية المزاجية وظـروف الحرب والحصـار الاقتصادي لم تتـرك للنهضة الزراعية أن تطور أدواتها الاقتصادية وترتقي إلـى صناعة تحويلية ترفع مؤشـرات النمو الاقتصـادي وتدعـم مسـتوى القيمـة المضافـة، وكان عـرض النقـد أسـرع نمـوا من الناتـج المحلي الإجمالـي، ممـا أدّى إلـى اندفـاع الأسـعار نحـو الارتفـاع، وتفوق الطلب على العـرض، الأمر الذي كـرّس حالـة التضخم الركـودي. وأخفقت الحكومة مـرة أخرى في محاولاتها لكبح جماح هذا التضخم، على الرغم من كل الأسـاليب القسرية التي اتّبعتها لهذا الغرض، مثل المجهود الحربي، وتخوين التجار، والمصادرة، والتبرع الإجباري، وغيرها.

أمـا الواقـع؛ فيشـير إلـى ظهـور علاقـة معنويـة ونفسـية لـدى العراقيـين بيـن الدينـار العراقـي والـدولار الأمريكـي، فقـد أخذت القدرة الشـرائية للدينـار العراقـي بالتـآكل السـريع؛ لأن التضخـم أخـذ منحى جامحـا جموحا شـديدا، حتـى إن التجار والمضاربين كانوا لا يحتفظون بالدينار العراقي ليلة واحـدة، فكانوا يحوّلون مبالغهـم إلى دولار أو أي موجود ثابت، في نهاية كل يوم عمل.

هـذه العلاقة وذلـك التلازم بيـن الدينـار العراقي والدولار الأمريكي انفكّا سنة 1996 بعد الموافقة على تطبيق برنامج النفط مقابل الغذاء[20].

أخفقت الحكومة مرة أخرى في محاولاتها لكبح جماح هذا التضخم، على الرغم من كل الأساليب القسرية التي اتّبعتها لهذا الغرض، مثل المجهود الحربي، وتخوين التجار، والمصادرة، والتبرع الإجباري، وغيرها

وظّفت الحكومة ماكنتها الإعلامية والدعائية للإعلان عن توزيع مواد غذائية إضافية في البطاقة التموينية الجديدة، وانتشرت بين الناس قوائم بكميات وأنواع هذه المواد، يرافق ذلك أخبار (عاجلة) يبثّها التلفزيون الرسمي عن قرب وصول بواخر تحمل مواد تموينية من مناشئ ذات جودة عالية. إن هذه الأخبار أحدثت فعلها في التداول النقدي العام، وتمسّك العراقيون بما في حوزتهم من نقود، وساد شعور عام بالتفاؤل، وانخفضت قيمة السلع الأساسية انخفاضا كبيرا، مما أدّى إلى انهيار الأسعار المبني على وهم اكتناز الدينار العراقي وتأجيل الطلب، وتدخلت السلطة لبيع وشراء العملة وجمعت كميات كبيرة من الدولار الأمريكي. بعدها واصل الدينار تراجعه ببطء؛ لمحدودية كميات النفط المصدرة التي سمحت بها الجهات الدولية (600 ألف برميل فقط)، إذ إن برنامج النفط مقابل الغذاء قد ارتبط بأسعار النفط التي أخذت بدورها بالتراجع، ولم يستفد العراق كثيرا من الكميات المصدرة [21].

نخرت البطالة جسد المجتمع؛ فهي تقود إلى انخفاض الدخل أو انعدامه، ومن ثَمَّ يكون الشخص المعطّل في أزمة كبيرة من الفقر والحرمان، وهنا قد ينجرف إلى سلوك إجرامي أو انحرافي.

هذه الصدمة الاقتصادية المبنية على الوهم، التي أدارت الحكومة أحداثها، سبّبت خسائر فادحة للقطاع الخاص، وخلقت شروخا اجتماعية واضحة، بما أحدثته من المشاكل في القطاعات والأنشطة الاقتصادية المختلفة، والتي عرفت شعبيا (نزلة رمضان).

الخاتمة

درجت الحكومة بشكل مستمر على الاستخفاف بالثوابت الاقتصادية، وانتهاك قوانينها، فكانت نتيجة ذلك عددا من الصدمات الكبرى، بهيئة أحداث مفاجئة تؤثر في المتغيرات الاقتصادية التي يكون مصدرها داخليا أو خارجيا، ويكون تأثيرها إما في جانب الطلب الكلي أو في جانب العرض الكلي[22].

ونشأت طبقة برجوازية بيروقراطية تميزت بعلاقتها النوعية مع السلطة، وعادةً ما تتطابق مصالحها مع المصلحة السياسة، استطاعت من خلال تلك العلاقة أن تستغل القطاع الحكومي لصالحها، وأن تستحوذ على فائض القيمة الاجتماعي العائد للمجتمع ككل، والاستفادة من الاختلالات الهيكلية في الاقتصاد وانتشار الفساد والمضاربة والتهرب الضريبي والكمركي، ويمكن ملاحظة كيفية ثراء هذه الطبقة على الرغم من نشاطها غير المنتج.[23]

أما الطبقة الوسطى المعوّل على سلوكها الاقتصادي؛ فقد انقسمت على نفسها، فكانت الشريحةُ العليا منها قريبة من السلطة ومن صنّاع القرار السياسي فلم يتدهور مستواها الاقتصادي، في حين انقسم أصحاب الرواتب الثابتة على قسمين: قسم ترك الوظيفة، والقسم الآخر فضّل الاحتفاظ بالوظيفة مع مزاولة عمل إضافي، أو اللجوء إلى الاسترزاق من الوظيفة عن طريق الابتزاز والرشوة.

وما فتئت البطالة تنخر في جسد المجتمع؛ فهي تقود إلى انخفاض الدخل أو انعدامه، ومن ثَمَّ يكون الشخص المعطّل في أزمة كبيرة من الفقر والحرمان، وهنا قد ينجرف إلى سلوك إجرامي أو انحرافي. وقد أثبتت الدراسات أن التفاوت الكبير في الدخل، مضافا إليه الفقر المدقع، يولّدان أعدادا كبيرة من المعطّلين المقهورين، وقد يلجأ بعضهم إلى الإجرام لتحسين وضعه الاقتصادي، إنهم يشعرون بأن لا شيء لديهم يخافون خسارته،

بـل العكس؛ يمكن أن يربحوا شـيئا ما، إنهم يعانون انحطاطا في تقدير الذات، وانخفاضا في مسـتوى اليقظـة العقليـة والجسـمية، والقلـق والاكتئاب والضياع والعزلة والإحباط وكراهية المجتمع.[24]

وطَفَت على السـطح التشوهات في توزيع دخول عوامـل الإنتـاج، واسـتفحال النشـاطات الطفيلية لفئات مرتبطة بالحكومة، سـرعان ما تشكّلت على صورة جهة ليس لها همٌّ سـوى سرعة الربح وتراكم الثـروة، ولا يعنيهـا من التنمية الاقتصادية شـيء، ممـا أدّى إلـى انكشـاف المسـتهلك أمـام هـذه الضغوط، يتوّج ذلك إمسـاك اليـد عن دعم الإنتاج الوطنـي وانعـدام التوازن بيـن الثـروات المتراكمة والرفاهيـة، وتـرادف التقلبـات الاقتصاديـة التـي تكمـن فـي النتائـج، فقـد تكـون تضخمـا أو عجزا، ولـكل منهما تأثيـره وصورته التي تظهر في الدخل القومـي، والتغييـر فـي المشـاريع، والتقلبات في السيولة والأسعار، و غيرها[25].

أدّت تلـك الظـروف إلـى ظهـور حـركات دينيـة متطرفة قُمِعت بأقسـى الوسـائل، على الرغم من أن مثـل هـذه الحـركات لا تنشـأ بالضرورة بسـبب الفقر والدكتاتورية فحسب، ولا نتيجة نمط ثقافي محـدد؛ بـل يمكـن أن تكـون نتيجـة للتناقـض بين توقعـات النـاس وقدراتهـم الضعيفة بعـد مرحلة الازدهار التي مرُّوا بها[26].

إن التسـاؤل يشـغل المواطن العراقي عن إمكانية تجـاوز هـذه الاختـلالات الهيكليـة فـي الاقتصاد، والرجوع بالمسـتوى المعاشي اليومي إلى ما كان عليه في العقود التي سـبقت حرب الخليج الأولى، مـع افتـراض اسـتمرار توفـر المـوارد الاقتصاديـة الأساسـية، والقـدرة و الإرادة علـى تحريـك عجلة الاقتصـاد نحـو التعافـي والنهـوض، بعد مـا جناه الحصـار علـى جميـع مسـتويات الحيـاة العامـة للعراقييـن من النتائـج المخيفـة، والصدمات التي مرّت في تلك السـنوات ووثّقتها الأرقام، والنِّسب التـي تسـتثير مشـاعر الحـزن والقلق علـى المدى البعيد.

الهوامش (Endnotes)

1 - أثـر الصدمـات الاقتصادية في بعض متغيـرات الاقتصاد الكلي في العراق للمدة من (1980-2011) رسـالة ماجسـتير، خضير عباس الوائلي، جامعة كربلاء 2012، ينظر ص 84.

2 - التشـكيلة الاقتصاديـة والاجتماعيـة في العـراق 2003-2010، سلسـلة قضايا فكرية، منشـورات الحزب الشـيوعي العراقي، بغداد، 2011، ص 89.

3 - التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية، ص 90.

4 - الاقتصاد العراقي، د. عباس النصراوي، ترجمة محمد سعيد عبد العزيز، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1995، ينظر ص 146.

5 - الغـزو العراقي للكويت، ندوة بحثية، مجموعة باحثين، سلسـلة عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص 99.

6 - العقوبـات الاقتصاديـة الدولية فـي القانون الدولـي المعاصر، خلف بوبكر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 8.

7 - العقوبات الاقتصادية، المرجع السابق، ص 85 - 86.

8 - حرب تلد أخرى، سـعد البزاز، التاريخ السـري لحرب الخليج، الأردن عمان، 1993، ينظر ص 459.

9 - ينظر: الجنرالات آخر من يعلم، سعد البزاز.

10 - التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية، ينظر ص 249.

11 - حرب تلد أخرى، ينظر ص 299.

12 - الإصلاح الاقتصادي في العراق، تنظير الجدوى والانتقال نحو اقتصاد السـوق، د.عبد الحسين العنبكي، دار الصنوبر، بغداد، 2008 ينظر ص 25 - 26.

13 - اسـتراتيجية دراسـة السـوق والسـلعة للتنميـة الاقتصاديـة، هاشم حسين المحنك، مطبعة الرشاد، بغداد، 1982، ينظر ص 48.

14 - أثر الصدمات، ينظر ص 8.

15 - النظريـة النقدية، الدكتور فوزي القيسـي، ط1، بغداد، 1964، ينظر ص 18 - 19.

16 - آليـات التحـول من نظام التخطيط المركـزي إلى نظام اقتصاد السـوق، هشام ياس شعلان، دار الشـؤون الثقافية، بغداد، 2004، ينظر ص 70.

17 - النظرية النقدية، ص 34 - 35.

18 - آليـات التحـول من نظام التخطيط المركـزي إلى نظام اقتصاد السوق، المصدر السابق، ينظر ص 60.

19 - لقاء تلفزيوني قدّمه الراحل (فيصل الياسري) متاح على موقع اليوتيوب.

20 - برنامج الأمم المتحدة الصادر بموجب القرار (986) من مجلس الأمـن لعام 1995، والذي سُـمح للعـراق بموجبه بتصدير كمية من النفط و الشـراء بعائداتها الاحتياجات الأساسية تحت إشراف الأمم المتحـدة، ولـم يوافق عليه العـراق حتى عـام 1996، ووصلت أول شحنة سنة 1997.

21 - الإصلاح الاقتصادي، ينظر ص 111 - 112.

22 - أثر الصدمات الاقتصادية، ص11.

23 - التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية في العراق، ص 68 - 71.

24 - الحرمان النسـبي والهوية الاجتماعيـة، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، فارس كمال نظمي، 2009، ينظر ص 7 - 8.

25 - اسـتراتيجية دراسـة السـوق والسـلعة للتنميـة الاقتصاديـة، المصدر السابق، ينظر ص 60 - 61.

26 - الحرمان النسبي، ينظر ص27.

طريق الموت الطويل:
الحصار والمشهد الشعري في تسعينيات العراق

د. عذراء ناصر[1]

مقدمة

مثل كل جوانب الحياة، تأثّر الشعر العراقي باضطراب ما بعد حرب الخليج الثانية، أي الصراع بين العراق والكويت وما تبِعها من عقوبات دولية على العراق في التسعينيات. علاوة على ذلك، فإن تلك اللحظة التاريخية كانت منعطفًا في تاريخ الشعر العراقي أدخل فيه تغييرات مهمة في الأسلوب والشكل. مثّلت التسعينيات الوقت الذي احتفلت فيها الثقافة العراقية بقصيدة النثر باعتبارها الشكلَ الجديد للكتابة، وأفردت لها مهرجانا شعريا عام 1992.

وحـاول الشـعراء في تلـك الفترة تقديم أنفسـهم بشـكل يضمـن التعبيـر عـن موقفهـم المعـارض والمقاوم للسـلطة الدكتاتورية، وفي الوقت ذاته تجنبهـم القمع والعنـف والقتل جرّاء هـذا التعبير، فكان الشـكل الشعري هو الإطار الذي تبنّاه هؤلاء الشـعراء. يتناول هذا المقال شـهادات من التجربة الشـعرية لمجموعة من الشـعراء الشباب والكتّاب الذين كتبوا ونشروا نصوصا عبّرت عن هذا الموقف، بالإضافة إلى معضلة الخروج من الحرب التي تركت ظلالها على نصوصهم وعبّر عنها النقّاد بأنها محرك ودافع أساسـي من دوافـع الكتابـة والتعبير بنص شعري مغاير - ربما تخريبي - يعبّر عن مقدار الخراب النفسـي والاجتماعي الذي غطّى الأجواء الثقافية والأدبيـة بعد الحرب وفي أثنـاء الصراعات اللاحقة وفـي ظل حصـار وصفَه الكاتـب (جـون بيلجر) في مقاله المنشـور في صحيفة الغارديان في آذار عام 2000 بأنه حصارٌ حتى الموت توفِّي على إثره نصف مليون طفل عراقي، واسـتقال ثلاثة من مسؤولي الأمم المتحدة في حالة من اليأس والألم.[2]

الحصار و الشعر

مـرّ العـراق بثمانـي سـنوات مـن الحـرب العنيفـة مـع إيـران، الحـرب التي أُعلِنـت للدفاع عـن البوابة الشـرقية للأمـة العربيـة المتخيّلـة ودول الخليـج علـى وجـه الخصـوص. أدّت أحـداث مـا بعـد حرب الثمانينيات إلى الصـراع بين العراق والكويت، وقد بلـغ الصـراع ذروتـه بغزو (صـدام حسـين) للكويت فـي 2 أغسـطس 1990، تلا ذلك انـدلاع انتفاضة في المحافظات العراقية الجنوبية والوسـطى ضد حكـم البعث في العـراق عـام 1991، وتم قمعها بشدّة وعزّز هذا القمع حكم دكتاتورية الرجل الواحد لـ(صدام حسـين)، وصارت منذ ذلك الحين أي حركة تهدد سـلطة حـزب البعث تشـكل تهديـدًا لوجود شـخص الدكتاتـور نفسـه. عانـى العراقيـون نتيجة هـذه الصراعات مدة ثلاثة عشـر عامًا من عقوبات الأمـم المتحدة المفروضة علـى العراق وفقاً لقرار الأمـم المتحدة رقم 661 في 6 أغسـطس 1990 بعـد أربعـة أيام فقـط من غـزو (صـدام) للكويت، الـذي كانت له آثار هائلة على المشـهد الاجتماعي والثقافي في حقبة التسعينيات. وانتهى ذلك بغزو قـوات التحالف للعراق عام 2003 والإطاحة بحكم (صدام حسـين). وعلـى الرغم من النهايـة الفعلية للحرب الشـاملة التي اسـتمرت ثماني سنوات في الثمانينيـات، لكن ما أعقب ذلك في العراق لم يُنهِ حالـة الحرب التي كان يعاني العراقيون منها؛ فبدلاً مـن ذلك، أُوجِدت جبهات صراع مختلفة جديدة، تم التعبيـر عنها في تمثّلات الأدب العراقي المختلفة كدولة (الخاكي اللانهائية)*

تُظهـر الأحداث في العراق في التسـعينيات صورة مشابهة من التوتر والاضطراب الاجتماعي الشرس الـذي واجهـه العالـم في الغـرب فـي الثلاثينيات مـن القرن العشـرين. فبقـدر ما كان الغـرب يعاني مـن الآثـار المدمّـرة للحـرب العالميـة الأولـى، لم يكـن العراق يخرج من الحـرب الإيرانية العراقية في الثمانينيات فحسـب؛ بل شـارك أيضًـا في صراعات كبـرى أخـرى، عبّر فيهـا شـعراء العراق عن شـعورٍ بالاغتـراب مشـابهٍ لتعبيـر الشـعراء المقاتلين في أثنـاء الحرب العالمية الأولى، واعتبر شـعراءُ ما بعد الحـرب الاحتفـالَ بالتخريـب Subversion[3] جـزءًا مـن ابتكاراتهـم ومعارضتهـم للدعايـة السياسـية والثقافية السـائدة في فترة ما بعد الحرب. شـهد هـؤلاء الشـعراء لحظـة إدراك عندمـا أصبـح عبءُ ذاكـرة الحـرب لا يطـاق بالنسـبة لهـم، ولا سـيما بالنظـر إلـى أنهم عانوا من حـرب مدمّرة أخرى في حرب الخليج شـعروا فيهـا بأنهم قد أُلقي بهم في محرقة الحـرب. بعض الجنود والضبـاط الذين نجَوا مـن (طريـق المـوت السـريع)، وهـو الاسـم الذي يُطلق على طريق الانسـحاب الذي سـلَكه الجيش العراقي حيـث قصفَت الولايـات المتحدة وقوات التحالف القوات العراقية المنسـحبة تاركين القليل منهـم على قيد الحياة، هـؤلاء القلائل الذين نجوا

(طريق الموت السريع)، وهو الاسم الذي يُطلق على طريق الانسحاب الذي سلَكه الجيش العراقي حيث قصفَت الولايات المتحدة وقوات التحالف القوات العراقية المنسحبة تاركين القليل منهم على قيد الحياة.

من هذا الهجوم المدمر عادوا ليشاركوا في انتفاضة مارس 1991 .[4]

حرص شعراء هذه الفترة الشباب على التعبير عن شعورهم بالغربة عن جو الحراك السائد الذي سيطر على الحياة الثقافية في العراق منذ الثمانينيات وما بعدها. كانت مجموعة الشعراء الذين اعتُبروا ممثّلين عن تلك الفترة مزيجًا غريبًا من "جنود الثمانينيات الذين لم يتمكّنوا من تحقيق المجد الشخصي في الثمانينيات والشبّان الذين بدأوا يلامسون الطريق بعد حرب الخليج الثانية" (الأخرس 2011: 54).[5] يعكس وعيهم بعد الحرب الرغبة في تقريب القارئ من تجربتهم من خلال التفاصيل المرئية القاسية واللغة التخريبية. يرى (الأخرس) أن هؤلاء الرجال يمثّلون "حقبة عدَمية لا مثيل لها" وكانوا بشكل غير مباشر جزءًا من سياسة حكومية لإنشاء ما أسماه "المعارضة النوعية" (2011: 30). هذه الدولة تخلق على حد تعبير (الأخرس) "كرنفال العبث" في التسعينيات. لم يكن عمر بعض هؤلاء الشعراء أكثر من 22 عامًا، وقد قرأوا أو عانوا من حلم "انفجار" الشعر واللغة في الثمانينيات، لكن الحروب الطويلة وخيبة أملهم جعلت منهم جيلًا عدميًا:

"جيل يبدو أنه فقد كل المعتقدات. كل المفاهيم والظواهر كانت متساوية معها بما في ذلك قيم الكتابة والمواقف ... جميع التناقضات التقليدية تساوي هذا الجيل. كل شيء في نظرهم فراغ. هذا ما كرّره المثقفون الجدد وهم يشاهدون مشاهد الخراب وانهيار الدولة كلّها عام 1991، ثم انهيار معارضتها بعد ذلك. خراب أخلاق الحداثة وسحق رموزها التي كانت منذ عام 1980 نموذجًا يُتّبع (الأخرس 2011: 46)."[6]

مثل (الأخرس)، يصف (فرح حطاب) التسعينيات بأنها "عصر الخراب" الذي تسبّب في ارتباكٍ أكثر من أي مرحلة تاريخية أخرى في تاريخ العراق. ويتساءل، هل كان عصر نهاية حرب واحدة وبداية حرب جديدة، أم كانت "ثورة"؟

فرج حطاب

الحلاق

الأخرس

”هـل هي حـرب أم حياة أم ثورة؟ ربمـا تكون ثورة، لكنها ثورة لا تسفك الدماء ولا تحطّم الأجساد ولا تحطّـم الباصات ولا تحطّم زجـاج النوافذ، إنها ثورة الشـعراء الذين يهتزّون من الداخل وأرجلُهم ترتجف علـى بعضها البعض على نبـرة الاضطراب. قبل أن نلقي خطاباتنا، كنّا قادرين على رؤية علامات القلق على وجـوه بعضنا البعض، سـألني (جمال الحلاق) هل ستنسـحب؟ أخبرتُه بأنـه يمكنك فعل ذلك إذا أردتَ. أجـاب ”لا“. فقلـتُ له: ”لماذا تسـألني إذن؟ فـي ذلك المسـاء أعلنّا بياننـا الأول ... إن قصائدنا هي الأسـاس الذي يقوم عليـه وجودنا، وقصائدنا هي ما سنسـتخدمه لخداع كل المسـوخ، والستائر السـوداء والداكنـة، وعصـر القـذارة، والأوسـاخ الروحيـة والعضويـة، وجوقـات التأبيـن، وأقـزام الثقافة والانتهازيين (حطاب 2014).“[7]

يعطـي (حطاب) في هذا الوصـف صورة لما كانت عليه الأمور لهذا الجيل، معلنًا أولاً أن عصر الثورات قـد ولّى بالفعل. بعد أزمـة انتفاضة 1991، عندما قـام حزب البعـث الحاكم بقمع الثـورة بعنف، كان من المسـتحيل تقريبًا على الشعب العراقي أن يبدأ ثـورة أخرى في ظل عقوبات الأمـم المتحدة. اهتزّ هذا الجيل أيضًا من الداخل؛ فقد تم ضبطه على أقل اضطـراب بسـبب كل الأحداث الصادمـة التي مرّوا بها أو شهدوها خلال العقدين الماضيين، والإشارة واضحـة أيضاً إلى الحالة النفسـية والعقلية لهؤلاء الشـعراء ومعاناتهم الداخلية. الحوار بين الشاعرين، رغـم أنه من المفترض أن يكـون حدثًا ثقافيًا، يُظهر مسـتوى الخوف وانعدام الثقة الذي كانوا يعانون منه بسبب الرقابة السياسية والثقافية.

(فـرج حطـاب) - مـن مواليـد 1967 - هـو أحـد الشـعراء المعروفيـن الآن بشـعراء التسـعينيات، عمـل بالتعـاون مع زملائه الشـعراء الذين كرّسـوا جهودهم لسلسـلة من المنشـورات والمجموعات الشعرية، من التسعينيات وحتى الوقت الحاضر؛ من أجل تقديم الأشكال الشعرية والجو الثقافي الذي سـاعد على تطورهـم فـي التسـعينيات، جنبًا إلى جنب مع اهتمامات زملائهم الشـعراء والصعوبات التي واجهوها لتجاوز هذه السـنوات بتجربة شعرية خالصة ومبتكرة وسـليمة. لقد أدّى هذا المسـعى المحفـوف بالمخاطـر إلـى نفـي أو هجـرة العديد منهـم بمـن فيهم (حطاب) نفسـه، لكنـه أثبت أنه أرشـيف تاريخـي مثمر للمشـهد الثقافـي العراقي فـي التسـعينيات. يمثّـل اثنـان مـن كتبـه وثائـق مهمة بشـكل خاص لشعر ومنشـورات هذا العصر، الأول هـو ”الشـعر العراقي اليـوم“ (1997)، وهو مجموعة شـعرية صغيـرة تضمّنت قصائـد لثمانية وعشـرين شـاعراً، ونُشـرت بمقدمة لـ(فرج حطاب) و(عبـاس اليوسـفي)، وتلخّـص المقدمـة ملامـح الأشـكال الشعرية التي حرص الشـعراء على تبنّيها كجزء من إنجازهم وسـط أنقاض الحروب وعقوبات الأمـم المتحدة واسـتبداد (صدام حسـين) ونظام البعـث: ”هـل الشـعر يسـتحق كل هـذا؟ المعاناة فـي هـذه الظروف الصعبـة جدا؟ هؤلاء الشـعراء لا يتنفّسـون إلا الشـعر. إنهـم لا يملكـون فـي

أجسـادهم وعقولهم شـيئًا أثقل من الشعر؛ لذلك نُصرٌّ على عدم تعريفهم وتقديم الشعر فقط. لهذا الشعر، هذا الشـعر، اخلع قبعتك وانحنِ لتحية هذا الوافـد الجديد (حطاب 1997: 6).“ والكتاب الثاني هـو ”الرؤيا الآن“ (1997) لـ(فـرج الحطاب) و(جمال علـي الحـلاق)، حيث أعلنـا انفصالهما عـن النظام السياسـي والثقافي؛ لاعتقادهما أنه من المتوقع أن تموت أية تجربة شعرية تحت أي إطار أيديولوجي وتتلاشى. ”مع نهاية داعميها، ما يتبقى هو التجربة الكونية“ (حطاب 2014).

يعتقـد (حطـاب) أن كل واحـد مـن الشـعراء فـي مجموعته يكشـف عن بصمته الشـخصية ”جملهم شـديدة القِصَر، والاعتمـاد على الصدمـة، وعنصر السخرية، وكتابة التفاصيل المرئية اليومية التي تم تجاهلها، والعديد مـن الخصائص الأخرى بالإضافة إلـى ذلك، إلى ما يمكن أن يلمسـه القـارئ ... وما يمكـن للباحـث اكتشـافه من خـلال متابعـة هذه الأعمـال والنصوص. هـذه العناصـر تمثّل خصائص الكتابـة الجديـدة (حطـاب 1997: 4).“ هـذه الخصائص المرئية للشـكل، التي استخدمها شعراء التسـعينيات، تم تطبيقها بنجاح في عملهم. ومن التفاصيـل المهمـة لهـؤلاء الشـعراء تاريـخ طريقة النشـر، الـذي مثّل بحـد ذاتـه معارضة مباشـرة أو غير مباشـرة للنظام السياسي والثقافي؛ إذ يوضّح (حطاب):

”فـي ذلـك الوقـت، ظهـرت مجموعاتنا الشـعرية جديـدة في آليـة أدائها ونشـرها، وهي مجموعات صغيـرة الحجـم نُشـرت دون إذن حكومـي، وأحيانًا بـإذن مـن الشـاعر نفسـه مـن خـلال رقـم إيـداع وتصاريـح مـزوّرة حتـى ”لا نقع في الفـخ“، كما كرّر الشـاعر (حسـين علـي يونـس). ظهـرت عشـرات المجموعـات المصورة التي لـم تُظهر أكثر من إذن الكاتب، ليتم إصدارها للقارئ الجديد أيضًا. لم ننتزع الحرية، بل عملنا على خلق حرية إبداعية جديدة في عصـر القمع. هل نمَـت أزهارنا في حقـول المناجم المضغوطـة؟ نعـم، لقـد نمَت ونمَـت، خاصة تلك التي ظهرت في مجموعة ”الشـعر العراقي اليوم“ (1997)، والتـي تضمّنـت نصوصًـا لـ 28 شـاعرًا ... قدّمنا هذه المحاولة كخطوة أولى للمشـاركة في نشـر مقدمة من شأنها أن تعبّر عن جدوى وجودها (حطاب 2014).“

ويشـير الأخـرس إلـى أن هـذا الشـكل من أشـكال النشـر مثّل أيضًا الشـكل الشـعري وكان جزءًا منه. كان الشـعراء ينشـرون أوهـام الكتـب، وبالتالـي أنتجوا إرثًا من أوهام الشـعر والشـعراء. ومع ذلك، فـإن السـمات الهشّـة لهـذه الكتـب هي نفسـها تلـك الموجـودة في النصـوص المكتوبة نفسـها: ”العبـارات قصيرة وبسـيطة من الناحية الشـعرية، ولهـا معنـى واضـح، ولا توجـد إضافـات أو بلاغة تقليدية. لم يكن أي شيء في نصوصهم مسموعًا مثل أصوات الرنين العالية في الثمانينيات (الأخرس 2011: 55). وأضـاف (حطاب) أن هناك عدة عناصر شـكّلت تجربة هؤلاء الشعراء؛ إذ كان على الشعراء أن يواجهـوا الصراع في كل المواجهات في الوقت الـذي كانـوا يكبرون فيه وتتطـور تجربتهم الأدبية. ويشـير (حطاب) إلى أنهم لم يكونوا شـعراء فقط؛ لقـد كانـوا محاربيـن قدامـى أيضًـا، إنهـم يقفون في خنادق الشـعر، ويواجهـون فيضانات لا تنتهي مـن الغـزاة، وعقوبـات الأمم المتحـدة وعواقبها، والذهـول، والـلا معنـى، والعزلـة، والجـوع، والانفصال، والغياب، والبطالة ... (حطاب 2014).“

تم نشـر معظـم القصائـد والمجموعات الشـعرية بهذه الطريقة خلال التسعينيات هربًا من العقوبات الشـديدة لآليات النشـر الأخرى. (نصير غدير) - من مواليد 1971 - هو أحد الشعراء العراقيين الشباب في فترة ما بعد الحرب، عمل صحفيًا ونشـر الشعر فـي مجـلات أدبية عراقيـة ودوليـة مختلفة خلال التسـعينيات، منها مجلـة (الاغتـراب الأدبي) التي حرّرها الدكتور (صـلاح نيازي). ظهرت إحدى قصائد (غدير) في كتاب (حطاب) ”الشـعر العراقي اليوم“. تـم توزيـع أعمالهم ومناقشـتها بين دائـرة فكرية صغيـرة. طبّـق (غديـر) فـي شـعره ملامح الشـعر

غدير

العراقـي في فتـرة ما بعـد الحـرب، وقصيدته "لا يموت فيها ولا يحيا" هي واحدة من النصوص التي مثّلت سـمات الشـعر في عصرها؛ إذ يبدأها (غدير) بالسـعي لوضـع إطار حـول ظاهـرة تجربـة الحرب، ويجـد صعوبة في ترسـيم حـدود التجربـة القتالية وتأثيراتها العقلية والنفسية:

نحتاج إلى حربٍ نعود منها
بعد انقضاء موت وآخر
لنصافح الأرصفة
.....
نحتاج إلى حرب
سريعة وطويلة
ولها غايات .. ونوايا
حرب نعشقها من الخوف
وندوس على أضراسنا بالجزمات
وتحت الدريئة نناقش فوكو.. ودريدا ..

(غدير 1998).

يـرى (غديـر) أن الحـرب التي يحتاجـون إليها طويلة وسريعة، تخلق لهم مكاناً يعيشون فيه بتفاصيلهم اليوميـة واهتماماتهـم، ويسـتمتعون بقراءاتهـم ومناقشـاتهم حـول "فوكو ودريـدا" وغيرهما من مفكّري ما بعد البنيوية الذين مثّلت كتاباتهم متعة لـ(غديـر) وجيلـه ومصدرا مهمـا للمعرفـة الفكرية التـي يحتاجون إليهـا لإثراء وترسـيخ موقعهم في النخبة المثقفـة العراقية. ويعلق (نصير غدير) على الإشارة إلى هؤلاء الفلاسفة في نص قصائدهم:

"لقد كنّا نحن، أعني جيلنا، مَن ركّز على قراءة نظريات ومفكّـري ما بعد البنيوية. قرأناها في ذلك الوقت مـع العديد من المفكّريـن المعاصرين الآخرين. كان ذلـك فـي أوائل التسـعينيات عندما بدأنـا في بناء معرفتنـا، وكان جيلنا يضم نقّادًا وشـعراء وروائيين ومصوريـن سـينمائيين ومسـرحيين وكتّاب قصص قصيـرة. اعتدنا على مناقشـة كل ما نقرأه، شـعرنا وكأن العالـم أهاننا بسـبب الحظـر [عقوبات الأمم المتحدة] وبسـبب رقابة نظام (صدام)، وشعرنا أننا بحاجة إلى متابعة تطور الحركة الفكرية في العالم. كنّـا نقرأ مثل الوحوش الجائعـة التي وجدت وجبة. بحلـول نهاية التسـعينيات، كان خالد [خالد مطلك] فـي الإمارات العربية المتحدة، وأصبح مصدرًا جيدًا مع آخرين كانوا يرسلون إلينا الكتب المترجمة حديثًا عـن الفلسـفة والنقّـاد المعاصريـن. يُعتبر الشـاعر مثقفـاً في الثقافـة العراقية لذا يحتاج إلى الإلمام بالفلسـفة، كما كنّـا نكتب النقد والفلسـفة (غدير 2015)."[8]

تشـتهر هـذه الحـرب بـ(البيريّـة)[9]، وهـي مـن أهـم مؤشـرات الحـرب والحالـة العسـكرية للأمـة فـي العراق منـذ الثمانينيات. القبعـة والخوذة والحذاء العسـكري (البسـطال) هـي رمـوز حالـة الحـرب والخدمـة العسـكرية، إنهـا تثيـر شـعورًا بالاحتـرام والمكانـة الرفيعـة أحيانًـا، وفـي أحيـان أخـرى تثير مشـاعر الخسـارة والعنـف، ومحاولة كتابة الشـعر على أنقاض البيريّات والخُوَذ العسكرية.[10]

تعكس نصوص هؤلاء الشـعراء وعيـاً جمعياً تجلّى مـن خـلال صورة الشـاعر وسـط مجموعـة الجنود وهـم يعودون إلى منازلهم أثنـاء إجازتهم ويلتقون في المقاهي ويبلغ بعضهم بعضًا بعدد الأشخاص المفقودين أو الذين قتلوا في الحرب:

نحتاج إلى حربٍ
نشتاق إلى المقهى قبل
العائلة

حرب تكتنز الأحذية فيها
بالطين والذكريات

..... (غدير 1998).

حوّل هؤلاء الشعراء التجربة القتالية إلى تَبنٍّ لشكل القصيدة النثرية التي شغلت الاهتمام الأدبي والشعري خلال الثمانينيات وبداية التسعينيات، واعتُبر لاحقًا الشكل الشعري الرسمي للحرب وفترة ما بعد الحرب، وهو رأي أُعلن في مناسبات مختلفة، بما في ذلك مهرجان الشعر عام 1992 (الإمارة 2011: 10).[11] مثّل الشكل الفني لقصيدة النثر منجم الاكتشافات الذهبي في التسعينيات، الذي مثّل بدوره بداية مشروع أكبر. أتاحت العناصر التخريبية لقصيدة النثر للشعراء فرصة أخرى لترك بصمتهم الخاصة، وكانت ميزات النموذج أكثر أهمية من الشكل نفسه، أولها حرية كتابة الشعر الخالي من الصفات الشعرية التقليدية دون المخاطرة بفقدان القيمة الشعرية والأدبية، أو ما يصفه (بيلي ميلز: 2011) بأنه "طمس الحدود بين النثر والشعر".[12]

خيال الشاعر يمكن أن يحلل العالم، وبالتالي يكون قادراً على "تحليل العلاقة بين نقيضين"، خلق عالم تخريبي فوضوي، عالم متحرر من سجن سلطة الأنظمة والقواعد

(بودلير)

كان من الضروري تعريف هذا التكوين الجديد، وشغَل هذا التعريف عقولهم أيضًا؛ إذ يشير (الأخرس: 1999)، في محاولة لتوضيح تعريف هذا التكوين الجديد للقصائد، إلى أن "الحداثة في الشعر، إذًا، لم تكن سوى رد فعل عنيف على حداثة العقل". لقد تحطّمت النماذج التي من خلالها نظرت العقول التقليدية إلى التجربة في مواجهة ظروف الحداثة. عند هذه النقطة اندلعت قصيدة النثر في الشعر العراقي "مثل صرخة أطلقها بوهيمي في مدينة ميتة". ومع ذلك، لم يصف (الأخرس) قصائد التسعينيات على أنها قصائد نثر، بل "نصوص نقدية"؛ لأنه كان يؤمن بتبنّي مفهوم (بودلير) بأن خيال الشاعر يمكن أن يحلل العالم، وبالتالي يكون قادرًا على "تحليل العلاقة بين نقيضين"، خلق عالم تخريبي فوضوي، عالم متحرر من سجن سلطة الأنظمة والقواعد (الأخرس 1999).[13] ومع ذلك، كان الشعراء بالنسبة له لا يزالون شعراء نثر، وفي محاولاتهم لخلق هويتهم الخاصة قاموا بتخريب الشكل لكنهم لم يفسدوا الشعر. تم حفظ هوية الشاعر، لكنه استطاع أن يخلق شكلاً من الشعر خاليًا من قواعد الشعر الملزمة، مثل الإيقاع والقافية والتوقفات والموضوعات. وبهذه الطريقة، استطاعت القصيدة النثرية الجديدة، كما يرى (الأخرس)، إلغاء إحدى السمات السائدة في الشعر وهي الصوت، ونقل أهميته إلى وسيط استقبال آخر وهو الشكل البصري (الأخرس 1999).

يرى (حطاب 1997: 4) أن السمات المبتكرة لهذه القصائد النقدية الجديدة كانت استخدام جمل قصيرة وصور شعرية مكثّفة. كانت سطور القصائد المعروضة في تلك الفترة قصيرة، وتضم أحيانًا كلمة واحدة فقط تحمل العديد من الاستعارات الرمزية. لم تتناول القصائد الأبطالَ الخارقين أو الشخصيات الأسطورية أو التلميحات الأسطورية. إنها بسيطة ومباشرة وإنسانية للغاية اعتمادًا على بساطة الصورة على الرغم من سياقها النفسي والعقلي المعقد. الأوقات والأماكن حقيقية وتشكّل جزءًا من الوعي الجمعي والشعور الجمعي للشعراء.

(خالد المطلك) شاعر وصحافي عراقي عمِل في عدد من الصحف والمجلات العراقية، وكان رئيس تحرير صحيفة الجمهورية خلال التسعينيات، وهو

مطلكَ

معـروف بمعارضتـه للأشـكال الشـعرية التقليدية وإصـراره علـى تكييف قصيدة النثر كوسـيلة لتلبية حاجـة العصـر. لهـذه الخصائـص يعتقـد (الأخرس) أن توظيـف (المطلـك) كمحـرر للمجـلات الأدبيـة كان بمثابـة تغيّـر فـي الموقـف الحكومـي تجـاه الشـعراء الشـباب، ووضعهـم فـي قلب المشـهد الثقافي بدلاً من زملائهم الشـعراء المعارضين في الثمانينيـات، وهـي خطـوة كانـت جزءًا مـن عملية خلـق "المعارضـة النوعيـة" (الأخـرس 2011: 41). نُشـرت قصائد (المطلـك) بعد الحرب فـي العديد مـن المجـلات الأدبيـة العراقيـة، يقـول: "كتبـتُ قصائـدي التـي تتحـدث عـن حياتـي القتاليـة بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية. انتهت الحرب لكنّها عادت معي. يمكن للحرب أن تأخذ شـكلًا هندسيًا. سـأكون شخصًا مربعًا على سـبيل المثال ... الحرب هي كل ما سأتذكره من حياتي في النهاية (مطلق 2015)."[14]

حـاول (المطلـك) أن يفسّـر الألـم والمسـتقبل الغامـض "للمحو المقدّر"، الذي عبّـر عنه (حطاب) في اسـتجوابه الأول في المقدمة: "من سـيكتب التاريـخ .. ما سـيكتب عنهم .. ومن أين سـيبدؤون الكتابة، كتابة التاريخ. سـأكتبها حقًا وإلا ستسـقط من صفحات التاريخ كشيء مهمل .. لا أحد يستطيع أن يقول ما سـيحدث .." (حطاب 1997: 3). يحاول (المطلك) إعطاء بعض الحلول في قصيدته "هاون 60 ملم" (المنشورة في مجلة الجمهورية 1994):

المسألة بسيطة وشيّقة
هنا في الحديقة أحفر حفرةً ...
أضعه منتصباً مثل علامة تعجب
لا حاجة للقلق، أنا لم أطلب أكثر من الحماية
اليوم 16/ 2/ 1989 .

(مطلك 1994)

يتجسد العبء في هذه السطور، وفي صورة رمزية للغاية يعطي (المطلك) شكل هاون 60 ملم، وقد أضاف معلومة مهمة حول بسـاطة الأمر في هذا الواقع الـذي صار واضحا للجميـع الآن؛ فحتى بعد انتهاء الحـرب، ظل العبء على كاهل هؤلاء الرجال بعـد عودتهـم إلى ديارهـم. في مشـهد يمزج بين الهدوء والغرابة، يحـاول (المطلك) زرع هذا العبء فـي حديقتـه "منتصباً"، على الرغـم من حقيقة أنه قد انفجر بالفعل، لكنه يمثّل الكائن الذي لن يموت ولـن يحيا، على حـد تعبير (غديـر). يغيّـر (المطلك) نبرة القصيدة ليعلن أنه لم يطلب أي شـيء سـوى الحماية، مما يثير تسـاؤلات حـول التهديدات التي يعبّـر عنهـا الشـاعر فـي منزله الهـادئ بعيـدًا عن سـاحة المعركـة. إنهـا اسـتعارة يمكـن تفسـيرها بطرق مختلفة: التفسـير الأول هو الوضع النضالي للمجتمـع والتهديـدات المحيطة المسـتمرة على الجبهة الداخلية السياسـية والثقافية؛ فهنا يسجل النص القمع المسـتمر والعنف المسـلّح في هذه اللحظـة مـن التاريخ، أي لحظـة كتابة النـص، التي لـم تعبّـر عنهـا مـن قبـل دعايـة وسـائل الإعـلام السياسـية. ويمكن أن يكون التفسير الآخر الإشارة إلى الشـعور بالذنب الذي يضغط بشدة على هذه اللحظـات الهادئـة. كلاهمـا يمثـل الشـاعر وجيله، ورسـالتهم لجيل المسـتقبل في تسـجيل تحديات ومواجهات عصرهم. حدّد الشاعر هذه اللحظة في 16 /2 /1989، بعد أشـهر قليلة من انتهاء الحرب. الانفجارات التي عاشـها الشاعر في الحرب ما زالت تتـردد فـي ذهنه وتعيـد إنتاجها في جمـل قصيرة مباشرة:

أطلق واحدة وفي الليل قنبرة التنوير
سأكون فخوراً . . أنا أنوب عن القمر
لا يهم .. فلتمطر .. إنه لا يغرق
إنه لا يغرق ومشاكله آنيّة
أنا فخور به . . .
في المستقبل أفكر بحلول جديدة
أطلق قنبرة عشوائية
وأخرى صوب دائرة المجاري
احتاج إلى شجاعة جندي من الحرب العالمية الأولى.

(مطلك 1994)

هدف الشاعر هنا هو المصدر الخفي للألم والمعاناة الذي يغذّي كل هذا الدمار. لكنه في هذه اللحظة ينتقل من التعبير عن الروح الوطنية المحلية إلى المهمة العالمية للجندي؛ لأنه في هذه المهمة يحتاج إلى "شجاعة جندي من الحرب العالمية الأولى". يرى الشاعر أنه مع كل قذيفة يطلقها يرسل جزءًا من نفسه، وبكل الضوء الذي يرسله إلى السماء سيكون "فخوراً .. " أنه ينوب عن القمر.

يرى الشاعر أنه مع كل قذيفة يطلقها يرسل جزءاً من نفسه، وبكل الضوء الذي يرسله إلى السماء سيكون "فخوراً .." أنه ينوب عن القمر.

يصرُّ الشاعر على أنه لم يعد مهمًا بعد الآن ما سيحدث في المستقبل؛ فلا شيء فعّال: "لا يهم .. فلتمطر .. إنه لا يغرق / إنه لا يغرق ومشاكله آنيّة". موسيقى السطور والجمل تشبه إطلاق القذائف القصيرة والمؤلمة والعشوائية، واختيار الكلمات دقيق للغاية ويكشف عن شدّة الأفعال. يعبّر النص عن الخصائص الفنية التي أشار إليها (حطاب) في كتابه، عند التأكيد على التزام هؤلاء الشعراء بتأسيس شكلهم الجديد للتعبير. يمكن أن تكون الشجاعة التي يذكرها (المطلك) في قصيدته إشارة إلى القصائد الوطنية للحرب العالمية الأولى، و قد يكون قد اطّلع على بعض هذه القصائد، مثل قصيدة (روبرت بروك) "الجندي": "إذا متّ هنا، فكّر في هذا فقط / أن هنا هو ركن ما في حقل أجنبي / وسيكون هذا الركن هو إنجلترا إلى الأبد" (روبرت بروك "الجندي"، سيلكين 1978: 77).[15] الآن وقد أصبح هذا العبء "صاحباً"، كما يقول (المطلك)، فإنه سيأخذ بيده "إلى السوق" لبيعه وتطهير نفسه، ويعود "رجلًا، مسالمًا وهادئًا وصادقًا ومخلصًا" مرة أخرى. ومع ذلك، فإن شعوره بالذنب لن يرافقه حتى النهاية؛ سيستهلك جزءًا من حياته، ولكن هذه المرة ليست كلها "ثلاث ساعات في اليوم / ينتصب مثل هاون عيار 60 ملم".

يقدم (المطلك) تعبيرا عن نفسه يمثّل العصر والجيل العدميَّين، وهو أن لا شيء له قيمة، ولم تكن له حياة على الإطلاق، كما يعبّر عنها في قصيدته "في شارع الرشيد" المنشورة في مجلة الجمهورية (1994):

أقول لنفسي
- لماذا لا أغيّر حياتي!
أضحك...
أين حياتي؟!

يبدأ (المطلك) بكتابة مشاعره بعد عقدين من انتهاء الحرب، ليطمئن نفسه أمام القرّاء أنه "بعيد":

وأخيراً، قررتُ أن أموتَ هنا
تحت ثلوج روسيا البيضاء
تحت خطوات فتياتها الرشيقات
حيث ضحكاتهنّ تبدّدُ وحشة المساء
هنا في هذه الغابة البعيدة.

(مطلك - بيلاروسيا 2013)[16]

يعبـر (خالـد المطلـك) عـن المشـاعر البطوليـة بالانتصـار على القدر. اسـتطاع أن يغيّر مصيره لأنه اختـار ألا يموت في وطنه. اسـتطاع أن يختار كيف يموت وأين:

لا أحبُّ أن أموت في وطني
لا أحبُّ وحشة الرمال وكآبة الملح
لا أحبُّ أنْ يتراصفَ قبري بشاهدة كئيبة
بين قبور أصدقائي الذين أخذت الحروبُ بأيدهم
ونامـوا هنـاك مفزوعيـن مـن مـلاك المـوت
وشراسة الأسئلة.

(مطلك 2013).

لا يـزال يتذكـر كمحـارب قديم، و يفكّـر في كيفية تغيّر الأشـياء. عندما يبدأ في تذكّر سـنوات الحرب الطويلـة المؤلمة، تتغير الـ "أنا" إلى "هُم"، ويصبح جزءًا من وعي جمعي مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحرب:

سـنوات الثمانينيات حيث تقافزت أعوامي مثل
جرذان سود وراء
السواتر
بين المزاغل والخنادق
هناك على خطِ النار
في الفاو وبحيرةِ الأسماك
على جبل "ماوت " في كردستان
وتلال كيسكا في مندلي
حين تعزف المدفعية والهاوانات
أكثر موسيقاها صراحة
ليمضي الجنود، مرة في إجازة
ومرة أخرى إلى المقبرة.

(مطلك 2013)

إنه تحوّل في المشاعر مثلما هو تحوّل في الوقت، يسلط (المطلك) فيه الضوء على التفاصيل الفريدة للشـوارع التـي تجمّعـوا فيها والأماكـن التي مرُّوا بهـا في طريـق عودتهم إلى ديارهم فـي إجازة، لا تعبّر القصيدة عن قمع الحرب والخدمة العسـكرية فحسـب؛ بـل تعبّـر أيضًا عـن الحصار الفكـري الذي عاشـه الشـعراء، مما يوضّـح الرقابـة الكاملة على القـراءة والكتابة الفكرية والثقافية. يخلق الشـاعر إحساسًـا بأن الخطـر لا يزال قائمًا، وأنـه بحاجة إلى الكتابة تحت "اسم مستعار":

بيدٍ محاربٍ قديم
بيدٍ تطلقُ الرصاصَ في العراء
عندمـا كانت الـ (بي كَي سـي) هي كل ما أملك
على خط النار
ألوّح بيدٍ خاملة تطلق الرصاص في العراء
وأحيانا تكتب كلماتٍ باسمٍ مستعار
من أجل الأجيال الجديدة وراحة البال

.....

وعندمـا يأتـي الربيـع وتطيـر الفراشـات قـرب
النوافـذ النديّـة، سـيكون فيفالـدي هـو الحل
المناسب
سأقرأ هوسرل
ومارتن هيدغر
وميرلوبونتي
ليـس لأعـرف أن "الوعـي هـو نفسـه الوجـود
الإنساني الملقى به في هذا العالم"
وإنما لأمنح حياتي معنىً عميقاً
يبرر موتي في ثلوج روسيا البيضاء.

(مطلك 2013)

ومثلـه مثـل (غدير)، أضاف (المطلك) الإشـارة إلى الفلاسـفة، موضحا أن "ذكرهم هو من المتطلبات الاجتماعيـة لتأسـيس الموقـف الفكـري للشـاعر؛ فقـد أثّروا حقًا في رؤيتنا للعالـم" (مطلك 2015). وكتـب (فرج حطـاب): "لن نقدِّم مقدمـات عديمة الجدوى ... سـنحيي فقط هذا القطيع من الشعراء المهووسين بشعر العالم لجعله مساحة لقصائدهم التـي تنبض بالحب والحرية والحياة" (حطاب 1997: 6).

يواجه الشعراء تحديات أخرى من نظام قمعي محاصر بالعقوبات الدولية ويواجه ضغوطاً داخلية وخارجية تمثّلت بالبيئة الثقافية والدعائية، وهي إحدى القواعد القمعية للنظام

كان الشـعراء يواجهـون تحديـات أخـرى مـن نظام قمعي محاصر بالعقوبـات الدولية ويواجه ضغوطًا داخليـة وخارجية تمثّلت بالبيئـة الثقافية والدعائية، وهـي إحـدى القواعـد القمعية للنظـام. في هذه الأثناء، كان هؤلاء الشـعراء يجدون خطهم الثقافي والأدبي والإنسـاني خارج نطاق تلك السيطرة. كان أول إنجاز إبداعي لهم هو آلية التصوير والنشـر على الرغـم من ضعـف الإمكانيات، فقد مثّلت مسـاحة حيويـة لمعظمهـم للكتابـة والتعبير عـن تجربتهم، بعيدًا عن الوكلاء الثقافيين والسياسيين القمعيين والسـلطة التشـريعية للنظـام. يـرى (حطـاب) أن الهـدف من هذه المحـاولات كان "الشـعر" فقط، لا شـيء آخـر لـه نفس الأهميـة، حتى حيـاة هؤلاء الشـعراء. "هل يستحق الشـعر كل هذه المعاناة ... فـي هذه الظروف الصعبة جدا ..؟" (حطاب 1997: 6). كان (حطـاب) والشـعراء الذيـن شـاركوه رؤيته ونشروا قصائدهم في مجموعته الصغيرة جزءًا من إحياء ثقافة جديدة لم يتم استعارتها أو استيرادها

أو توريثها. بعض هذه المحاولات كانت مشاريع ناجحة، وكانت معاصرة للمراسلات مع الدوريات والمجلات الأدبية خارج العراق، التي كان بعض محرِّريها على استعداد لتقديم الدعم و الوفاء بواجبهم من خلال التقاط هذه اللحظة التاريخية والفريدة من نوعها.

تُظهر كتابات هؤلاء الشعراء المحاولات المؤلمة التي استمروا في القيام بها في مساعيهم للخروج والتعبير عن تلك التجربة العنيفة، الخروج من الحرب وعصف الحصار الاقتصادي والسلطة القمعية، لكنهم فشلوا في معظم الأوقات في تحقيق ذلك، مما أدّى إلى استسلامهم للواقع القاسي، وخرجت كتاباتهم معبرةً عن جيل ممزَّق بين تجربة الحربين القريبتين وتجربة الكتابة في ظل الحصار الدولي. قد يكون من الصعب تخيّل فهم خطورة هذه التجارب الحقيقية، ومع ذلك، فإن خيار التفكير في النتائج الموضحة في الأعمال الأدبية لهؤلاء الشعراء متاح وممكن. إنها تنتج الدهشة والصدمة، يعلن الشعراء عن شوقهم وسعيهم للتعبير عن الاضطرابات الناجمة عن تجربتهم التي مرّت بالحرب والحصار معا، وتحقيق مصيرهم ليكونوا شعراء وحاملين للرسالة للأجيال القادمة.

الهوامش

1. الدكتورة (عذراء عبد الحسين ناصر) أستاذة الشعر الحديث في جامعة بغداد/ كلية التربية للبنات/ قسم اللغة الإنجليزية، حائزة على درجة الدكتوراه من جامعة بليموث في المملكة المتحدة عام 2016. نشرت فصلًا بعنوان (قصيدة النثر العراقية وآثار الحرب الإيرانية العراقية) في كتاب (إرث الحرب العالمية العظمى)، الصادر عن دار روتليدج في نيويورك/ أمريكا. صدر لها أيضا كتاب مترجم بعنوان (شريط صامت: قصائد الدم والرصاص والسيارات المفخخة)، عن دار مومنت في لندن عام 2020، وكتاب مترجم مشترك بعنوان (العراق من الحرب إلى الاستبداد الجديد)، عن دار الرواق التابعة لمركز رواق بغداد للسياسات العامة في بغداد 2022. هذا بالإضافة إلى العديد من البحوث والمشاركات في مؤتمرات في بريطانيا وتركيا والعراق.
2. https://www.theguardian.com/theguardian/2000/mar/04/weekend7.weekend9

* الخاكي: هو اللون الترابي للملابس العسكرية التي يرتديها الجنود قبل عام 2003.

3. التخريب هنا بمعنى التغيير وتفكيك النص التقليدي الشعري، وهو مقتبس من أطروحة الدكتوراه التي أعددتُها في المملكة المتحدة ترجمة لكلمة subversion التي استعملها النقّاد لوصف قصيدة النثر ودورها في تغيير وتفكيك الشكل التقليدي للشعر.
4. ويعتقد أن الشرارة الأولى قد أصابت قرية صغيرة في الأهوار العراقية.
5. حرب الخليج 1991: أشار (الأخرس) إلى حرب الخليج 1991 على أنها حرب الخليج الثانية، والحرب الإيرانية العراقية على أنها حرب الخليج الأولى.
6. الأخرس، محمد غازي (2011). خريف المثقف في العراق 1990 - 2008. بيروت، دار التنوير.
7. حطاب، فرج (2014). عندما تزهر الورود في الخنادق: شهادات شعراء التسعينيات عن زمن الخراب (2-1). المؤتمر، 2983.
8. مقابلة مع الشاعر 2015.
9. الاسم الشهير لغطاء رأس الجندي في العراق.
10. إشارة إلى أعمال (أحمد البحراني) أحد الفنانين والنحّاتين العراقيين، وهو عمل فني يعكس سطرا شعريا معروفا للغاية قاله (جبار محيبس) الشاعر والكاتب المسرحي العراقي بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية في الثمانينيات، يقول فيه إن الحرب انتهت "وبِنَت عشها البلابل بالبساطيل".
11. الإمارة، علي (2011). ترسّبات الحرب في الشعر العراقي الحديث. منشورات اتحاد الأدباء والكتّاب، دمشق.
12. MILLS, B. Friday 12, August (2011). Poster poems: Prose poems. The Guardian [Online]. Available: http://www.theguardian.com/books/2011/aug/12/poster-prose-poems.
13. الأخرس، محمد غازي (1999). شعرية النص الحرج: مشروع رؤيا في ما بعد قصيدة النثر. الطليعة الأدبية (1، 38).
14. مقابلة مع الشاعر 2015.
15. SILKIN, J. (ed.) (1978). The Penguin Book of First World War Poetry. Penguin Books Ltd, Great Britain.
16. مطلك، خالد (2013). قصيدة "بيلاروسيا". صحيفة المدى، 2793.

تطبيق

آنا البرلمان

حتى تقرر مستقبل افضل

لازم تختار صح

يمكنك تحمل التطبيق
ومتابعة صفحاتنا
عبر مسح QR

Download Our App

Download on the App Store

GET IT ON Google Play

lamparliament

e_parliament_iq

انعكاسات الحصار الاقتصادي على الهجرة والنزوح في العراق

د.أحمد قاسم [1]

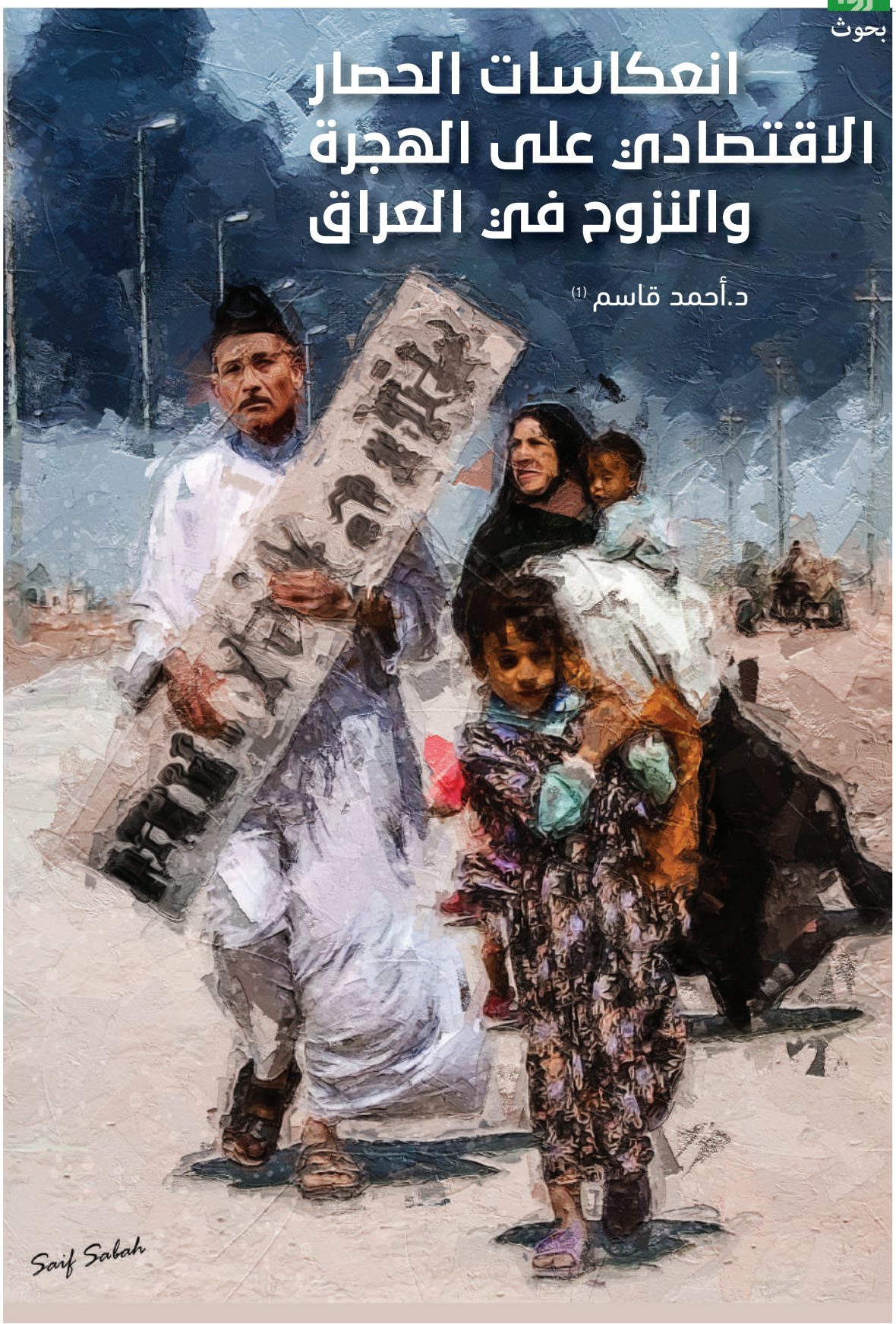

توطئة مفتاحية:

كانت ولا تزال الحاجة إلى البحث عن الموارد في مختلف بقاع العالم من أهم أسباب الهجرة، سواء كانت حاجة اقتصادية أو أمنية، أو هروبا من آثار الحروب والكوارث الطبيعية. وتشير أغلب أدبيات الهجرة والنزوح، فضلاً عن محاولات فهم واستقصاء بواعث حدوثها وتشكّلها، أنها تحيل إلى ارتباطها بأربعة عوامل رئيسة (تنضوي تحتها عناصر أخرى)، تمثل بمجملها أو تفرّدها دافعاً لحركة الأفراد والجماعات وتحفّزهم على اتخاذ قرار الهجرة وتغيير محل الإقامة المعتاد، وفي مقدمة تلك العوامل الهجرة جرّاء الملاحقات والمضايقات السياسية وتقييد حرية التعبير عن الرأي نتيجة للاعتقاد بتوجّه سياسي مغاير للنظام القائم، أو لمعارضته الصريحة أو لعدم الرغبة بالانخراط في توجّهاته وتنظيماته.

فيما تعد القيود المفروضة على حرية العبادة وممارسة الطقوس والشعائر والمعتقدات الدينية سبباً مباشراً آخراً لهجرة السكان. كما تمثل الظروف الاقتصادية والرغبة بتحسين المستوى المعيشي وتوفير سبل العيش الكريم هاجساً كبيراً لدى العديد من الأفراد وأسرهم، مما يجعلهم يخاطرون ويواجهون مصاعب الهجرة آملين بحياة أفضل. في حين ينعكف العاملُ الرابع على تشكيل عنوانٍ عريض بحمولات ودلالات مفتوحة الفهم والتأويل؛ إذ يوصف بسعي المهاجرين للبحث عن بيئة حضارية أفضل واكتشاف عوالم جديدة.

يُنظر إلى العزلة على أنها مذهب أو سياسة المساهمة القليلة من قبل دولةٍ ما في العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية

ولمقاربة التراث النظري والتطبيقي المشار إليه آنفاً مع حالة العراق خلال عقد التسعينيات وعلى مدار السنوات 1990 - 2003؛ ينبغي الإحاطة علما بأن البلد عانى الكثير من التحديات والمخاطر المتمثلة بتداعيات الحروب ودمارها (حربَي الخليج الأولى والثانية)، ونحو (13) عاماً من العقوبات الدولية الصارمة، والتي كان لها أثر مباشر على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كافة، فضلاً عن التدمير في البنى التحتية، وانهيار العملة، وتدهور مؤشرات التنمية البشرية والاجتماعية، وغياب الخدمات الأساسية، وتردّي المستوى التعليمي، وتغوّل السلطة في انتهاك حقوق الإنسان، ونتيجةً لذلك كله؛ هرعت أعداد كبيرة من السكان إلى الهجرة خارج البلاد، فضلاً عن موجات هجرة ونزوح سكاني داخلي. كل هذه العوامل وغيرها كان لها أثر مباشر في اتساع نطاق الحراك الاجتماعي وإعادة ترتيب السلّم الاجتماعي صعوداً ونزولاً لدى العديد من الفئات الاجتماعية في تلك المدة.

العزلة الدولية وتضييق الخناق:
انبعاث المبرر الرئيس للهجرة

تندرج ظاهرة العزل أو الحصار تحت فكرة العقوبات التي تفرضها الدول على دول أو دولة أخرى بحجة الردع عن انتهاج سلوكيات معادية تهدد الأمن القومي والمصلحة القومية للدول المطالبة بفرض العزلة. كما يُنظر إلى العزلة على أنها مذهب أو سياسة المساهمة القليلة من قبل دولةٍ ما في العلاقات السياسية والاقتصادية الدولية، وبشكل خاص التحالفات أو الارتباطات الدولية الأخرى؛ لتفادي التورط في حروب خارجية. والعزلة بهذا التوصيف نقيضة مفهوم العزل، الذي ينصرف إلى الجهود الفردية أو الجماعية التي تُبذل على مستوى دولي بمبادرات فردية أو تلبيةً لدعوة من منظمة دولية أو من تجمع إقليمي (منظومة إقليمية) من أجل عزل وإقصاء وتهميش دولةٍ ما عن إطارها الإقليمي والدولي. إن العزل كمظهر من مظاهر عمل

كان لفرض الحصار على العراق نتائجٌ وخيمة تسببت في تدمير اقتصاد البلد وحرمانه من كل وسائل التقدم والتكنولوجيا التي وصل إليها العالم في حقبة التسعينات من القرن الماضي

السياسة الخارجية في التعامل السياسي الدولي أصبح من قبل بعض الدول أداة السياسة الخارجية الأولى والأكثر تأثيرا من بين الأدوات الأخرى؛ لأن هذه الدول وجدت في ممارسة سياسة العزل بديلاً عن استخدام القوة العسكرية الأكثر كلفة، وكردٍّ مناسب في مواجهة التحديات والتهديدات التي قد تتعرض لها مصالحها من قبل الدول الأخرى مستقبلاً.[2]

وتمثّل الآليات الاقتصادية جوهر قوة الدولة والبديل عن استخدام القوة العسكرية الباهظة التكاليف، والمعلوم أن أساليب التوظيف السياسي لعناصر القوة الاقتصادية للدولة في مواجهة الدول الأخرى تتنوع بين أسلوبَي التحفيز الاقتصادي (المساعدات الاقتصادية) والعقوبات الاقتصادية، التي تمثل المظهر السلبي الرئيسي المباشر لاستخدام الدولة لأدوات قوتها الاقتصادية في علاقاتها الخارجية، كما يُنظر لهذه العقوبات على أنها أداة عنيفة من أدوات التأثير السياسي الخارجي، يتم فرضها كوسيلة لإعاقة سلوك شرعت فيه تلك الدولة، أو إلزامها بتعديل اتجاهاتها السياسية. وتتخذ الأساليب الاقتصادية في العقوبة من طرف دولة أو مجموعة من الدول صوراً عدّة، أكثرها شيوعاً هي: التعريفات الجمركية، والمقاطعة الاقتصادية، والحظر الاقتصادي، والحصار الاقتصادي، وتجميد أو تأميم أرصدة بعض الدول لسياساتها العدائية، ونظام الحصص، والحظر الجوي (التجاري والمدني والعسكري).

ووفقاً للقانون الدولي، فإنه ليس لأي بلد الحق في إعلان الحصار إلاّ في حالة الدفاع الشرعي عن النفس مثلاً، أو من خلال قرار صادر عن مجلس الأمن، بحسب البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة في حالة العقوبات الجماعية؛ إذ ورد في المادة (٤٢) من الميثاق أنه يمكن لمجلس الأمن أن يقرر "إجراءات حصار وعمليات أخرى تنفّذها قوات جوية وبحرية وبرية تابعة لدول أعضاء في الأمم المتحدة". ومن أمثلة الحصار الاقتصادي هو الحصار الدولي على العراق الذي نتج عن قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٦٦١) الصادر في يوم (٦ أب ١٩٩٠) نتيجة دخول العراق للأراضي الكويتية، ونص على إقرار عقوبات اقتصادية خانقة على العراق لإجبار قيادته آنذاك على الانسحاب الفوري من الكويت.[3]

كان لفرض الحصار على العراق نتائجُ وخيمة

تسببت في تدمير اقتصاد البلد وحرمانه من كل وسائل التقدم والتكنولوجيا التي وصل إليها العالم في حقبة التسعينات من القرن الماضي، مما أدّى إلى وفاة مليون طفل نتيجة الجوع ونقص الدواء الحاد وافتقارهم إلى أبسط وسائل الحياة. فعِبر تاريخ الأمم المتحدة ولغاية الآن لم يصدر مجلس الأمن قراراً بفرض حصار تام على بلد ما يشمل الغذاءَ والدواءَ والحاجاتِ الأساسيةَ الأخرى ومصادر تمويلها، باستثناء حالة العراق؛ إذ وصفت بأنها سابقة خطيرة لم يكررها مجلس الأمن سوى في حالة العراق.[4] وقد عانى فيها البلد من عزلة شديدة من قبل معظم دول العالم سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً، وأصبح العراق في ظلّها من أكثر دول المنطقة تأخراً. هذه العقوبات أجبرت الكثير من العراقيين على الهجرة إلى دول الجوار والعالم بحثاً عن سبل العيش والأمان والحياة والتطور.

الهجرة والنزوح جرّاء الحصار (بيانات وتحليلات)

الهجرة الداخلية المعاكسة (من المدينة إلى الريف):

تشير المسوحات الإحصائية إلى أن عامل الهجرة الداخلية ساهم بواقع 45 % في نمو سكان الحضر خلال المدة 1960–1980 ، وقد انخفض إسهامها إلى 29 % خلال المدة 1987–1998؛ نتيجة للسياسات الحكومة حينذاك الهادفة إلى الحد من هجرة سكان الريف، إذ اعتُمدت لهذا الغرض وسائل اقتصادية واجتماعية وقانونية عديدة أدّت إلى هجرة معاكسة، حتى وإن كانت محدودة. ففي ظل العقوبات الاقتصادية في عقد التسعينيات اتّبعت الدولة سياسة الاعتماد على الذات في توفير الأمن الغذائي، فعمدت إلى تشجيع المزارعين عن طريق تحديد أسعار مجزية للسلع الزراعية، فضلاً عن تقديم الدعم لمستلزمات الإنتاج الزراعي من بذور وأسمدة ... الخ، وكذلك كان هناك عاملا آخر أدّى إلى الهجرة المعاكسة، وهو الانخفاض الحاد في مستويات الأجور في القطاعات كافة ولا سيما القطاع الحكومي؛ نتيجة المعدلات العالية للتضخم. وارتفعت آنذاك نسبة سكان الريف إلى 32,5 % في العام 1997 مقابل 29,8 % في العام 1987[5]

مثّلت تلك العوامل والظروف تحسّناً ملحوظاً في المستوى المعيشي للمزارعين وملّاك الأراضي، فضلاً عن استعادة مكانة شيوخ العشائر وتعضيد دورهم الاجتماعي، وانبعاث القيم والممارسات العشائرية، كما ارتفعت أهمية الحِرف والمهن والصناعات اليدوية والصغيرة. في المقابل، شهدت الوظائف العامة والأعمال التي تعتمد على الخبرات الأكاديمية والمعرفة النوعية تردّياً ملحوظا في متوسط الأجور والعوائد المالية المتحصلة جرّاء ممارستها. وغالباً ما ترتبط المكانة الاجتماعية بمستوى الدخل، ونتيجةً لذلك شهد الواقع الاجتماعي صعوداً ملموساً لشرائح المزارعين وملّاك الأراضي الزراعية والتجّار وأصحاب المهن والحِرف.

عمليات تجفيف الأهوار:

شكّلت الأهوار، على مدى أزمنة طويلة، محمياتٍ للكثير من النباتات الطبيعية والحيوانات البرية والداجنة والطيور المقيمة والمهاجرة، وظلّت بيئة ملائمة لصيد الأسماك وزراعة الرز، ومغذية لمحيطها الذي يحتضن بساتين النخيل الشاسعة. وفضلاً عن محيط الأهوار الذي تنشط فيه الزراعة وتقطنه الأسر الفلاحية، اتخذ عمق الأهوار موطنا للسكان الذين يطلق عليهم تسمية «المعدان»، ويعيشون منذ القدم نمط حياة خاصا في منازلهم المبنية من نبات البردي والقصب، معتمدين على تربية الحيوانات وبشكل خاص الجاموس الذي يستخدم لإنتاج الألبان ومشتقاتها. والأهوار معلَمٌ أساسي في جغرافيا المنطقة الجنوبية التي تشمل ثلاث محافظات هي البصرة وذي قار وميسان، وتقع على حافة المدن الحضرية، البصرة والناصرية والعمارة والبلدات الأخرى، وهي مراكز النشاط التجاري والتعليمي والإداري.

بعد غزو الكويت وقمع الانتفاضة في الشمال والجنوب عادت القوات الحكومية (العراقية) إلى الأهوار لاستكمال عمليات تجفيفها وطرد السكان المحليين القاطنين فيها. وفي عام 1992 تم إصدار أوامر تجفيف مناطق الأهوار بشكلها الواسع

لكن هذه الصورة في العقود الأخيرة من القرن الماضي وحتى يومنا هذا اهتزّت وحالت ألوانها، بعد أن تعرّضت تلك البيئة الطبيعية إلى ظروف استثنائية تداخلت فيها عوامل كثيرة منها السياسي والاقتصادي والعسكري، فضلاً عن متغيرات أخرى طرأت على العراق وجواره، وأفرز ذلك تحولات طبيعية أجبرت السكان إما على النزوح أو على تغيير نمط حياتهم المعيشية والإنتاجية.[6]

عمل ماكس فان در ستول Max Van Der Stol مقرراً خاصاً بشأن العراق لدى المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة من 1992 إلى تشرين الثاني 1999، ويذكر في تقريره الخامس والخمسين للبعثة في 26 شباط 1999 وفي الفقرة (86) من التقرير تفاصيل عن هجمات القوات العراقية على القصبات والقرى في مناطق الأهوار في المحافظات الجنوبية بين آب وتشرين الثاني عام 1988؛ إذ جرى حرق المساكن وترحيل السكان، فضلاً عن حملة إعدامات جماعية جرت ومن دون تمييز.[7] وبعد غزو الكويت وقمع الانتفاضة في الشمال والجنوب عادت القوات الحكومية (العراقية) إلى الأهوار لاستكمال عمليات تجفيفها وطرد السكان المحليين القاطنين فيها. وفي عام 1992 تم إصدار أوامر تجفيف مناطق الأهوار بشكلها الواسع؛ إذ جرى استعمال كل أنواع الأسلحة الثقيلة، ودُكّت المنطقة بالمدفعية والغارات الجوية بقنابل النابالم، فضلاً عن عمليات الإعدام الجماعية. وهرب عشرات الآلاف من أهالي المنطقة إلى إيران؛ إذ يقدر عدد السكان الذين هُجِّروا من جرّاء هذه النشاطات بين (100,000-190,000) ألف شخص، مع عدد غير معروف من الذين أعدموا أو عُدّوا في عداد مفقودين.[8]

أجريت عمليات عدّة للسيطرة على الجداول المغذّية للأهوار وإغلاق منافذ دخول المياه وإنشاء السدّات الترابية للتحكم بمياه النهر وتحويله إلى المصب العام عن طريق نهر جرى اختراعه لهذا الغرض أطلق عليه اسم (نهر أم المعارك)، مما أدى إلى تجفيف مساحات واسعة من أراضي الأهوار. وأثرت عمليات تجفيف الأهوار في البناء

الاجتماعي للسكان، كما أدّت تلك العمليات إلى ندرة الموارد الطبيعية التي كان يعتمدها السكان في حياتهم اليومية، مما أدى إلى انتشار البطالة وارتفاع مستويات الفقر بينهم. إن ارتفاع مستويات البطالة وعدم تمكّن السكان من توفير الحاجات الأساسية أدّى إلى إجبار السواد الأعظم منهم على النزوح نحو مناطق مختلفة داخل العراق.[9]

غزو الكويت وانتفاضتَي الشمال والجنوب:

نتج عن غزو العراق للكويت والحرب (أي المدة من 2 آب 1990 ولغاية 27 شباط 1991) مقتلُ ما لا يقل عن (100,000) شخص من المدنيين والعسكريين، وجرح نحو (300,000) شخص آخرين. وقد جرى نزوح ما يقارب (2,5) مليون شخص من كلا البلدين، ومن ضمنهم العمّال العرب والأجانب (بمعنى أنهم قد أُجبروا على ترك منازلهم ومواقع عملهم أو تركوها بأنفسهم لضمان سلامتهم)، وقد حصل دمار للأصول المالية للبنى التحتية في العراق يصل إلى (170) مليار دولار.[10]

وبعد أيام قليلة من وقف إطلاق النار، اندلعت انتفاضتان ضد النظام في جنوب العراق وفي كردستان؛ ففي نهاية شباط وأوائل آذار 1991 اندلعت انتفاضة شعبية في جنوب العراق وتركزت بشكل رئيس في محافظات البصرة والعمارة والناصرية والنجف وكربلاء ذات الأغلبية الشيعية، وكانت بمعظمها انتفاضة تلقائية ضد النظام الحاكم. وبرزت في كل مدينة قيادات محلية اقترن بعضُها، وليس جميعها، بمنظمات وأحزاب إسلامية معارضة للنظام. وأمام هذا الوضع، تبيّن بأن الجماعات المتمردة لن تجاري تلك القوات التي نشرها النظام؛ ففي غضون أسبوعين تمكنت وحدات الحرس الجمهوري من إنزال خسائر كبيرة مادية وبشرية في تلك المناطق، حيث جرى قصف العتبات المقدسة في النجف وكربلاء وقتل نحو (300,000) شخص، وتدفّق أكثر من (50,000) لاجئ عبر الحدود إلى المملكة العربية السعودية، ولجأ آلاف آخرون إلى إيران وفرّ كثيرون إلى الأهوار هرباً من ثأر القوات العراقية المسلحة التي لاحقتهم.[11]

بعد انسحاب قوات التحالف جرى نقل نحو (8,400) نازح عراقي لجأوا إلى مخيمات في شمال السعودية، وانضم إليهم نحو (10,000) آلاف من العسكريين الذين رفضوا العودة وفضّلوا طلب اللجوء. وفي منتصف عام 1991 ذكرت التقارير أن (23,000) لاجئ عراقي كانوا في مخيمات السعودية، فضلاً عن أعداد كبيرة من العراقيين الذين توجّهوا إلى إيران طالبين اللجوء. وبلغ عددُ اللاجئين العراقيين في الكويت عام 1991 (20,000) لاجئ، واستمر هذا العدد لغاية عام 1994، وبعدها بدأ بالانخفاض حتى وصل إلى (18,000) لاجئ في عام 1999.[12]

أما في كردستان؛ فبحلول 4 آذار 1991 استولت قوات البيشمركه الكردية على مدينة السليمانية، وبحلول 24 آذار كانت تلك القوات تتحكم بمعظم كردستان بما في ذلك مدينتي أربيل وكركوك.[13] وفي أواخر آذار شنّت الطائرات المروحية وقطعات عسكرية عراقية عدّة غارات على كركوك وعلى المدن الكردية الأخرى، وتمت استعادة كركوك بعد قصف مكثف في 28 آذار، واستعادة السليمانية في 3 نيسان، وحصل نزوح كبير للكرد نحو الحدود العراقية التركية والحدود العراقية الإيرانية.[14] كان كثيرٌ من هؤلاء النازحين على الحدود في ظروف بالغة السوء منتظرين دخول هذين البلدين، وكان يموت منهم يومياً نحو 200 - 300 شخص جرّاء سوء الأحوال الجوية والأمراض والمجاعة[15]، وكان حوالي مليون مواطن كردي يتجمدون من البرد أو يتضورون جوعاً عند الحدود التركية. ورداً على ذلك؛ أصدرت الأمم المتحدة في 5 نيسان قراراً طالبت من خلاله بإنهاء قمع المواطنين العراقيين، وجرى على إثره منع الطيران العراقي من الطيران شمال خط العرض 36، وأنشئت «ملاذات آمنة» عدّة لحماية النازحين

المدنيين.(16) ونتج عن ذلك القرار إقامة حكومة الأمر الواقع ذات الاستقلال الذاتي في كردستان، وعملياً، فإن جميع العرب الذين كانوا يعملون موظفين في المحافظات الثلاث (السليمانية، أربيل، دهوك) والمرتبطين بسلطة النظام آنذاك (وربما بعض الأكراد المرتبطين بالنظام أيضاً)، جرى ترحيلهم من المدن بحلول تشرين الأول 1991.[17] كما شهدت المدة التي أعقبت انتفاضة 1991 أعداداً كبيرة من النازحين داخلياً، ولاسيما في محافظة كركوك؛ إذ وجد بعض النازحين مأوى مؤقتاً على أرض غير مسكونة أو في مبان حكومية متروكة. ويبدو أن غالبية النازحين من كركوك أُعيد توطينهم في مجمع (سلاوا)، الذي جرى إنشاؤه من قبل الحكومة.[18]

وعلى الرغم من إقامة ملاذ آمن محمي بمنطقة الحظر الجوي - وهو وحده الذي أتاح قيام سلطة الأمر الواقع الكردية (في كردستان) - لم تنعم المنطقة بالأمن والسلام؛ فبحلول عام 1994 اندلعت حرب أهلية مريرة بين الحزبين الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني الكردستاني، استمرت حتى عام 1998.[19] وبعد إجراء العملية الانتخابية وتشكيل البرلمان الكردي جرى تقسيم كردستان إلى إدارتين، هما إدارة السليمانية وإدارة أربيل، كما جرى تقسيم وتحديد المناصب والمسؤوليات بين أعضاء الحزبين،[20] ويرى بعض المراقبين أن الأسباب الكامنة وراء ذلك النزاع الذي وصف بـ «الانتحاري»، والذي كانت عواقبه كارثية على السكان عموماً، تتمثل بتقاسم السلطة بين الحزبين، فضلاً عن تقاسم الأرباح (الشحيحة) المتحققة من تجارة الحدود والتي كانت سبب الخلاف الرئيس بينهما.[21] وعلى الرغم من أن المصادر المتاحة لم تقيّد أعداد أولئك الفارّين من آثار الحرب؛ إلا أن ملامسة مثل تلك الظروف بكل تأكيد ينتج عنها نزوح وهجرة آلاف المدنيين من السكان.

تعريب كركوك

تتمتع كركوك بموقع جغرافي يتوسط المنطقة المتموّجة بين المنطقتين الجبلية والسهلية، وتعدُّ من المحافظات الغنيّة بالنفط، فضلاً عن موقع المدينة الاستراتيجي المتمثل بعقدة المواصلات التي تتفرع منها أهم الطرق الرئيسة الداخلية والدولية.[22] كان الطابع القومي (الكردي) لكركوك أحد أعمق نقاط النزاع بين (الحكومات العراقية المتعاقبة) وبين الأكراد في كل النقاشات التي دارت بشأن الحكم الذاتي للأكراد، على الرغم من أن تلك النقاشات لم تكن تتعدى الحدود النظرية[23] فطالما طالب الأكراد ومنذ زمن ليس بقليل بإدارة المحافظة، مبرّرين دعواهم بارتفاع حجمهم الديموغرافي فيها. وبالنسبة للحكومات العراقية العربية المتعاقبة؛ كان التحكم بكركوك يعني التحكم بحقول النفط ذات الأهمية الاقتصادية، فضلاً عن سلب مبرر أساسي لانفصال الأكراد من العراق. وبطبيعة الحال، فإن التحكم الكردي بنفط كركوك (إذا ما تحقق) سيوفّر بدوره الوسائل الضرورية لانسحاب (الأكراد) رسمياً من العراق (أي الانفصال).[24]

ونظراً لأهمية كركوك الاقتصادية وموقعها الجيوستراتيجي؛ عملت سياسات التعريب التي انتهجها النظام العراقي (الجمهورية الرابعة تحديداً، ولاسّيما في عهد رئاسة صدام حسين) طيلة عقود، على تقليل أغلبيتها الكردية والتركمانية لصالح القومية العربية،[25] عن طريق تكثيف تواجد السكان العرب فيها، ونقل الأكراد والتركمان منها بالوسائل القسرية، في محاولة منه «لخلق أمر واقع» جديد، ولإحاطة حقول النفط هناك بسكان عرب. وتجدر الإشارة إلى أن أحد خطوط الأنابيب الرئيسة التي تنقل النفط العراقي يمر مباشرة عبر كركوك - كردستان في طريقه إلى تركيا، وهذا يعني أن وضع خط الأنابيب المذكور سيكون ذا أهمية بالغة للحكومة في بغداد؛ نظراً لأن مهمته لا تنحصر في نقل نفط حقول كركوك فحسب،

في 3 نيسان، وحصل نزوح كبير للكرد نحو الحدود العراقية التركية والحدود العراقية الإيرانية.(14) كان كثيرٌ من هؤلاء النازحين على الحدود في ظروف بالغة السوء منتظرين دخول هذين البلدين، وكان يموت منهم يومياً نحو 200 - 300 شخص جرّاء سوء الأحوال الجوية والأمراض والمجاعة

وإنما يُضخ من خلاله ما لا يقل عن مليون برميل من النفط يومياً.[26]

واصل النظام سياسة إسكان المواطنين العراقيين العرب من سكان المحافظات الوسطى والجنوبية في محافظة كركوك، وعمل على منحهم امتيازات في الحصول على قطع أراضي سكنية مجاناً، فضلاً عن مبلغ عشرة آلاف دينار كمنحة لغرض بناء مساكن لهم؛ وذلك استناداً إلى قرار مجلس قيادة الثورة المرقم (318) في 8 /4 /1984، وبعد حرب الخليج الثانية (غزو الكويت) رُفع مبلغ المكافأة إلى (30) ألف دينار.[27]

حاول الأكراد السيطرة على محافظة كركوك بعد حدوث الانتفاضة في العام 1991 إذ دخلوا في قتال عنيف مع قوات الحكومة العراقية. وبعد سيطرة الحكومة المركزية على المحافظة جرى تخيير الأكراد بين تغيير قوميتهم قسرا والانتماء لحزب البعث والانخراط في تشكيلات جيش القدس وفدائيي صدام، أو طردهم إلى منطقة كردستان ذات الحكم الذاتي في شمال العراق، والتي كانت بحكم الأمر الواقع خارج سيطرة الحكومة المركزية.[28] وقد تجمّع نحو (300,000) نازح كردي في أحياء خصّصت لإيوائهم في شمال العراق، جلُّهم كانوا يتوقون للعودة إلى منازلهم التي أُجبروا على تركها في محافظة كركوك.[29]

ونتيجة لتلك الممارسات؛ أظهر إحصاء عام 1997 أن نسبة العرب في محافظة كركوك بلغت (72,5 %) تقريباً، فيما كانت نسبة الأكراد (20,9 %) تقريباً، أما التركمان؛ فقد بلغت نسبتهم (6,6 %).(30) ويتبين من خلال مقارنة البيانات الواردة في هذا الإحصاء مع البيانات الواردة في إحصاء 1957 إن نسبة الأكراد قد انخفضت بواقع (34,1 %) على ما كانت عليه عام 1957، في حين انخفضت نسبة التركمان بواقع (7,6 %)، أما العرب؛ فقد ارتفعت نسبتهم في المحافظة بواقع (41,7 %) على ما كانت عليه عام 1957. يوضح الجدول أدناه عدد النفوس ونسبة الفرق بين الإحصائين (إما الزيادة أو النقصان) بحسب القومية لسكان محافظة كركوك.

إحصاء 1957			إحصاء 1997		
القومية	النسمة	النسبة المئوية	القومية	النسمة	النسبة المئوية	الفرق بين الإحصائين إما زيادة أو نقصان
عرب	١١٩,٢٢٦	٪٣٠,٨	عرب	٥٤٤,٥٩٦	٪٧٢,٥	+ ٪٤١,٧ ٤٢٤,٨١١
كرد	٢١٣,٩٠١	٪٥٥	كرد	١٥٦,٩٦٩	٪٢٠,٩	٪٣٤,١ ٥٦,٩٣٢-
تركمان	٥٥,٢٢٦	٪١٤,٢	تركمان	٥٠,٠٩٩	٪٦,٦	٪٧,٦ ٥,١٢٧-
المجموع	٣٨٨,٩١٢[٣١]	٪١٠٠	المجموع	٧٥١,٦٦٤	٪١٠٠	

الجدول جرى تكييفه من قبل الباحث على وفق مصادر بيانات الإحصاءين المشار إليهما سابقاً.

هجرة الكفاءات وحمَلَة الشهادات العليا:

خلال عقد التسعينات، وبسبب ظروف الحصار الاقتصادي؛ أخذت الهجرة نحو الخارج تزداد، واتخذت في معظمها شكل اللجوء الإنساني إلى الدول الأوربية، أو العمل في بلدان عربية من قبيل الأردن وليبيا واليمن. مارست الحكومة حينها قيوداً مضاعفة على السفر نحو الخارج، منها فرض رسوم عالية على المغادرة تمثلت بـ (400,000) دينار عراقي للشخص الواحد، وكان ذلك يمثل عبئاً كبيراً على المواطن العراقي في ذلك الوقت، مما فاقم من مشكلة الهجرة بسبب عدم قدرة الفرد على الدخول والخروج المتكرر للبلد. ونتيجة لذلك أيضاً اضطر الكثير من الشباب إلى السعي نحو الهجرة غير الشرعية إلى أوربا، أو الهجرة الشرعية الباهظة التكاليف، كما في حالة هجرة الكفاءات والأفراد ممّن يحملون شهادة جامعية تخصصية أو عليا نحو الدول المتقدمة مثل كندا وأستراليا ونيوزيلاند وبريطانيا والسويد.

لقد وصلت خسائر الدول العربية ومن بينها العراق من جرّاء هجرة كفاءاتها إلى نحو (200) مليار دولار وفقاً لتقرير منظمة العمل العربية لعام 2006، لتصبح هجرة الكفاءات من أهم العوامل المؤثرة على اقتصادات تلك البلدان. وبالاستعانة بالدراسة التي أجراها مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (D.A.T.C.U.N) عن النقل المعاكس للتكنولوجيا؛ ابتكرت هذه الدراسة تقديرات ومؤشرات لما يُعرف بـ "القيمة الرأسمالية للكفاءات العلمية"، وقد قدِّرت التكلفة المفقودة لكل طبيب مهاجر بنحو (535) ألف دولار أمريكي، كما قدِّرت القيمة الرأسمالية لكل مهندس بنحو (227) ألف دولار أمريكي، ولكل عالم نحو (198) ألف دولار أمريكي، فيما قدِّرت تكلفة بقية الفئات المهنية والتخصصية بنحو (138) ألف دولار أمريكي.[32]

من جانب آخر، يقدّر عدد أفراد الجالية العراقية في بريطانيا والولايات المتحدة بأكثر من نصف مليون فردا مهاجر. وبحسب السجلات الطبية البريطانية، فإن عدد الأطباء العراقيين العاملين في المستشفيات البريطانية يقدّر بنحو (2000) طبيب في جميع الاختصاصات، وإن عدداً كبيراً من هذه الكفاءات يعملون في مجالات أخرى غير مجالات تخصصاتهم.[33]

إن نسبة الذين يحملون الشهادات العليا في

بريطانيا يمثلون نحو (33 %) ذكوراً، و(9 %) إناثاً، كما أن هناك طيفاً واسعاً من الاختصاصات المهمة التي تحملها الكفاءات العراقية في بريطانيا، بحسب توزيعها يظهر أن أعلى نسبة كانت للمهندسين بنحو (29 %) من مجموع الكفاءات، وأقل نسبة (1 %) لكل من التقنيين والسيكولوجيين والممرضين والممرضات، وتشير بعض الإحصاءات إلى أن (4000 - 4800) طبيب عراقي هاجروا إلى دول غربية بعد عام 1990.[34]

وقد أقرّت الحكومة العراقية عام 1999 أن عدد الأكاديميين وأصحاب الكفاءات العلمية الذين تركوا العراق وأقاموا في الخارج زاد على (23000) شخصاً، كما تشير الإحصاءات إلى أن نسبة المهاجرين العراقيين ذوي المهارة العالية (13 سنة وأكثر في المدرسة) المقيمين في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (تضم ثلاثين بلداً أكثرها من الدول الغربية) كانت تمثل نحو (38,6 %) من مجموع المهاجرين، ونسبة ذوي المهارة المتوسطة (26,6 %) في عام 2000. وخلال المدة (1999 - 2003) كانت نسبة العراقيين ذوي الكفاءة العالية في السويد (6,8 %) وفي الدنمارك (4 %) وفي هولندا (3,5 %) وفي فنلندا (1,3 %)، وتقترب نسبة اللاجئين العراقيين في أستراليا من ذوي الكفاءة العالية من (20 %).[35]

تشير بيانات مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين أن مجموع عدد اللاجئين والمهاجرين العراقيين في مختلف بلدان العالم خلال المدة (1992 - 2003) قد بلغ نحو (399,781) الف لاجئاً ومهاجراً

وبحسب البيانات والإحصاءات المشار إليها آنفاً، بإمكاننا إدراك حجم الخسارة المادية والنوعية التخصصية التي أهدرها أو اضطر إلى إهدارها العراق جرّاء الحصار الاقتصادي والعقوبات الدولية خلال عقد التسعينات. ومن جانب آخر وعلى صعيد متصل، تشير بيانات مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين أن مجموع عدد اللاجئين والمهاجرين العراقيين في مختلف بلدان العالم والمؤشّرين لدى المفوضية وخلال المدة (1992 - 2003) قد بلغ نحو (399,781) لاجئاً ومهاجراً، وأن أعلى عدد سجّل كان في العام 2002؛ إذ بلغ مجموع المهاجرين واللاجئين فيه نحو (52,331) فرداً، أما أدنى عدد جرى تسجيله؛ فقد وثّق في العام 2003، حيث بلغ مجموع اللاجئين والمهاجرين فيه نحو (10,883) فرداً.

شكل يوضح أعداد اللاجئين والمهاجرين العراقيين للمدة (1992 - 2006)[36]

الهوامش

1. د. أحمد قاسم مفتن: دكتوراه في علم الاجتماع - جامعة بغداد. مدير قسم البحوث والدراسات في وزارة الهجرة. تدريسي محاضر في جامعة بغداد - كليتي الآداب والتربية للبنات، أستاذ مادة مناهج البحث الاجتماعي. خبير واستشاري في مركز البيان للدراسات والتخطيط.
2. محمد صلاح محمود، العزل في السياسة الخارجية السعودية حيال قطر، مجلة دراسات دولية، العدد الحادي والثمانون، نيسان 2020، جامعة بغداد - مركز الدراسات الدولية، ص231.
3. المصدر نفسه، ص237.
4. محمد مهدي صالح الراوي، درء المجاعة عن العراق - مذكراتي عن سنين الحصار 1990 - 2003، منتدى المعارف، (2022)، ص 74.
5. هناء عبد الجبار صالح، العمل غير المهيكل: العراق، ص341، شوهد بتأريخ 5/11/2022، على الرابط الإلكتروني:
https://www.annd.org/uploads/summer-note/131614355075.pdf
6. مصطفى كاظم، البيئة في العراق: الصورة التي حالت ألوانها، موقع بي بي سي نيوز عربي، نشر بتأريخ 16/9/2015، على الرابط الإلكتروني:
https://www.bbc.com/arabic/sciencean-dtech/2015/09/150916_iraq_water_crisis_marsh-es
7. ماريون فاروق سلوغت وبيتر سلوغت، من الثورة إلى الدكتاتورية: العراق منذ 1958، ترجمة مالك النبراسي، بيروت، منشورات الجمل، 2003، ص 397.
8. ليام أندرسون وغاريث ستانسفيلد، مصدر سابق، ص237.
9. عدي بجاي شبيب، مصدر سابق، ص107-106.
10. ماريون فاروق سلوغت وبيتر سلوغت، مصدر سابق، ص 377.
11. تشارلز تريب، صفحات من تأريخ العراق، ترجمة زينة جابر إدريس، بيروت، الدار العربية للعلوم، 2006، ص334.
12. واحدة حمه ويس، الهجرة الخارجية وأثرها في بناء الأسرة ووظائفها: دراسة ميدانية في مدينة السليمانية، رسالة ماجستير غير منشورة، قدمت إلى قسم علم الاجتماع – كلية الآداب- جامعة بغداد، 2008، ص55.
13. ماريون فاروق سلوغت وبيتر سلوغت، مصدر سابق، ص 379.
14. المصدر نفسه، ص380.
15. واحدة حمه ويس، مصدر سابق، ص 53.
16. ليام أندرسون وغاريث ستانسفيلد، مصدر سابق، ص170.
17. فالح عبد الجبار وآخرون، الإثنية والدولة، ترجمة عبد الإله النعيمي، "الاقتصاد السياسي لكردستان العراق" (بقلم ميخائيل ليزنبرغ، الفصل التاسع)، بغداد/بيروت، معهد الدراسات الاستراتيجية، 2006، ص268.
18. المصدر نفسه، ص-267 268.
19. ليام أندرسون وغاريث ستانسفيلد، مصدر سابق، ص328.
20. واحدة حمه ويس، مصدر سابق، ص91.
21. فالح عبد الجبار وآخرون، مصدر سابق، ص 286.
22. عزيز قادر الصمانجي، التأريخي السياسي لتركمان العراق، (بيروت- دار الساقي، 1999)، ص108.
23. جراهام فولر، العراق: هل سيقوى على البقاء موحداً، (أبو ظبي- مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2002)، ص41.
24. ليام أندرسون وغاريث ستانسفيلد، مصدر سابق، ص338.
25. فالح عبد الجبار وآخرون، الإثنية والدولة، "الإسلام السياسي بين الكرد" (بقلم ميخائيل ليزنبرغ، الفصل الحادي عشر)، مصدر سابق، ص 413.
26. جراهام فولر، مصدر سابق، ص41.
27. المصدر نفسه، ص211.
28. ليام أندرسون وغاريث ستانسفيلد، مصدر سابق، ص339.
29. المصدر نفسه، ص 386.
30. وزارة التخطيط - الجهاز المركزي للإحصاء، خلاصة توزيع السكان بحسب القومية والبيئة والمحافظة لسنة 1997.
31. الجمهورية العراقية - وزارة الاقتصاد/ الدائرة الرئيسية للإحصاء، المجموعة الإحصائية السنوية العامة 1957، (بغداد- مطبعة الزهراء، 1958)، ص5.
32. الصوفي ولد الشيباني ولد إبراهيم، التنمية وهجرة الأدمغة في العالم العربي، دبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، 2001، ص 58.
33. نادر عبد الغفور، العقول العراقية المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار، لندن، مؤسسة الرافد، 2003، ص27.
34. . أ.م.د عمرو هاشم محمد و م.د. سميرة حسن عطية، انعكاسات سياسات الهجرة على هجرة الكفاءات (مع إشارة خاصة للعراق)، مجلة أبحاث ميسان، المجلد العاشر، العدد العشرون، السنة 2014، ص113.
35. . المصدر نفسه، ص114.
36. . المفوضية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، اللاجئون والمهاجرون العراقيون، 16 /7 /2007.

العقوبات الاقتصادية والنســاء في العراق

د. أسماء جميل رشيد

مدخَل

شهد العراق تدهورا كبيرا في نظامه الاقتصادي إبّان العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الأمم المتحـدة فـي آب 1990 وامتـدّت نحـو 13 عاما، صاحبَـه تراجع في قدرة الدولة ومؤسسـاتها المختلفة على توفير الفرص الضرورية للحياة والتزويد بالخدمات، وكان لهذا التدهور انعكاساته الخطيرة على المرأة، بعض هذه التأثيرات كان مباشرا تمثّل بالفقر بأبعاده الاجتماعية والنفسية، وبعضها غير مباشر تمثّل بالتحولات الاجتماعية والثقافية التي أسّست لثقافة التمييز ووضعت النساء في زاوية لم توفِّر لهن فرص النمو والمساواة.

وشمل الجزء الكبير من هذه التحولات حراكا اجتماعيا لا يصب في صالح المرأة، بعد انهيار الطبقة الوسطى وضعف تأثيرها وهيمنة طبقات جديدة فرضت إنتاجها الرمزي بكل ما يحمله من صور ومفاهيم وقيم تبخس المرأة حقوقها، وعودة العشيرة بوصفها قوة اجتماعية تتحكم بحياة الأفراد، وتوسّع الخطابات الماضوية المعادية للنساء. أنتجت هذه التحولات واقعا من أبرز ملامحه تقليص دور المرأة في الحياة العامة، ودفع النساء مجددا إلى منازلهن لأداء الأدوار التقليدية، وتفشّي الأمّيّة بين النساء والتسرّب الدراسي وتجاهل التعليم الإلزامي للإناث, وفرض قيود ثقافية واجتماعية وقانونية على حركة المرأة وحريتها.

تناولت معظم الدراسات حول العقوبات الاقتصادية الأثار المدمِّرة لهذه العقوبات على الحياة في العراق بشكل عام وعلى الاقتصاد العراقي بشكل خاص، في حين عُنيَ القليل من هذه الدراسات بتناول تأثير العقوبات على أوضاع المرأة العراقية. لذا؛ لابد من مناقشة التأثيرات المتعددة الأبعاد للعقوبات الاقتصادية على النساء والأضرار الطويلة المدى التي تركتها والممتدة إلى يومنا هذا؛ لما وفّرته من أرضية وبيئة خصبة لترسيخ التفاوتات ما بين الجنسين وتهميش النساء واستبعادهن.

تحاول هذه الورقة أن تقدّم فهما لتأثير العقوبات الاقتصادية, بوصفها حرباً وأزمة إنسانية, على تعزيز ثقافة التمييز ضد المرأة. ستركز الورقة على فهم الارتباطات بين تنامي دور العشيرة وتوسّع الخطاب الديني كمنظومات ذهنية وسلوكية خلال حقبة الحصار، وتراجع وضع المرأة في المجالات العامة والخاصة.

ويعتمد التحليل في هذه الورقة على مراجعة الوثائق والتقارير والدراسات التي أعدَّت خلال التسعينيات من القرن الماضي، وشهادات المُخبرين وما رصدته الباحثة التي عايشت مرحلة العقوبات الاقتصادية.

النظام العشائري وحقوق المرأة

استعادت العشيرة دورها خلال حرب الخليج الأولى مع إيران التي استمرت قرابة العقد؛ إذ أدّى اهتمام النظام السابق بالعشائر واعتماده المتزايد على أقربائه وأعضاء عشيرته في فرض سيطرته على المجتمع إلى تعزيز نفوذ العشيرة وإعادة إحيائها على حساب أشكال تنظيمات المجتمع الأخرى.[1]

ومع إحياء العشيرة وانتعاشها، ازدادت البنية الاجتماعية والثقافية ذكوريةً وبطريركيةً تجسّدت على كافة المستويات؛ فعلى مستوى القوانين والسياسات شهدت هذه المرحلة مجموعة من السياسات والقوانين التي تعكس (توجّهًا ذكوريًا) في سياسة النظام الحاكم تجاه المرأة، على سبيل المثال تم إصدار قرار جمهوري عام 1988 مُنعت فيه المرأة تحت سن الخامسة والأربعين من السفر خارج العراق دون محرم (أي رجل من أقارب الدرجة الأولى).[2] وفي عام 1990 أضيفت المادة (128/1) إلى قانون العقوبات القاضية بتخفيف العقوبة على من قتل امرأةً من أقاربه بدافع غسل العار إلى أقل من 6 أشهر؛ مما أحيا وشجّع ممارسة (جرائم الشرف)، وهي واحدة من العادات العشائرية المعروفة.[3] وقد نتج عن ذلك كله عَشْرَنَة السلطة وتحوّل الدولة إلى كيان عَصبَوي استدمَج مفاهيم وقيم العشيرة في صميم سلطته وقوانينه وأجهزته.

وظهرت مؤشرات التوجّه الذكوري للدولة بشكل أكثر وضوحا على مستوى عمل المرأة؛ إذ بدأت ظاهرة تأنيث التعليم وإحلال النساء محل الرجال للعمل في هذا المجال، التي اتضحت بزيادة وارتفاع أعداد الطالبات من الإناث على أعداد الذكور في معاهد المعلمين وكليات التربية للمدة 1988 - 1989. [4] ومن أبعاد هذه الظاهرة تكريس الأدوار التقليدية للمرأة بوصفها المسؤولة عن

لظهور العشيرة كقوة مؤثرة في المجتمع دور في تهميش وتقويض الكثير من المكاسب التي تحققت للمرأة إبّان السبعينيات من القرن الماضي

التربيـة، أي إعادة عمليـة توزيع الأدوار خارج المنزل بصـورة منمّطـة جنسـيا تكـرّس الصـور النمطيـة السـائدة للذكـورة والأنوثة. من جهـة أخرى، جرى تكديس النسـاء في مجالات عمل معينة تتناسـب مع المفاهيم التقليدية السـائدة حول المرأة، مثل المهـن الكتابيـة وأقسـام (إدارة شـؤون الأفـراد) والسـكرتارية، وإبعادهـن عـن المنشـآت الصناعية الكبيرة، وفي حالة وجدود النساء في المصانع فإن عملهـن يتركز فـي الصناعات الغذائية والنسـيجية والخياطـة، وهذه دلالة واضحـة على بداية التمييز الجنسـي. ومـع نهايـة 1988 بلغـت نسـبة العـزل الجنسـي في دوائـر الدولـة 40 %، أي إن أكثر من ثلث القوى العاملة النسائية تتركز في دوائر معينة هي التربية والصحة والإعلام.[5]

وخـلال تسـعينيات القـرن الماضـي، ازدادت المؤسسـة العشـائرية قوة وتأثيرا وأصبحت تمثّل المرجعيـة، على المسـتوى الاجتماعـي؛ فقد كان هنـاك ميلٌ قوي عنـد الأفراد للعودة إلى علاقات القرابة والعشيرة؛ طلبا للحماية بعد الضعف الهائل الذي لحق بأجهزة العدالة وعجزها عن منع الجريمة بفعل الحصـار الاقتصادي وتدنّـي رواتب العاملين الذي أدّى إلى تفشّـي الفساد والرشوة واستغلال النفوذ لأغراض الكسب المادي.[6]

ولعب القضاء العشائري غير الرسمي الذي يسمى (الفصـل العشـائري) دورا فعـالا في حـل النزاعات بين الأفراد، إلى الحد الذي أصبح فيه يهدّد سلطة القانـون ويقوّضهـا، بعـد أن بـات الفصـل ظاهـرةً واسعة الانتشار*.

كان لظهور العشيرة كقوة مؤثرة في المجتمع دور فـي تهميـش وتقويض الكثير من المكاسـب التي تحققت للمرأة إبّان السبعينيات من القرن الماضي، وكان لتسيّدها سيادةٌ للقيم والمعايير القبلية بكل ما تتضمنه من نفي للمرأة وبخس لحقوقها، فهي نظـام يتمركـز حـول الذكـورة؛ إذ يكتسـب الذكـور مكانة اعتبارية عالية داخل العشيرة مقارنةً بالإناث، فمركز ونفوذ العشيرة وأفخاذها وبيوتتها بين بقية القبائـل يعتمدان على عدد رجالها دون الإناث.[7] إن العشـيرة التي تملك أعدادا كبيرة من الرجال تتمتع بمكانة أكبر مقارنةً بتلك التي عدد رجالها أقل حتى لـو كان عـدد أفرادها أكبر، وكثرة عـدد الذكور في بيت من بيوت العشـيرة يُكسـب هذا البيت سلطة معنويـة كبيـرة تؤهـل رب البيـت لأن يكـون ضمن الدوائـر المقرّبة من الشـيخ، أي أولئك المعروفين باسـم (أهـل الحـل والعقـد) أو فئـة (الأجاويـد).[8] تمثل الذكورة رأسـمال رمزيا للعشـيرة؛ ففضلا عن القـوة والهيبة التي تكتسـبها العشـائر مـن ارتفاع عـدد الذكـور فيهـا، فإن هـذا الرأسـمال يتيـح لها مـوارد إضافية، منها زيـادة المبالغ المفروضة على الخصوم من العشـائر الأخرى، إذ إن قوتها العددية تمكّنهـا من التفاوض على ديـة أكبر، أي تعويضات

ليس للمرأة مكان في بنية السلطة العشائرية؛ ذلك لأن النسب الأبوي هو المبدأ الذي يقرر الوراثة والخلافة والمركز السياسي. فالأبناء الذكور هم الذين يرثون مراكز آبائهم،

أو غرامات في الفصول العشائرية، من عشيرة عدد رجالها أصغر، فكلما كان مقاتلو العشيرة أكثر يكون بإمكانها أن تأخذ مبلغا أكبر.

ليس للمرأة مكان في بنية السلطة العشائرية؛ ذلك لأن النسب الأبوي هو المبدأ الذي يقرر الوراثة والخلافة والمركز السياسي. فالأبناء الذكور هم الذين يرثون مراكز آبائهم، أما إذا لم يكن لديهم أبناء من الذكور؛ فتنتقل هذه المراكز إلى الأخ الأكبر.[9] وحتى بالنسبة للعشائر التي استحدثت نظاما انتخابيا لاختيار الشيخ ومجلس العشيرة، مثل قبيلة (بني العزي)، تُستثنى المرأة من الترشيح ويقتصر التنافس على الذكور فقط. تقوم السلطة والمركزية الذكورية على مبدأ الحط من منزلة المرأة مقارنةً بمنزلة الرجل، وتعاني المرأة في المجتمع العشائري من أزمة تقدير اجتماعي؛ إذ ينظر الرجال إلى النساء نظرة دونية ويعتبرونهن ضعيفات وعاجزات وناقصات، ويتضح ذلك في سلوك الزوج مع زوجته؛ إذ يعتقد الرجل في العشائر الجنوبية أن منح المرأة التقدير والاحترام يتنافى مع معايير الرجولة.[10] ولا تَختلف في هذا الأمر العشائر في غرب العراق وشماله.

النساء في المنظومة العشائرية مَقصيّات عن كل ما يمثّل مجالا مهما ابتداءً من الأماكن العامة، مجلسا كان أم سوقا، حيث تمارَس الأفعال الاجتماعية التي تصنّف على أنها صعبة ومؤثرة[11]، ويلاحَظ أن مثل هذا العزل أشد صرامة في مناطق العشائر الغربية منه في العشيرة الجنوبية. ويبدو أن حاجة العشائر الجنوبية إلى عمل المرأة خارج المنزل، من مثل بيع المحاصيل أو ما جمع الحطب أو حتى العمل في القطاع العام، جعلتها أكثر تساهلا في قضية الاختلاط، ولكن بقيت إمكانية تحركها داخل السوق محدودة جدا وخاضعة لقواعد صارمة.[12] فلنَزع أي بعد جنسي لعلاقة المرأة مع الرجال داخل السوق؛ طوّرت المنظومة الثقافية في هذه العشائر صيغا لغوية، وفُرض على المرأة استخدامها في تعاملاتها مع الجنس الآخر، فمثلا فُرض عليها مخاطبة «الغريب» بلفظ (خويه) أو (عمي) أو (خالي)؛ لخلق قرابة وهمية بينها وبين الغريب تجعله في فئة الأقارب المحرمين عليها.[13] ولكلٍّ من أدوار المرأة والرجل في إطار العشيرة مكانه وزمانه وأدواته لتعزيز التمايز ما بين الجنسين. وحتى في الفضاء الخاص؛ هنالك فضاءات ذكورية مخصصة للرجال وضيوفهم دون النساء، من مثل الديوان الذي يمثّل «صدر البيت» أو «واجهة» رب العائلة أو العشيرة، وهو أهم وأفخر جزء من البيت، ويؤثّث بأفضل ما يمكن توفيره. وينصب دور المرأة على المجال المنزلي المصنّف بمرتبة أدنى، ويقتصر دورها حتى في بعض المدن، من مثل مدينة الرمادي المقسّمة عشائريا، على الأعمال المنزلية التقليدية وخدمة الضيوف المتواجدين

بشكل يومي وفق التقاليد الاجتماعية التي تشتهر بهـا العشـائر في تلـك المنطقـة، أما فـي الريف؛ فيتـوزع يـوم المـرأة علـى إدارة شـؤون البيت من جهة، ومن جهة أخرى العمل في الحقل، حيث تقع عليها مسـؤوليات التعشيب ورعاية الأغنام والبقر والدجـاج، وغيرهـا مـن الأعمـال الصغيـرة الشـأن والشاقة التي يأنف الرجل عن القيام بها.[14]

امتـدّ تأثير القيم العشـائرية المتمركز حول الذكورة ليشـمل سـكان المـدن الصغيرة والمتوسـطة بما فيهـا العاصمـة بغـداد.[15] فمنـذ التسـعينيات، لم يعد يُسـمح للنسـاء في غرب العراق بالذهاب إلى السـوق بدون رفقة أحد محارمها أو إحدى كبيرات السـن في العائلة. وقـد أثّرت الأعراف العشـائرية المتعلقة بعزل النسـاء في أنواع المهن المسموح للمـرأة مزاولتها، وهي المهن التـي تضمن أقل ما يمكـن من الاختلاط بالرجـال. وبالرغم من أن الكثير مـن العوائـل الفقيرة دفعت بنسـائها إلـى العمل في الأسواق كبائعات؛ إلا أن عملهن ظل محكوما بقيم العشـيرة، فلم يُسـمح للمـرأة بامتلاك محل في السـوق، وإنما البيع على الأرصفة؛ تأكيدا على كـون عملها «مؤقت ولا قيمة لـه» مقارنةً بعمل الرجل «الدائم والمهم»، كما لم يُسمح لها بالعمل خارج المنطقة الجغرافية التي تتواجد فيها جماعتها القرابية؛ لكي تكون تحت المراقبة باستمرار.

وانحسـرت قـدرة المـرأة علـى التحكـم بمواردهـا الماليـة؛ إذ تعانـي نسـبة كبيرة مـن العاملات، بما فيهن أسـتاذات في الجامعة، من ظاهرة اسـتيلاء الأزواج علـى رواتبهـن بذريعـة شـرعية يبررها رجل الديـن.[16] فهناك فتاوى شـرعية تجيز للرجل سـلب راتب الزوجـة؛ بحجة أنها اسـتقطعت الوقت الذي تذهـب فيـه للعمل مـن وقت الـزوج؛ لذلـك فان المـردودات الماديـة المتأتيـة عـن هـذا الوقـت المستقطع منه هي من حقه.[17]

تزايدَ نفوذ القانون العشـائري، الذي له قضاتُه من شـيوخ العشـائر والقبائـل، فأخذت قراراتـه تتغلب على قرارات المحاكم المدنية والقضاء الرسـمي.[18]

ففي دراسـة أعدّتها الباحثة عن دور قسـم البحث الاجتماعـي فـي محاكـم الأحـوال الشـخصية في مدينة بغداد عام 2000، وهو قسم ملحق بمحاكم الأحـوال الشـخصية ويختـص بمعالجـة مشـكلات العلاقات الزوجية وقضايـا الطلاق والتفريق، تبيّن أن من أهم المعوقات التي أدّت إلى إخفاق القسم هـو لجوء الأطراف في دعاوى الأحوال الشـخصية إلـى العشـيرة كبديل عـن القانـون، ممـا يعني أن الخلافات العائلية أصبحت شأنا عشائريا يتم حسمه في إطار العشيرة.[19] إن سلبيات عدم التقيّد بقانون مدني تنعكس جميعها على المرأة بشـكل مباشر؛ فسيادة القضاء العشـائري في حل النزاعات تعني فـرض قـرارات وأوضاع علـى المرأة لا تسـتند إلى معاييـر الإنصـاف والعدالة؛ بسـبب هيمنـة الرؤية الذكورية على المنظومة المفاهيمية للعشيرة.[20]

أعـاد غياب الأنظمـة القانونية وعدم فاعليتها في المجتمع إلى العشـيرة سـلطتَها وحقهـا المطلق فـي تزويج بناتها،[21] فأُعيـدت الحياة إلى أنماط من الزيجـات غيـر القانونيـة من مثـل "الكصّـة بكصّة"، و"النهـوة". (الكصّـة بكصّة) هـو زواج البدل؛ حيث تتفـق عائلتان أو رجلان من عائلتين مختلفتين على أن يتـزوج كل منهمـا أخـت الآخر دون دفـع المهر. أما (النهوة)؛ فهي عرف عشـائري يعطى ابن العم الحـق المطلـق بالزواج من ابنة عمّـه، حتى لو كان دون رضاها أو رضا أهلها، ومنعها من الزواج بغيره. فالنهوة إذًا شكل من أشكال الزواج القسري الذي تُجبر فيه المرأة على الزواج من شخص دون رغبتها، وفـي حال رفضِها الزواج من الناهي، أي ابن عمها، يحق له منعها من الزواج من أي شخص يتقدّم لها. وتشـكّل النهوة آلية تسـتخدمها العائلـة الممتدة للحفـاظ علـى ملكيتها ومنـع انتقالهـا للغرباء من خـارج العائلـة. ويمثـل كِلا النمطيـن مـن الـزواج، (النهـوة) و(الكصّة بكصّـة)، انتهاكا لحق المرأة في اختيار زوجها، وتصادر العشـيرة حقها هذا لحسـاب مصالح أعضائها من الذكور.

ومن الجديـر بالذكر أن النهوة تسـري على مجتمع

المدينـة كمـا هي فـي الريـف ولكن بنسـبة اقل؛ فالنسـاء مـن سـكّان المـدن ومـن عوائـل تابعـة للعشـيرة عرضـة للنهـوة حتـى لـو كـنّ مـن بنات الشيوخ.

يكشـف تقريـر أعدّتـه منظمـة غير حكوميـة حول الـزواج فـي محافظة النجـف عن هيمنـة الأعراف العشـائرية الذكورية على الأحوال الشخصية للمرأة في هـذه المدينة، ويورد 96 حالة زواج تمت وفقا لهذه الأعـراف، وهي 65 حاله خارج المحكمة، و 9 حـالات زواج (كصّـة بكصّـة)، و 14 حالـة زواج مبكر دون سـن الرشـد القانوني (ثمانية عشر عاما)، و 8 حالات زواج بطريقة النهوة[22].

ومـن الملاحظ أن ظاهرة النهوة كانت تنحسـر في حالتيـن: الأولى قدرة الدولة علـى تنفيذ القوانين، وخاصة قانون الأحوال الشخصية الذي شدّد، وفق المـادة (9) منـه، علـى عـدم حق أي مـن الأقارب أو الأغيـار إكراه أي شـخص ذكـرا كان أم أنثى على الـزواج دون رضاه، أو منع مـن كان أهلا للزواج من الـزواج، واعتبر القانـون عقد الـزواج بالإكراه باطلا مـا لم يتـم الدخول. ووضـع هذا القانـون عقوبات صريحة للحد من هذه الظاهرة، إلا أنه فقد فاعليته خـلال فترة الحصـار نتيجةً لضعف الدولـة وهيمنة القانـون العشـائري. أمـا الحالـة الثانيـة؛ فترتبـط بالأوضـاع الاقتصاديـة، فنتيجـةً لتدهـور أوضـاع العشـيرة الاقتصادية أصبح بالإمكان ترضية الناهي بمبلغ من المال مقابل أن يَسـمح للفتاة التي نهى عليهـا بالـزواج مـن آخـر. وفي هـذه الحالـة، يقوم الخاطـب بدفـع مبلـغ مقابل التنـازل عـن النهوة. ووفقـا لعـرف بعض العشـائر، يعتبر قبـول الناهي التعويـض النقدي انتقاصا من رجولته، إلا أنه، ومع تدهـور الظروف الاقتصادية، أصبح للعامل المادي أهمية أكبر من الرجولة.

وبموجـب هـذا التطور، عمدت بعض العشـائر إلى إصدار وثيقة مثبتة في سجل العشيرة لمنع النهوة داخـل العشـيرة، بالإضافة إلى إبـرام اتفاقيات بين الأعمـام، تسـمى (المكاتبـة)، يلتـزم الأطـراف بموجبهـا بعدم نهـي بعضهم عن بنـات بعض «لا تنهـى على بناتي ولا أنهى على بناتك».[23] وبصرف النظـر عـن الشـكل الذي تتخـذه هـذه الاتفاقات؛ إلا أنهـا تمثـل تطورا مهمـاً في العرف العشـائري فيمـا يتعلـق بواحد مـن أكثـر الأعراف العشـائرية إجحافـا بحـق المرأة وأوسـعها انتشـارا حتى وقت قريب، سـواء في الريف أو المدينـة. لم تضع هذه الاتفاقـات حداً نهائيـا لظاهرة النهـوة، إذ ما زالت موجـودة علـى نطاق ضيّـق، وأصبحت غيـر ملزمة خلافـا لمـا كان معمول به في السـابق. فمثلا، ما زال العـرف عشـائري والالتـزام الأخلاقـي قائمين فـي العشـيرة بـأن ابن العـم أولى مـن الغريب، أو حتى ابـن الخالة أو العمة، ومـن الطبيعي ألا يتجرأ أحـد على التقدم لفتاة لديها أولاد عمومة إلا بعد استشارتهم أو إقناعهم.[24]

وخلال فترة العقوبات، حصل تطور آخر في القانون العشـائري لصالـح المرأة إلى حد مـا، وأعني بذلك قانـون «الفصـل بالنسـاء». والفصـل هـو تعويض تدفعه عائلـة مقترف الجريمة أو فخذه أو حمولته أو عشيرته إلى الضحية أو عائلته، وقد يكون الدفع إمـا نقـدا أو بالنسـاء، فيُعـرف في الحالـة الأخيرة بالفصـل بالنسـاء[25]، وتسـمى المـرأة المدفوعـة للفصل (فصليّة). يشـكّل الفصل بالنساء واحدا من أهم المؤشرات الدالة على تدني وضع المرأة داخل المنظومـة العشـائرية؛ فبموجـب هـذه القوانيـن تصبح المرأة أداة للتبادل ما بين الرجال وتُسـتعمل لسـداد ديونهـم، وحتـى وقـت ليس ببعيـد كانت جميـع الفصول في الجرائم الكبيرة تدفع بالنسـاء. ويذكر (الدكتور مصطفى شاكر سليم) في دراسته عن الجبايش أن سكان الأهوار كانوا يصرّون على أن يتم الدفع بالنسـاء تعويضا عن خسـارتهم. ومنشأ نظـام الفصل بالنسـاء، وفقـا لـ(سـليم)، هو طلب الجهـة التـي يُقتل منها شـخص امـرأةً لتلـد لتلك الجهـة فرداً مقابل الفرد المقتـول؛ إذ يتزوج الرجل المعتـدى عليـه أو أحـد أقربائـه بالمـرأة المقدّمة كتعويض له أو لأهله، وكان بإمكان المرأة الفصلية

أن تعود لأهلها إن شاءت ذلك بعد أن تلد ذكراً.[26] في منتصف التسعينيات، اضمحلّت ظاهرة تقديم المرأة كتعويض في الفصول العشائرية، واستبدلت بها النقود؛ ففي مقابلةٍ مع (سعدون الكناني)، كاتب وإعلامي وابن شيخ عشيرة (كنانة)، أجرتها الباحثة في بغداد في شباط 2009، يدّعي (سعدون) أنه لم ترِد إلى مجلس شيخ العشيرة أية قضية من هذا النوع منذ سنة 1993؛ ويعزو هذا التحول إلى المد الديني الذي بدا يتنامى في التسعينيات من القرن الماضي، وبالتالي رفض كل الممارسات التي تخالف الشريعة الإسلامية. إلا أن العامل الأكثر أهمية هو تدهور الأحوال المعيشية الناتجة عن العقوبات الاقتصادية؛ حيث أصبح للمورد المالي المتأتي من الفصل العشائري أهمية كبيرة تفوق المعنى الرمزي المتأتي من أخذ النساء كتعويض، كما أن المرأة المأخوذة من خلال الفصل العشائري أصبحت تشكل عبئا اقتصادي إبّان العقوبات، فالزواج من امرأة ثانية من عائلة الخصم انتقاما لا يقدِر على تنفيذه الرجل العشائري الفقير في المدينة.

تسمى المرأة المدفوعة للفصل (فصليّة). الفصل بالنساء واحدا من أهم المؤشرات الدالة على تدني وضع المرأة داخل المنظومة العشائرية؛ فبموجب هذه القوانين تصبح المرأة أداة للتبادل ما بين الرجال

توسّع الخطاب الديني وأثره على وضع المرأة في العراق

وفّرت الضغوط الاقتصادية والنفسية التي نتجت عن العقوبات الاقتصادية أرضية خصبة لتنامي وتوسّع الخطاب الديني، وخاصة مع تراجع الخطاب القومي والعزلة الثقافية وفشل مشروع الحداثة. وشهدت حقبة التسعينيات تصعيدا في مظاهر التديّن على المستويين الشعبي والرسمي؛ إذ لعبت «الحملة الإيمانية»، التي فُرضت بموجبها مجموعة من القرارات والسياسات، دورا مهما في تديين المجتمع العراقي، فلجأ العراقيون إلى الدين تحت ضغط الواقع المادي وعجزهم عن تحقيق ضرورات الحياة، ليصبح ما يقرب من 70% منهم يؤدّون الفروض الخمسة بحسب استطلاع أجرته صحيفة النهار.[27]

كانت بوادر التوجّه الديني للسلطة قد ظهرت أثناء اجتياح العراق للكويت عام 1990، عندما أضاف الرئيس السابق (صدام حسين) عبارة (الله أكبر) على علم جمهورية العراق، وأصبح يسمي نفسه (عبد الله المؤمن). هدَف النظام «العلماني» الحاكم من هذه الإجراءات إلى تعبئة العالم الإسلامي في معركته الدائرة، مصورا إياها كمعركة مع الغرب المسيحي يقودها العراق نيابةً عن الأمة الإسلامية للدفاع عن مشروعها النهضوي ضد حضارة الغرب المتمثلة بالائتلافات التي تشكّل ضد العراق.28 وبعد انتهاء الحرب، ومع استمرار العقوبات الاقتصادية، قرّرت قيادات حزب البعث الحاكم بالعراق اختيار الخط الإيماني منهجا للحزب بديلا عن الخط القومي العلماني؛ وكانت الغاية من هذه الحملة إشغال المواطن العراقي عن الضغوط الاقتصادية والنفسية الهائلة جرّاء العقوبات الاقتصادية بالقضايا والأمور الدينية والروحية، وبالتالي ضمان انصرافه عن الاحتجاج أو تحدّي نظام السلطة أو التمرّد عليه. وهدفت الحملة أيضا إلى إظهار النظام بصورة الورع والتقوى وبالتالي إضفاء الشرعية عليه، إذ تدعو بعض المدارس الفقهية إلى طاعة الحاكم حتى لو كان جائرا.[29]

في عام 1993 أصدر النظام الحاكم قرارا يسمح للرجل فيه بالزواج من امرأة ثانية أو ثالثة دون الرجوع إلى موافقة الزوجة الأولى

أدّى التوجّه الديني للدولة إلى سياسات بعيدة عن اللبرالية، وتقلّصت حقوق المرأة لصالح النظام الأبوي؛ ففي عام 1993 أصدر النظام الحاكم قرارا يسمح للرجل فيه بالزواج من امرأة ثانية أو ثالثة دون الرجوع إلى موافقة الزوجة الأولى.[30] كما تم تجاهل قانون التعليم الإلزامي للمرأة الصادر في منتصف السبعينيات والذي نص على معاقبة الآباء قانونيا فيما لو لم يُلحقوا بناتهم بالمدارس، مما ساهم في انتشار الأمّيّة بين الإناث. وتوجّه النظام إلى تقييد منافسة النساء للرجال في الحصول على وظائف؛ إذ أكّد الرئيس في خطَبِه العديدة أن المهمة الوطنية للمرأة هي إفساح المجال للرجل في العمل والعودة إلى واجبها المقدس بوصفها أمّاً.[31]

ومع زيادة حدّة مشكلة الإتجار بالبشر واتساع ظاهرة البغاء في العراق بسبب ضغط الأوضاع الاقتصادية الناتجة عن الحصار؛ عمد النظام في إطار حملته لمكافحة البغاء إلى قتل أكثر من [48] امرأة ممن اتُّهمن بممارسة البغاء أو السمسرة، مستندا إلى فتوى شرعية من أحد الشيوخ في العراق[32]، استخدمت خلالها ميليشيا (فدائيو صدام) التي تشكّلت سنة 1994 السيوفَ لقطع رؤوس الضحايا، وتركت جثث النساء المقتولات أمام بيوتهن ليراها الناس. وقد وظّفت هذه الجريمة لترويع الناس وتحولت إلى مكسب للإسلاميين في العراق، وبفعلها أصبح (صدام حسين) المؤمن والمجاهد الإسلامي الكبير.[33]

كان للتديّن بمستويَيه الرسمي والشعبي تأثيرٌ مباشرٌ على حياة النساء في العراق؛ إذ ازدادت القيود المفروضة على حركة المرأة واستقلاليتها وأصبحت كل نزعة تحررية للمرأة يُنظر إليها على أنها مرادفة للرذيلة. وأصبح الخطاب الديني ملمحا مركزيا في كل خطاب يدور حول قضايا النساء والأسرة، سواء كان رسميا أم غير رسمي، مما وفّر أرضية مناسبة للكثير من الممارسات الهادفة إلى تقييد حرية النساء. وتم إعداد النساء لقبول حالة اللامساواة؛ بحيث أصبحت المرأة ذاتها تدعو إلى رفض المساواة وقبول تهميشها، وجرت عملية تأطير أفكارها ورؤاها بشكل يضمن قبولها

للقمع ويسهّل فاعلية السلطة والهيمنة عليها؛ إذ عكست نتائج المسح الذي أجري عام 2006 في العراق وجود قبول طوعي لدى النساء بهيمنة الرجل عليها، من خلال تأييد 59 % من النساء لحق الرجل في ضرب زوجته.[34]

انتشار الحجاب في العراق

مع نهاية عقد التسعينيات، أصبح الحجاب الزيَّ الشائع والمألوف للمرأة في معظم المدن العراقية، بما فيها العاصمة بغداد. وفي مقابلة له مع أحد الصحفيين، عزا الشيخ عبد (الرزاق الخطيب) انتشار الحجاب إلى «بركة الحملة الإيمانية» التي جعلت التمسّك بالإسلام أمرا شائعا، وجعلت التحجّب «ثقافة العراقيات اليوم بعدما نبذنَ الثقافة الغربية».[35] وترجم (الاتحاد العام لنساء العراق)[36] التزامَه بهذه الثقافة بقيام قياداته بلبس وشاح على الرأس على طريقة (بينَظير بوتو) رئيسة وزراء باكستان في تلك الفترة.

أُجبرت بعض النساء على لبس الحجاب تحت ضغط المنظومة العشائرية، وبعضهن لبسنَ الحجاب تحت الضغط الاجتماعي، فشيوع الحجاب وتحوله إلى ظاهرة عامة دفع الكثير منهن إلى مسايرة العادات السائدة وإلى ارتدائه. فمثلا، اعترفت (وفاء)، وهي مهندسة تعمل في وزارة العلوم والتكنلوجيا لبسَت الحجاب في عام 1996، بأنها لا تتذكر السبب الذي دفعها إلى لبس الحجاب. لكنها تقول إنها بدأت تشعر بالخجل من ظهورها سافرة بعد أن بلغت عامها السادس والثلاثين؛ إذ «من الصعب أن تَظهر المرأة بدون حجاب في هذا العمر». ومع أن الكثير من النساء ارتدَينَ الحجاب بعد زواجهن مباشرةً، إلا أن عددا غير قليل منهن توجّهن نحو الحجاب بهدف الحصول على فرصة للزواج بعد أن اصبح الحجاب واحدا من شروط المتقدمين للزواج في مرحلة التسعينيات.

ومع أهمية الدور الذي لعبه الخطاب الديني في انتشار الحجاب في العراق إبّان فترة العقوبات الاقتصادية، إلا أن هناك عوامل أخرى نتجت عن هذه العقوبات وساهمت بشكل كبير في انتشاره؛ فغياب شعور المرأة بالأمن نتيجة ارتفاع معدلات الجرائم وانهيار قواعد السلوك الاجتماعي التي تنظّم الحياة في الفضاء العام، ولّد لديها الحاجة إلى التخفّي وإلى عدم لفت الأنظار. ارتدَت المرأة الحجاب الذي أصبح أداة لحمايتها وشرطا أساسيا لشعورها بالأمن في الفضاء العام. ومن جهة ثانية لعب الإفقار الذي رافق العقوبات الاقتصادية وعدم القدرة على شراء الكماليات دورا في تشجيع النساء على التوجّه نحو الحجاب؛ فالنساء اللواتي أصبحن لا يملكن ثمن أنبوبة صبغ الشعر لإخفاء الشيب حسَمنَ هذه المشكلة بلبس الحجاب لتغطية شعرهن الأشيب.

خلاصة: هيمنة ثقافة التمييز

ساهم الحصار الاقتصادي في خلق الظروف الاجتماعية - الاقتصادية والثقافية لهيمنة ثقافة التمييز. وأدّى تنامي القوى التقليدية وانتشار المد الديني إلى تراجع الكثير من قيم المدينة المتعلقة بدور المرأة ومكانتها وحقوقها، وانبنت قيم أخرى تتغذى على العشيرة والموروث القيمي والتدين الشعبي. وتركَ انهيار الطبقة الوسطى، نتيجة الهجرة والإفقار وغياب خطابها العقلاني، فراغاً قيمياً وأخلاقياً تم ملؤه بالقيم والتقاليد العشائرية. فحتى مطلع عام 2000، تسبّب المد الريفي، حلّت القيم والتقاليد العشائرية محل القيم الحديثة التي تؤسّس لحقوق النساء وتعيد لهن الاعتبار. وفّر انغلاق عالم المرأة على ما هو خاص وابتعادها عن المشاركة في الحياة العامة خلال فترة الحصار والعزوف عن التعليم شروطا موضوعية وذاتية لتدنّي مكانتها وتعزيز الصور النمطية السائدة عنها. وتبنّت المرأة قيم التمييز وأصبحت تجسّدها في حياتها وفكرها حتى باتت كالرجل ترى دونية نفسها بديهيةً مطلقةً. وكشفت نتائج دراسة ميدانية أجريت في منتصف التسعينيات على عينة من طالبات الجامعة عن

وفّر انغلاق عالم المرأة على ما هو خاص وابتعادها عن المشاركة في الحياة العامة خلال فترة الحصار والعزوف عن التعليم شروطا موضوعية وذاتية لتدنّي مكانتها وتعزيز الصور النمطية السائدة عنها

الحصار بترك أكثر من 23 ألف باحث وعالم وأستاذ جامعي وطبيب متخصص ومهندس العراقَ للعيش في المنافي.[37] كما أصبحت قطاعات واسعة من الفئات الدنيا والمتوسطة من داخل الطبقة الوسطى دون خط الفقر بفعل التضخم الهائل الذي أتى على مدّخراتها وقوّض قدراتها الشرائية.38 أما مَن تبقى منهم من الموظفين؛ فقد استهلكت مزاولتُهم لأكثر من مهنة لكسب العيش طاقاتهم بالكامل، وبالتالي افتقر المجتمع لنشاطهم الفكري والثقافي ودورهم الإصلاحي. في المقابل، أنتجت العقوبات الاقتصادية طبقات جديدة من شريحة الفلاحين وشيوخ العشائر وتجّار الحروب التي هيمنت، بفعل ما تمتلكه من قوة مادية، على وسائل الإنتاج الثقافي. ومع طغيان وجود قناعات لدى المبحوثات بأن دور الرجل في المجتمع أكثر أهمية من دورهن، وأنهن غير قادرات على ممارسة الأعمال التي يشغلها الرجل.[39] وفي المقابل، ساهمت الظروف الناشئة عن الحصار في تعزيز مركزية الرجل وفي رؤيته لذاته على أنه محور حياة المجتمع والمرأة معا. ومن صورة الذات هذه تبلورت صورة المرأة القائمة على السلب أكثر منها على الإيجاب؛ فالنظرة للمرأة تمر من خلال نظرة الرجل لنفسه. وصُوِّرت المرأة على هذا الأساس كائنا ضعيفا لتعكس صورة الذكر عن نفسه بوصفه قوة إزاء ضعف المرأة.[40] وعلى هذا الأساس، أصبحت النساء بحسب ما ترى (فرجيينا وولف) «مرايا سحرية تمتلك القدرة اللذيذة على عكس صورة الرجل بضعف حجمها الأصلي».

الهوامش (Endnotes)

1 - عبـد الجبـار فالح وهشـام داود: شـيوخ ومنظرون (تقرير الشـرق الأوسط /العدد 215 /2000) نقلا عن:
http://www.aljazeera.net/home/print

2 - الرسـام .آمال 2005: العراق. في كتاب حقوق النساء في الشرق الأوسـط وشـمال أفريقيا المواطنـة والعدالة. تحريـر فريدم هاوس. مؤسسة فريدم هاوس الولايات المتحدة.

3 - المصدر السابق

4 - عبد الحسـين، لاهاي. 2006. أثر التنمية والحرب على النسـاء في العراق 1988-1968. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. ص145.

5 - المصدر السابق

6 - كارل شرو بغداد بعد الحصار. نشرت هذه المقالة في ملحق النهار 2001. انظر:
http://karlsharro.co.uk/baghdad-arabic.html

* أصـدر مجلس قيـادة الثورة في 25 آذار 1997 القـرار رقم 24 الذي يحظـر فيـه علـى القبائـل معارضـة أو ملاحقـة أو رفـع دعـاوى ضد موظفـي الدولـة حين ينزلـون أي ضرر أثناء أدائهم لواجبهم الرسـمي (جريـدة الحيـاة، لنـدن 26 آذار1997). نقلا عن: هشـام داود، المصدر السابق، ص149.

7 - من مقابلة أجراها (يحيى عارف) في 2008 مع أحد شيوخ عشائر الرمادي. عندما سـئل عن عدد أفراد العشيرة، فذكر أن عددهم 250 رجلا. (؟؟؟)

8 - التميمي، جواد. مراتبية السـلطة الداخلية في العشـيرة الصدرية. ورقية خلفية في مشروع العشيرة. ص 2. (؟؟؟)

9 - سـليم، شـاكر مصطفـى.1956. الجبايـش: دراسـة أنثروبولوجية لقرية في أهوار العراق، ج1. بغداد: مطبعة الرابطة. ص 83

10 - سليم، شاكر مصطفى. مصدر سابق.

11 - بورديو بيار (2009): الهيمنة الذكورية ، ترجمة سـلمان قعفراني (بيروت المنظمة العربية للترجمة) ص 27.

12 - رشـيد، أسـماء جميـل وآخـرون. 2009. المركزيـة الذكوريـة وأثرهـا على وضع المرأة في العشـيرة العراقية. دراسـة ميدانية في محافظات ذي قار والرمادي وواسط. دراسة غير منشورة مقدم إلى بيت العلوم الفرنسي ومركز الخليج للدراسات. الدراسة الميدانية في محافظة ذي قار. (؟؟؟)

13 - رشيد، أسماء جميل وآخرون، مصدر سابق.

14 - رشيد، أسماء جميل وآخرون، مصدر سابق.

15 - داود، هشام، مصدر سابق.

16 - الاستيلاء على راتب الزوجة من الظواهر الشائعة الآن في العراق، وأصبح سـببا مهما لتعرض النسـاء العاملات ومن مختلف المسـتويات التعليمية للعنف، ويؤدي في الكثير من الحالات للطلاق.

17 - أسماء جميل رشيد وآخرون، مصدر سابق.

18 - اللجنة العراقية لحقوق الإنسـان. 2007. النسـاء اللواتي تعاني من الأعراف العشـائرية المتخلفة في اختيار الزوج. بحث غير منشـور. ص 1 - 17.

19 - أسماء جميل. 2002. دراسة لواقع البحث الاجتماعي في محاكم الأحوال الشخصية في مدينة بغداد. بحث منشور على الإنترنيت.

20 - جسـي، تانيل ب. 2009. القضاء على العنف ضد النسـاء: منظور العنف المتصل بالشرف في إقليم كردستان العراق. بحث غير منشور مقدم إلى مكتب مساعدة العراق اليونامي.

21 - اللجنة العراقية لحقوق الإنسان، مصدر سابق.

22 - جمعيـة الامـل العراقيـة، مكتب النجف. 2008. أشـكال العنف الذي تتعرض له النساء في محافظة النجف، تقرير غير منشور.

23 - رشيد، أسماء جميل وآخرون، مصدر سابق.

24 - المصدر السابق.

25 - شاكر مصطفى سليم، مصدر سابق. ص 140 - 141.

26 - شاكر مصطفى سليم، مصدر سابق، ص 145.

27 - العلمانية تنحصر في شوارع بغداد أمام مد الحملة الإيمانية
www.ghrib.net/vb/archive/index.php/t-4461.html

28 - مـن مقابلـة مـع الباحـث (سـعد سـلوم)، المختـص بالعلـوم السياسية، أجرتها الباحثة في أيلول 2010.

29 - المصدر السابق.

30 - فـي نهايات السـبعينيات أدخلـت إصلاحات مهمـة على قانون الأحـوال الشـخصية رقـم 185 لسـنة 1959، ومن هـذه الإصلاحات عـدم قانونية تطليق الزوج لزوجته شـفاها، ومنحت صلاحية الطلاق للمحاكـم فقـط. وتضمنـت الإصلاحـات أيضا منـع الزوج مـن الزواج بامرأة ثانية دون موافقة الزوجة الأولى، ويسّرت للمرأة الحصول على حضانة الأطفال في حالات الانفصال والطلاق.

31 - الرسام، آمال. .مصدر سابق .ص97.

32 - http://www.al-rayyan.org/forums/showthread.php?t=29400

33 - ينظر ما كتبه فريق (مفكرة الإسلام) حول هذه الحملة. (توضيح)

34 - وزارة التخطيط. الجهاز المركزي للإحصاء .منظمة الأمم المتحدة للطفولة .2006. مراقبة أوضاع الأطفال والنسـاء. المسح العنقودي المتعدد المؤشرات.

35 - العلمانيـة تنحصر في شـوارع بغداد أمام مـد الحملة الإيمانية، مصدر سابق.

36 - تأسس الاتحاد العام لنساء العراق عام 1972 كمنظمة حكومية تعنـى بشـؤن المـرأة، وكان الاتحاد المنظمـة الوحيـدة المرخص لها العمل في هذا المجال في العراق.

37 - شـحاتة، أمين: آثـار الحصار على العراق. موقع الجزيرة نت. نشـر بتاريخ 1 /10 /2004 .
https://www.aljazeera.net/2004/10/03/

38 - فيـاض، عامـر حسـن: الطبقـة الوسـطى الشـرط الاجتماعـي لإعـادة السـلم المدنـي وبنـاء الدولـة. موقـع الجزيـرة نـت. نشـر فـي 20 /11 /2008 https://studies.aljazeera.net/ar/events/2008/20117221340359704.html

39 - صاحـب، سـناء. التغيـر الاجتماعـي لطالبـات الجامعات، رسـالة ماجسـتير غير منشـورة (جامعة بغداد كليـة الآداب.1997) ص-115 117

40 - جميل، أسماء. 2006. صورة المرأة في المجتمع العراقي الصورة الاجتماعيـة وصورة الذات. رسـالة دكتوراه غير منشـورة مقدمة إلى جامعة بغداد قسم الاجتماع. ص 2115.

ظاهرة (المُعاد) في التسعينيات

التمثّلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

محمد غازي الأخرس

طحين النوى والزيتون

عـام 1994، بعـد مـرور أربعـة أعـوام علـى فـرض العقوبـات الاقتصاديـة على العراق، نشـرت مجلة (ألف باء) في باب (ابتكارات عراقية) لقاءً مع مبتكِر عراقي استطاع تصنيع آلة لإنتاج العلف باستخدام خليط نـوى التمـر والزيتون، ليحلّ «بذلك مشـكلة يواجههـا الكثيـرون من مربّي الدواجـن والحيوانات بالحصـول علـى الأعـلاف، خاصـة أنّـه تمكّـن مـن الاسـتفادة من مـواد مهملة ومتوفـرة محلياً»[1]، وتتمثـل طريقتـه فـي توفيـر (بيلـرات) ضغـط يتمّ عبرهـا طحـن حبّتَي النـوى والزيتون لاسـتخدامها علفـاً، وفـي الوقت نفسـه يمكن اسـتخراج الزيت للاستخدامات المتنوعة. كان لدى المواطن (طاهر جاسم محمد الدليمي) من محافظة نينوى شغف بإعادة تصنيع المهملات؛ فقبل ماكنة طحن النوى والتمـر، كان قد نجح في صنع محراث قلّاب ثلاثي ودسـكات لبِـذار الحنطة والشـعير، ومكائن لقطع التبن وسـحق القصب وسـيقان الحنطة والشـعير. وحيـن سـأله الصحفـي عن مـواده الأوليـة، أجاب بأنهـا «كلهـا محليـة 100 % ومعظمهـا من مادة السـكراب، حيث أقوم بتطويعهـا وتحويلها إلى ما أحتاجه»[2].

في عدد آخر، تلتقي المجلة نفسـها بعراقيٍّ يعمل صائغاً للذهـب يدعى (فؤاد عبد الرضا الحسـيني)، وقد استطاع هذا الرجل تحقيق إنجاز جديد حين نجح في اسـتخراج نتـرات الفضـة، وبمواصفات تضاهي النوع الألماني، كما يورد الخبر. لقد اكتشف (فؤاد) «يوماً أنّ هناك شـيئاً برّاقاً يتسـرّب من بين أصابعه وهـو يصهر الذهـب»[3]، واتضّح أنها نتـرات الفضة الشـديدة الندرة. لا تكمن أهمية الموضوع بتصنيع تلـك النتـرات؛ فهو شـيء معـروف لـدى الصاغة، وإنما الجديد هو تفرّد (فؤاد) «بتصنيع هذه النترات بمزايـا عالية جداً يمكن اسـتخدامها في الكثير من المجـالات، الطبية منهـا وغير الطبيـة، مثل الصور الإشـعاعية وبعض الأدويـة وصناعة المرايا وطلاء المعـادن، وهو بهذا قد وفّر للبلـد العملة الصعبة التي كان يستورد بها هذه المادة من الخارج»[4].

ليـس هـذان الخبـران إلا عينة عشـوائية من مئات الأخبار والتحقيقات التي دأبت صحافة التسعينيات على نشـرها في العـراق، وكلها يحاول إشـاعة جو من تحدي العقوبات بالمزيد من الابتكارات. وبغض النظر عن مصداقيتها أو غلبة الجانب الإيديولوجي عليهـا؛ إلا أن وظيفـة تلـك الأخبـار تمثّلـت بتعبئة المواطنيـن وتوجيههـم نحو الاسـتفادة القصوى من أيّ مادّة مهملة أو منسـية، ومحاولة استخراج مـا يمكن اسـتخراجه من فوائدهـا المعطلة، ومن ثم إعادة إنتاجها بما يسهم في إدامة عجلة الحياة و«تحـدي مؤامـرات الأعـداء الذيـن فرضـوا علـى العـراق حصاراً جائراً»، كمـا دأب الخطاب الإعلامي على قول ذلك آنذاك.

هكذا جرى الأمر

في الثاني من آب عام 1990، وثب الثورُ العراقي الهائـج ليعبـر حائط حديقـة الجيران، معلنـاً عن بدء عصر الجنون، ثم صرخ: إنها حديقتي، لقد استعدتُها. لم يسـتوعب العالم الصدمة للوهلة الأولى، لكنه سـرعان ما اسـتوعبها بعد سـاعات، ليصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة القرار (660) الذي أدان غزو العراق للكويت وطالبه بالانسـحاب حالاً[5]. ثمّ توالت الإجـراءات: الرئيس الأميركـي (جورج بوش) يجمّـد أرصدة الحكومتين العراقية والكويتية كافة، في وقـت يصدر مجلس الأمن القـرار (661) الذي ألزم دول العالم بمنع اسـتيراد السـلع من العراق، وحظر نقل الأرصدة إليه لأغراض التجارة، مثلما حظر تجهيزه بالسلع كافة باسـتثناء التجهيزات المرسلة لأغـراض طبيّة [6]. وفي اليوم التالي، شـرّعت دول كثيـرة قوانيـن لتنفيـذ العقوبـات المفروضـة في القرار المذكور. وبحلول منتصف آب عام 1990، بدأ الحظر الاقتصادي يُحدث تأثيره، فانعزل العراق عن العالـم الخارجي بحـراً وبراً، وتوقـف تصدير معظم النفط العراقي[7].

في الأشـهر التاليـة، زادت وتيرة التأثيـرات الكارثية

على الوضع العام بعد انخفاض واردات العراق المالية لدرجة، أنّ فريقاً من جامعة هارفرد توقّع موت (175) ألف طفل دون الخامسة عام 1991 بسبب انخفاض نسبة القيمة الغذائية المتحققة من نظام الحصص التموينية العراقي الرسمي إلى درجة النصف مما كان عليه قبل الغزو[8]. ثمّ تواصل انحدار الوضع في عام 1992 ليصبح استيراد الغذاء يعادل 50 ٪ مما كان عليه[9]، وترافق ذلك مع تفشّي البطالة وارتفاع مستوى التضخّم وارتفاع مستوى الأسعار الذي بلغ 2000 ضعف بعد عام من غزو الكويت[10]؛ مما أدّى إلى زيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء، لدرجة أنّه بعد أقل من عام على نهاية الحرب لاحظ جامعو النفايات في مدينة بغداد تحوّلاً جذرياً يتّسم بالتشاؤم لما يخبئه المستقبل المظلم للبلد، من ناحية أكداس النفايات المنقولة في عرباتهم إلى مجمع النفايات خارج العاصمة. فقبل سنة كانت ثلثُ النفايات المنزلية في المدينة خاوية مع بقايا الطعام، «أمّا الآن، وبعد مضي ما يقرب الاثني عشر شهراً على انتهاء الحرب وفرض العقوبات الاقتصادية؛ فقد اختفت آثار الطعام كلياً، إذ أصبح الطعام، أي نوع من الطعام، نفيساً جداً على أن ينبذ في الأماكن المخصصة للنفايات، فحتى قشور البطيخ كانت تُدَّخر لغرض أكلها فيما بعد، لقد بات الشعب على عتبة الجوع»[11]. وهو ما جرى فعلاً بسبب الانخفاض المهول في دخل الفرد الذي وصل إلى أدنى مستوياته في عام 1994 حين وصل إلى 180 دولاراً أمريكياً في السنة، بينما كان قد وصل إلى 4000 دولار في عام 1980، وإلى 3500 دولار في عام 1988[12].

أهلاً أيها (المُعاد): إعادة تفكيك الأشياء

قادت ظاهرة إعادة طحن الأشياء ومزجها لإنتاج شيء جديد إلى ظهور مفهوم (المُعاد) بوصفه نتاجاً للظروف الاقتصادية المار ذكرها. وبدا أنّ العراقيين آنذاك يمرّون بمرحلة عصيبة من الندرة تتطلب حلولاً مبتكرة لإدامة استمرار الحياة؛ لذلك التجأوا إلى مخازن خردتهم التي تستقر في أسطح البيوت أو تحت السلالم أو في المخازن المهملة لإعادة استخدامها. كان الاحتفاظ بالمهملات تقليدا قديماً عرَفه العراقيون بسبب ثقافة الندرة التي ميّزت حياتهم، ولتكرار المآسي الجماعية والحروب والأوبئة. وفي كل بيت عراقي، وجِد دائماً مكانٌ يحتفظ بالحاجات المنزلية المحالة

لقد بات الشعب على عتبة الجوع، وهو ما جرى فعلاً بسبب الانخفاض المهول في دخل الفرد الذي وصل إلى أدنى مستوياته في عام 1994 حين وصل إلى 180 دولاراً أمريكياً في السنة

أصبح مفهوم (المُعاد) سمة غالبة في العراق، واضطرت الطبقة الوسطى إلى الالتجاء للمُعاد أيضاً بعد أن بدأت مرحلة انهيارها بسبب اشتداد الوضع الاقتصادي.

على التقاعد، على أمل أن يعاد تأهيلها ذات يوم. وحتى التسعينيات، كانت تلك المهملات بانتظار ما يتفتّق عنه الذهن العراقي لإعادة تشغيلها للمساعدة في الخروج من نفق الحصار والتضخّم والبطالة؛ لذلك كانت العودة إلى تلك الخردة متوقعة تماماً، فالندرة والعوز أطبقا على حياة العراقيين بسرعة، فكان لابد من فتح تلك المخازن القديمة لإعادة إنتاج المهملات وتحويرها كي تدخل الخدمة بوظيفة أخرى. يمكن للمجمدة المستهلكة، المتحولة إلى مجرد صندوق معدني، أن تتحول، تحت ضغط الحاجة، إلى بديل مجاني للدولاب الخشبي، حيث يصبح بالإمكان حفظ الأشياء فيها بدلاً من تبريدها. ويصحّ الأمر على الثلاجة التي لا يتطلب الأمر معها سوى تحوير بسيط وغير مكلف يمكن أن يكسب المرء به دولاباً جديداً أو براداً شبيها بالبرادات المستخدمة في الخمسينيات والستينيات، وبذا تتحول إلى صندوق تبريد بدائي.

أما إذا كانت الحاجات غير قابلة لأيّ نوع من التحوير؛ فيسارع أصحابها إلى بيعها لتجّار الخردة بأزهد الأثمان، ليحوّلها هؤلاء إلى أصحاب المصانع والورش التي تعيد صهرها إذا كانت من المعدن أو البلاستيك لصنع أشياء جديدة من مادتها الخام، وإذا كانت من الخشب فيمكن إن يعاد تصنيعها بطريقة أو بأخرى.

في تلك الأيام، وفي باب الكنايات المستحدثة، شاع مصطلح (المُعاد) للدلالة على سوء نوعية المصنوعات المعتمِدة على المواد الخام المستخرجة من تلك الأشياء المستعملة. ثم عمّت الكناية ليس للدلالة على سوء المنتجات المتداولة فقط، بل على سوء الزمن كلّه. فالنعال المصنوع في ورش التسعينيات العراقية بات يُنظر إليه بغير ما يُنظر للنعال الأصلي المستورد من سوريا أو إيران، والإبريق المصنوع من المعادن المعاد صهرها هو غير الإبريق الأصلي القادم من خارج البلاد. ويصحّ الأمر على الصناعات الغذائية، ولهذا فمن المنطقي أن نقرأ في إحدى الروايات التي تستعيد مزاج الحصار، يقول الراوي: «كل شيء مغشوش هذه الأيام، من معجون الطماطم الذي أصبح خليطاً من بطاطا تعبانة ولون أحمر غير معروف المصدر، إلى معجونات البناء»[13]. وتروي إحدى شخصيات رواية (غايب) لـ(بتول الخضيري) ذلك، وهي تخبر بحدث سقوط بانيو الجيران من الطابق العلوي إلى شقتهم؛ فبسبب غلاء الأسعار لم يتمكنوا من صيانة حمامهم، و«استخدموا مواد مغشوشة لم تتحمل ثقل البانيو، فهبط نصفه عندهم ونصفه يتدلى عندنا في طاولة الطعام»[14]. الأمران متماثلان تماماً، المغشوش

تمّ في التسعينيات طحن كلّ شيء بكلّ شيء؛ بغية إعادة تصنيع الحياة. وبالنتيجة؛ أصبحت الحياة نفسها شبيهة بمنتجات الناس الباحثين عن النجاة من الفاقة والعوز

يغزو الحياة كلها، من الطعام إلى مواد البناء.

كل ذلك جرى تحت ضغط الحاجة واشتداد الفقر، وكانت أثمان تلك المنتجات زهيدة، لهذا فهي بالعادة مفضّلة لدى أبناء الشرائح المعدمة. لكن مع استمرار الحصار وامتداد تأثيره إلى بقية شرائح المجتمع، أصبح مفهوم (المُعاد) سمة غالبة في العراق، واضطرت الطبقة الوسطى إلى الالتجاء للمُعاد أيضاً بعد أن بدأت مرحلة انهيارها بسبب اشتداد الوضع الاقتصادي.

هنا، لابد من الانتباه إلى أن ظاهرة (المُعاد) هذه تحولت إلى مفهوم شامل يتمثل في أكثر من مستوى؛ ففي مستوى البنى الأساسية للصناعة، بدأت تنتشر آلاف الورش الصغيرة في المناطق الشعبية، وفي أحيان كثيرة كان يعاد تحوير البيوت لتكون ورشاً تفي بالغرض، فترى المشتغلين يعيدون إنتاج المواد الخام كالمصنوعات البلاستيكية والنحاسية والزجاجية والخشبية، فضلا عن انتشار مصابغ الأقمشة القديمة من بناطيل وتنّورات وقمصان، وانتشار ورش الخياطة المتخصصة بإصلاح الملابس القديمة وقلب أقمشتها. بل إنّ مفهوم (الإعادة) دخل إلى البيوت ذاتها، فراحت الأمهات يفتشن في خزائن ملابسهن العتيقة ليُعدن تفصيلها من جديد كي تصبح مناسبة لبناتهن وأطفالهن الصغار. تقول إحدى شخصيات رواية (غايب): «خالتي تؤكد أن الحاجة أم الاختراع كلما ثبتت أزراراً على ملابس الناس المستهلكة، وتفتخر أنها أصبحت مثل الجديدة. زوجها سئم منها مرة فجاءها بحفنة من بذور البطيخ، قائلا لها: تفضلي، جففيها، اصبغيها واجعلي منها أزرارا»[15].

وبموازاة ذلك، أعيد تأسيس الأرصفة لتكتسي هوية (حِصارية) جديدة، أو بالأحرى لم تعد الأرصفة

أرصفةً؛ بل شرعت في التحوّل إلى أسواق. وجرى ذلك في جميع مناطق بغداد والمحافظات، بعلم الدولة ورضاها. كانت تلك الأرصفة - الأسواق تضمّ عشرات الآلاف من البسطيات، وقدّمت نوعاً من الحل للشرائح المعدمة ووفّرت لها فرصاً جديدة للعمل. كانت تتجاور لتقدّم شتّى البضائع الرخيصة مثل السجائر والملابس القديمة والأواني المصنعة من معادن معاد صهرها. وثمّة باعة الخردة والمجلات والأدوية والأعشاب والقرطاسية، وحتى الرسامون وجدوا لهم مكاناً في تلك الأرصفة.

وإلى جوار تلك البسطيات، ثمّة من افتتح مطاعم شعبية في الهواء الطلق، وإلى جانبها وجَد باعة الشاي وعربات اللبن والمشروبات الغازية أبواباً للرزق. وفي تلك الفترة، اخترع العراقيون طريقة جديدة لتصنيع المشروبات الغازية الرخيصة، وذلك بأسلوب جديد يعكس ثقافة (المُعاد) السائدة؛ فبدلاً من القناني المعبأة بالطريقة المعتادة، ظهر نوع من العربات التي تحمل الواحدة منها خزّاناً مليئاً بالصودا الغازية المضغوطة. وهناك قناني صغيرة تحوي نكهات مكثفة للبيبسي والسفن وغيرهما من النكهات، ثم يقدّم المنتج في قدح بمزج المياه الغازية بالنكهات المكثّفة. كانت تلك صناعة ذات طابع شعبي وبدائي وتعمل خارج رقابة المؤسسات الصحيّة.

وبالأحرى، أعيدت صياغة هوية الأشياء لتناسب حاجات المجتمع الجديدة، كلّ شيء تغيّر أو أعيد توظيفه، السيارات القديمة غير الصالحة للعمل تحوّل بعضها إلى دكاكين متنقلة، البيوت القريبة من الأسواق الكبيرة تحوّلت إلى مخازن أو ورش صناعية، ملابس الآباء أعيد تفصيلها وخياطتها لتناسب الأبناء، بل حتى الورق القديم المستخدم في المخاطبات الرسمية المركون في الأضابير القديمة أعيد إلى الخدمة ليُستعمل مرة أخرى بوصفه مسودات.

أما في مستوى خريطة المهن والأسواق؛ فقد أدّت الظروف الاقتصادية الجديدة إلى انتعاش مهن قديمة وظهور أخرى جديدة مناسبة لعصرها، وبموازاة ذلك انتعشت أسواق قديمة ومنسية وظهرت أسواق جديدة ناشئة. مهنة (الدوّارة) مثلاً كانت معروفة في العراق، وتتمثل بفئة من الفتيان والرجال ممن يدورون في الشوارع والأزقّة لشراء المواد المهملة (العتيق)، أو ما يسمى (الخردة فروش). ما جرى في التسعينيات أن هذه المهنة انتعشت بدرجة غير مسبوقة، فأصبح لها أسواقها وتجّارها وورشها، بل تطورت منها مهنة جديدة هي التقاط المهملات من المزابل وعزلها لبيعها إلى أصحاب الورش الصناعية، وأصبح من الصعب عزل المهنتين بعضهما عن البعض. في ظلّ ذلك، انتعشت فئة جديدة من لصوص يسرقون إطارات السيارات وأسلاك الكهرباء وكلّ ما يعلّق على سطوح المنازل وجدرانها من ملابس وسجاد وغير ذلك، ناهيك عن قناني الغاز والدراجات الهوائية وكلّ ما يسهل حمله. ومن المثير للانتباه حينذاك أن تختلط فئتا (الدوّارة) بحيث أصبح من المتعذر الفصل بينهما. وبالنتيجة، تولد شعور عام لدى المجتمع باحتقار الدوّارة جميعاً وتحميلهم مسؤولية السرقات التي شاعت وارتفعت معدلاتها بسبب الفقر. على ارتباط بهذا، ظهرت أسواق جديدة لتداول المهملات في بغداد والمحافظات، إمّا بشكل مستقل يُفتتح في أيام الجُمع، أو كملحقات بأسواق موجودة بالفعل كما جرى في سوق مريدي بمدينة الصدر (الثورة سابقاً). فقد أسّس هذا السوق بوصفه سوقاً عادياً، لكنه توسع في عقد التسعينيات ليلتحق به عدد من الأسواق المتخصصة ببيع وشراء المهملات (العتيك). ويوما بعد يوم، غلب هذا النوع من البضائع على السوق كله حتى أصبح المهمل عنوانا له.

أمّا في منطقة النهضة، وتحديداً تحت طريق (محمد القاسم) المسمى بـ(السريع)؛ فقد ظهر سوق جديد متخصص بعرض المهملات

والحاجيات القديمة، وشاعت عنه تسمية (سوق الحرامية)، بعد أن تواطأ الناس ضمنياً على اعتباره مكاناً لتداول المسروقات، والملاحظ أنّ التسمية أطلقت على العديد من الأسواق الشبيهة الناشئة في بعض المحافظات الأخرى.

ما الخلاصة إذًا؟

في سنوات التسعينيات، حدث أن تخلخل كلّ شيء؛ اهتزّت منظومة المفاهيم وخارطة الطبقات الاجتماعية، تبدّلت طريقة النظر إلى الأشياء، واضطر العراقي المهدد بالجوع إلى إعادة ابتكار حياته وطرائق تفكيره ليعبُر إلى ضفّة الأمان. فقدت الأشياء هوياتها وطرأت عليها تغييرات جوهرية، لدرجة أن الدقيق لم يعد دقيقاً وإن احتفظ بهيئته نفسها. ولئن استطاع المواطن (طاهر جاسم محمد الدليمي) ابتكار آلة لإنتاج العلف من خليط نوى التمر والزيتون، كما رأينا في المقدمة، فإن أصحاب مطاحن الدقيق آنذاك ذهبوا إلى خلط نوى التمر ونشارة الخشب مع القمح والشعير، بل إن الكاتب (خضير فليح الزيدي) يكتب أنّ جماهير الشعب الجائع اكتشفت إمكانية طحن الدخن (قمح البلابل) وحبّات الهريس وخلطها «بنسب معلومة مع ذروق العصافير ذات الفائدة المكتشفة أو مع بذور عباد الشمس لطحنها كبديل عن الطحين» [16]. ويمضي قائلاً: إن «معامل الطحين توسّعت وبدأت تطحن كلّ ما يمكن طحنه مع أرواح الناس المتهافتة في البحث عما يسدّ آفة الجوع» [17].

وبالأحرى، تمّ في التسعينيات طحن كلّ شيء بكلّ شيء؛ بغية إعادة تصنيع الحياة. وبالنتيجة؛ أصبحت الحياة نفسها شبيهة بمنتجات الناس الباحثين عن النجاة من الفاقة والعوز. صارت تشبه أرغفة الخبز المعمولة من الدقيق والدخن ونشارة الخشب ونوى التمر، بل غدت تماثل (الكبّة) التي تخرج من هوامش المدينة، حيث الرجال والنساء، الفتيان والفتيات، العجائز والأطفال، يخلطون في بيوت سرّية اللحم القادم من مناشئ غامضة بمصارين الحيوانات، ثم يغلّفونها بأكياس نايلون معادة الصنع، لينتهي كل هذا طعاماً في جوف التسعينيات المستعد لهضم كل شيء.

الهوامش

1 ـ مجلة (ألف باء)، العدد ١٣٣٦، السنة السادسة والعشرون، ١٢ ذو القعدة ١٤١٤، الأربعاء ٤ أيار ١٩٩٤.

2 ـ المصدر نفسه.

3 ـ مجلة (ألف باء)، العدد ١٢٣٣ السنة الرابعة والعشرون، ١٢ ذو القعدة ١٤١٢ هـ ، الأربعاء ١٣ أيار ١٩٩٢ ـ ص 26.

4 ـ المصدر نفسه.

5 ـ التنكيل بالعراق، العقوبات والقانون والعدالة، جيف سيمونز، مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى - بيروت أيلول سبتمبر 1998: ص 64.

6 ـ المصدر نفسه: ص 65.

7 ـ المصدر نفسه: ص 68.

8 ـ صدام الخارج من تحت الرماد.. ولادة صدام حسين من جديد، تأليف أندرو كوكبورن وباتريك كوكبورن، ترجمة علي باس، مكتبة مدبولي ـ دار المنتظر، الطبعة الأولى 2000: ص 204.

9 ـ التنكيل بالعراق: ص 84.

10 ـ صدام الخارج من الرماد: ص 204.

11 ـ المصدر نفسه: ص 202.

12 ـ التقرير الوطني لحال التنمية البشرية 2008، تقرير مفصل بـ 236 صفحة صدر عن الحكومة العراقية وساهم في إعداده عدد من الباحثين والأكاديميين وفريق إحصائي متخصص، حرّره كل من (حيدر سعيد، ويحيى الكبيسي، وحسن لطيف)، وحرّر النسخة الإنكليزية (زاهر جمال، وشونا تروب، وكريستينيا جونسن، وجون فرانكسون، علي القاسمي: ص 41.

13 ـ رواية (غايب)، بتول الخضيري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 2004 : ص 28.

14 ـ المصدر نفسه: ص 28.

15 ـ المصدر نفسه: ص 30.

16 ـ مملكة الضحك .. رحلة من باب المعظم إلى مستودع الههاي، خضير فليح الزيدي، منشورات سطور ـ بغداد، الطبعة الأولى 2021 ص 90.

17 ـ المصدر نفسه ص 90.

القوات المسلّحة العراقية في ظل الحصار الاقتصادي

بين تِرِكة التدمير وقسوة الحصار

الفريق الركن حسن البيضاني

تقديم

لا يمكـن أن تُبنـى أيّـة قوة عسـكرية مهما كانـت طبيعتها أو المهام التـي أوجدت من أجلها دون أن تكون هنالك موارد مالية كافية لإتمـام متطلبات البنـاء وخلق قاعدة مادية تسـاهم بشكل مباشر أو غير مباشر في رفع قدرات تلك القـوات؛ لتكون قادرة على أداء المهام القتالية أو الأمنية المطلوبة منها أو التي سـتكلّف بها لاحقـا, وهذه الموارد في الغالـب تتنـوع من حيث الفصـول والفقرات التـي تحـدد لهـا فـي أوجـه الصـرف ضمـن الموازنـة العامـة إذا كانت تلـك القوة تابعة لدولـة ذات سـيادة ولديها نظـام اقتصادي قائـم على البرمجة المالية السـنوية، والأمر لا يختلـف من حيـث الحاجة إلى تلك الموارد بالنسـبة للتنظيمـات شـبه العسـكرية أو المليشيات أو المجاميع المسلحة؛ فالجميع هـم بحاجة إلـى روافد ماليـة دائمة لتغطية النفقات وتطويـر القدرات ومعالجة الاندثار، وهذا ما كان يُعمل به في القوات المسلحة العراقية منذ تأسيسـها فـي 6 كانون الثاني 1921 وحتى الآن.

إن الـذي حصـل فـي عـام 1990، وعلـى وجهـة التحديـد بعد احتلال الكويت بأمـر من رأس النظام فـي الثاني من آب من هـذا العام، وبعد أربعة أيام فقط من هذا المتغير الجذري في عموم المنطقة، هـو قيام مجلس الأمن الدولي الذي هيمنت عليه الولايـات المتحدة الأمريكية بإصدار قرارها المرقم (661) فـي 6 آب 1990، والـذي تضمّن في فقرته الأولـى فـرض حصـار شـامل وكامـل علـى العراق مـن كل الجوانـب وبضمنهـا الجانـب الاقتصـادي، ومنـع تصديـر النفط بالقـوة؛ مما جـرّد العراق من كل مقوماتـه الاقتصاديـة وأدّى إلـى خلـق بيئـة اقتصاديـة غير قـادرة اطلاقاً علـى تلبية متطلبات الحياة للمواطنين، فكيف الحال بالنسبة للمؤسسة العسكرية العراقية وعموم القوات المسلحة التي تقتـات على ما يُخصص لها من مبالغ ضمن موازنة الدولة؟ هكذا كان المشهد العام في نهاية صيف عـام 1990، ليسـتمر بذات القسـوة - بـل أكثر من ذلك بكثير - خلال السـنوات اللاحقة وحتى سقوط النظـام واحتـلال العراق مـن قبل جيـش الولايات المتحـدة الأمريكيـة المدعـوم بمجموعـة جيوش متحالفة معه.

الحصار والسير نحو الكارثة

إن قـرار مجلس الأمن ذو الرقـم (661) في (6 آب 1991) المذكـور آنفـا، والمتضمـن فـرض عقوبات اقتصاديـة علـى العـراق، لا يمكـن أن يوصـف بأنه حصار شامل لجميع نواحي الحياة فقط؛ بل إنه مثّل مرحلـة مغايرة تماما من حيـث الجوهر والمضمون لـكل مسـارات الدولـة العراقيـة, ورغـم أنـه كان مقترنـاً حسـب ديباجتـه باحتـلال الكويـت؛ إلا أن انسـحاب الجيـش العراقي من الكويـت - أو بتعبير أصـح (هزيمته) - لم ينفع فـي رفع هذه العقوبات أو تخفيفهـا، بل إن اللجـان الخاصة بالأمم المتحدة أوصلت الحال إلى حد لا يطاق، وبدأ العراق بمرحلة شـد الأنطقة، ثـم بدأت الأمور تشـتد أكثـر واكثر. وهنـا لا نريـد أن نذهب باتجاه بيـان تأثيرات الحصار علـى الحالة العامة للشـعب العراقي، بل سـنبقى فـي دائرة ما للحصار من تأثيـرات على بنية الجيش وإعـادة بنائه أو ترميمه بعـد أن خرج لتوّه من أتون حرب أو معركة أباحت للمهاجم كل الفرص لتدميره، حتـى إن الكثير مـن الوحدات والتشـكيلات وصلت بهـا الحالـة في نسـبة الجاهزيـة القتاليـة إلى اقل من 20 %، وهذا يعني على سـبيل المثال أن قدرة الفـوج فـي الحـالات الطبيعة أن يشـرك بين 500 إلـى 450 مقاتـلا فـي المعركة، في حيـن إن هذه النسـبة جعلت الفوج غير قادر على إشراك أكثر من 90 إلـى 100 مقاتل، وبتالي تقلصـت قدرة الفوج مـن أربعة سـرايا مقاتلة إلى سـرية مقاتلة واحدة، وهذا ينسـحب علـى اللواء الذي بـات يقاتل بقدرة قتالية لا تتجاوز الفوج منقوصا من سرية، في حين إن الفرقة بكاملها أصبحت قدرتها القتالية أقل من قدرة لواء، وهذا الأمر ينسحب على باقي الصنوف

فقدت قوات الجيش أي بريق في سماء الوطنية بعد أن تسابقت وحداتُه في قمع الانتفاضة بكل قسوة، في حين انها انكفأت وانهزمت أمام قوات التحالف

المقاتلة والساندة وحتى المكلفة بمهام الدعم اللوجستي. وإذا ما استثنينا قيادة قوات الحرس الجمهوري بفرقه (الستة) المتبقية بعد الحصار؛ فإن عموم الجيش لم يكن قادرا على معاودة البناء في ظل صعوبات مادية بالغة، مع مراقبة مطلقة وشاملة لكل ما من شأنه إعادة بناء هذا الجيش. هذا من الناحية المادية، أما من الناحية المعنوية؛ فقد فقدت قوات الجيش أي بريق في سماء الوطنية بعد أن تسابقت وحداتُه في قمع الانتفاضة بكل قسوة، في حين انها انكفأت وانهزمت أمام قوات التحالف[1].

القوات المسلحة العراقية وتأثيرات الحصار

يمكن أن نجمل في البدء ما للعقوبات الاقتصادية من آثار على دولة القوة المتمثلة بالنظام القائم حينها بشكل عام، وعلى نظام صدام بشكل خاص[(2)]، بما يأتي:-

- تراجع قيمة العملة العراقية، مما أضعف قدرة النظام على مواصلة منح الامتيازات للخط الثاني وما يليه من الحزبيين وقادة الجيش وآمري الألوية عدا من عمل منهم في الحرس الجمهوري والحرس الخاص وفدائيي صدام، ولكن بنسب أقل مما كان الأمر عليه قبل الحصار.

- توقّف صلاحية أجهزة الأمن والمخابرات بصرف الأموال للمتعاونين، وهذا الأمر انعكس سلبا في مجالين: الأول الداخلي؛ حيث تقلّصت عيون النظام وعناصره المخصصة للمراقبة والتتبع إلى أدنى حد في الفضاء الخارجي، فلم يعد قادرا على منح المطبّلين له، ولاسيما من القادة العسكريين أو الباحثين الاستراتيجيين، نفس المبالغ التي كان يمنحها، وهذا الأمر أدّى إلى تحول الكثير منهم إلى المعسكر المعارض للنظام بعد أن عادت الكويت وحكومتها إلى العمل وكسب ود أولئك المتذبذبين في مواقفهم، وبالتنسيق مع مصر والسعودية وسوريا وباقي دول الخليج.

- إن استمرار الحصار يعدّ مؤشراً على إصرار المجتمع الدولي، ولاسيما الدول السائرة في ركاب الولايات المتحدة الأمريكية، بأن شعار أو هدف إسقاط صدام ونظامه لا يزال قائما، بل أكثر إصراراً من السابق، وأنه لم ينتهِ بالانسحاب من الكويت والاعتراف بحدودها الدولية.

- إن استمرار العقوبات وجّه ضربة مدمرة للقوات المسلحة؛ إذ لم تعد رواتب الضباط تكفي لأسبوع واحد، مما يضطرهم للعمل بمختلف الأعمال، وهذا المتغير الجذري جعل النظرة الاجتماعية للضابط العراقي تتدنى إلى أدنى مستوياتها, ولم يعد الضابط ذا واجهة اجتماعية كان عليه في السابق، بل أصبح ينافس باقي طبقات الشعب من أجل الحصول على ما يسد رمق عائلته.

- أما الضباط الذين لم يستطيعوا ركوب موجة العمل أو البحث عن مورد آخر يصل بهم إلى حد الكفاف في تأمين متطلبات عوائلهم؛ فهؤلاء يمكن أن يصنّفوا إلى صنفين: الأول؛ أولئك الذين وجدوا ضالتهم في الحصول على موارد مالية من أرزاق الجنود ورواتبهم، من خلال منحهم إجازات مفتوحة، أي ما يطلق عليه الآن (الفضائيين) وسابقاً (المتبرعين), في حين إن الصنف الثاني اعتمد السرقات لمواد وتجهيزات عسكرية، سواء تلك التي تُركت في أرض المعركة أو ما جرى تستيقظه بحجة تدميره أثناء الحرب أو أثناء الغارات الجوية اللاحقة، وبيع تلك التجهيزات والمواد لسماسرة يقومون في الغالب بتهريبها إلى شمال العراق أو إلى الدول المجاورة، وهؤلاء السماسرة مدعومون من أزلام النظام وحاشيته بحيث من الصعب اقتفاء أثرهم أو معرفة الجهات التي يتعاملون معها.[3]

- وهنالك ضباط آخرون وجدوا في الهروب والفرار والالتجاء إلى دول أخرى الوسيلة الأمثل للخلاص مما هم فيه من ضائقة مالية، وبالرغم من قلة عدد هؤلاء؛ إلا أنهم شكّلوا ظاهرة استدعت إجراءات رادعة وصلت إلى حد الإعدام بمجرد الشك في مثل هذه النوايا لدى أي ضابط.

- البعض الآخر، سواء من الضباط أو ضباط الصف أو المراتب ممّن وصلت بهم الحالة المادية إلى حد الحضيض، قاموا بطلب الإحالة على التقاعد، أو طلب الاستقالة لمن لم يصل منهم إلى سن التقاعد، ورغم أن النظام قد قيّد هذه الحالة بضوابط صارمة؛ إلا أن الجرحى والمعاقين كانت لديهم الفرصة لذلك.

- تصاعد الأعباء التي تقع على عوائل ضباط الصف والجنود المكلّفين والمتطوعين الذين كانوا يتقاضون رواتب لا تكفي لتنقلاتهم اليومية أو الأسبوعية أو الشهرية من والى وحداتهم، مما اضطر عوائلهم إلى أن تبيع الكثير من الأثاث المتيسر لغرض تغطية نفقات بقائهم مستمرين بالدوام خشية أن تصل إليهم أيدي التنظيم الحزبي المخوّل بالإعدام أو قطع صيوان الأذن أو الوشم على الجبهة من دون محاكمة لكل من يثبت هروبه من الجيش.

- تسبّبت العقوبات بإيقاف التسهيلات للتنقل بالعجلات العسكرية (الحكومية) وإجبار المكلفين والمتطوعين على التنقل إلى وحداتهم البعيدة على حسابهم الخاص, مما تسبب في ارتفاع حالات الغياب والهروب ودفع صدام إلى إصدار واحد من أبشع القرارات اللاإنسانية، وذلك بقطع صيوان الإذن لكل من يهرب للمرة الأولى من الخدمة العسكرية، باعتبار أن تكرار ذلك سيعرض مرتكبه إلى عقوبة الإعدام التي كانت تنفّذ ميدانيا في منطقة سكناه، مع استيفاء ثمن الإطلاقات ومنع إقامة العزاء على روح المعدوم[4].

- وصلت نسبة تكامل الوحدات في أحسن حالاتها رغم العقوبات المشددة بين 20 إلى 38 % من الملاك، وهذا ما جعلها غير قادرة على القيام بأي أداء قتالي.

- تسببت العقوبات في نقص حاد في صلاحية معدات القتال الأساسية، وجرى انتهاج أساليب بعيدة عن العلمية والمهنية والاحترافية والتطورات التقنية الحاصلة في أغلب جيوش العالم، إلى الحد الذي ظهر فيه رأس النظام وهو يبشر بالعودة مجددا إلى سلاح المقلاع اليدوي المستخدم في العصور الوسطى لمقاتلة الأمريكان إن هم قرروا غزو العراق.

- شُلّت بشكل يكاد أن يكون كاملا قدراتُ أجهزة الأمن العاملة في الداخل وأجهزة المخابرات العاملة في الخارج بعد أن أوقِفت صلاحيات الصرف المالي التي كانت تتمتع بها, وبذلك تمكنت قوى المعارضة من أن تنشط وتعقد مؤتمراتها بشكل علني وأمام وسائل الإعلام في الكثير من الدول العربية والأجنبية.

- فقد سلاح الجو العراقي كل قدراته في تأمين أبسط أنواع الموقف الجوي الملائم، إلى الحد الذي باتت فيه سماء العراق مفتوحة بالكامل لكل أنواع الطائرات دون أي قدرة لدى القوة الجوية العراقية على المواجهة.

- الدفاع الجوي هو الآخر خسر آخر معركة في شهر آب من عام 1998، حينما جرى تدمير كل ما تبقى من منظومات الدفاع الجوي العراقي، والتي هي بالأساس غير قادرة على التصدي للطائرات والصواريخ المعادية بعد أن قام صدام بإصدار الأوامر للتحشد مجددا على الحدود الكويتية, حينها وجدت الإدارة العسكرية الأمريكية أن الفرصة مواتية لتوجيه ضربات مميتة إلى ما تبقى من منظومات الدفاع الجوي، وبالفعل دمِّر قاطع الدفاع الجوي الرابع في الجنوب بالكامل، وراح ضحية ذلك العشرات من الضباط والمئات من المراتب العاملين على أسلحة وتجهيزات الدفاع الجوي في ذلك القاطع.

- القوة البحرية هي السلاح الأكثر تضررا من الحصار وما حصل في حرب عام 1991 (حرب الخليج الثانية)؛ فقد تعرض هذا السلاح إلى دمار يكاد أن يكون شاملا. فضلا عن ذلك؛ فإن هذا السلاح وبسبب الحصار والقرارات الصادرة من مجلس الأمن على إثر اجتياح الجيش العراقي للكويت قد تعرّض إلى ما يأتي:-

أصدر صدام واحد من أبشع القرارات اللاإنسانية، وذلك بقطع صيوان الإذن لكل من يهرب من الخدمة العسكرية، وتكرار ذلك سيعرض مرتكبه إلى عقوبة الإعدام

1. خسارة الإطلالة البحرية بنسبة تصل بين 20 إلى 25 بالمائة؛ إذ كان طول الساحل العراقي قرابة 76 كم، فتقلص إلى 56 كم.
2. دمِّرت السفن والزوارق الحربية العراقية كافة التي كانت تشكّل العمود الفقري للقوة البحرية العراقية.
3. خسر العراق أكثر من نصف مساحة قاعدة الخليج العربي في أم قصر، بضمنها المنشآت التدريبية.
4. تم إيقاف توريد قطع الأسطول البحري المؤلف من 2 طراد حامل للسمتيّات، و4 طراد حامل لصواريخ سطح / سطح، و4 فرقاطة، وسفينة دعم لوجستي، وحوض تسفين، المدفوع الثمن ضمن العقد الإيطالي البالغة كلفته قرابة مليار دولار.5
5. السفن والزوارق التي أرسلت إلى ايران هي الأخرى دمِّرت أو جرى تدميرها لاحقا، أو تحولت إلى خردة غير قابلة للاستخدام بسبب التقادم وانعدام الإدامة.

سلاح الصواريخ هو الآخر شهد تراجعا كبيرا؛ فبعد أن استطاع التصنيع العسكري الوصول بمدَيات الصواريخ المحوّرة (الحسين – العباس – أبابيل) عن الصواريخ الروسية (فروغ) وغيرها، إلى أكثر من 1650 كم، بات لا يُسمح للعراق بامتلاك أي صواريخ مدياتُها تزيد على 150 كم، وعليه فقد دمِّرت المئات من الصواريخ المصنعة هي ووسائل إطلاقها, في حين إن ما تم إخفاؤه قد كشَف عنه (حسين كامل) عند هروبه إلى الأردن في آب 1995، وبالتالي تعرض للتدمير الممنهج من قبل فرق المفتشين الدولية.

من المعروف أن الصنف المدرّع من أكثر الأسلحة البرية التي تحتاج إلى حداثة، أي إنه يجب أن يواكب ما يتم تصنيعه لدى باقي الجيوش، ولاسيما جيوش تلك الدول التي تدخل ضمن دائرة الاهتمام أو التأثير كأعداء أو أعداء محتملين. والذي حصل للصنف المدرّع العراقي أنه عانى من تخلف التقنيات؛ فقد بقيت مديات الإصابة لأفضل الدروع العراقية بين 1500 إلى 1750 م، في الوقت الذي قفزت فيه أغلب الدروع المصنعة في عقد التسعينات إلى أكثر من 4 كم، وبالتالي فإن الدبابة العراقية ستدمَّر حال مواجهتها أي دبابة حديثة حتى قبل أن تستطيع استخدام قذائفها[6]. فضلا عن ذلك؛ تم تقليص الكتلة المدرعة في الجيش العراقي والحرس الجمهوري على مستويين: الأول، أصبحت الكتيبة المدرعة تضم 30 دبابة بدل 44 دبابة كما هو في ملاكها الدائم، وهذا يعني خساراتها لثلث القوة، أما المستوى الثاني، وهو الأكثر خطورة؛ فيتمثل في تقليص التشكيلات المدرعة من خلال إلغاء العديد من الفرق المدرعة وتحويل قسم من

فقد سلاح الجو العراقي كل قدراته في تأمين أبسط أنواع الموقف الجوي الملائم، إلى الحد الذي باتت فيه سماء العراق مفتوحة بالكامل لكل أنواع الطائرات دون أي قدرة على المواجهة

الفرق الآلية إلى فرق مشاة دون تغيير بالمسمى، كما هو حال الفرقة الآلية 51, يضاف إلى ذلك أن أي مواد احتياطية أو قدرات لوجستية لإعادة تأهيل الدروع لم تكن متوفرة. وبالرغم من الدعاية الإعلامية المضللة التي قادها النظام من خلال ما سمِّي حينها بحملات (نداء القائد) التي وصل عددها إلى عشر حملات؛ إلا أن النتائج على الأرض كانت مخيبة للآمال، وقد ثبت ذلك من خلال ما قام به رئيس أركان الجيش حينها الفريق الأول الركن (أياد فتيح الراوي) حينما طلب بأن يتم تنظيم حركة لجميع العجلات الآلية والمدرعة التي تمت إعادة تأهيلها بالحملات المذكورة على طريق بغداد الموصل، إلا أن الذي حصل هو أن أكثر من نصف العجلات تعطلت بعد انطلاقها من معسكر التاجي بعشرة كيلومترات، مما دفع رئيس الأركان إلى إلغاء الأمر خشيةً من غضب صدام.

صنفُ القوات الخاصة العراقي يعتبر من أكثر الصنوف شهرةً بعد القوات الخاصة المصرية في المنطقة، كان - حتى نهاية الحرب العراقية الإيرانية - يمثل القوة الضاربة الأكثر تأثيرا في حسم المعارك على الجبهة الإيرانية مع الصنف المدرع ووحدات الحرس الجمهوري, تعرّض هذا الصنف أثناء الحرب العراقية الإيرانية إلى خسائر جسيمة مما دفع القيادة العسكرية إلى إعادة تشكيل الألوية الثلاثة التي تشكّل بمجموعها القوات الخاصة العراقية، وهي لواء 31 و32 و33، حيث ألغيت هذه الألوية[7] وشكِّلت بدلا عنها الألوية 65 و66 و68، ولم يُستخدم الرقم 67؛ كونه يمثل سنة النكسة في الحرب مع الكيان الصهيوني. ثم أضاف الحرس الجمهوري لواءين: اللواء الثالث، وهو وليد فوج القوات الخاصة الذي كان مسؤولا عن حماية النظام ومحطة الإذاعة والتلفزيون بعد انقلاب عام 1968، وكذلك شكِّل اللواء 16 قوات خاصة، ليضيف للحرس الجمهوري قوة كان بأمس الحاجة لها في السنوات الأخيرة من الحرب العراقية الإيرانية. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ بل شكِّل اللواء البحري 26 قوات خاصة، الذي ارتبط هو الآخر بالحرس الجمهوري رغم أنه كان بعيدا كل البعد عن البحر، بل كان يعسكر على الدوام في معسكر (الحبانية) وهو ذو تجهيزات متطورة قياسا بغيره من تشكيلات الحرس الجمهوري. إن جميع هذه الألوية جرى إلغاؤها حال انتهاء حرب الخليج الثانية وخسارة العراق لها، وألغي صنف القوات الخاصة في الجيش العراقي، ولم يبقى سوى لواء قوات خاصة واحد في الحرس الجمهوري، ثم جرت محاولات لتشكيل فرقة قوات خاصة للحرس الجمهوري، إلا أنها ووفق تقديرات القوة لم تكن تمتلك مقومات قوة لواء قوات خاصة واحد.

المؤسسات التدريبية لأي جيش أو قوات مسلحة تُبنى وتتطور في الغالب على أمرين أساسيين:

أولهما وجود استراتيجية عمل فعّالة قادرة على إحداث انتقالة في صيغ التدريب القائمة بما يواكب التطورات الحاصلة في طبيعة الحرب، مع الأخذ بنظر الاعتبار الأعداء والأعداء المحتملين وأساليب قتالهم، والأمر الثاني يتمثل في التخصيصات المالية التي يتم رصدها لتنفيذ تلك الاستراتيجية؛ وهنا وحال انتهاء حرب الخليج الثانية وإعلان الحصار على العراق كانت المؤسسات التدريبية هي الأكثر تعرضا لتقليص النفقات، حتى باتت غير قادرة على أن تديم ما لديها من قاعدة مادية للتدريب هي بالأساس باتت متخلفة قياسا بغيرها من مرتكزات التدريب في الدول المجاورة، وهكذا تردّت العملية التدريبية إلى أسوأ مما يمكن أن يتصوره المرء في تلك الفترة، واقتصرت على جوانب أريد بها إفشاء الفساد الإداري والمالي أكثر بكثير مما يمكن تخيّله من خلال مشاريع تدريبية وهمية أو غير واقعية.

جامعة البكر للدراسات العسكرية العليا وكليّاتها تمثل الواجهة العلمية الرصينة للتعليم العسكري العالي في العراق، فعلى الرغم من تأسيسها في 17 تشرين ثاني 1976، [8] إلا أن كليّتَي الأركان والقيادة المنتظِمتين فيها قد تشكّلتا منذ فترات طويلة، حيث تشكلت كلية الأركان في 2 شباط 1928 كمدرسة، ثم أُعلن عن تحويلها إلى كلية عام 19379، وتعتبر من أقدم كليات الأركان في الوطن العربي، في حين تحوّلت مدرسة القيادة إلى كلية في عام 1970. جميع هذه الكليات، إضافة إلى كليتَي الحرب والدفاع الوطني المستحدثتَين على ضوء استحداث جامعة البكر قدّمت خلال السنوات التي سبقت الحصار خدمات علمية جليلة، واستطاعت أن تضاهي وتنافس مثيلاتها في الدول المتقدمة، وتوافد المئات من الضباط العرب للحصول على فرصة في مقاعدها الدراسية. وبعد أن بدأت تأثيرات الحصار تنخر في جسد المؤسسة العسكرية العراقية، عانت هذه الجامعة من شظف الموارد إلى الحد الذي عجزت فيه عن توفير الورق لطبع محاضراتها، واضطرت كلياتها إلى تدوير الورق لمرات عديدة من أجل استخدامه, في حين توقفت الأبحاث العلمية العسكرية الرصينة لتحل محلها أبحاث ودراسات تمجّد برأس النظام (صدام) وقدراته في إدارة دفّة الصراع، ووصل الأمر إلى أن يحاول الكثير من الضباط إلغاء قبولهم في كلياتها؛ لأن القبول فيها يعني تحمل أعباء المعيشة الصعبة والاضطرار إلى العمل كسائقي عجلات أجرة في عجلاتهم الخاصة أو أية مهنة بالإمكان أن تغطّي تكاليف إكمالهم الدراسة ومتطلبات عوائلهم اليومية، بعد أن بات راتب الضابط لا يساوي سعر كيس طحين واحد زنة 50 كغم من السوق السوداء, فيما عدا ضباط الحرس الجمهوري والحرس الجمهوري الخاص وفدائيي صدام والقادة والآمرين بطبيعة الحال؛ كونهم مشمولين بمخصصات من أمانة سر القطر كما كان يعبّر عنها في حينه.

الكليات العسكرية العراقية وكما هو معروف عنها من أقدم الكليات في المنطقة والوطن العربي، وبالرغم من أن أكثرها شهرة على الصعيد العسكري هي الكلية العسكرية الأولى في (الرستمية)؛ إلا أن الحاجة استدعت إلى تحويل كلية الضباط الاحتياط أثناء الحرب العراقية الإيرانية إلى كلية عسكرية ثانية لقبول الدورات الطارئة والخاصة التي تتطلبها الحرب الطويلة، وللتعويض عن الخسائر الكبيرة في صفوف الضباط الصغار ممّن هم بمناصب (آمر فصيل) أو (رعيل) أو (آمر سرية), في حين استُحدثت الكلية العسكرية الثالثة في بغداد لتغطية احتياجات الحرس الجمهوري من الضباط برتبة (ملازم)، وكانت الغالبية العظمى منهم من مناطق موالية مائة بالمائة لنظام صدام. هذه الكليات الثلاث أصابها ما أصاب المؤسسة العسكرية العراقية من تأثيرات بالغة الخطورة، بعد أن بدا الحصار يؤثر بشكل مباشر على متطلبات هذه المؤسسة. وهكذا نجد أن الكلية العسكرية الأولى قلّصت كل نفقاتها حتى وصل الأمر إلى تقليص تغدية الطلاب المتدربين، في

حيـن أقفَلت الكلية العسـكرية الثانيـة أبواب أغلب أجنحتهـا واقتصرت علـى دورات محـددة وبأعداد قليلـة، أمـا الكلية العسـكرية الثالثـة؛ فقد توقف العمـل بها لعـدم توفر إمكانيـة ديمومتها, هنالك كليـة أخـرى هـي كليـة الأمـن القومي التـي أدّى الحصـار إلى إلغائها بعد تخرج عدد محدود جدا من الدورات منها.

فِرق التفتيش وحال دخولها للعراق بعد نيسان 1991 سارعت إلى إغلاق وتدمير كل المصانع التي لها ارتباط بالتصنيع العسكري تحت ذريعة شمولها بالقرار (667) الذي نص على تدمير برامج التسليح العراقية

القاعدة المادية للتصنيع العسـكري العراقي وكما هو معـروف أخذت خلال الحـرب العراقية الإيرانية ومـا بعدهـا، وحتى خلال سـنوات الحصـار الأولى، أصداءً إعلامية كبيرة، حتى وصل الأمر للاعتقاد بأن العراق قد تفوق في صناعته العسـكرية المتطورة علـى الكثير من الـدول، ومنها دول ذات باع طويل في مجال التصنيع العسكري, ورغم وذلك؛ فإنه لا يمكن نكران أن تشكيلات التصنيع العسكري وحتى نهاية عام 1990 كانت قد أنتجت الكثير من الأسلحة والتجهيزات والمعدات العسـكرية المماثلة لما تم صنعه في الاتحاد السوفيتي الذي كان على وشك مغـادرة التاريخ, إلا أن تلـك المنتجات لم تصل إلى مسـتوى الخطـوط الإنتاجية، فيما عدا المسـدس (طـارق) والبندقية (تبوك) والقاذفة (آر بي جي 7)، أمـا الدبابة (أسـد بابل)؛ فهي نتـاج لتحوير وتطوير الدبابة الروسية (تي 72) مع إضافات جديدة عليها,

وكذلـك الحـال للمدفع (122 ملـم دي 30) الذي أطلق عليه تسمية (مدفع صدام)، والذي أنتج منه العشـرات، فـي حين لـم يوفّق العراق فـي إكمال برنامجـه التصنيعـي العسـكري لباقـي الأسـلحة، ومنهـا الصواريـخ والمدفعيـة البعيـدة المـدى, ولاسـيما أن فِـرق التفتيش وحـال دخولها للعراق بعـد نيسـان 1991 سـارعت إلـى إغـلاق وتدميـر كل المصانـع التـي لهـا ارتباط بالتصنيع العسـكري تحت ذريعة شـمولها بالقرار (667) الذي نص على تدميـر برامـج التسـليح العراقيـة، وهكـذا تحولت تلك المصانع والمنشـآت إلى ركام وأماكن للتدمير المبرمـج. وقـد مُنع العـراق من تصنيع أي سـلاح متوسط أو ثقيل، كما تم إيقاف كافة العقود التي سـبق للعـراق أن أبرمهـا لتوريد مـواد أو تجهيزات تدخـل في عمليـات التصنيـع والتجميـع العراقية، بل شـمل الأمر حتى الصناعات المدنية التي أطلق عليها مصطلح (ذات الاسـتخدام المزدوج)، والتي توقفت بالكامل تقريبا مع بداية عام 1996.

المحاكـم العسـكرية وتطبيق القوانين العسـكرية لـم تعد كما كانت عليه، فبالرغـم من إصدار صدام للكثير من القرارات اللاإنسـانية، ومنها الوشم على الجباه وقطـع صيوان الأذن والإعـدام للمتخلفين والهاربيـن مـن الخدمة العسـكرية وقطـع الأيدي للقائميـن بالسـرقة أو أخـذ الرشـوة؛ إلا أن ما كان يطبّق من تلك القوانين يشمل فقط أبناء الطبقات المعدومة، في حين يُعفى بأمر رئاسي من كان من المناطق ذات الولاء الكامل لصدام. وقد شـهدت المحاكـم العسـكرية في قمـة الحصار بـروز طبقة السماسـرة الذيـن يجـري التعامل معهـم من أجل إلغاء أحكام الإعدام أو تخفيف العقوبات، وفُتحت مكاتـب لهـذا الغـرض كان يديرهـا أفـراد قريبـون مـن العائلـة الحاكمـة، وعلى الرغم مـن محاولات صدام تحسـين الصـورة بمعاقبة البعض من هؤلاء السماسـرة وأصحاب المكاتـب؛ إلا أن الأمور كانت تسير من سيئ إلى أسوأ في مجال تطبيق القوانين العسكرية مثل ما يجري في المحاكم المدنية.

الجيش بين تركة التدمير وقسوة الحصار

لا يمكن للجيش العراقي، وهو الذي يستمد قوته في كل الأحوال من اقتصاد البلد، أن ينأى بنفسه عما كان يحيط بالعراق من ظروف بالغة الصعوبة، إلا أن ما هو أكثر ضررا من ذلك هو ما ولّدته تلك الحرب على العراق وقوات التحالف من تداعيات ألقَت بظلالها القاتمة على كل مرافق الحياة، ولكن العتمة الكبرى كانت في مساحة تواجد الجيش؛ حيث لم يكن الجيش العراقي بعد كل ما جرى في الواقع جيشا واحدا، فقد كان عبارة عن جيش قبائل ومناطق (جيش الطبقة الحاكمة) و(جيش الطبقة المحكومة)، (جيش الأمراء) و(جيش العبيد)، فهنالك ألوية كاملة من جيش السلطان يشكّل أهل عشيرته ومنطقته الأغلبية من الضباط والمراتب فيها، أما بقية الضباط؛ فهم من مناطق أخرى مقاربة لمنطقته ومتحالفة معها، ولاسيما منتسبو الحرس الجمهوري الخاص، ثم تبدأ ألوان الطيف العراقي بالاختلاط بنسب معينة كلما ابتعدنا عن المركز، وتبدأ قوى متحالفة قبلية وطائفية بالظهور بنسبة عالية حتى تنتهي بتلك التي لا تدخل ضمن لعبة التحالفات التي يرسمها السلطان، فتتحول إلى كتل متهالكة لا تستطيع سد رمقها، ليصبح نسيج القوات المسلحة غريبا عجيبا؛ فبعد الحرس الجمهوري الخاص يأتي الحرس الجمهوري، وهنا تكون اغلب موارد الدولة قد استُنفدت، ثم تأتي الفيالق المدرعة والآلية، وتأتي في آخر الترتيب وحدات المشاة التي يكون منتسبوها من خارج مناطق التحالف السلطاني والقبلي والطائفي[10].

قد يكون ما ورد آنفا هو الوصف الأدق لحال الجيش بكافة مشاربه؛ فالمركز لقرية (العوجة)، وما يحيط بالمركز من دوائر يشكل كلٌّ منها طيفا قبليا وعرقيا وطائفيا، وهكذا؛ فالدوائر التي تحيط بالمركز أو بنقطة الصفر هم الصفوة من آل (العوجة)، وكلما تباعدت الدوائر اقتربت النسبة الأكبر من الطائفة الأكثر عددا الأقل حظوة (الشيعة)، أما الأكراد؛ فقد غادر غالبيتهم هذه الدوائر ولاذوا بملاذهم الأمن وهم يحتمون تحت مظلة الخط (36)، حيث وفّرت لهم قوات التحالف ملاذا أبعدهم عن كل ما له علاقة بصدام عدا الوقود والبطاقة التموينية. كانت وحدات الصفوة من الحرس الجمهوري الخاص تتمتع بأفضل الأسلحة والتجهيزات ووسائل الترفيه، حتى إنه يمكن معرفة المقاتل في وحدات الحرس الخاص أو الحرس الجمهوري الخاص من المقاتل في وحدات الحرس الجمهوري من المقاتل في الوحدات الأخرى؛ فالتجهيزات الحديثة والمتكاملة تبعث على التمييز بين مقاتل وآخر، حتى إن من يريد أن يتزوج من قوات الصفوة فما عليه سوى أن يطلب فتأتيه المساعدة السخية لإكمال متطلبات الزواج، ثم تأتي حظوة الحرس الجمهوري، وتليها الوحدات الأخرى، وتتخلل كل هذا التنظيم وحدات شبه نظامية (فدائيو صدام، الجيش الشعبي، جيش القدس)، ولا يمكن معرفة شيء عن التنظيمات العسكرية أو شبه العسكرية الأخرى ذات الطابع السري. وهكذا تجد أن الجيش قد تحول إلى مجموعة جيوش تتحاسد وتتباغض فيما بينها، وقد سادت الكراهية بين منتسبيه، ليس على مستوى القمع، بل على مستوى السيطرة على ساحة العمليات عند حصول حرب أو معركة أو مواجهة ما، وقد كانت متوقعة في كل حين[11].

التجهيزات الحديثة والمتكاملة تبعث على التمييز بين مقاتل وآخر، حتى إن من يريد أن يتزوج من قوات الصفوة فما عليه سوى أن يطلب فتأتيه المساعدة السخية لإكمال متطلبات الزواج

الإقحام غير المبرر (ضربة الصحراء)

كما هي عادته، وجد (صدام حسين) فرصة مواتية ليزج بالجيش العراقي والحرس الجمهوري في معركة خاسرة جديدة؛ حيث استعمل صدام النزاع الدائر بين الحزبيين الكرديين (الاتحاد الوطني بقيادة جلال الطالباني، والديمقراطي الكردستاني بقيادة مسعود برزاني) ليدخل طرفًا في النزاع دون أن يكون هناك أي مبرر لهذا الدخول، بعد أن تلقى طلب مساعدة من (مسعود) الذي ضيّقت قوات جلال الطالباني الخناق عليه. وفي 31 آب 1996 دخل الجيش العراقي على خط القتال الدائر في شمال العراق بين الطرفين، وشنّت قوات الحرس الجمهوري هجوما على مدينة أربيل، لتستعيدها من قوات طالباني التي انتزعتها من ايدي جماعة مسعود[12]، وفي اليوم التالي أصدر (صدام حسين) تحت الضغط الأمريكي قرارا بالانسحاب من المدينة، في ذات الوقت الذي أعلنت فيه الإدارة الأمريكية أنها بصدد معاقبة العراق على قيامه بالهجوم، وبالفعل فقد شنّت القوات الأمريكية هجوما صاروخيا استغرق سبعين ساعة، تضمن العشرات من الصواريخ، ليصرح بعدها كلنتون بالقول: (أنا واثق من أننا حققنا مهمتنا بنجاح)، موعزا بإيقاف الهجمات، في نفس الوقت الذي أعلن فيه صدام كعادته بأن العراق هو المنتصر بقوله: (لقد منّ عليكم الله ونوّر قلوبكم بالنصر المؤزّر)، وقد أعلن الناطق الرسمي للحكومة العراقية بأنه لن يكون هناك أي تعاون مع اليونسكوم (اللجنة المكلفة بتدمير أسلحة الدمار الشامل العراقية) في حين أعلنت واشنطن من خلال تعهد أدلى به (كلنتون) بأنه (بصدد مساندة ودعم ما يُعرف بانه أشد العقوبات التي مرّت في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية).

في هذه المواجهة التي خرج الجيش العراقي منها دون أي نتيجة تذكر، هوجم العراق بـ 97 صاروخا، دمرت 90 هدفا تدميرا كاملا، منها (11) مشروعا متخصصا بالأسلحة البيولوجية والكيميائية، إضافة إلى مقرات للحرس الجمهوري الخاص لها مساس بعمليات إخفاء الأسلحة كأهداف جرى تحديدها من قبل وزارة الدفاع الأمريكية، ومن تلك اللحظة، بدأ المظهر ينذر بما هو أسوأ[13]. لقد شهدت

لقد شهدت فترة إدارة الرئيس الأمريكي (كلنتون) العديد من الضربات الجوية والصاروخية، ولم تكن (ضربة الصحراء) هي الوحيدة؛ فقد سبق للإدارة الأمريكية أن شنّت سلسلة من الهجمات الصاروخية يوم 26 تموز 1993 حينما عاد صدام لإطلاق تهديدات تجاه الكويت.

فتـرة إدارة الرئيـس الأمريكـي (كلنتـون) العديـد من الضربـات الجوية والصاروخيـة، ولم تكن (ضربة الصحراء) هي الوحيدة؛ فقد سبق للإدارة الأمريكية أن شـنّت سلسلة من الهجمات الصاروخية يوم 26 تمـوز 1993 حينمـا عـاد صدام لإطـلاق تهديدات تجاه الكويت.

وفي تشـرين الأول 1994 أصدر الرئيس الأمريكي (كلنتـون) مجـددا أوامـر بالاسـتعدادات لضربـات عسـكرية تجاه العـراق في اطار عمليات عسـكرية أطلق عليها تسـمية (يقظة محـارب)، وبعد (ضربة الصحـراء) عاود الأمريـكان من يوم 16 إلى يوم 19 كانـون الاول 1998 شـنّ ضربـات صاروخية وجوية باتجـاه أهـداف محـددة مسـبقا. وهكـذا نجـد أن الجيش العراقي وخلال فترة الحصار ما إن يخرج من محنـة حتى يدخل بمحنة أكبـر، لينتهي به الأمر إلى آخـر مغامرة من مغامرات رئيس النظام حينما قبل بالمواجهـة مع الولايات المتحدة الأمريكية في ما أطلـق عليه بـ (حرب الخليج الثالثة) والتي أسـماها صـدام (أم الحواسـم) ظنـاً منـه أو غباءً منـه بأنها ستحسـم الموقـف لصالحـه على عـدوه المتمثل بأمريـكا وحلفائهـا، إلا أن الـذي حصـل هـو هزيمة

لم يتطلب الأمر أكثر من ثمانية عشر يوما لتصل طلائع الجيش الأمريكي إلى بغداد يوم 6 نيسان 2003، ليشهد يوم 9 نيسان الانهيار الكامل للنظام والجيش العراقي والحرس الجمهوري وكل التشكيلات الأخرى الموالية لصدام

منكرة؛ حيث لم يتطلب الأمر أكثر من ثمانية عشـر يوما لتصل طلائع الجيش الأمريكي إلى بغداد يوم 6 نيسان 2003، ليشهد يوم 9 نيسان الانهيار الكامل للنظام والجيش العراقي والحرس الجمهوري وكل التشـكيلات الأخـرى الموالية لصـدام، بعد معارك غير متكافئة استبسـل بها ضباط وجنود في جنوب العراق، وعلى وجهة التحديد في أم قصر والبصرة، فقاتلوا هم وبعض الوحدات في الناصرية والفرات الأوسـط القوات الأمريكية، في حين انهزمت شـر هزيمة باقي القوات رغم ما روِّج ويروَّج عن معارك طاحنـة في مطار بغداد، وغيرها من المعارك التي لم تكن سـوى محارق لما تبقى من الوحدات التي

صمـدت بها القلـة القليلـة من مقاتليهـا، وهكذا أُسـدل السـتار علـى جيش مر علـى تأسيسـه أكثر من ثمانين عاما، لم يذق طعم الاسـتقرار والتطلع إلـى تطوير قدراتـه القتالية في أوضاع سـلمية إلا لفتـرات لا تكاد تتجاوز نسـبتها عشـرين بالمئة من عمره البالغ ثمانين عاما.

الخاتمة

لا يمكـن إنكار أن ما حصل يوم 2 آب 1990 قد غيّر صورة العراق وجيشـه إلى الأبد؛ فالجحافل الجرّارة التي اقتحمت تلال المطلاع متوغلةً في الصباحية حيـث مركز الحكم في العاصمة الكويتية (الكويت) عادت مجددا وبعد سبعة أشهر لتجر أذيال الهزيمة والخيبـة والخذلان وهي تخرج مدمرةً من حرب غير متكافئة، لتبدأ مرحلة أصعب وأكثر إيلاما من الحرب ذاتهـا، حينما فُرض الحصار علـى كل مرافق الدولة وأدى إلـى تفتيـت ما تبقـى من القوة العسـكرية وإحالتهـا إلـى ركام غيـر قـادر علـى المواجهة. لم يكـن الحصار قـد أثر على القـدرات القتالية للجيش العراقـي وباقـي أذرع وأفـرع القـوات المسـلحة العراقيـة وجاهزيتها للقتال فحسـب؛ بل إن تأثيراته امتدّت لتشمل الجوانب المعنوية والنفسية، حيث لم يعد الجندي أو الضابط ذلك المواطن الأسـمى والمدافع عن حياض الوطن، بل تحول في كثير من الأحيـان إلى شـخص مغلوب على أمره يسـتجدي في مواقف السـيارات بعض المبالغ التي تساعده للوصـول إلـى وحدته كي لا يتعـرض لقطع صيوان الأذن أو الوشم أو الإعدام.

لـم يكـن الحصـار وحده مـن لعـب هذا الـدور في الفتـرة التـي فُـرض فيهـا؛ بـل سـاعده فـي ذلك مغامـرات النظـام المتكـررة، فضلا عـن العنجهية الأمريكيـة التي كانت تبحث عن أية ذريعة لقص ما تبقى مـن أطراف الجيـش العراقـي، وكذلك فرق التفتيـش المُسيّسـة التي ما برحـت تدمّر وتعطّب كل مـا تـراه حتـى إن لـم يكـن مشـمولا بقـرارات مجلس الأمن التي اتصفت بالقسـوة المبالغ فيها.

وعلـى ذلك؛ فـإن المرحلة الممتـدة من يوم 6 آب 1990 وحتـى 9 نيسـان 2003، والبالغة بحسـابات السـنوات والأشـهر والأيام 12 عاما وثمانية أشهر وثلاثة أيـام، أي قرابة (4623) يوما، كانت من أكثر المراحل صعوبـةً على القوات المسـلحة العراقية؛ حيث فقدت جَذوتهـا ومكانتها وتراجعت إلى الحد الـذي باتـت فيه غير قـادرة على القيـام بأي منجز قتالي أو عسكري.

الهوامش (Endnotes)

1. الفريـق الركـن حسـن البيضاني, تاريـخ الجيش العراقـي – الواقع الديمغرافـي وأثره على بنـاء الجيش, الدار العلمية للنشـر والتوزيع, بغداد, ط1, 2021, ص 178.

2 - وفيـق السـامرائي, حطـام البوابـة الشـرقية, الـدار العربيـة للموسوعات, بيروت, ط1, 1997, ص 467.

3 . المصدر نفسه, ص 459

4 - صـدر القرار في جلسـة مجلـس الوزراء فـي 25 آب 1984 ونفذ من تاريخ صدوره.

5 . اللواء الركن الدكتور عماد هادي علو, عقود التسليح مع إيطاليا حقوق عراقية, جريدة الزمان البغدادية, 31 كانون الثاني 2015.

6 , رعـد الحمدانـي, قبـل أن يغادرنـا التاريـخ, الـدار العربيـة للعلوم ناشرون, بيروت, ط1, 2008, ص123.

7 . حسـين علـى باهـض, تطور القـوات الخاصـة العراقيـة وآفاقها المسـتقبلية, رسـالة ماجسـتير, غ م, كليـة الأركان, جامعـة الدفـاع للدراسات العسكرية العليا, بغداد, 2013, ص19.

8 . طـارق محمـود شـكري, مـن ذكريـات تأسـيس جامعـة البكـر للدراسات العسكرية العليا, مجلة الدفاع, العدد لثاني, السنة الثانية, 1986, جامعة البكر للدراسات العسكرية العليا, بغداد, ص276.

9 . عمـر زينـل عبـد القـادر, ومضـات من تاريـخ كليـة الأركان, مجلة الأركان, العدد 41 لسنة 2001, ص 146.

10 . حامد سـالم الزيدي, جذور الطغيان, المركز العراقي للدراسـات الاستراتيجية, بغداد, ط1, 2009 ص 181.

11 - المصدر نفسه ص182.

12 - الحـرب علـى العراق .. يوميات .. وثائق وتقارير, مركز دراسـات الوحدة العربية, بيروت, ط1, 2002, ص485.

13 . أندريـه كوكبـورن, صـدام الخـارج مـن تحت الرمـاد, دار المنتظر, بيروت, 1998 ص464 و ص466.

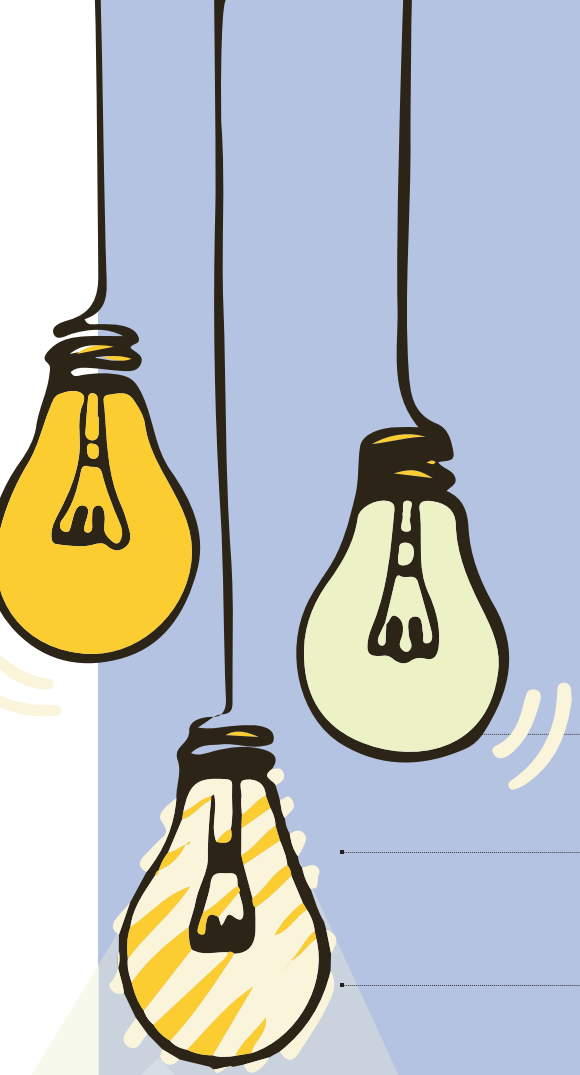

مقالات

الآثار النفسية – الاجتماعية للحصار الاقتصادي على العرا ق (1990 - 2003)

د. رضا حسّا ن حميدي

تلفيق الخطاب البعثي من العَلمانية إلى الإيمان

احمد صحن

مشكلا ت الفن التشكيلي العراقي في زمن الحصار

سهيل سامي نادر

غناء الجوع وَموسيقى الفوضى

قراءة في فن الحصار الاقتصادي

د. نصير جابر

الجنوبيون المُحاصرون يبحثون عن مُنقذ

د. محمد د عطوان

الحر ب التي أهملَها العالم

المواجهة العسكرية الباردة بين الولايات المتحدة والعراق (1991 - 2023)

قيس قاسم العجر ش

كلما ت من زمن الحصار

حيدر الجراح

الحروب والحصارات والعزلة الإنسانية (1991-2003) -مؤشرات اجتماعية وتربوي-

علي عبد الأمير عجام

ذاكرة بائع كتب في شارع المتنبي الحصار الاقتصادي والحصار الثقافي

د. علي المرهج

الحصار والتغيّر الاجتماعي - التعليم أنموذجًا -

د. وعد إبراهيم خليل

الآثار النفسية - الاجتماعية للحصار الاقتصادي على العراق (1990-2003)

د. رضا حسّان حميدي

(إن الموت قاسٍ لا يرحم هل بنينا بيتًا يدوم إلى الأبد)
من ملحمة جلجامش/ طه باقر

في حديث مع أستاذ جامعة يحمل شهادة دكتوراه في اختصاص (فسلجة الخلية) عام ٢٠٠٠ في عمّان وهو يروم السفر إلى ليبيا لغرض العمل: (لقد جنى عليَّ أبي حيث سمح لي بإكمال تعليمي، لو كنتُ عاملا في "سكلّة مواد بناء" لكان حالي الآن أفضل بكثير).

من الحقائق التي لا تقبل الخلاف إطلاقا، أنه لا يمكن فصل حقبة زمنية أو مرحلة من الزمن في سياق حركة تاريخ فرد ما، أو جماعة معينة، عمّا قبلها أو عمّا بعدها، أي إن عملية (العزل) لحقبة أو أوان تاريخي هو فعل نظري افتراضي يراد منه الدراسة والتحقيق فحسب، فالتاريخ حلقات متسقة مترابطة متشابكة يجمعها ويسوقها إلى وجهتها المشتركة رابطٌ عضوي في مسار محدد عنوانُه التاريخ العام، كعربات عدّة في قطار طويل. كما أنه من الصعوبة بمكان فصلُ العامل السياسي عن العامل الاقتصادي وإبعاد كل منهما عن دائرة التأثير والتأثّر المتبادل مع العامل الاجتماعي؛ فتلك عوامل متآزرة مترابطة متداخلة متفاعلة متبادلة تأثيرا وتأثرا، وتتبادل الأدوار في الترتيب الزمني أيضا، أي السبق واللحق زمانيا. وما هو أهم أن كلًّا منها يملك حصته في التأثير على البنية النفسية للفرد بما هو فرد، ككيان مستقل قائم بذاته، وبما هو عضو في وجود اجتماعي مترابط بيولوجيا ووظيفيا أيضا.

ولا منـاصَ مـن الإقـرار بتأثيـر طبيعـة الشـخصية ونمطها في سـلوك الفرد ضمـن الجماعة، ويؤكد علماء النفس -يؤيدهم بذلك علماء الأنثروبولوجيا- أن الشخصية، في رقعة جغرافية معينة، تتكون عبر عمليـات صيـرورة متلاحقة عبر أجيال تتـرا، بصناعة من مؤثرات بيئية طبيعية غالبة، ومساعدة عوامل أخرى حاكمة ذات طابع بشري. وتختلف الشخصية مـن منطقـة إلـى أخـرى تبعـا لاختـلاف العوامل المؤثـرة الموغلـة فـي العمـق التاريخـي التـي اسـتطاعت صياغة الشـخصية بأنموذجهـا المميز، ومنحها صبغتها المنفردة وختمها بهويتها الفارقة.
ولغرض دراسـة نفسـية موضوعية علمية لجماعة أو مجتمع ما؛ ينبغي الارتكاز على هذين العنصرين: (مؤثـرات البيئـة الطبيعيـة المحيطـة، وعوامـل المجتمـع البشـري الحاكمـة)، الفاعلين فـي البنية النفسـية للكيـان الاجتماعـي المفتـرض، من خلال تأثيرهمـا علـى الأفـراد بذواتهـم المسـتقلة أولا، وباعتبارهم نسيجا عضويا واحدا مترابطا ثانيا.
يعتمـد البحث هذا على المنهج الاسـتقرائي الذي يقـوم علـى المشـاهدة والملاحظـة وتسـجيل حالات واقعية، ويخضعها للتحليل والدراسـة، ومن ثـم تفسـيرها علميـا وفـق معطيات علـم النفس الاجتماعـي. والبحـث يسـعى لأن يكـون حياديـا، بإبعاد الحكم المسـبق وفق مرجعية سياسـية، أو الخضـوع لإغراء محاولة التقييم للعامل السياسـي المحلـي أو العالمي؛ لأن البحـث غير معني بذلك، وإنما يركز على مقدار ونوع المؤثر الذي ألحق تأثيرا فادحا بالشخصية السويّة.
«مـن أجـل التعريـف بذواتنـا المنكسـرة المحبطة الخاضعـة لأنواع من القهر والاسـتبداد والتسـلط؛ علينـا قـراءة تاريخنـا الاجتماعـي والسياسـي والاقتصـادي". ولدراسـة الآثـار النفسـية لحقبـة الحصـار الاقتصادي على المجتمع العراقي (1990 - 2003)؛ ينبغـي اسـتحضار هـذه المقدمـات في الذهـن تمهيـدا للغـور فـي أعمـاق نفـس الفـرد المُكابِد، والغوص في ظلمات الشخصية المأزومة في عـراق زمن الحصار. ولأن الأحداث والوقائع لم تبتعد عنـا كثيرا في زمن وقوعها، وشـواخصُها ما زالـت حية في الذاكرة وقائمـة أمام الأنظار؛ فهي لا تحتاج إلى الاستعانة بمرجعيات تاريخية للتحقيق في رواية أحداثها والتثبّت من وقوعها.
إن اكثر العناصر إرباكا للتحليل النفسي - الاجتماعي لمجتمـع معين في حقبة محددة في ظرف يحمل تأثيرا اسـتثنائيا خاصا هو الركون للتفسير السياسي المضلّل الذي يقدمه رجال السياسة أو منظّروهم؛ فالجهـات السياسـية المؤثـرة في الأحـداث تأثيرا يبلـغ حـدًّا يطـال البنيـة النفسـية للفرد، بمـا لهذا التأثير من أبعاد اقتصادية وثقافية ووجدانية، وبما يشـمله من طيف واسـع يبـدأ من الحيـاة اليومية للفرد ونمط المعيشـة إلـى تهديد الوجود الحياتي للفرد مرورا بتغيير مسـارات حركة الفرد والمجتمع؛ هـذه الأطراف السياسـية نجدها تسـعى لتفسـير الأحـداث تفسـيرا أيديولوجيـا قسـريا افتراضيـا أو تتناوله سـطحيا، بينما نكتشـف بالتدقيق أن الفرد (الوحدة الاجتماعية الأصغر والأهم) المنفعل سلبا بهـذا التأثيـر، تحكمه تصـورات وأفـكار ورؤى خارج إطـار الوعـي والإرادة بقدر معين، تقـدم له تأويلا قَدَريـا (تابـو) للأحـداث المؤثـرة في حياتـه، وهي وليدة واقع نفسـي مأزوم، ولكنها تبتعد كثيرا عن الإطـار الأيديولوجي – السياسـي. فالفـرد تهيمن عليـه فكـرة الغضب السـماوي والعقوبـة الإلهية حينما يجد نفسه يتلظّى في أتون الحرب، ولا يُلقي بـالًا للحيثيات السياسـية والصراعـات الاقتصادية للحرب وأسـبابها. هذه التصورات والأفكار والرؤى (القَدَرية) مؤطّرة بانفعالات حادة ومشاعر وجدانية جارحة، جذورها تسـربت إلى مستوى اللاوعي في الكيـان النفسـي للفرد، وهـي التي تقـوم بصياغة الشـخصية بمقدار الاسـتجابة الفرديـة التي تقرّرها عناصر ومقومات الشخصية ذاتها.
إن قراءة الأحداث وفق وجهة نظر سياسـية صرفة إنمـا هي اجتزاءٌ وبتـرٌ لامتدادات الحـدث اجتماعيا. من اليقين أن السياسـي والباحث السياسـي ينظر

كلٌّ منهما إلى سطح الواقع ليرى مظاهر الأحداث، ناكرا مساحات امتداداتها وغايات أعماقها، مدّعيا أنه هذا هو الواقع ولا شيء سواه.

وقد زعم (غوستاف لوبون) أن "الجماهير سريعة المبادرة إلى التطرف، فلا يكاد الشك يرتسم عندها حتى يتحول فورا إلى يقين لا يقبل نقاش، ولا يكاد يساورها شعورٌ أول بالنفور حتى يتحول الحال إلى كراهية ضارية". والسؤال بين يدَي روح (غوستاف لوبون): متى ولماذا يكون ذلك!؟ وكيف يحصل!؟ ونمضي إلى الكيان الاجتماعي المحطّم في عراق ما تحت وطأة الحصار، ونُذَكّر بالسؤال الذي ترد الإجابة عليه قبل أن يرتد الطرف لصاحبه، وهو: هل للفرد العراقي شخصية تتصف بالفرادة والغرابة والتميّز مقارنةً بغيره من أفراد الشعوب القريبة؟ وعلى الرغم من أن تلك الإجابة المتوقعة المتفق عليها عند الجميع ترسّخت عبر أجيال متعاقبة ومن خلال تراث ضخم من الكتابات والخطب والأشعار وحتى الطرائف، وبروح التعالي أو الازدراء أو حتى جلد الذات؛ ولكن الإضاءة التي يُستضاء بها لتفسير الأسباب والعوامل المنتجة لهذه الشخصية لم تكن بمستوى هذا التأكيد على فرادة الشخصية وغرابتها، ولم تكن تلك الأسباب حاضرة في الذهن قدرَ حضور الإجابة ذاتها على سؤال تميز الشخصية. هنا وجب التأكيد أن هناك بونًا شاسعًا بين البحث في الأسباب الموجِدة وبين البحث في المقومات والمظاهر المميزة. إن الحديث عن مقومات الشخصية ومظاهرها وصفاتها، وملامحها، وسجاياها، حديثٌ لا تحدُّه حدود، وقد يبلغ مستوى الإطناب حينا، ومستوى التناقض أحيانا أخرى.

ولكن لم تُبحث الأسباب التاريخية ذات الآثار النفسية على الشخصية بشكل واسع حقا؛ فما نراه اليوم يوشك أن يكون تلفيقات لتفسير تمايز العراقي، ولكن متى برز هذا التمايز؟ وأين نقطة الاختلاف؟ ومن أين جاءت الفرادة في الشخصية العراقية؟

ما زالت الإجابات قاصرة مضطربة، وغالبا ما تكون اعتقادات مسبقة تحكم المفسِّر، وهي عبارة عن اجتهادات أفراد يحكمهم مزاج انفعالي يرتد على المفسِر ذاته.

الجماهير سريعة المبادرة إلى التطرف، فلا يكاد الشك يرتسم عندها حتى يتحول فورا إلى يقين لا يقبل نقاش، ولا يكاد يساورها شعورٌ أول بالنفور حتى يتحول الحال إلى كراهية ضارية

غوستاف لوبون

نعم، ظهرت محاولات أولية لمباحث سوسيولوجية عن هذه الشخصية لا تخرج عن الانطباع الذاتي والتأمل الفوقي المستل من تجربة شخصية محدودة، بردّة فعل لتفسير عابر لظاهرة مستفزة. (النظرية السوسيولوجية هي بيانات حول كيفية ترابط حقائق معينة حول العالم الاجتماعي وسببها. تتراوح في نطاقها من الأوصاف الموجزة لعملية اجتماعية واحدة إلى نماذج للتحليل والتفسير. تشرح بعض النظريات السوسيولوجية جوانب من العالم الاجتماعي وتتيح التنبؤ بالأحداث المستقبلية، بينما تعمل نظريات أخرى

كمنظـورات واسـعة توجّـه المزيد مـن التحليلات السوسيولوجية).

و قـد يصـحّ الادّعـاء بقدر مـا «أن الجمهـور النزّاع إلـى كل مـا هـو متطـرف لا يتأثـر إلا بالتحريضـات المشتطّة، ومن قبل التأثير عليه، فما به هي حاجة إلى أن يعطي حججه طابعا منطقيا، إنما حسـبه أن يقـدم صورا صارخـة الألوان، وأن يبالـغ ويغلو، وأن يكرر بلا انقطاع الشيء ذاته».

ممـا يتفـق عليـه وفـق منهج علمـي، بعيـدا عن الوصف الأدبي وبدقة المصطلح العلمي النفسي- أن الشخصية العراقية هي شخصية عُصابيّة. ويأتي هذا التشـخيص من أعـراض ثابتة جامعة في الأعم الأغلـب مـن العراقيين. الشـخصية العراقيـة تمتاز بالحد الأدنى (انخفاض خط العتبة) في الحساسـية النفسـية، وسـرعة التأثـر بالمؤثـر على قلة شـدته وهوان مقداره، يعاضده رد فعل متطرف في حدته وشدته يكاد يبلغ مستوى من العفوية يشارف حد اللاوعي.

لهذا فهي شـخصية سريعة الانفعال، حادة المزاج، متقلبة المواقف، متشـائمة يغلبهـا الحزن، تعاني الشـك والريب، خاضعة لوسواس قهري، تميل إلى الوحـدة والاسـتكانة، تنفر مـن النشـاط والإبداع، وتتمسـك بالتقاليد وتحرص عليها هروبا من ضغط القلق النفسي، ضعيفة أمام عوامل التوتر الداخلي. ولم تكـن الشـخصية العراقية بهـذا الوصف طبعا خَلقيـا؛ بل هـي نتاج تطـور تاريخي صارم فـي آثاره قاسٍ في صدماته موغل في عمقه الزمني. ولعل العامـل الجغرافي (الموقع والبيئة) هو الذي مهّد السـبيل لتاريخ دامٍ مرعب طاغٍ يتسـلطن على هذا التكوين الاجتماعي. العراق (الجغرافي) حيث يقطن هـذا الكيان الاجتماعي منذ آلاف السـنين يشـكل نقطـةَ صـدام وميدان صراع بين وجـودات محيطة بـه، قانونهـا الأول تبـادل الغلبة والاحتـلال لذلك العراق (الجغرافي). إن هذه الإشارة المقتضبة إلى تاريـخ الصراعـات الإقليمية في مركـز التماس بين مناطـق نفوذها الذي يمثله العراق ليسـت إشـارةً عابـرة؛ وإنمـا فـي غاية الأهميـة، ولكـن مقتضى الغرض من البحث يمنع من الخوض في غمار تاريخ الصراعـات التي كان ميدانها العـراق، ومادتها أبناء العراق، ووقودها موارد العراق.

إن أهميـة هـذا التاريخ العربي الدامـي تنبع من أنه العامل الأساسـي فـي بناء شـخصية متأزمة تجاه السلطة والحاكم. وتأزم الشخصية ينعكس ويظهر بصـورة عـدم الثقـة وغيـاب الاطمئنـان وانعـدام الشـعور بالأمان والحذر الشديد اتجاه الحاكم ومن السـلطة بشـكل عـام. إن هـذا الأمـر يكتنـف في جوهره حقيقة تبقى راسخة في ضمائر الأفراد أبدا، هي (أن كل الصراعات، مهما كان نوعها ومضمونها وغاياتها، هي واقعا على حساب الشعب العراقي، ولا يحصـد منهـا إلا مزيـدا مـن المعانـاة والقهـر والسحق).

ولكـي لا نذهـب بعيـدا جـدا؛ فلنأخـذ مـن انهيـار الإمبراطورية العباسـية وسـقوط بغـداد وما بعد ذلك لغاية يومنا هذا دليلا على هذا التاريخ الحربي الدمـوي الذي مـزّق الكيان الاجتماعي شـر ممزَّق وعبـث بمقومات الشـخصية الاجتماعية السـوية، فنـزع منهـا كل عناصـر الاتـزان والطمأنينـة، لينتج شـخصية قلقـة مضطربة غيـر قادرة علـى تحقيق الانسجام مع ذاتها ومع أفراد الكيان، ومع المجتمع الـذي تنتمي إليـه. وبتركيز الفكـرة وتكثيفها؛ نحن إزاء شخصية (عتبة الانفعال لها متدنية جدا، وردود الأفعـال منهـا غير واعيـة ومتطرفة جـدا)، وهذه الخصال النموذجية للشخصية العراقية.

ادّعـى الدكتـور (علـي الـوردي) أن الشـخصية العراقيـة، علـى اعتبارهـا شـخصية ازدواجيـة، تحمل قيما متناقضة هي قيم البداوة وقيم الحضارة، ولج غرافية العراق أثر في تكوين الشخصية العراقية؛ فهو بلد يسـمح ببناء حضـارة بسـبب النهرين، ولكن قربه من الصحـراء العربية جعل منـه عرضة لهجرات كبيرة وكثيرة عبر التاريخ، آخرها قبل 250 سنة تقريباً.

وصـف (علـي الـوردي) العـراق بالبوتقـة لصهـر البدو المهاجريـــن ودمجهـم بالسـكـــان الذيـــن

سبقوهم بالاستقرار والتحضر، فتنشأ لديهم قيمتان: قيمة حضرية، وقيمة بدوية؛ فالعراقي ينادي بقيم الكرامة والغلبة، ولكن حياته تجبره على الانصياع لقيم التحضر. وأكّد (الوردي) أن التناقض موجود في كل نفس بشرية، ولكنه في النفس العراقية أقوى وأوضح؛ لأن قيم البداوة والزراعة قد ازدوجتا في العراق منذ أقدم العصور. وأضاف: «وإني وإن كنتُ غير واثق من نتيجة هذه الدراسة؛ ولكني أجد كثيراً من القرائن تؤيدني فيما أذهب إليه». ويذكر من هذه القرائن: «أن العراقي -سامحه الله- أكثر من غيره هياما بالمثُل العليا والدعوة إليها في خطاباته وكتاباته، ولكنه في الوقت نفسه من أكثر الناس انحرافاً عن هذه المثُل في واقع حياته» و«أنه أقل الناس تمسكاً بالدين، وأكثرهم انغماساً في النزاع بين المذاهب الدينية، فتراه ملحداً من ناحية وطائفياً من ناحية أخرى». وينبّه (الوردي) على أن العراقي بهذه الصفات «ليس منافقاً أو مرائياً كما يحب البعض أن يسِمه بذلك؛ بل هو في الواقع ذو شخصيتين، وهو إذ يعمل بإحدى شخصيتيه ينسى ما فعل آنفا بالشخصية الأخرى، فهو إذ يدعو إلى المثُل العليا أو المبادئ السامية مخلصٌ فيما يقول، جادٌّ فيما يدّعي، أما إذا بدر منه بعدئذٍ عكس ذلك؛ فمردّه إلى ظهور نفس أخرى فيه لا تدري ماذا قالت النفس الأولى وماذا فَعَلتْ». وقد غاب عن ذهن الدكتور الفاضل أن شدة الضغوط التي تعرضت لها الشخصية العراقية عبر تاريخها غير العادي والصراعات الدموية المتلاحقة بسبب العامل الجغرافي ذاته بين القوى المحاذية، كان لها أثر أكبر بكثير من ذلك النتاج عن تزاوج قيم التحضر وتقاليد البداوة.

وفي التاريخ المعاصر، تعرضت الشخصية العراقية إلى (توتر) سلبي مرتد على الذات (منها وعائد إليها)، منتج لقلق غير واعٍ واضطراب خفي، ذي طابع اجتماعي شامل حصيلة أحداث متصلة متشابكة كحلقات مترابطة في سلسلة سِفر مأساوي دموي يشكل تهديدا للوجود الإنساني وديمومة سلامته، وتمثلت هذه الأحداث بما يأتي:-

مرحلة حرب الثماني سنوات العجاف.

مرحلة الاجتياح والغزو العسكري للكويت.

مرحلة الهزيمة والانكسار.

مرحلة الحصار.

العراقي -سامحه الله- أقل الناس تمسكاً بالدين، وأكثرهم انغماساً في النزاع بين المذاهب الدينية، فتراه ملحداً من ناحية وطائفياً من ناحية أخرى

علي الوردي

ولا يخفى أن المؤثر كلما كان أطول مدة وأكثر شدة ترك أثرا أعمق تتشرب به النفس ويتسرب إلى أعماق اللاوعي، حتى تغدو النفس منغمسة في (توتر واضطراب) غير مدركَين لا واعيَين؛ حيث إن استمرار المؤثر وشدته تخرق الحصانة الذاتية والمناعة النفسية وتدمرها، وتحيل الشخصية إلى سريعة التأثر، شديدة الحساسية، مفتقدة القدرة على التكيف، وضعيفة في بنائها النفسي. ويؤكد

الدكتـور (إبراهيم الحيـدري) في كتابه (الشـخصية العراقيـة) «أن مـا حـدث فـي هـذا المجتمـع من تغييـرات بنيويـة عميقـة خـلال العقـود الأخيـرة بسـبب الاسـتبداد والحروب والحصـار بوجه خاص، عملت على تكوين مجتمع مغترب وثقافة مستلبة وشخصية منقسمة على ذاتها».

ويؤكد "أن دراسة هذه الشخصية ومعرفة سماتها لا يتم إلا بدراسـة البنيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافيـة والسياسـية فـي سـياقاتها التاريخيـة، وكذلك دراسـة التكوينـات الاجتماعيـة المتعددة والثقافـات الفرعية المتصارعـة". "إن العراقيين ما زالـوا ضحايا الاسـتبداد والقهر والقمع، حيث أصبح العنـف إرثا ملازما لهم منذ العصـور القديمة، وما الحـروب والكوارث والصراعـات الدموية والفرهود إلا تعبيـر عن ثقافـة العنف التـي تغذّيها الأنظمة الاستبدادية".

لا شك أن الحصار ببعدَيه المادي والمعنوي شكّل عامل (ضغط وشد) غير اعتيادي على شخصيةٍ هي بطبيعتهـا متوترة، وتأجّج ذلـك التوتر بعد الهزيمة المروعـة الداميـة الكارثية التي أوقعـت الكثير من الشـباب -مادة الحـرب وعنصر الحراك فـي التغيير الاجتماعي- تحت ألم وعذابات الانكسـار والإذلال وسـاعات الرعب مـن مـوتٍ أدواتُه النـار والحديد، حيـث يختفي خلفهـا العنصر البشـري، مما يرسـخ فـي النفـوس أنـه غضب وانتقـام غيـر منظور من قوة خفيّة حلّت بكائنات مسحوقة منزوعة الإرادة مسلوبة الاختيار محرومة الأمل والمستقبل.

إنه ضغط كبير لا يمكن تحمُّله، وقد يدفع بالإنسان نحـو حـالات متنوعة مـن العُصاب، وهـو ما حصل وشـهدت به الإحصائيـات المتحصلـة -على ندرتها وعـدم الاهتمـام بهـا- من بعـض المراكـز الصحية النفسية، وبالرغم من أن ذلك غطّى فئة كبيرة من الشـباب، ولكن تبقى النسـبة أقل من أولئك الذين تعرضـوا إلـى (تصريـف) ذلك الضغط النفسـي عبر (آليات الدفاع الذاتية) لتخفيف شدة الألم النفسي الناتـج من ضـراوة الصراع الداخلـي المعبر عن حالة الاضطراب الفكري – الوجداني.

قـد يتوهـم البعـض مـن ذلـك أن (آليـات الدفـاع الذاتيـة) هي أفعـال إرادية تصدر عن كيان نفسـي واعٍ بذات تدرك ماذا تفعل، وقد سقط البعض في سـوء الفهم حينما خلط بعضا من هذه الآليات مع سـلوكيات جنائية أو تصرفات منحطّة شـائعة ذات دوافع واضحـة ومقاصد بيّنة لدى صاحبها أو لدى المراقب الدارس. فمثلا قد يسـرق الإنسان بدافع الحاجـة (وإن كانت غير مشـروعة) لغرض إشـباعها بطريقـة يعتقـد بهـا وفـق قناعـة واضحـة، ولكن قد يسـرق الإنسـان بدافع آخر غيـر الحاجة محاولةً منـه غير واعيـة للتمـرد أو إثبات الذات أو وسـيلةً للثـأر والانتقـام، فهنا رغـم التماهي بيـن الفاعلين ولكنهمـا مختلفان بالطبيعة والدوافع والأسـاس الانفعالي المرافق لهما.

يمكن أن نرصد أربعًا من آليات الدفاع الذاتية بشكل مميز لذات حاولت بها الشخصية العراقية المتأزمة الإفلات من ألم الضغط النفسي نتيجةً لآثار الحصار المادية والمعنوية، المباشرة وغير المباشرة:-

أولا: الجريمـة المنظمـة وتشـكيل عصابات لجرائم متنوعة.

ثانيا: تعاطي المخدرات والاتجار.

ثالثا: السلوكيات الفاحشة الرذيلة بشكل مبتذل.

رابعـا: الانضـواء فـي حـركات سياسـية محظـورة والقيام بأفعال ذات طبيعة اجرامية.

إن العوامـل المشـتركة بيـن هـذه الآليـات هـي الهـروب مـن الصـراع الداخلـي، وتوجيـه الانفعال ضـد جهـة خارجية، وغيـاب الوعي، وعـدم البصيرة بالمخاطـر. فالتعذيـب القاسـي الـذي يتعـرض له المجرم – النفسـي أو متعاطـي المخدرات أو حتى المنضوي في حركة سياسـية ممنوعة، لا يتناسب مـع مسـتوى الفعـل، ولكـن تبقـى السـلوكيات متكـررة عنـد الفرد ذاته ومن أقرانـه ممن يحملون تصورا عن طبيعة إجراءات التعذيب عندما يقع في شـباك الأجهزة الأمنية، والذي يلحظ فيه -بشـكل غريب- نزعة غير واعية لدى الشخصية للوصول إلى

تلك اللحظة والوقوع في قبضة السلطات.
وخلاصة القول في (الأعراض) المرضية، والنفسية – الاجتماعية، التي بانت على الشخصية العراقية في أثناء الحصار الاقتصادي- الاجتماعي المدمر على المجتمع العراقي، أن تلك الأعراض لم تكن سوى آليات دفاع أولية نفسية لاواعية لشخصية غير سوية تعرضت لرضّة نفسية فوق قدرة تحملها وأكبر من إمكانية استجابتها.

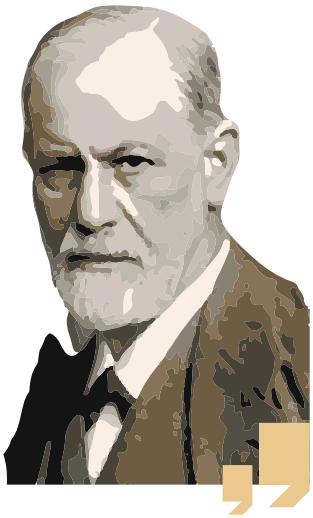

ثمة جماهير (عابرة) للغاية وجماهير (دائمة)، جماهير (متجانسة) للغاية وجماهير غير متجانسة، وهناك جماهير طبيعية وجماهير اصطناعية لا يقوم لها قوام إلا بفعل إكراه خارجي

فرويد

وبالرغم من أن هذه الآليات اللاواعية نجحت بقدر معين من التخفيف من شدة التوتر الملازم للصراع الداخلي، وبالتالي إبعاد شبح الانهيار العقلي الذي لم تمنع من ظهوره عند فئة معينة محدودة من الأشخاص (خصوصا الشباب العاطلين الذين تم تسريحهم من الجيش فوجدوا أنفسهم في تيه عظيم)؛ إلا أنها -تلك الآليات - تسببت في خلل اجتماعي أربك النظام البنيوي للمجتمع العراقي.

يذكر (فرويد): "فيما يتعلق بمورفولوجيا الجماهير، يمكن التمييز بين صنوف عدّة من الجماهير، وأن هذه الأخيرة يمكن أن تسلك، في تشكيلها وتكوينها، اتجاهات متعاكسة في كثير من الأحيان. فثمة جماهير (عابرة) للغاية وجماهير (دائمة)، جماهير (متجانسة) للغاية وجماهير غير متجانسة، وهناك جماهير طبيعية وجماهير اصطناعية لا يقوم لها قوام إلا بفعل إكراه خارجي".
ويضيف قائلا: "جماعة المتدينين -المؤمنون المرتبطون بمؤسسة دينية -، والجيش، جمهوران اصطناعيان؛ أي جمهوران يقوم تلاحمهما على إكراه خارجي ضاغط، وينخرط الفرد في جمهور من هذا النوع من دون أن تؤخذ مشورته مسبقا لمعرفة رأيه، والمرء ليس حرا في الدخول إليه والخروج منه بحسب إرادته، ومحاولات الفرار تُعاقب بقسوة".
إن أخطر ما يمكن قوله في هذا الموضوع وأخشى ما يمكن أن يُتثبت منه في هذا الشأن، أن آثار الحصار لم تنحصر فقط في سنوات الحصار؛ بل توالدت عنها مشاكل اجتماعية ومظاهر نفسية ومركّبات شخصية هي من الصعوبة بمكان علاجها وإيجاد حلول ناجعة لها؛ لأنها ترسخت في الشخصية العراقية بشكل غير واعٍ، وباتت أحد عناصر هويتها.
يكتب طبيب الأمراض العصبية النمساوي (سيجموند فرويد) تعليقا على آراء (غوستاف لوبون) في كتابه (علم نفس الجماهير)، يكاد أن يكون بيانا لمنهج علمي نفسي – اجتماعي سليم في تحليل الواقع النفسي للشعوب المأزومة؛ حيث يقول: (الازدراء والتعالي اللذان يعبر بهما عن آرائه بصدد "تظاهرات نفسية الجماهير" قد سبقه إلى التعبير عنهما بقدر مماثل من القوة والعدائية، بل بالألفاظ نفسها تقريبا، مفكرون ورجال دولة وشعراء من الأزمنة والأنصار كافة).
ولعل آراء (غوستاف لوبون) ما زالت تشكّل مرجعية مبجّلة في محاولة فهم كثير من الأزمات الاجتماعية، وتنحّي جانبا المناهج العلمية النفسية.

تلفيق الخطاب البعثي
من العَلمانية إلى الإيمان

أحمد صحن

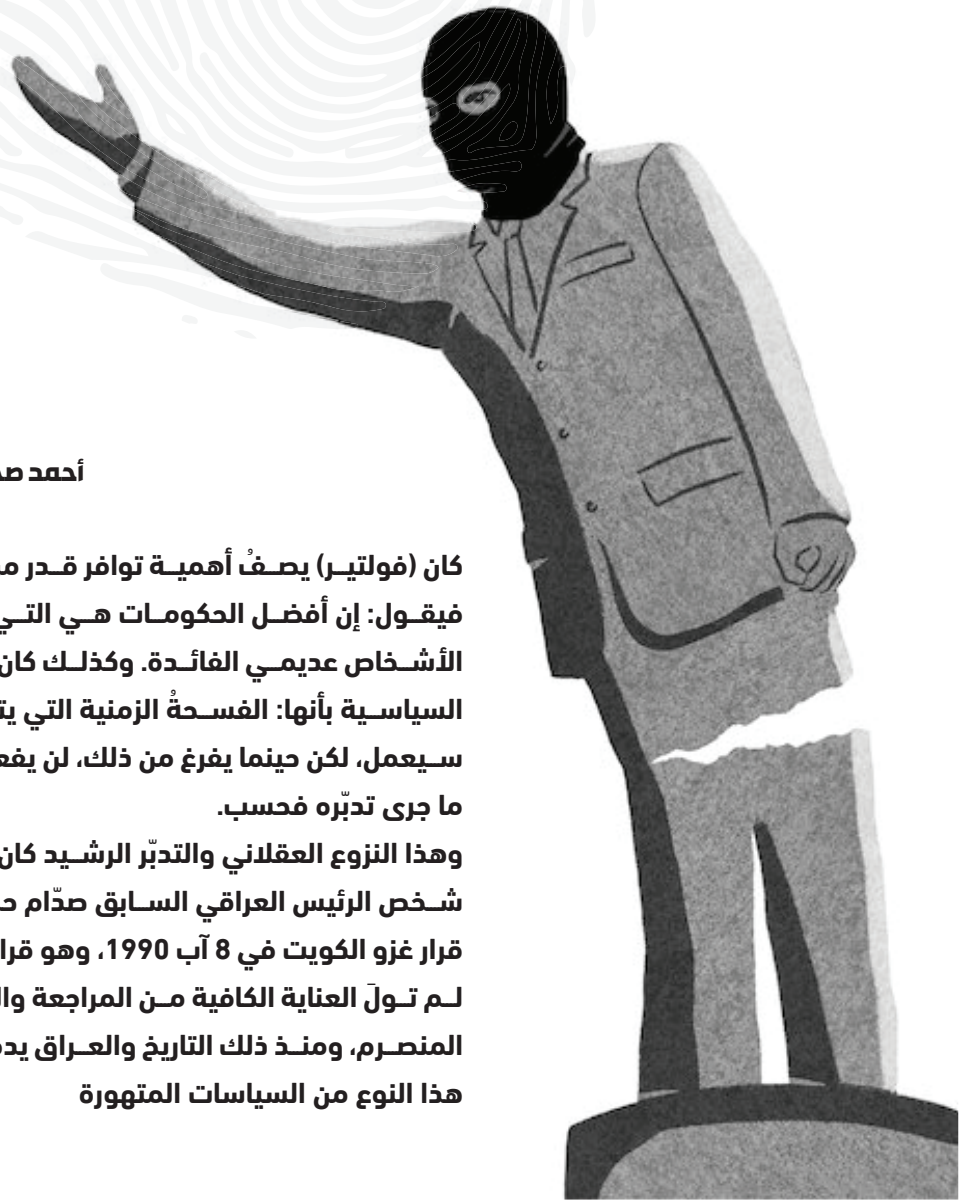

كان (فولتيـر) يصـفُ أهميـة توافر قـدر من الحكمة فـي أية حكومة، فيقـول: إن أفضـل الحكومـات هـي التـي تُبقي علـى أقل عـددٍ من الأشـخاص عديمـي الفائـدة. وكذلـك كان (نابليون) يصـفُ العقلانية السياسـية بأنها: الفسـحةُ الزمنية التي يتدبّر فيها المرءُ صعوباتِ ما سـيعمل، لكن حينما يفرغ من ذلك، لن يفعل سوى المضي في تنفيذ ما جرى تدبّره فحسب.

وهذا النزوع العقلاني والتدبّر الرشـيد كان يُذكرنـا بما كان يفتقر إليه شـخص الرئيس العراقي السـابق صدّام حسـين، لمّا أقدم على اتخاذ قرار غزو الكويت في 8 آب 1990، وهو قرار يندرج ضمن القرارات التي لـم تـولَ العناية الكافية مـن المراجعة والتدبّر في تسـعينيات القرن المنصـرم، ومنـذ ذلك التاريخ والعـراق يدفع أثماناً باهظـة جرّاء اتّباع هذا النوع من السياسات المتهورة

من الغزو والمجابهة إلى الضبط والتجويع

منذ ذلك الحين، لم يشهد العراقيون نهاية مأساوية لحياتهم دفعةً واحدة (النهاية بالمعنى التقليدي لنهاية الكائن وهو يواجه حتفه)؛ بل شهدوا نهاياتٍ متكرّرةً ومتنوعةً مرّوا بها (دولةً ونظاماً ومجتمعاً)، شهدوا انهياراً في الاقتصاد ترك آثاراً بالغة في حياتهم؛ فما حدث في آب كان تحولاً حياتياً شاملاً على الصُّعُد السياسية والاقتصادية والقانونية والاجتماعية والأخلاقية. لقد تحطمت آمال الملايين من العراقيين بسبب السياسات المتفرّدة والمُتعجّلة، وهم قد خرجوا للتو من مأساة حرب طويلة مع إيران طُويت صفحاتها، ولم يعد مناسباً أو منطقياً لعاقل تكرارُها، ولكن ما أن مضت سنتان على هذه المأساة حتى وقع الجميع في مأساة أكثر هَولاً وتعقيداً.

من المعلوم أن أعمال الناس اليومية تعطّلت في أعقاب الحرب الضروس مع الإيرانيين، وركدت الأنشطة الاقتصادية للدولة، وكان لهذا الركود انعكاساته السلبية على الاقتصاد العراقي. ثم أقدم النظام العراقي في حينها على غزو الكويت، وبإثر ذلك قررت الولايات المتحدة الامريكية التي قادت العالم الجديد إعادة العراق إلى عصر ما قبل الصناعة. لقد أصدر مجلس الأمن الدولي قراراً (القرار رقم 661 في السادس من آب 1990) يقضي بفرض حظر اقتصادي شامل على العراق، وجاء هذا القرار بمثابة التأديب الرمزي والمادي على السواء، وبخاصة أن نتائجه استهدفت تأديب العراقيين حصراً، ولم تستهدف النظام السياسي المتسبب الأساسي في الغزو.

في البدء، لم يكترث العراقيون لهذا القرار لأسباب عديدة؛ منها أن الناس كانوا منشغلين بقضية الغزو وما سيترتب عليها من عودة إلى التجنيد والسَّوق إلى جبهات القتال والتعبئة الشعبية، مما سيعيد الذاكرة العراقية إلى أجواء الجبهات وروائح الموت والبارود. غير أن الناس، وعقب ذلك بقليل، استشعروا هول الفاجعة، وبخاصة لمّا بدأت الحكومة تطرح مواد غذائية منتهية الصلاحية في الأسواق، وشهدت صعوداً في أسعارها، وشيئاً فشيئاً شحّت المواد الأساسية مثل الدقيق والسكر والرز.

بعد ذلك، قامت السُلطة بتنفيذ سياسات ضبط نظامية للتعديل على محتوى وسلوك العامة، فبدأت ملامح البؤس تظهر على الناس بوضوح يوماً بعد آخر؛ لذلك بدا واضحاً أكثر دخول الدولة في مأزق المواجهة الفعلية على صعيد الخارج والداخل أيضاً. ومن الطبيعي أن النُخَب ذات الاختصاص والدراية كانت تدرك ما ستؤول إليه عواقب الأمور، وأن اللامبالاة الشعبية بما سيؤول إليه الأمر عقب الحرب ستتحول عاجلاً أم آجلاً إلى صدمة عامّة مدويّة، ولاسيما مع تفاقم الحالة الاقتصادية على كل المستويات. ومن ثم؛ سيستفيق العامة على هول الواقع السياسي والأمني الداخلي الجديد، وثقل وسوداوية السياسات الدولية المتبعة. فمشكلات الركود الاقتصادي مثّلت الجزء الظاهر من جبل الجليد الذي لا قِبل للحكومة السابقة بإدراك حقيقته الخابية، وأن الحصار الاقتصادي وما ينطوي عليه من أهوال آتٍ لا ريب فيه، وسيلعب لعبته الثقيلة في تحديد مصائر العراقيين ما أن تضع الحرب أوزارها.

لذلك، وبعد إعلان الرئيس (جورج بوش) نهاية العمليات العسكرية لتحرير الكويت؛ انتفض العراقيون على أنفسهم (الشعب ضد النظام) بعد سلسلة ضربات عسكرية أمريكية موجعة وقاصمة طالت القوات العسكرية العراقية في الأراضي الكويتية، ففي الثاني من آذار 1991 تلاقى الجنود العائدون من الكويت - في مشهد درامي مفارق - مع جموع الشباب العراقيين المنتفضين على سياسات النظام؛ ليواجههم بأساليب قمعية ضارية. لقد أذِن النظام في بغداد للجيش باستخدام طائراته العمودية، مع دعم ضمني لهذا الإجراء من قوى التحالف بحسب تصريحات أعلنها

تعاظمت آثار الحصار الاقتصادي بثقلها على كواهل العراقيين بعدما ارتفعت الأسعار شيئاً فشيئاً، وهبطت قيمة صرف الدينار إلى أدنى مستوياتها ولاسيما في العام 1995

القادة الأمريكيون في غير مرة.

لقد فتح العراق على نفسه باباً لدخول عالم جديد لم يتوقع مَدَياته، هذا العالم هو «النظام الدولي الجديد» عندما صرّح الرئيس الأمريكي بصدده عن بداية حقبته الجديدة في آب 1991، وبالتحديد عقب فشل المحاولة الانقلابية في الاتحاد السوفييتي السابق. وبإثر ذلك أعطي النظامُ السياسي العراقي في حينها جرعةَ إنعاش وفرصةً للاستمرار حاكماً عليلاً، فأُبقي عليه، على هذا النحو، ريثما يتسنّى لسياسيي واشنطن ترتيب الخريطة السياسية الجديدة في الشرق الأوسط، فصار العراق بعد هذه المنازلة مجرد مَحبسٍ كبير لشعب فاقد لبوصلته وجاهل بمصيره المرتقب. فتعاظمت آثار الحصار الاقتصادي بثقلها على كواهل العراقيين بعدما ارتفعت الأسعار شيئاً فشيئاً، وهبطت قيمة صرف الدينار إلى أدنى مستوياتها (ولاسيما في العام 1995)، فوجد العراقيون أنفسهم يواجهون معركة وجودية داخلية فيما بينهم ضمن علاقات إنتاجية محلية لم يكونوا قد عهدوها من قبل، علاقات أتت بقيمها ومعاييرها الأخلاقية والسلوكية الجديدة.

من العَلمانية البعثية إلى الحملة الإيمانية

ولذلك؛ لم يعد يوجد شيءٌ مهمَل أو غير ذي نفع في مسرح التنافس اليومي على فرص الحياة، لقد أصبح كُلُ شيء قابلاً للتبادل والتداول لقاء الحصول على الخبز. هذه الظروف والأسباب أرغمت العراقيين على تغيير نمطهم السلوكي، ولاسيما في ظل العزل عن كل ما له صلة بالعالم الخارجي (امتثالاً لبرنامج العقوبات المطبق عليهم). والذي زاد عليه عزلاً القيودُ المادية وغير المادية التي فرضها النظام العراقي على السفر، والواقع أنه لم توجد دولٌ تستقبل العراقيين عاملينَ فيها عدا (الأردن وليبيا).

وبإزاء هذا الوضع الذي قاد العراقيين إلى الشعور بالعدمية، بسبب التجويع، والعزل، والاستهداف المقصود للذوات الفردية والجماعية؛ فضّل كثير من العراقيين دخول التجربة الإيمانية، فأصبح يتعبّد باحثاً عن معنى خلاصي ما، فاللجوء إلى الإيمان صار خيارا وأمراً روحياً ومسلكياً لا مناص منه؛ روحياً بسبب الإفقار الشديد في كل شيء، وسلوكياً لأنه يموضعهم ضمن موقف قيمي يجعلهم يقفون بمسافة محسوبة مما يجري، وبخاصة أن

النظام الحاكم بدأ يفسح المجال للعراقيين لدخول عهده الإيماني حتى تعدّدت مصادره من جنوب العراق إلى شماله، وقد استثمر النظام هذا البعد الروحاني بعد أن فقدت الأطروحة القومية معناها كأطروحة وحدوية حداثية.

كان التحول الرمزي في خطاب السُلطة نحو الدين كسياسة بديلة للنظام يتناسب مع طبيعة المواجهة المتوقعة في تلك الفترة (سواء كانت المواجهة من الداخل أو من الخارج). وهنا انقلب راعي الحزب على الحزب نفسه، فكان الأمرُ بمثابة رد فعلٍ استباقي على أي فعل محتمل الوقوع؛ تُحفّزه السياسات الحزبية والإقصائية والتجويعية الجالبة للأهوال والكوارث والرادّة للإنسان إلى العهود المظلمة.

سلفيّة عراقيّة قلقة

لا أحد كان يعرف حجم الصعوبات التي واجهت صدّام حسين في إشاعة عقيدة السلفية في العراق ضمن إطار حملته الإيمانية. كان سُنّة العراق شوافعَ وأحنافاً، فيما نشطت السلفية في بيئة حنبلية نجدية، وكان قبول السلفية في العراق مستعصياً تاريخيا بحكم هيمنة الدولة العثمانية وإمكانيتها في تغليب مذهب على آخر، ونلمس ذلك في سيرة (أبي الثناء الآلوسي)، الذي يدعى بـ(الآلوسي الكبير)، حين أُجبِر على الهرب إلى دمشق بعد أن اتّهمه والي بغداد (سليمان باشا) بالوهابية، فضلاً عن أن الذاكرة العراقية بشقّيها السُنّي والشيعي ترفض السلفية؛ لعلاقتها بالاعتداءات الوهابية التاريخية على المدن العراقية، بدءاً من مناطق الزبير، ومروراً بالمنتفق والنجف وكربلاء وكبيسة وعنّة.

لقد استمر هذا التعثر في نشر العقيدة السلفية أكثر من مئتي عام تقريباً، ولذلك تحرّك صدّام للبحث عن خطابٍ بديل، فسمح بتنامي خلايا سلفية هنا وهناك داخل المجتمع؛ ليتمكن بعد ذلك من إطلاق حملته الإيمانية. في منتصف الثمانينيات، وفي كوردستان تحديداً، غضّ الرئيس السابق النظر عن نشاطات السلفية المدعومة من السعودية هُناك؛ لما لهذه الجماعات من مواقف مساندة لحربه ضد إيران، كما أنه بدأ يلوّح بأطروحة الإيمان بعد النصف الثاني من العقد المذكور. لقد كانت أغلب شعارات الحرب تغازل الدول العربية

لم يتردد النظام الحاكم في رفع شعار القدس، وهو شعار لصيق بالشعار الإسلامي العريض المطروح في إيران، فأنشأ (جيش القدس) الذي راح بعضٌ من أفراده يقيمون الحدود أمام الناس بقطع رؤوس بائعات الهوى والسارقين

بغية إثبات دعمها المتواصل؛ فشعارات (قادسية صدّام) و(حارس البوابة الشرقية) وغيرها ليست مغرية بما يكفي في الداخل العراقي، ولا سيما أن خطاب النظام في إيران خطاب ديني، وجاذب لكثير من شيعة العراق، فكان من الضروري الاستعانة بضد نوعي مثيل. بدأ صدّام باستهلاله الإيماني الأول حين أطلق على بعض الصواريخ التي صنّعها اسم (العباس) و(الحسين)، ثم أعلن لاحقا أن (ميشيل عفلق) اعتنق الدين الإسلامي قبل وفاته، وحين تلقّى النظام الهزيمة في حرب الكويت أضاف عبارة «الله أكبر» إلى العلم العراقي. كذلك لم يتردد النظام الحاكم في رفع شعار القدس، وهو شعار لصيق بالشعار الإسلامي العريض المطروح في إيران، فأنشأ (جيش القدس) الذي راح بعضٌ من أفراده يقيمون الحدود أمام الناس بقطع رؤوس بائعات الهوى والسارقين، وهي عقوبات ذات طابع ديني. ولعل الهدف من هذه السياسات هو إشغال الناس بمزيد من صور العنف (صور تقليدية ذات طابع ميكيافيلي)، وإشعارهم بأن العدو محيقٌ ومتربصٌ بهم من كل جانب، وهو عدوٌ واحد بالضرورة، سواء أكان خارجياً أم داخلياً، وتتوجه هذه الصور العنيفة تبعاً لذلك إلى الداخل من خلال استهداف بعض العيّنات المختارة (تجار احتكاريين، موظفين فاسدين في مخازن الحبوب، عواهر، سماسرة في سوق العملة والربا، متهمين بالمولاة لدولة عدو)، عبر أسلوب يعتمد على الضبط والمراقبة؛ الأمر الذي يضع الجميع في أجواءٍ من الخوف الدائم، ووصم من يُراد وصمه بعناوين متعددة، والغاية من ذلك إشاعة لون من التطهّر والنقائية للنظام، وصناعة سلوكيات واصطفافات وطنية جديدة تدعم استمراره أطول مدة ممكنة.

كانت هذه السياسات تؤكد بقوة على نقل الأطروحة العلمانية التي نادى بها البعث في المؤتمر القطري التاسع 1982 إلى مجال الإيمان، ليقوى على تسكين حركة الناس، ومن ثَمَّ التحكم بتوجيه نقمتهم الخابية، فلم يجد أفضل من تعظيم فكرة الإيمان كعقيدة مستحدثة لدى النظام للتحكم بمواقف الأفراد؛ فالإيمان أُريدَ به الملاذ الروحي الذي يدفع المؤمنين إلى الطمأنينة والسكينة. ومن ثَمَّ؛ نجح النظام في صنع المجال الجديد القادر على تذويب نقمة الناس الجائعين، ولأن الغالبية منهم تدين بالإسلام، جرى قطع الطريق على أية حاضنة إقليمية تستقطب المعارضين للنظام، من مثل اللاجئين المعارضين من الإسلاميين لدى الجارة إيران التي كانت تحتضنهم بقوة، لذلك كان يجد النظام شيئاً من ضالته في تلك الحملة الإيمانية. وبالرغم من نفور العراقيين من السلفية؛ إلا أن صدّام استخدم المغريات التقليدية لجذب «المؤمنين» للانخراط بحملته الإيمانية، فانتشر في حينها بناء الجوامع، والتمويل لدعم رقعة المنخرطين في المجال الإيماني الجديد، وافتُتحت الكليات الإسلامية، وصار لقب (عبد الله المؤمن) طاغياً على بقية الألقاب، كما أن أسماء من السلفيين الذين أصبحوا قادةً معروفين اليوم كانوا من خريجي الجامعات الإسلامية التي دعم استمراريتها النظامُ في حينه. حزب البعث الذي كان يدعي العلمانية خياراً لإدارة الدولة دفع البعثيين للعودة إلى طوائفهم، ولأن بعضهم كان من المصلّين؛ أوعز لهم بالصلاة في الحسينيات والمساجد جهاراً، كلٌّ بحسب مذهبه، وراحت الأجهزة الأمنية تدفع برجالتها «الوعّاظ» إلى اعتلاء المنابر مدشّنين بذلك مرحلة نهوض مجتمع مؤمن في الأنبار والفلوجة وغيرها من المدن ذات الغالبية السُنّية.

وليس ثمّة وسيلة للسيطرة على الناس الجائعين أفضل من حشرهم في دائرة التديّن، مع ما يتيسر توفيره لهم من الطعام الممزوج بنكهة الزهد؛ فالتديّن يتعالى على مباهج الحياة المادية، ويواسي مرارة الجوع وعسر ذات اليد. وبات ليس مهماً للنظام فيما لو تحوّلت حملته الإيمانية إلى حاضنة سلفية طالما

أنها ستشـغل المجتمع الجائع وتُلهيه عن مواجهة واستهداف النظام.

صلاة الجمعة، من التغييب إلى الإجهار

انتعشت السلفية في مناطق وسط وغرب العراق، ولا يختلـف الأمـر كثيراً مع صعود التديّن الشـيعي فـي الجنـوب أيضاً؛ فقـد تركت الحكومـة في عام 1997 البـاب موارباً للشـيعة لممارسـة شـعائرهم علانيـةً هـذه المـرة، وبخاصـة حينمـا نادى السـيد (محمد محمـد صادق الصدر) بإقامة صلاة الجمعة فـي العـراق، وهي الصـلاة المُغيَّبة منـذ زمن عند الشيعة. لقد تصاعد حضور الصدر الاجتماعي، وصار الإمـامَ المقـاوم الأكثر شـعبية بين المراجـع الكبار في حينها.

هـذه الخطوة العلنيـة لصلاة الجمعـة، ومن خلال حضـور جمهـور واسـع فـي عمـوم المحافظـات الشـيعية، جعلـت النظـام القائم في حينهـا يتحيّن فـرص الانقضـاض علـى الصـدر فـي اللحظـة التي يتعاظـم فيها نفـوذه. ولكـن المفارقـة كانت في التزامن الذي أظهر حضورَين دينيَّين في تلك الحقبة؛ الحضور الديني السـلفي، والحضور الديني الصدري، وبـدا حضورهما على هذه الحال كما لو أنه جزء من السياسـة التـي يتبنّاها البعث فـي حملته الإيمانية الجديدة، ولاسـيما أن الخطابات النارية المستنكرة للوضـع المـزري في العـراق من علـى المنابر كانت تتوجـه إلى التنديد بسياسـة أمريكا وليـس التنديد بالنظـام البعثي، وهو ما عدّه بعض المراقبين نوعاً من التخادم المضمَر مع السُلطة.

ربمـا كانـت ولادة ظاهـرة (محمـد محمـد صـادق الصـدر) وقتلـه يُمثـلان علامـات درامية شـائعة ومألوفـة عبـر التاريـخ، ولم تكـن مبهـرة للنظام أو تشـكل تهديداً حقيقياً له؛ نظرا لامتلاكه آلة الحكم الأمنيـة والقمعية القادرة علـى التصدي لها، الأمر الـذي حـدث بالفعل فـي عام 1999 حين شـهدت مـدن الجنـوب اضطرابـات داميـة (مـن قبيل هدم منـازل الثائرين واعتقالهـم وإعدامهم)، على خلفية الصِدام الدامي بين مؤيّدي الصدر الذي اغتيل وبين الأجهزة الأمنية.

من المعروف أيضاً أن نظام البعث كان يسـتثمر في هـذا النوع من الصعود الدينـي، ولمّا داهمه الخطر وأدرك تأليب الشارع الجنوبي عليه، وجد سهولة في الإجهاز على الصدر وإحكام السيطرة المطلوبة على أتباعه، كان قد فعل ذلك لأنه تبنى سياسـة التديّن بديلاً براجماتياً عن الشـعارات القومية الكلاسـيكية المنتهية الصلاحية في زمن ما بعد الهزيمة.

لقـد كان خطـاب الصـدر فـي تلـك الحقبـة يقارب الحقيقـة مـن الحُلـم بطريقـة عاطفيـة تُسـكّن النفوس، ولاسـيما نفوس الحيارى والمساكين من المحاصريـن. ولـو أنصتنـا للخُطب التـي كان يُلقيها على مسـامعنا مـن ظهيرة يـوم كُل جمعة لوجدنا أن معظمهـا كان ثوريـاً يهاجم فيـه أمريكا ويصفها بالشـيطان الأكبر ويتوعّدها بالانهيار، ولم تكن تلك الخطب بحـال تُدين النظام الحاكم على سياسـاته؛ وإنما كانت تتطابق مع شـعاراته المندّدة بالجبروت العالمي بقيادة أمريكا كما كان يصفها حين يمنحها عنوانهـا الأصلـي المُزايـد على خطـاب النظام في خصومتـه مـع أمريـكا، وهو مـا يؤكد لنـا بداهةَ أن السـلوك الصدري الذي نما اجتماعياً شـيئاً فشـيئاً في أجواء لوجسـتية مُلتبسـة إنما كان يجري ضمن اسـتحقاقات اللحظة التاريخية التي ترسـم نفسـها بنفسها.

وفـي الواقع، لم يتمـاهَ النظام مع ظاهرة الصدر ولـم يُرخِ حبالـه لها؛ بـل تعامل معها ضمن سـياق حملتـه الإيمانيـة فـي اسـتعمال الديـن سياسـياً، فيجـوز لنا أن نقول إنه تغافـل عنها أمنياً لفترة كان النظـام يطمح فيها أن يتعاضـد الجميع مع حملته الإيمانيـة لدعـم شـيوعها، فضلاً عـن أن العراقيين كانوا بحاجة مُلحّة إلى شـخصية مُلهمة كشـخصية (محمـد الصـدر)، شـخصية بديلة عن حالـة الخذلان الرمـزي للجماعات العراقيـة، فنجح الصدر في ذلك وتـوّج نفسـه زعيماً دينيـاً عابـراً للطائفيـة متجاوزاً للحدود التي تهدد النظام، فتمت تصفيته.

Obr Taxi
share the road
التطبيق الأوسع تغطية
بالعراق من الشمال للجنوب
حمّل التطبيق الآن
Download on the App Store
GET IT ON Google Play
EXPLORE IT ON AppGallery
Obr
share the road

مشكلات الفن التشكيلي العراقي في زمن الحصار

سهيل سامي نادر

مدخل

أودُّ أن أشير أولا إلى أن الحصار الذي فُرض على العراق كان عتبةً لحرب مدمرة، كما أن المفاعيل السياسية له لم تنتهِ بتطبيق قرار (النفط مقابل الغذاء)، بل استمرت في التأثير على جميع مناحي الحياة. وإذا اعتمدنا مفهوم (الحرب البروسي) القائل بأن الحرب استمرار للسياسة ولكن بوسائل أخرى؛ فإننا نجد في الحالة العراقية أن الحصار الاقتصادي يجب أن يصنّف ضمن الوسائل الأخرى. إنها حرب ذات وجه صقيعي، استهدفت العراقيين كلهم، وآثارُها تضافرت مع آثار التحطيم الحربي المباشر للمؤسسات العراقية لتنتهي بإيصال العراق إلى اللحظة الراهنة حيث الاحتلال الأجنبي وطوفان قوى ما قبل الدولة الهمجي.

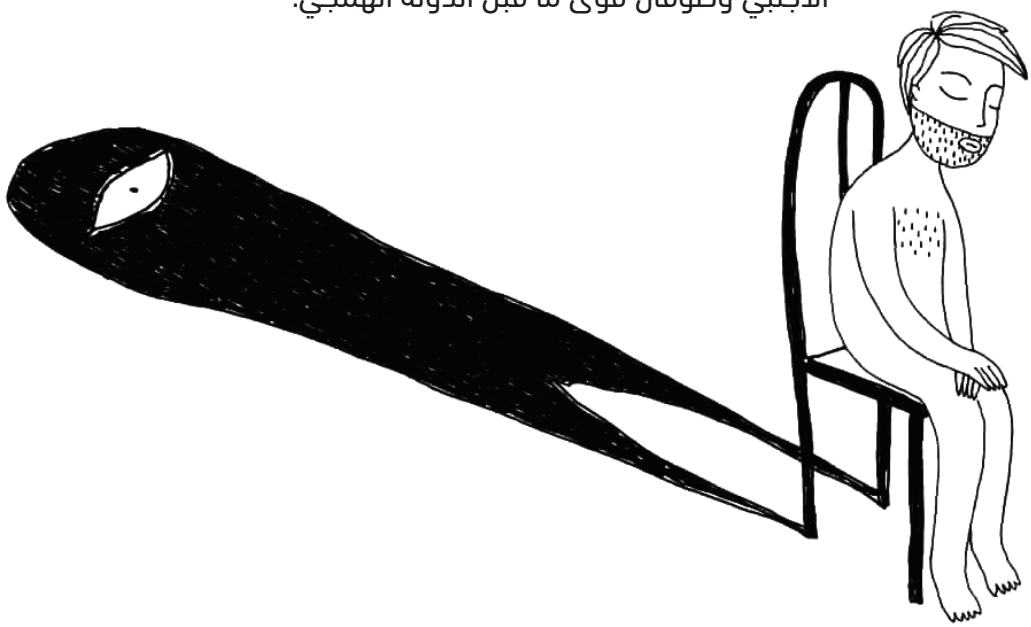

إن استعادة ما جرى في زمن الحصار من تأثيراتٍ على الفن العراقي يبدو في هذه اللحظة متأخراً جداً، وهو لن ينقذ شيئاً، ودعوني أحدد أنه لن يسترجع آلاف الأعمال الفنية التي سُرقت ومُزِّقت وحُرقت، كما لن يعيد مئات الفنانين الذين غادروا بلدهم، ولن يعيد لعوائل الطبقة الوسطى البغدادية مجاميعهم الفنية التي باعوها من أجل لقمة العيش. إن ما جرى هو عملية وئيدة في التبديد وإتلاف القيم الثقافية الوطنية، وانهيار حياة اجتماعية لا يمكن تعويضها. إن المتكلم شاهد يستعين بذاكرته ومعلوماته، وهو يدرك أنه يتحدث عن قضية اختفَت، وأن الاطار المجتمعي الوطني الذي قد يوظف كلامه من أجل المستقبل واستعادة الأمل، مفكّكٌ تفكيكاً يدعو للرثاء.

سأختار إذًا أن أتحدث عن تأثير الحصار على الحركة الفنية العراقية، ليس من خلال تلك التحديدات البائسة وتأكيداتها؛ بل عن طريق وصف تلك الأيام التي كان الفنانون فيها يقدِّمون إسهامهم المتوقع وغير المتوقع في مواجهة ظروف جديدة، وموقف الدولة من الحركة الفنية التي كانت هي الزبون الأول لها، ثم الطريقة التي تدخّلت فيها وهي ترى أن مؤسساتها الثقافية لم تعد تعمل كما كانت. وبوجه عام، سأناقش السلوك الثقافي المتولد من الحصار على شكل موضوعات محددة. وفي هذا السياق لستُ بحاجة إلى التأكيد أنني معنيٌّ بالفن التشكيلي الذي كان يُنتَج في الداخل.

استجابة الفنانين

إن العلاقة بين المناخات السياسية والاجتماعية والإنتاج الفني مؤكَّدة الوجود، لكن لا يمكن توقّع نتائجها على نحو محدد، مثلما لا نضمن أن تظهر في جميع الإنتاج الفني، وبنفس الأسلوب. لم يندفع الفنانون بعد الحصار الاقتصادي إلى تبنّي أفكار السلطة، ولم نسجّل أبدا ظهور أساليب تعبيرية ذات قيمة احتجاجية أو أفكار غريبة عن تقاليد الفن العراقي شبه الغنائية؛ بل إن الفنانين لم يتأثروا كثيرا بجو التعبئة السياسي الذي عمّمته الدولة على جميع مناحي الحياة. والحال أن الدولة باتت أضعف من أن تفرض عقيدتها السياسية، كما أنها باتت أقل كرماً.

وسنرى أن استجابة الفنانين العراقيين للحرب والحصار التحقت بالتقاليد الثقافية والجمالية السائدة أكثر مما أظهرت ردَّ فعلٍ مباشراً، ولعل هذا يعكس حيوية الحركة الفنية وتدريبها الثقافي العام، بيد أن عدم حصول انفراج حقيقي أدّى بالفنانين إلى اليأس والهجرة.

بعد حرب عام 1991 مباشرة، ازداد الاهتمام التقني والجماليات التجريدية لدى أهم الفنانين العراقيين الكبار، لكن عند عدد كبير من الفنانين الشباب بات ضربا من التبشير بأعمال يمكن أن تُقرأ ابتداءً من فك شفرتها الجمالية، واعتماد قراءة سيميولوجية للعمل الفني. كان حضور فنان كبير كـ(شاكر حسن آل سعيد) باهتماماته الثقافية المتعددة قد أعاد تنظيم المشهد الجمالي في سياق الفن المحيطي، وهو في حقيقته لون تجريدي تخترقه الرموز وأعمال التأويل.

في تلك الفترة، كان النقد الثقافي - وهو ضعيف أصلا - لا يجادل؛ بل يستسلم للأهواء وتصريحات الفنانين. وفي ما بعد، قمت أنا نفسي بتفسير هذا الاهتمام الجمالي بأنه مظهر من مظاهر الحرية الفنية يخفي تطلّعاتٍ في الحرية السياسية. ليس الاختيار التقني بريئا، مثلما أن الشفرة الجمالية بإمكانها أن تستوعب لحظة أدارت فيها السلطة رأسها إلى جهة أخرى. في ظروف معينة، تحظى الاختيارات الجمالية المجردة بقيمة رمزية عالية، وتكاد تكون لوناً من ألوان المعارضة الثقافية الهادئة.

إن افضل المَعارض الفنية بالمقاييس الحرفية أُقيمت عندما ضعُفت قبضة النظام السياسي بعد حرب 1991، وبالمقابل نتج عن ضعف المؤسسة الفنية الرسمية صعود نجم المشروع الحر المتمثل بصالات العرض الأهلية. إن النقاشات الأساسية الثقافية كانت تتم بين الفنانين أنفسهم، وضمن

شاكر حسن آل سعيد - جدار

تقديم المعارض، ولا تستجيب لمضامين اجتماعية عاجلة.

في عام 1997، قدّمت الفنانة (هناء مال الله) معرضاً جماعياً أسهمت فيه بأعمالها الفنية وضمّ نخبة من الفنانين الذين عُرفوا بفنّاني الثمانينيات. هؤلاء شهدوا حربين، وكانوا جنوداً، وقد ظلّوا في الداخل. في هذا التقديم، نقرأ أن فنّاني هذا المعرض تميّزوا بالخبرة التقنية، وأعمالُهم تمثل منجزاً مهماً لم يتأثر بفنّاني الغرب؛ نظراً للحصار والعزلة. لا أظن أن (هناء) أرادت أن تُسبغ الفضيلة على العزلة والحصار بقدر ما كانت مدفوعة بالحماسة والتحدي؛ لعلّها قالت ضمناً إن بإمكاننا تحصيل التعليم والثقافة بمعزل عن الغرب. والحال أن مثل هذا التقويم ساد في أيام الحصار ومثّل لوناً من ألوان العزاء، لكنه يثير مشكلة. في الأيام التي كانت فيها السلطة تستعرض توابيت الأطفال في الشوارع كشاهد على آثار الحصار، ثم تتحدى باسم العراقيين المبدعين وتعِد بالعبور إلى برّ الأمان بفضل صبرهم وإنجازاتهم، كانت هي المستفيدة الوحيدة من الحصار والعزلة، فكانت صناعة الأمل تجري عبر موقفين غير متماثلين.

الحصار - كما أرى - لم يوقف الإبداع الفني، لكنه أوقف التفاعل الثقافي، أوقف التكامل. المسألة ليست أننا نستطيع أن نُنتج ونحن في عزلة، بل كيف يمكن أن نضمن المزيد من التفاعل والتجديد في وسط ثقافي حر من الضغوط. إن تعبيرات التحدي تكاد تتماثل مع مطالب الحد الأدنى من الوجهة العملية.

في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، كانت استعارات المؤسِّسين الأوائل من فنّاني الغرب مؤكّدة، وهي تثير الفضول، والمؤكد أكثر أنهم أعطوا حلولاً ثقافية وفنية محلية ضمن هذه الاستعارات. إن تأسيس الحركة التشكيلية العراقية كلّه قائم على توحيد الاستعارات وضمِّها في نقاش جدلي إلى التعابير المحلية. في السنوات التالية، كانت الاستعارات (والتأثيرات المباشرة أيضاً) تمارس شكلاً من أشكال التثاقف، وكان يجري دمجها على هذا النحو أو ذاك في ما يدعى بالاتجاهات، ثم في الرموز الشخصية.

في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات، لم تعُد التقنية تتماثل - في الوعي الثقافي العراقي - مع ما في الفن الغربي كما كانت في مرحلة التأسيس؛

هناء مال الله - غرافك

فقـد ارتبطـت التقنيـة بتعدديـة الـرؤى ومفهوم التجربة الفردية. ما حدث في التسـعينيات، أي في زمن الحصار، أن التساؤلات اهتمّت بالإنجاز أكثر من اهتمامهـا بثقافياته، وهذا متـأتٍّ من العزلة، ومن الإنتاج للسـوق على نحو مباشر. وفيما عدا (شاكر حسـن آل سـعيد) و(هناء مال الله) وعدد قليل من الفنانيـن، لم يعُد الاهتمام الثقافي يشـكّل الرؤى ويثيـر التسـاؤلات؛ بـل نسـتطيع أن نلمـس ظهور عـروض جماليـة مجردة مما يقرّبها مـن التقنية. إن فنانـاً كبيـرا مثل (محمد مهر الديـن) تحوّل من فن نقـدي إلى نزعـة جمالية مجردة، وفـي خطوة غير متوقعة سيرسـم النحّات (إسـماعيل فتّـاح الترك) وجوهـاً طافحـة بالألـوان، بـل سيسـتخدم اللـون حتى فـي منحوتاته. إن الشـفرة الجمالية المجردة والاهتمـام التقنـي سيمارِسـان دوراً تعويضياً في حياة بائسة.

فـي سـنوات الحصـار، شـاهدتُ معـارضَ جيـدة جـداً في المقاييـس الفنية، وما زلـتُ أذكر معرض (الثمانينيّين) في عام 1999 الذي قدّمتُه بنفسـي وسـمّيتهم بجيل (نهاية القرن الماضي)، تسمية لا تخلو مـن حذلقة متعمدة. هذا الجيل ذاق الأمرّين وزُجّ في حربين، وعلى نحوٍ ما طوّر سياسـة جمالية قدّمت نسـيجاً مدروسـاً للعمل الفني، لكن بسبب خمول الحياة الثقافية ومخاوفها لم تنفتح إنجازاته علـى تجديـدات لها قيمـة ثقافية، وظلّـت أعماله تُضمِـر دلالات مثيـرة مـن دون أن تتفاعـل داخـل وسط ثقافي متماسك.

إن أحد مساوئ التفكير بألفاظ الإنجاز هو أنه يؤكّد المعنـى داخـل الصياغة الفنية وحدَهـا، وليس من تفاعـل هـذه الصياغة مع الوسـط الثقافـي. إنني أرى العكـس: أن وسـطاً ثقافياً متفاعـلاً هو الذي يطبع المعنى ويديمه، وهو الذي يؤسّس التقاليد والتوقّعـات ويُنتـج لغـة ممكنـة مقـروءة بعـض الشـيء، ممـا يرجّح ظهـور النقد وأعمـال التقويم بوصفهما جزءاً عضوياً من المشهد الثقافي.

لا فضائـل للحصـار، لكـن إذا كان ثمـة فضيلـة في سـياق الحيـاة الفنيـة فليسـت تتمثل فـي تطوير الإنجاز بمعزل عن التأثرات الخارجية، بل في إفلاس المؤسسـة الفنيـة والثقافيـة التي تديرهـا الدولة وعزلـة الفنانيـن عنها، إلى حد أنهـا منذ عام 1995 لم تسـتطع أن تنظّم معرضاً واحـداً جيداً، في حين

محمد مهر الدين - تخطيط

تكفّلت صالات العرض الأهلية التي وصل عددها إلى نحو عشر صالات بتنظيم معارض ممتازة في كل المقاييس الفنية. أقيمت معارضُ عديدة في الخارج أيضاً، ولاسيما في الأردن ودول الخليج، ورافق ذلك أكبر تسرّب وتهريب للأعمال الفنية إلى الخارج، وإلى دول الخليج بنحو خاص، لينتهي الأمر إلى تسلّل الفنّانين طلباً للهجرة.

الحقيقة أن السلطة التي اتخذت إجراءاتٍ للحد من تهريب الأعمال الفنية مارس بعضُ ممثّليها التجارةَ بالأعمال الفنية وبيعها.

مداخيل الفنانين

منذ أواسط التسعينيات من القرن الماضي، طرَحت صحافة غير مدربة على التفكير الثقافي قضيةَ (تسليع) الفن العراقي، بعد أن أثيرت قضايا تهريب الثروة الفنية إلى خارج العراق، واهتمام الفنانين بالمعارض التي تُقام خارج العراق من أجل بيع أعمالهم. هذه القضية طُرحت بمعزل عن المشكلات العينية الخاصة بالعرض والطلب على الأعمال الفنية، وارتباطها الثابت بمدى تبني المؤسسة الفنية واستقلالها، ومدى ازدهار الطبقة الوسطى المدينية التي تقتني الأعمال الفنية. ليس من الغريب أن هذه الصحافة راحت تدافع عن قيم الرأسمال الرمزي بينما كان الفنان صامتاً؛ فهدف الصحافة من هذا الطرح هو إحراج الفنانين وصالات العرض وفحص النيّات والضمائر. كان الفنانون أعرف بالمفارقة القائمة، وصمتُهم يرفع عنهم التصريح بمداخيلهم الفعلية. في هذه الفترة، استفتت جريدة (الجمهورية) رأيي بوصفي مهتماً بالحركة التشكيلية، فقلت إن الفنان لا يستهلك إنتاجه الفني، دعونا نقول إنه لا يتناوله كوجبة غداء أو عشاء، إنه يبيعه، لكن عملية البيع كانت تتم بطريقة يحافظ فيها الفنان على رأسماله الرمزي بوصفه منتجاً ثقافياً، وليس بائعا للحوم. إنه لا يبيع للسوق بالمعنى المبتذَل للسوق؛ بل لأشخاص عبر وسيط يمارس دوراً ثقافياً. كنتُ أنا

وجه ملون - نحت
اسماعيل فتاح الترك

الآخر أدافع عن تقاليد الرأسمال الرمزي من جهة دلالاته الأخلاقية، مع الأخذ بالحسبان الوجود الإنساني للفنان.

في تاريخ الرسم العراقي، لا توجد أية إشارة إلى مداخيل الفنانين من بيعهم لأعمالهم الفنية؛ لأنهم ببساطة كانوا مكفولين من قبل الدولة، وموظفين فيها كمدرسين وإداريين. (في كل الأحوال يحتفظ الفنانون بحقيقة مداخيلهم كأسرار شخصية). إن ما سمّي بـ «أب» الفن العراقي، وهو (عبد القادر رسّام)، وصفَه فنانون عديدون ومن ضمنهم الناقد (جبرا إبراهيم جبرا)، بالفنان المحترف. لماذا؟ «لأنه كان يرسم ليبيع». عاش هذا الفنان وعمل في نهاية العشرينيات وطيلة الثلاثينيات وحتى السنوات الأولى من الأربعينيات من القرن الماضي، أي في الفترة التي لم يتأسّس فيها الفن العراقي على أسس المناهج الحديثة والتمايز الثقافي، وهو يُميّز كفنان محترف من قبل الرعيل المؤسِّس. فهل

ميسان - زيت - واقعية
عبد القادر رسّام

يعني هذا أن الرسّامين المؤسِّسين بالمقابل غير محترفين؟ هل كانوا يُنتجون من أجل الترف؟ حتى هذه الساعة، لم أجد أي تعريف للفنان الهاوي، مع بقاء تعريف الفنان المحترف نفسه من دون تغيير لعشرات السنين. الواقع أن ذلك الاتفاق هو ضربٌ من تجلّيات الرأسمال الرمزي الذي يُحْيي مغامرا حرا قديما غادر المسرح ويمنحه شرف الاحتراف، بينما يغطّي على التعامل النفعي العادي لمصلحة القيم بالنسبة للأحياء.

إن السوق العراقية هي سوق ضيقة جداً، تتأثر بالمصادفات، والوضع الاقتصادي، وتطوّر الذائقة، أو بمواقف معينة للسلطة، أو ظهور جماعات شراء غير متوقعة، كالأجانب مثلاً.

في المعرض الأول لجماعة أصدقاء الفن عام 1940، جاء أكثر من نصف الطلب من الأجانب، والباقي تقاسَمه أعيان المجتمع ومن بينهم الفنّانون أنفسهم ودوائر الدولة. هذه النِّسَب هي نفسها سادت لفترة طويلة.

إن مَن يدرس هذه المسألة عليه ألا يغفل عن أن أكثرية الفنانين العراقيين إلى حد سنوات متأخرة هم من المكفولين، أي إنهم يعملون في دوائر الدولة ولاسيما التعليم. وابتداء من منتصف السبعينيات وحتى أواخر الثمانينيات، كانت الدولة تسهم في رفع الطلب على الأعمال الفنية، فكانت تشتريها لتعزيز المجموعة الدائمة في المتحف الوطني (مركز صدام سابقا)، أو لتقديمها هدايا لضيوف مهرجاناتها التي لا تنقطع، أو لتجميل دوائرها المهمة، وفي النهاية أضحت تشتري الأعمال الفنية، وتكلّف الفنانين بإنتاج أعمال بمواصفات معينة وبصفقات تشبه المقاولات. وفي عزِّ أيام الحصار، ظهر إلى الوجود ما أحبُّ أن أسمِّيه بـ(الذوق الرئاسي) في العمارة والفن، لكنّه في كل الأحوال ظل معزولاً ولم يُسهم فيه إلا الفنانون (الخردة).

لقـد كشـف الحصـار عن مسـاوئ سـوق ارتبطت بحاجـات التـرف، لكنه كشـف بالمقابـل عن الأذى الـذي أصاب الرأسـمال الرمـزي للفنانيـن؛ فالمنتج الثقافـي الذي كان لا يبحث عن السـوق ما دامت السـوق هي التـي تأتيه راح يُعدّ نفسـه إلى مرحلة جديـدة بات فيها هو الباحث، وبطريقة لا تخلو من إذلال.

كيـف كان يمكـن أن يعيـد الفنانـون إنتـاج حياتهم وقواهـم بوصفهـم بشـراً مـن دون ذلـك؟ كان الفلاسـفة الإغريق يقولون: «قبل التفلسُف، علينا أن نـأكل!» ليسـت هـذه - بالتأكيد - عربـدة معِدة جائعـة؛ بـل إقرار بالواقـع. لا يمكن تغطيـة الواقع دائمـاً بالرأسـمال الرمـزي؛ فهذا الأخيـر قد يتحول هـو نفسـه إلى غطـاء كامل، ولكـن مهلهَل، وفي اللحظة المناسـبة يظهر كفضيحة مؤذية، وهذا ما حدث.

لقـد قامـت السـلطة عـن طريـق صحفيّيهـا بنقد (التسـليع) باسـم الأخـلاق الفنيـة (مبـدأ المعاناة الفنيـة والعصاميـة والكفـاح والـروح الثقافيـة الوطنيـة!) نقـدا تجريديا أراد أن يغطّـي على واقع مأسـاوي راح فيه الجميع يبحث عـن لقمة العيش الكريمـة، بعـد أن خانتهـم الدولـة التـي كانـت قد كفلتهم طويلاً.

وبرزت في أثناء الحصار حالتان:-

الأولـى: حدوث خلل كبير في نظام الكفالة العتيد؛ فالرواتب لم تعُد تكفي لشراء أي شيء. والحقيقة أن الصحفييـن والكتّاب والشـعراء كانوا أسـوأ حالاً بكثير من الفنانين فيما يخص المداخيل.

الثانيـة: ظهـور محـاولات لدعم الرأسـمال الرمزي من خارج نظام الإنتاج، أي من خارج الجماعة الفنية المهنية، قامت بها السلطة لإحراج الفنانين.

ففـي الحالـة الأولـى، اندفـع الفنّان إلى السـوق، وإلـى تنظيم معارض خـارج العراق، وتهريب أعماله لكـي تبـاع في الخارج، أو العيش فـي الخارج. وفي الحالـة الثانيـة، جـرى نقدٌ أخلاقي مثير للشـفقة لا يُسمن ولا يغني من جوع.

ويمكـن أن نلاحـظ في الحالة الثانيـة وجود خطاب أيديولوجـي أراد أن يحـل محـل الرأسـمال الرمـزي المهنـي الـذي أصابـه الصـدْع، لكنـه خطـاب تافه اعتمد كلياً على صحافة معزولة ولم يسـتجب إليه إلا الفنانون أصحاب الحظوظ السيئة، أو مِن أولئك الذين لا يكفُّون عن الشـكوى والدفاع عن الرسالة الروحية السامية للفن!

مخططٌ عام ما بين الدولة والحركة التشكيلية

بعد تأميم النفط، والازدهار الاقتصادي الذي تلاه، تحسّـنت مداخيـل الفنان كثيـراً. وفضـلاً عن نظام الكفالة المشمولين به بوصفهم موظفين، قدَّمت لهـم الدولـة مسـاعدات غيـر مباشـرة، ولاسـيما أنهـا الجهـة الوحيدة القادرة على ذلك؛ إذ اشـترت أعمالهـم، وأحيانـاً اشـترت أعمـال معـارض كاملة ووزّعتهـا علـى دوائرهـا الثقافية وغيرهـا، وكلّفت مجاميـع منهـم بمشـاريع ذات حجم كبيـر، تمثّلت بإقامـة تماثيـل وصروح وأعمال فنيـة كبيرة وزِّعت في بعض المؤسسات.

إن واحـدة من إسـهامات الدولة في تطوير الحركة التشـكيلية فـي العـراق، والتـي أثّـرت بدورها في مداخيـل الفنانيـن، هـي إقامـة صـالات العـرض، وتنظيـم المعـارض الجماعيـة في الداخـل والخارج والمهرجانـات الفنيـة الدوليـة، والتكفّـل بإقامـة المعـارض الشـخصية للفنانين الذيـن كانوا من أكثر الفئـات المهنية الثقافية التي اسـتفادت من هذه المساعدة التي كانت منظورة ولا يمكن إنكارها.

المداخيـل الفعليـة للفنانين لم تكن أبـداً مطروحة إلا علـى مسـتوى ضيّق ناتج عن منافسـات فردية اعتيادية، بينما كان البيع والشـراء يجريان دائماً في شروط التقاليد التي ضمِنها القانون، إلا في حالات قليلة.

بعـد الحصـار الاقتصـادي، ضعُـف نظـام الكفالة، سـواء بالنسـبة للموظفين أو المتقاعدين، وشمِل هذا جميع فئات الشعب، أما الفنانون؛ فقد وجدوا

تخطيط
جواد سليم

في نهاية التسعينيات، لاحظتُ أن بإمكان خطاب أيديولوجي أن يوظِّف نفسه كخطاب مهني، وسط لا مبالاة كاملة. كانت هذه تباشيرُ إفلاس النظام السياسي الذي بات يدرك أنه عاجز عن الإقناع!

أنفسهم من دون عون. وعلى الرغم من ذلك، أستطيعُ القول إن استجابة الفنانين كانت حاذقة؛ فبعد أن غابت صالات العرض الرسمية، وانكفأ بعضُها ولم يستطع أن يجد في نفسه الكفاءة لتقديم عروض فنية ممتازة، استطاعت صالات العرض الأهلية التي انتشرت في بغداد أن تفيَ ببعض الاحتياجات وتعويض الخسائر، والحقيقة أنها نجحت على المستوى الفني نجاحها في عقد صِلات مباشرة وحرة مع الفنانين. ومن الواضح أنها تُعدُّ مشاريعَ هدفُها الربح، وهي في ذلك لا تختلف كثيراً عن صالات العرض في جميع أنحاء العالم، حتى في النِّسَب التي تأخذها من الفنانين لقاء بيع أعمالهم، علما أن أكثر زبائنها ليسوا من العراقيين.

والحال أن هجوم الصحافة بإيعاز من السلطة على التسليع اختار هذه الصالات بوجه خاص وأصحابُها ظلّوا صامتين. والأمر مفهوم؛ فالمعركة التي شُنَّت ضدهم بلا حيثيات محددة، وقاعدة النقاش فُرِضَت عليهم، والأسئلة أُعِّدَت لتُحرجهم، وما داموا متّهمين فعليهم أن يدافعوا، بيد أن موقفهم موضوعياً كان ضعيفاً؛ فقد ولِدت صالاتُهم في سنوات الحصار، ومن هنا فقد حُسبت ضمن الظواهر السيئة المتولدة عنه. لكن الأمر المثير هنا أن الفنانين الذين يَعرضون في هذه الصالات، يبيعون لها وتبيع لهم، غابوا تماماً عن النقاش.

في نهاية التسعينيات، لاحظتُ أن بإمكان خطاب أيديولوجي أن يوظِّف نفسه كخطاب مهني، وسط لا مبالاة كاملة. كانت هذه تباشيرُ إفلاس النظام السياسي الذي بات يدرك أنه عاجز عن الإقناع!

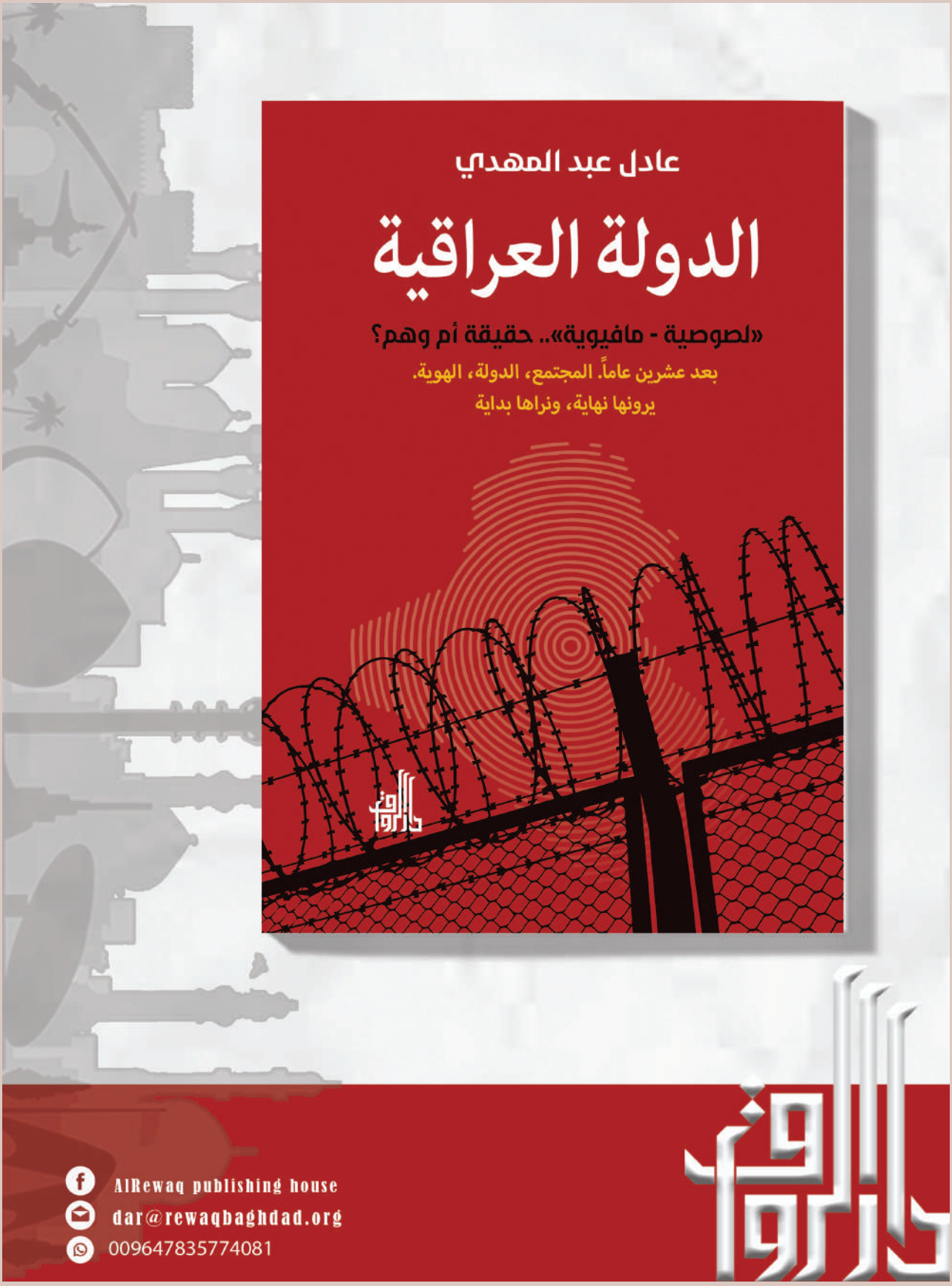
عادل عبد المهدي
الدولة العراقية
«لصوصية - مافيوية».. حقيقة أم وهم؟
بعد عشرين عاماً. المجتمع، الدولة، الهوية.
يرونها نهاية، ونراها بداية
AlRewaq publishing house
dar@rewaqbaghdad.org
009647835774081

ندوات
حديث الرواق
سلسلة الندوات الحقاقة في مركز رواق بغداد
للسياسات العامّة 2020 – 2022
REWAQ BAGHDAD CENTER
مركز رواق بغداد
دار الرواق
AlRewaq publishing house
dar@rewaqbaghdad.org
009647835774081

غناء الجوع .. وَموسيقى الفوضى ..

قراءة في فن الحصار الاقتصادي

د. نصير جابر

فجـأةً، ومثـل صفعـة صاعقة نزلـت على خـدّ المجتمـع - الهزيل أصـلا والمُرتبك من فواجع وكوارث سـابقة - فجـأةً فُرِض الحصار الاقتصـادي الذي كان تماما مثل حُكم بالإعدام على متّهم بريءٍ ينـازع في احتضار طويل ومرعب، ولكن كانت في روحه بقايا أمل، أمـل بالنجـاة من محرقـة الحروب والقمـع! ثمّة صفيـرٌ قتّال في الأجواء، ووحشة وتساؤلات يطلقها الناس بصمت وحذر وخوف: إلـى أين سـنصل مع هـذه الرعونـة الحمقـاء والطغيـان الحالك. مـاذا يعني هذا؟ هل سـنجوع حتـى الموت؟ هل سـنكون مجرّد متسـوّلين قرب الجسـور الآيلة للسـقوط أو تحت إشـارات المرور العاطلـة!! وهـل كنّـا بحاجة أصلا إلى هـذه الكارثـة الجديدة بعد حـرب طويلـة أكلت الأخضـر واليابس وغـزوٍ جنوني لجـارة آمنة وقمع غير مسبوق وإبادة جماعية لانتفاضة جريئة؟

الجوع يقترنُ بالحصار والرعب لتتحول البلاد إلى سجن كبير محاصر، في سنوات عجاف ستكون أشدّ سنوات العـراق الحديـث وجعا وظلما وخرابا منذ تأسيسـه عـام 1921م. إذ بدأ التفكيك المُمنهج لكلّ القيم الأخلاقيـة والمثل العليا، وقبل كلّ شـيء تفكيك الشخصية العراقية، فتحولت الأنظار - أنظار أجيال كاملـة - مـن الأنمـوذج التاريخي المثالـي المبهر إلى أنموذج رجل الشـارع بالدلالة السـلبية لمفردة (شارع)؛ فالشارع صار هو من ينتج لك الأيقونة التي عليك أن تتمناها حينما تكبر، حيث اللصوص والسفلة والمحتالون وأنصاف البشر من المهجّنين القتَلة!

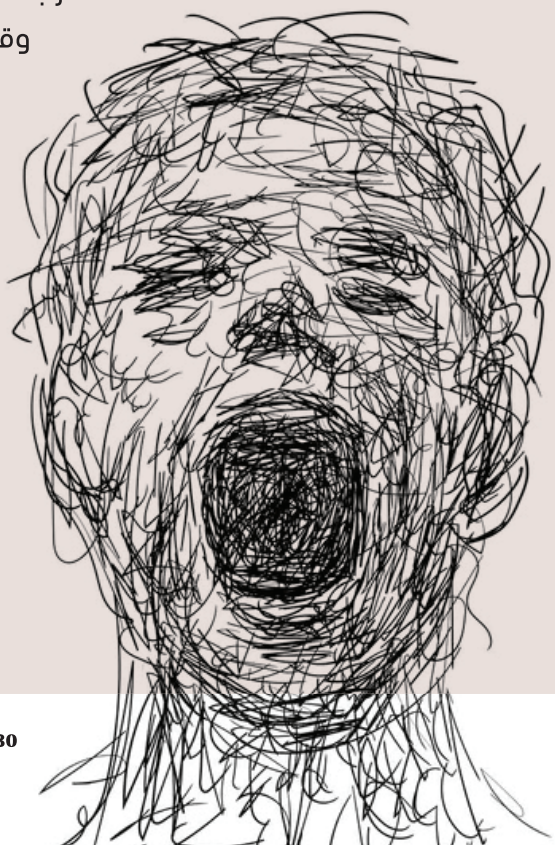

كان عليك أن تعيش بشراسة، أن توفر لقمة خبز ومسكنا وحلما في هذه البقعة الآسنة من العالم، فباع الأغلبية أثاث بيتوهم، وانتحر كثيرون انتحارا ماديا ومعنويا تحت هول صدمة الذلّ والجوع وتغيّر الأحوال من حال الى حال. في تلك السنوات بدأ الوباء الذي سيستمرّ طويلا، في بوتقة متناقضة تتفاعل فيها الأحداث على إيقاع جنائز الأطفال الذين فاق عددهم المليون طفل ممّن ماتوا جرّاء نقص الغذاء والعلاج، وعلى إيقاع الأعراس الجماعية التي كان يقيمها ابن الطاغية، الذي تقمّص دور (شهريار) في صالات القمار والنوادي الليلة التي انتشرت كالنار في الهشيم، وصارت مهنة مقبولة تحت ضغط الجوع الكافر والحاجة الملحّة.

وقتئذٍ افتُتِحَ (تلفزيون الشباب)، في خطوةٍ مُقترحةٍ من مستشاري (الطاغية) لفك أزمة خانقة، حتى لا ينفجر الوضع أكثر. وفجأة ذاب الرقيب الصارم الذي كان يقصّ أي مشهد أو كلمة خادشة للحياء؛ إذ سمح هذا التلفزيون بكلّ شيء، فظهرت مشاهد الجنس كاملة وعُرضت بعض الأفلام الممنوعة، في محاولة للإيهام بأنّ عصرا جديدا قد بدأ!! وأن ثمّة فسحةً في هذا الفضاء المرئي تناقض الفضاء الواقعي الذي بدأ يعصر الناس بين كفّتَي عتلة مسنّنة لا ترحم. ولكي يكتمل المشهد الموحِل، الآسن، المرتبك؛ ظهر الغناء الشبابي في موجة عارمة أريد لها أن تزيح بقايا الذوق المترسّب منذ أجيال عديدة. لا لحن ولا كلمات ولا مُؤدٍّ أو مُغنٍّ حقيقي، يكفي أن تمتلك بضعة آلاف من الدنانير العراقية المطبوعة في بيوت تابعة للدولة وكانت ميسورة للكثيرين جرّاء تضخم السوق لكي تكون مطربا، وتسجّل الأغنية مع فتاة بملابس فاضحة ومكياج صارخ، وتذاع ليلا، لتكون محل شهرةٍ يشار لك بالبنان بين جموع شباب خربٌ يعتاشُ أغلبه على الأعمال اليومية الشاقة في (بسطيّات) السجائر أو أعمال البناء أو أسواق الهرج أو تبديل وتصريف العملة، شهرة ستسمح لك بالعمل في الملاهي الليلة مع فرقة تختارها أو تُفرض عليك لتعيش، وربما تسافر في عرض مغرٍ مع اتفاق من متعهد لتكمل النجومية الزائفة.

على إيقاع الأعراس الجماعية التي كان يقيمها ابن الطاغية، الذي تقمّص دور (شهريار) في صالات القمار والنوادي الليلة التي انتشرت كالنار في الهشيم، وصارت مهنة مقبولة تحت ضغط الجوع الكافر

رقيب بلا دور

من المعروف جدا لكلّ متابع وباحث في تاريخ الغناء العراقي الحديث أنّ لجنة رصينة وعلى مستوى من المعرفة الموسيقية كانت تختبر الأصوات في منافذ الإعلام قبل أن تسمح لها بدخول هذا الفن، وكثيرا ما كانت ترفض العديد من الأصوات، بل إن أصواتا كثيرة تعتبر الآن من أعمدة الغناء العراقي كانت قد رُفضت ذات يوم من قبل هذه اللجنة الصارمة. ولكن هذه اللجنة كان عليها أن تعيش في وسط إرباك الجوع، وكانت لبعضهم مواقف ممّا حصل من تخريب مُمنهج للذوق العام، ولكن بالطبع فإن تلك المواقف بقيت شخصية ولا معنى أو دور لها في عالم صاخب يبدأ مع ساعات

الغروب الأولى، حيث تعجّ وتضجّ المسارح التجارية بالمسرحيات الهابطة التي كان لابدّ لها من فنّانين ومغنّيين يسدّون الثغرات التي تعتريها، فكان أن انتشر نسق الغناء الغجري، وامتلأت بهم الساحة الفنية، ولكنهم ليسوا غجرا من الذين نعرفهم مثل (حمدية صالح) و(ريم محمود) و(ساهرة بزيع) و(صبيحة ذياب)، بل هم غجر بلا مواهب ولا دراية موسيقية، مجرّد مؤدّين يبحثون عمّا يسدّ رمقهم، فكان أن حصل تنافس غير معلَن بين مغنّي تلفزيون الشباب ومسارح العاصمة، تنافس على الحفلات التي كانت تدرّ دخلا لا بأس به، ومن هنا زادت شراسة الحضور في تلفزيون الشباب الذي كان هو المدخل والملمح الأهم في تلك الفترة.

ففي كلّ أسبوع يظهر مطرب جديد، يركض أو يسرح في خياله في مشهد تافه وساذج وهو يؤدّي أغنية أو ما يُفترض أنها أغنية، فكانت الكلمات في أغلبها عبارة عن مبالغات فجّة تعتمد على التهويل العاطفي.

ويمكن إجمال ميزات تلك الأغاني التي ظهرت في تلك الفترة بمجوعة من النقاط، لعلّ من أهمها:-

أولا- اعتمدت 99 % من تلك الأغاني على الإيقاعات السريعة في نسقها اللحني، إيقاعات مأخوذة من التراث العراقي أو نقلا عن أغانٍ تركية شهيرة أو عالمية مميزة، ولكن بتصرّف آخر وتسريع يناغم الحياة التي صارت عبارة عن ركض مجنون محموم بلا جدوى، إيقاعات واضحة النشاز تعلو في كثير من الأحيان على صوت المطرب. واللجوء للإيقاعات في البنية اللحنية لأي أغنية هو محاولة لجلب أسماع المتلقي إلى شيء آخر غير الكلمات، التي كانت تعاني من ضعف وركاكة في أغلب الأحيان، فضلا عن إرباك المتلقي بالصوت وإبعاده عن المقاطع اللحنية التي تعتمد الآلات الوترية أو الهوائية.

ثانيا- انطماس مساحة التأمّل التي كانت تشتهر بها الأغنية العراقية الأصيلة؛ فالمتأمل لأغاني مثل (البنفسج) التي لحّنها (طالب القرغولي) سيجد تلك المقاطع التي تعوّد عليها المستمع العراقي قد تلاشت، وصار الهاجس هو طمس تلك المساحة والاشتغال على التسريع، بل إن المقدمات اختُصرت وصار الدخول للأغنية سريعا جدا.

تبدّل وتغيّر لغة الخطاب من حيّز الذوق الراقي إلى الابتذال السوقي؛ حيث دخلت المفردات السوقية والهجينة والمبتذلة إلى لغة الأغنية بحجة التحديث

ثالثا: تغيّر لغة الجسد؛ فبينما كان يظهر (سعدون جابر) و(حميد منصور) و(ياس خضر) وغيرهم في الأغاني وهم يقفون أو يتحركون بمنتهى اللياقة والهدوء، ظهر مطربو تلفزيون الشباب وهم يركضون بالمعنى الحرفي لمعنى الركض، حتى أن حلقة من برنامج كان يُظهر سباق الأغاني الفائزة سخرت منهم وظهرت تحت عنوان: لماذا يركض مطربو تلفزيون الشباب؟ أما ملابسهم والإكسسوارات التي ظهروا بها أو معها؛ فكانت تعبيرا عن الفوضى التي عاشها الناس آنذاك، إذ ظهر العشرات منهم بملابس رخيصة جدا لا تعبّر عن ذوق أو تشِي بإتكيت ما يسمح بالتفريق ما بين ملابس الشارع وملابس الفن. أما ما حولهم من أدوات أو خلفيات لونية أو ديكورات، التي كان المفترض أن لها دورا كمعادل موضوعي للأغنية؛ فقد كانت مجرد حشو لامعنى له في الأعم الأغلب.

رابعا: تبدّل وتغيّر لغة الخطاب من حيّز الذوق الراقي إلى الابتذال السوقي؛ حيث دخلت المفردات السوقية والهجينة والمبتذلة إلى لغة الأغنية بحجة التحديث أو بحجج واهية أخرى، منها أن الجمهور يريد ذلك، الامر الذي صنع موجة الابتذال

حميد منصور

والسـطحية اللحنية الهادرة التـي أريد لها أن تمحو تأريخ الغنـاء العراقي الحقيقي الـذي صنعَه (ناظم الغزالي), و(سـعدون جابر) و(رياض أحمد) و(حسين نعمة) و(فاضل عواد) وغيرهم، ليس من باب صراع الأجيال الطبيعي، بل من باب صراع الأفكار؛ فكانت تلك المرحلة قد ساهمت في جرّ لغة الفن الغنائي من مستوى إلى مستوى آخر ضَحل ومبتذَل.

خامسـا: تغيّـر وظيفـة الأغنيـة مـن الإطـراب إلى التخريـب؛ فالمفتـرض أن الاسـتماع إلـى أي أغنية هو فسـحة للعيش في أجواء من البهجة التي تريح النفس وتسـمو بها، إلاّ إن الأغاني تلك كانت ذات وظيفة مختلفة، فهي مهيّأة لتدخلك في حالة من الإرباك العاطفي والنفسي لتبعدك عن هم يومي خانق.

الاحتفاء بالخراب

لنـا أن نتصـور أن العراقي في تلـك الفترة 1990 - 2003 كائـن بـلا خيارات، خاضع تمامـا لما يقدّم له في سـجنه الانفرادي، فلا نوافـذ معرفية خارجية، لا صحف تدخـل ولا مجلّات، والكتب يعاد تدويرها (تُباع لمرات ومرات) حيث تنتشـر على الأرصفة في تجـارة رائجـة؛ لذا كانـت الأغنية في تلـك المرحلة لصيقة به، هي حلّه الوحيد في التنفيس عن لوعات السـجن، فـلا غرابـة أن نجد مضامين تلـك الأغاني تتجه إلى اللوم والتقريع الشـديد حتى مع الحبيب. فهي تتسـاءل عن حـال غرائبي وجدنا أنفسـنا فيه بعـد خـراب طويـل كان المفتـرض أن ننجـو منه أو نعبره على الأقل إلى فترة نقاهة.

فبينمـا كانـت الحبيبـة فـي أغانـي (يـاس خضـر) و(سـعدون جابر) و(قحطان العطار) و(فؤاد سالم) تتمتع باحترام شـديد وتبجيل لوجودها وتضحياتها؛ صـارت في موجة الأغاني الشـبابية مجـرد (غادرة، خائنـة، كاذبـة) تسـتحق أن تُفضـح وتُحـرق، وإلـى آخـر تلـك التمنيات المرَضيـة التي أنتجتهـا العقلية السـايكوباثية لكتّـاب الأغانـي، حيـث كانـت تُدبـج الكلمات فـي المقاهي والحانات على عجل لتُطبخ الأغنيـة فـي ساعات؛ فهنـاك سـباق وبورصـة أسبوعية لأجمل وأسـوأ أغنية، نعم هناك استفتاء يظهر الأغنية الأسوأ.

وهـذه الجزئيـة - أي بورصـة الأغنيـة الأسـوأ - تحيـل إلـى أن ثمة منافسـة قائمـة ومحتدمة بين مسـتويات الذوق ومسـتويات السـوء؛ ففي عام 1993 فاز الفنان (سامي قفطان) بأسوأ أغنية في اسـتفتاء أسـبوعي، فخـرج على الشاشـة بمنتهى الهدوء والشجاعة وقال: إذا كانت كلمات مثل ...

سافرت وتغرّبت وشفت الأرض مو إلي
واخسرت كلمة نعم.. وافقدت كلمة بلي

هيثم يوسف

ودرس الأخذته بكه
وشريان كلبي شبكه
وتالي العمر من ضعت
اعرفت قيمة هلي

إذا كان مثل هذا الكلام الذي يحثّ على التمسك بالوطن وعدم الهجرة، يفوز بأسوأ أغنية؛ فعلى الأغنية السلام.

في حين نجد أغنية (يا ناس ارحموا بحالي) لـ(هيثم يوسف)، وهي مبنيّة على عكس تلك الفكرة، حيث يهاجر حبيبه ويصبح الحزن موّاله الوحيد، ونرى فيها المطرب خانعا حائرا تشي لغة جسده بالبؤس والخذلان وهو يستعطف الناس ليرحموا بحاله، نجدها تصبح واحدة من (ترندات) تلك المرحلة.

ذاكرة استهلاك

تحاول الحياة أن تستشفّ من الفن بعض رونقها، أو إن شئنا الدقّة فإن الفن هو من يستشفّ منها ألقه ورونقه، وفي لحظات الحاجة الماسة حيث يتطلب الموقف أن تسترجع ذاكرتك مشهدا أو أغنية لتدعم موقفه الوجودي أمام هزّات العواطف والمشاعر، لابدّ أن تعود إلى أغنية. ولعل إحصائية بسيطة لعدد الأغاني التي ظهرت في تلك الفترة وكم منها باقٍ حتى الآن في ذاكرة الأجيال التي عاصرتها، ستكون النتائج صادمة؛ إذ لا ذاكرة تحتفظ بشيء من تلك الأغاني إلا ما ندر، لأنها بكلّ بساطة كانت مواد للاستهلاك اليومي لسدّ رمق الذوق المضطرب، فعشاق تلك المرحلة ذاقوا لوعات الحب على أغنيات (مهند محسن) و(حاتم العراقي) و(علي محمود العيساوي) و(رائد جورج) و(إسماعيل الفروجي)، وتشكّلت ذاكرتهم وقتئذٍ على معطياتها التي ربما تكون أجود ما أُنتج وظهر في تلك الفترة، ولكن السؤال الأهم: هل لجأ هؤلاء إلى أغانٍ عراقية لا تستطيع أن تتجاوزها الذاكرة؟ والجواب نعم؛ لأن تلك الأغاني كانت مصنوعة من عقول مختلفة وكتّاب مختلفين، ولعل تأمل حياة كتّاب الأغنية السبعينية سيكشف

من المنطقي جدا القول إن جيل التفاهة الذي يصعّد اليوم المقاطع التي تحثّ على التفاهة في منصات (السوشل ميديا) هو نتاج تلك الحقبة التي استمر خيطها بالنسج في مسارب الفن العراقي

انهم ذوو جذور فكرية ماركسية حرّضهم على إنتاج أشياء لا تاريخ لنفادها، ومثلهم أغلب الملحّنين والمطربين. لذا فمن الموضوعي جدا أن نقول إن كلاسيكيات الغناء أسّسها كتّاب ينتمون لليسار العراقي، بينما موجة أغاني الحصار كتبها (شعراء) كَسَبة، وهذا هو أهون توصيف يمكن أن نعطيه لهم؛ إذ كان أغلبهم من أصحاب أنصاف المواهب، يحترفون التلفيق الذي يلائم كل شيء، أغانٍ تُخبز على كَنَبات المقاهي وتحوَّر لمرات عديدة لكسب الدنانير من أجل الإسراع ببيعها لشراء كيلو سكر أو كيس معجون به ثلاث ملاعق صغيرة، فمثلما شاعت كلمات وتراكيب مثل (مرق الهواء) (حشو بطن) للدلالة على أطعمة لا قيمة لها ولا نوع، بل هي مجرد ركام لسدّ الرمق، كانت الأغنية كذلك مجرد ركام لسدّ رمق شارع وامق.

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن تلك الفترة قد أسّست لشخصية مشوهة لن يتخلص منها العراقي لعقود وأزمنة طويلة قادمة، كانت بنيتها النفسية المضطربة قد تشبّعت بفن هابط سيبقى أحد مكونات هذه الشخصية التي نعاني منها إلى اليوم. نعم قد تكون تلك الأغاني اندثرت، ولكنها غارت في بنية عقل وذوق ستفسده وتحرّفه؛ لذا من المنطقي جدا القول إن جيل التفاهة الذي يصعّد اليوم المقاطع التي تحثّ على التفاهة في منصات (السوشل ميديا) هو نتاج تلك الحقبة التي استمر خيطها بالنسج في مسارب الفن العراقي.

الجنوبيون المُحاصرون يبحثون عن مُنقذ

د. محمد عطوان

فـي أعقاب غزوه للكويت، وُضِعَ العراقُ (نظاماً وشـعباً) تحـتَ طائلة العقوبات الاقتصاديـة، حيث فرضت الأممُ المتحدة ذلـك عليه بموجب قرار مجلس الأمن المرقم (661) الصادر في السادس من أغسطس 1990.

واللافت في ذلك أن هذا الإجراء العقابي كان يُمثلُ نوعاً من المفارقة الأخلاقية في مسـيرة عمل الهيئة الدولية؛ نقـول (مفارقة أخلاقية) لأن العقاب طال كُلاً من النظام الحاكم والشعب معاً، وإنّا نلاحظُ فارقاً كبيراً بين ما كان يتخذه النظام مـن قرارات وبيـن مواقف الشـعب منها؛ فالقـرارات التي كان يتخذهـا النظام تتجاوز فكرة الاعتبار بمواقف الشعب منها، سواء أكان مؤيداً أو مناوئاً لها.

وعليه، كان خبراءُ السياسة والقانون يصفون ما قامت به الأمم المتحدة بأنه نوع من سياسة الكيل بمكيالين؛ فالازدواجية في المعايير جعلت من العقوبات المُطبّقة على النظام السياسي مدخلاً لشروع النظام نفسه بمعاقبة الشعب، مما يعني أنها ساندت النظام بطريقة أو بأخرى على تطبيق سياسات عقابية شملت أدق التفاصيل التأديبية الصغيرة في حياة الأفراد العراقيين اليومية، فكان أن أخذت العقوبات مستويين: مستوى رسمي مارسته الهيئة الدولية على النظام الحاكم باسم مُقررات مجلس الأمن، ومستوى آخر مسكوت عنه مارسه النظامُ السياسي نفسه على الشعب من الداخل.

ما كان يجري شكلٌ اتفاقي مُدبَّر من المُساومة بين «العالم المتحضر» ونظام بغداد، ما أعطى لصدام الاستمرارية في الحكم بدلاً من تغييره.

أولاً: الشعب هو المُستهدَف

كشف نطاق العقوبات الدولية عن حيلةٍ مخاتلة وضعت العراقيين العُزّل في دائرة من التأديب الرسمي المقصود، هذه الحيلة كانت تستهدف تحطيم مكامن القوى الجوهرية للشعب ولم تكن تستهدف النظام الحاكم الذي عُدَّ خطراً شكلياً في العنوان العام للمعاقبة؛ إذ في مقابل ذلك مُنحَ تفويضاً دولياً لمعاقبة العراقيين داخلياً، فكأن ما كان يجري شكلٌ اتفاقي مُدبَّر من المُساومة بين «العالم المتحضر» ونظام بغداد، ما أعطاه الاستمرارية في الحكم بدلاً من تغييره.

لذلك، بموجب التدبير الأممي السالف عمل النظامُ مدة اثنتي عشرة سنةً آمناً يُنفذُ ما يدعم

مصالح وأهداف القوى الكبرى، مُتبعاً في ذلك برامج ترويض للشعب؛ حيث عملت أجهزته العقابية في حينها على توجيه سلوكيات العراقيين بما يستهدف تطبيع إدراكاتهم عن الانتهاك والوجع والإهانة والخوف، وكان كُل ما يُتّبعُ في ذلك مُنظّماً ومكتوباً ومُعداً له بعناية دقيقة. لذلك طُبِّقت على الشعب أساليبٌ عدة من الضبط والمراقبة التي سنقدّر نتائجها وانعكاساتها كاستجابات خضع لها الأفراد لاحقاً.

لقد شمل التجويع عمومَ العراقيين، وشمل التأديب من كان منهم في السُلطة ومن كان في خارجها، ولا يسعنا هُنا أن نُلمّح إلى حالات معينة لنفرٍ حظي بمكاسب من السُلطة دون غيره، بل نشير فقط إلى السياسة المُطبّقة التي كانت تستهدف تحطيم أخلاقيات المُعاملة الإدارية مع العراقيين. وكان الحصارُ الاقتصادي المفروض دولياً يستثمره النظام العراقي بنحو غرضي كقضية «وطنية» شعبية عامة، فصورة الحصار المنبثّة من

وسـائل الإعـلام الرسـمية العراقيـة كانـت تعرض للعالم مشاهدَ من البؤس والتقشف والجوع على المستويات كافة.

ربمـا يذهـب البعـضُ إلـى تفنيـد مـا يدعـم فكرة التواطؤ بشـأن عمدية المعاقبة للشعب العراقي، سـواء مـن قبـل الجماعـة الدوليـة أو مـن النظام العراقـي الحاكـم، لكنّ التجويـع المُتّبع في الداخل قدّم صورة بشـعة صـار عليها حال الشـعب لاحقاً، راح النظـام - مـن جهتـه - يُظهرهـا بصيغـة إدانـة أخلاقية للعالم.

مـا طُبِّـق على العراقييـن من عقوبات بدا مُلتبساً بعض الشـيء فـي هـذه المُقاربة؛ إذ فـي الوقت الـذي تَحصَـل فيـه النظـامُ السياسـي المُعاقَـب عمليـاً على فُرص اسـتمراره ومبـررات بقائه بإرادة غربيـة، مارس - مـن جهته - نوعاً تعبوياً من الحملة الدعائيـة ضد الغرب، فعرض حالة العراقيين المزرية والبـلاد المنكوبة للعالم بأبشـع صورها، وبدا الأمرُ يأخـذ صيغة إدانة للعالـم الغربي أكثر مما هو إدانة للنظـام السياسـي نفسـه. لقد مـرر النظـامُ هذه العقوبـات سياسـياً بأسـلوب تضليلـي يرفـع عنـه حرج فداحة تنفيذها بنفسـه، فـكان يلقي باللائمة على الـدول الكبـرى التي فرضت الحصـار وأحدثت مـا أحدثتـه من خراب للـزرع والضـرع، ومن منطلق تلطيف هـذه العقوبات كان النظـام يمنح الأجواء التي مورست فيها بعداً دراماتيكياً.

ثانياً: التمرد الذي أعقب هجوم قوى التحالف

في يناير من العام 1991، شـنّت القوات الأمريكية وحلفاؤهـا هجومـاً شـاملاً علـى العـراق - تنفيـذاً لفرضيـة العقـاب المنصـوص عليها دولياً - ضمن عمليـات أُطلـق عليهـا مسـمى (عمليـات عاصفة الصحـراء لتحرير الكويـت)، وكان الهجوم قد تعدّى حـدود اسـتهداف القـوات العسـكرية المتواجـدة في الأراضي الكويتية ليشـمل تحطيم كامل البنى والمنشئات التحتية الحيوية من المصانع العسكرية والمدنيـة والمقار الأمنية والجسـور، وتدمير كامل المؤسسـات الإنتاجية والعمرانيـة الفاعلة للدولة، مـع ما أعقب ذلك مـن إصدار مجلـس الأمن لقرار رقـم (688) فـي الخامس مـن أبريـل 1991، الذي يقضي بجعل خطّي العرض (36-32) خطيّن عازلَين لمناطـق الشـمال والجنـوب، يحـددان حركة قوى النظـام فـي العاصمـة، فقد سـمح العـزلُ بحركة ضنينـة لهـذه القـوى ضمـن حدودها المُرسـومة، فجعلهـا ضعيفة وعاجزة عـن إدارة مجالها الحيوي السابق.

وفـي أثنـاء انسـحاب القـوات المتواجـدة فـي الكويـت فـي أواخر فبرايـر 1991، وبسـبب ضراوة التدميـر؛ حـدث في مطلع مارس من العام نفسـه مـا لم يكـن متوقعاً حدوثـه في الداخـل العراقي! لقـد خرج «الجنوبيـون» على سُـلطة النظام كنوع مـن الرغبـة فـي التشـفّي وإعـادة الاعتبـار للذات الجنوبيـة المتصدعـة، خرجـوا من قلـب المنازلات نفسـها، مـن المناطق التـي كانت سـاحات للحرب والتعبئـة والاسـتهداف والمـوت، مـن الأماكـن

الموصوفة بالتابعية والذيلية، والمستلبة من كُل امتياز سياسي وسيادي، أي: المحافظات الشيعية المحمّلة بأعباء الظُلامة تاريخياً.

لماذا خرج الجنوبيون بالتحديد؟ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في الخلل التاريخي والثقافي في الذاكرة الوطنية للدولة، حيث جماعات مخصوصة كانت قد تملّكت السُلطة وسادت، وأخرى أُقصيت منها واستُعبدت، هذا الانشقاق التاريخي ظل مستمراً بفاعلية في الخفاء، والسياساتُ والبرامج الحكومية والخطابات الثقافية والتربوية كانت تغذّيه بشكل أو بآخر. ففي الحروب التي خيضت باسم الوطن، كان الجنوبيون المقاتلين الصناديد المُبرزين فيها، ونذورهم المُقدّمة ودماؤهم المسفوحة دائماً. هذه التضحوية القائمة على نحوٍ من التمييز، غالباً ما كانت تسفر عن وجهها الصريح في بعض المواضع، فقد قامر النظام السياسي كثيراً في لعبة الوطنية العراقية، وكان الجنوبيون أحجارَها التي يتلاعب بتحريكها ويُفرِّط في استثمارها.

لقد تصرّفت القوات العسكرية المُنسحبة من الكويت مع جموع المنتفضين بضراوة في حينها، فكانت بمثابة الامتداد المتبقي من القوى العسكرية المؤتمرة بأوامر النظام، والتي تصاعد قمعها للمنتفضين على مرأى ومسمع من أعين وآذان قوى التحالف المتواجدة على مقربة من الحدث. ففي تلك الأثناء، وجد المنتفضون أنفسهم واقعين بين حدّين صِداميَّين دمويَّين: إيران في مقابلة مع الولايات المتحدة، وهذان الحدّان المتقابلان كانا يتحسبان وقوع صِدام وشيك بينهما، وكان التأهب واضحاً من جهة إيران على الأرجح، وكانا يدركان خطورة ما سيسفر عنه خيارُ المضي بعيداً في مسائل الحرب والتغيير، فكان أن تجنبا الوقوع في الصِدام، وعملا على تأجيل موعد التغيير إلى أجلٍ غير مسمى.

لقد كان أغلب المُنتفضين من العراقيين الشيعة، الذين كانوا يحملون شعارات أيديولوجية مدعومة بتأييدٍ إيراني واضح يحثّهم على شجب النظام البعثي والأمريكي تحت شعار: (لا شرقية لا غربية، جمهورية إسلامية)، وذلك يعني أن سياسات المواجهة الإيرانية كانت تتحيّن - عبر رفع هذا الشعار - فرص الإيذان بالمباغتة إذا ما تعرّض أمنها للخطر، وهي اللحظة التي كانت خارج الحسابات اللوجستية الأمريكية المصاحبة للجهد العسكري لعمليات تحرير الكويت.

جُنِّدت طاقات الشباب العراقي الجسدية واستعداداته النفسية في منازلاتٍ طويلةٍ طاحنة (حرب الخليج الأولى)، ومن بعدها زُجّ في مغامرة ارتجالية منفعلة أسفرت عن غزو الكويت

لذلك لم يُمضِ الإيرانيون بعيداً في مشروعهم الذي ابتدأوه للتشويش على زحف القوات الأمريكية صوب بغداد، ولاسيما أن الأمريكيين أدركوا وقدّروا خطورة ما سينجم عن تنفيذ هذا الأمر؛ لذلك لم يزحفوا - بحسب السيناريو المُشاع - نحو بغداد بما يكفي لاحتلالها، فآثروا الانسحاب على البقاء، كما لو أن فرصتهم السانحة للإطاحة بالنظام تقلّصت لجهة تفضيل فرصٍ أخرى عملوا من خلالها على إبقاء العقوبات على العراق مستمرة، وأمدّوا بعمر النظام السياسي - المُعاقَب - مدة الاثنتي عشرة سنةً المنصرمة التي قضاها مسيطراً على الشعب بالفعل.

الواضح أن الشباب العراقي جُنِّدت طاقاته الجسدية واستعداداته النفسية في منازلاتٍ طويلةٍ طاحنة (حرب الخليج الأولى)، ومن بعدها زُجّ في مغامرة ارتجالية منفعلة أسفرت عن غزو الكويت (حرب الخليج الثانية)، التي كانت قراراً سياسياً مستعجلاً لبلد خارجٍ للتو من ملابساتِ حربٍ استنزفت قواه كُلها، مع ما وقع على أولئك الشباب من بطش

عسكري أمريكي فضيع وعالي التأثير جرّاء هذا الغزو، وما واجهوه لسنوات وهُم يدخلون برامج العسكرة الشعبية ويتشربون نداءات المعارك في المدارس ومراكز التعبئة الأيديولوجية. أولئك الشباب شعروا موضوعياً باختلال العلاقة العضوية مع النظام، وبضرورة الانفصال الحتمي عنه، بالرغم من خضوعهم الفعلي لأوامره السيادية وامتثالهم لسياسات التجويع والمراقبة.

بدأ «الشباب الجنوبي» الخارج من تنانير الموت إلى أفواه الجوع يتلمّس وعيه الأولي بالذات، ويحاول إيجاد صيغة ممكنة للعودة إلى «وضعه» الطبيعي.

هذا الانفصال العضوي لم يكن يمثل نزعة شعبوية انفعالية للتحرر؛ بل كان هاجس مقاومة بدأ يتشكل تحت تأثير سياسات الضبط والمراقبة التي رافقت الهزيمة، وكانوا يعيشون فيها أحوال ولادة هذا الهاجس المقاوم ونموّه؛ لذلك بدأ «الشباب الجنوبي» الخارج من تنانير الموت إلى أفواه الجوع يتلمّس وعيه الأولي بالذات، ويحاول إيجاد صيغة ممكنة للعودة إلى «وضعه» الطبيعي.

ولا أتحدث في هذا الموضوع عن مثقفين أو عن فئات وشرائح نخبوية عالمة تبحث عن حلول ممكنة لأزمتها مع النظام فحسب؛ وإنما عن أناس عاديين عفويين حرصوا على ضرورة الإبقاء على آخر حجر سليم في بنيان الذات البشرية، خلاصته الحفاظ على شيء من إنسانيتهم في الأقل. فالمؤسسات الثقافية التي كانت تتبناها الدولة لم تعد ذاتها الحاضنة الملائمة للمثقفين المشتغلين على صناعة المعنى، فكما تآكلت الدولة تآكلت المؤسسات الثقافية فيها. لذلك؛ فالناس العاديون الواقعون وسط هذا التيه هُم من أعطوا ظهرهم للدولة بدرجة كبيرة، وهُم من بحثوا عن بديلٍ لها.

ثالثاً: صعود ظاهرة محمد الصدر

في أثناء التصادم الشعبي العنيف مع السُلطة، وعندما رفع الشعب صوته عالياً لأول مرةٍ، راح الجنوبيون - عقب ذلك - يتداولون سيرة رجل الدين الصاعد (محمد محمد صادق الصدر) (1991 - 1999)؛ فقد سمعوا عنه فأبهرتهم سيرته المغايرة لسيرة رجالات الدين التقليديين المعروفين في الأوساط الفقهية. كان سلوكه متقشفاً في الهيئة والجوهر، ولا سُلطة له سوى سُلطة الاختلاف عن السائد من نظرائه، كما عُرف بانفتاحه على كُل ما هو شعبوي (اجتماعي مرذول، وأخلاقي متنحٍّ، وثقافي مسكوت عنه). لقد مثّل ظهورُه للجنوبيين- وهو يواجه سياسات الحصار - المطرقةَ الشعبية التي يمكن من خلالها تحطيم جدران النظام، فكان يُمثل طاقة الشجب والخروج على طوق السُلطة. لقد ذاب الجنوبيون في ذاته والتحموا به، فكانت لحظةُ الانفصال عن سُلطة النظام ذاتها لحظة الالتحام العقائدي بكينونة المرجع «الجديد».

لماذا بدت هذه العلاقة قائمة على الانفصال والاتصال؟ وما الذي كان يحضّ الغالبية من الجنوبيين على دعم حضور الصدر والنفخ في صورته؟ لعل الأمر برمته يكمن في طبيعة العلاقة بين الشعب والسُلطة، وبين الشعب والصدر أيضاً؛ فعلاقة الشعب مع السُلطة ومع الصدر قائمة في الأصل على معنى من معاني الاغتراب، علاقة متحفّزة ونابتة في صلب الوعي والعقل والسلوك الاجتماعي للجنوبيين، فكان انتقالهم وتغرّبهم من وضع إلى وضع آخر هو أقرب إلى شيء من الماورائية والتجريد منه إلى الدُنيوية المُدركة لاشتراطات الواقع المادي الصرفة.

إن إبدال الصدر بالنظام البعثي كان يُناغم حاجة ووعي الأفراد المُحاصرين بالتجويع والمراقبة،

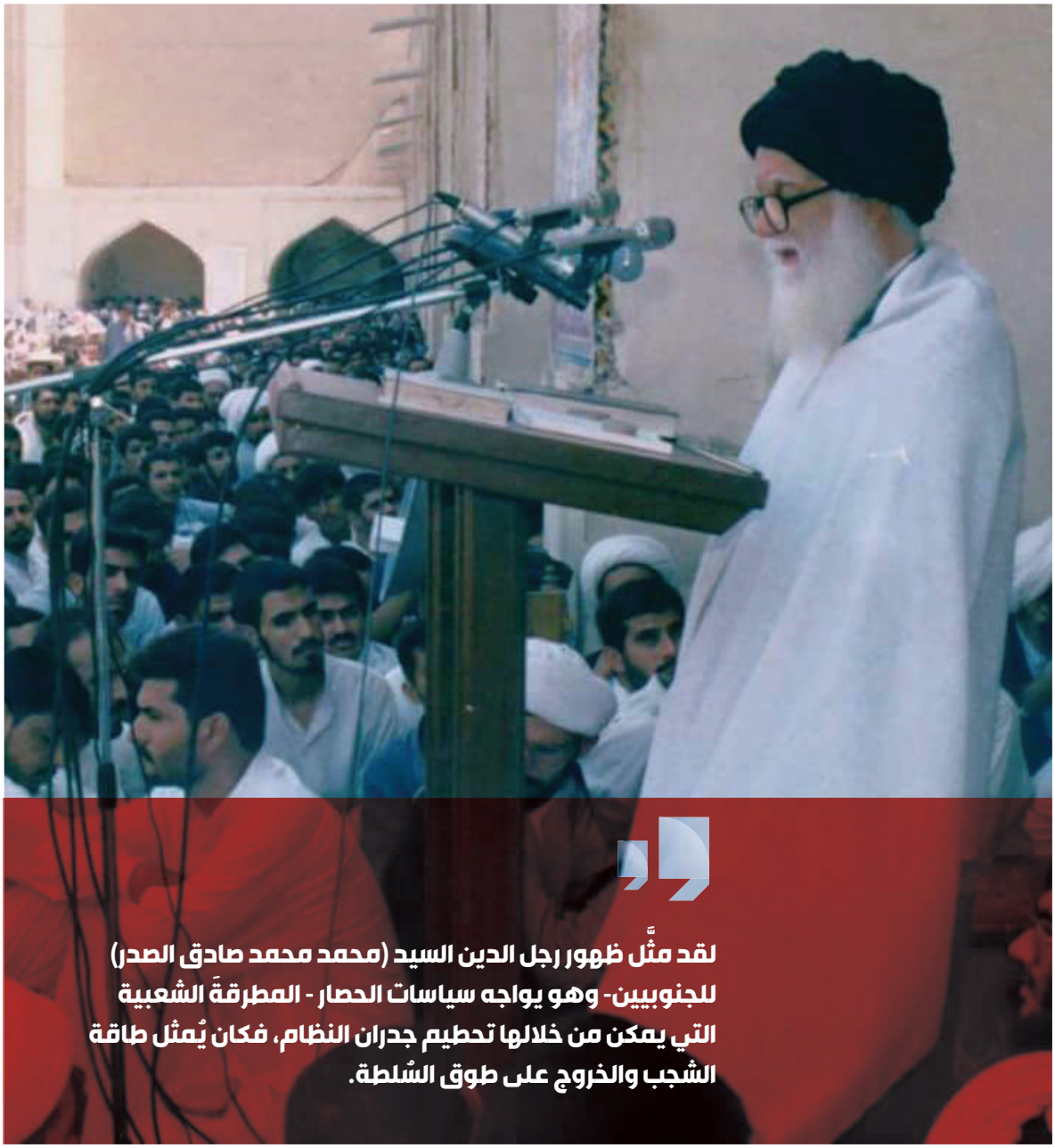

لقد مثَّل ظهور رجل الدين السيد (محمد محمد صادق الصدر) للجنوبيين- وهو يواجه سياسات الحصار - المطرقةَ الشعبية التي يمكن من خلالها تحطيم جدران النظام، فكان يُمثل طاقة الشجب والخروج على طوق السُلطة.

وكان يُعمّـق وعيهـم بالحالـة الخانقـة التـي هُـم عليهـا. لقـد صـار «الصـدر» البديـلَ الموضوعـي الدينـي والاجتماعي والثقافـي «المقاوم» لفكرة غيـاب المعنـى، ولعلـه البديل الذي لـم يكن ليزيل الألـم الناجم عن تـآكل هذا المعنى إجمـالاً، ولكن كان التعبيـر المتوفر عن الحضور في صلب الغياب، فكانـت صورته صـدى عالياً لتشـخيص حالة التآكل البادية على الأشياء.

كان «الأفـراد الجنوبيون» - إن جاز لنا أن نُسـميهم أفـراداً فـي هـذه الظـروف - لا يُميـزون فـي خياراتهـم السياسـية الصريحـة بيـن نُشـدان فكرة وجودهـم الكامـل عبـر ارتباطهـم بوجـود مرجعي أعلـى (أيديولوجية دولتيـة مُتعالية، أو فرد مُلهِم)، وبين فكرة إشـباع حاجاتهـم الحيوية الصرفة، فهُم مغتربـون! وإن معاينة الفكـرة المُتعالية أو معاينة الفـرد المُلهِـم عندهـم كانت تعنـي الرغبـة العُليا

والانتصار الأكبر للقلب؛ لذلك كانوا يَنشُدون وجودهم وانتصارهم بتضخيم فكرتهم عن الدولة التي أجهزت سياسات النظام على مكتسباتها، وهاهم ينشُدون - في زمن الحصار والعقوبات - تحرير وجودهم وانتصارهم عبر أنفاس «الصدر» الصاعد في حينه.

كانوا يُقيمون علاقاتهم فيما بينهم بغية التواصل مع وجودات يتخيلونها مُناطة بقدراتٍ أرفع من قدراتهم المادية (سواء كان الأمر في أيديولوجية مُتعالية أو في بطلٍ رمزي)، وهذه المرة كانت العلاقة مع وجودات من طبيعةٍ بشرية، ينفخون فيها ويضخمونها شعبياً، وما يجبرهم على النفخ فيها هو رغبتهم في رؤية ذواتهم المذروّة في الرياح متجمعةً ومتساميةً على ما هو تاريخي ثقيل، أي: يرونها متسامية على الجوع، والخوف، والموت ... الخ، ومن ثم يقترحون صُورة ذِهنيّة مخصوصة عن أنفسهم وعن انتصارهم الشخصي وسط هزائمهم المتعاقبة، يقترحونها من خلال تخيّلهم للدولة المنشودة التي كانت تآكلت بحكم التجربة، أو من خلال ذات «الصدر» الصاعد في حينه، ومن ثم يحاولون تقريب الصورة من الواقعي بغية تحرير كُل ما هو ثقيل وتاريخي مُر، وهُم إذ يفعلون ذلك فإنهم يفعلونه بطريقةٍ خارجية وتفكيرٍ تغرّبي، من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء الخوض في عالمٍ تجريبي له تكوينه المادي الصرف. بمعنى أن السعادة - التي كانوا يتطلعون إلى بلوغها - كانت تتشكل في رؤية ذواتهم داخل كينونة متخيّلة، لا كما هي في الواقع ضئيلة وهزيلة ومقموعة.

هذا المعنى المُراد تحقيقه عند الجنوبيين هو محاولة لخروجهم من محبس الذات الجماعية البعثية إلى رحاب العالم الخارجي المُجرَد، حيث «يتموضع» القدسي فيه. فليس غريباً أنْ الدولة كانت تمثيلاً للقدسي في حياة «الجنوبيين» يوماً من الأيام، أي الدولة التي عاشوا يفكرون فيها على أنها دولةُ حلمٍ ومثال، كما أنه ليس غريباً أن يتجلى «القدسي» عندهم عبر ذات متعالية، هي ذات الفرد المُختار والمحتفى به في الواقع.

لقد كان «الصدرُ» هو المثال الشعبي الشيعي البديل عن صورة الزعيم الجماهيري القاهر والمنهزم في آن. لقد تهتكت صورة (صَدّام حُسين) في أذهانهم، ورأوا ضرورة إبدال صورة جديدة بها؛ فالنقص الذي كانوا يرغبون في تعويضه كان يُحققه الارتباط بالروح المُطلَق المُجرد، ومن ذلك راحوا يمنحون «الصدر» مقاماً من الروحانيّة والقدسيّة الدينيّة.

و«الجنوبيون» عندما راحوا يرتبطون بـ «المطلَق» - بحسب المقولة الفيورباخية -، كانوا يفعلون ذلك من باب تقديس مشاعرهم الخاصة ابتداءً ولا يفعلونه لشيء آخر، وبذلك فإن وعيهم بالذات كان يتشكل من منطلق تجريدي للوجود. بمعنى أن شخصية «الصدر» الحية الواقعية كانت الصورة المُكبَّرة في أذهانهم كما كانت صورٌ أخرى متخيّلة ومُكبَّرة من قبل.

سعادة الجنوبيون تتشكل في رؤية ذواتهم داخل كينونة متخيّلة، لا كما هي في الواقع ضئيلة وهزيلة ومقموعة.

إذاً؛ فـ«الجنوبيون» عندما ربطوا أنفسهم بعلاقة تغرّبية مبنية على الحاجة والنقص إنما كانوا يُعبّرون عن علاقتهم بالعالم البديل الذي يصنعونه هُم لأنفسهم، وكان يتم ذلك لهم من خلال مخرجات ونتائج أذهانهم، أو ما تصنعه أيديهم. بمعنى أنهم كانوا يصنعون تَصوّراتهم ذاتياً عن فكرتهم أو عن مثالهم المُتعالي (عندما يحوّلون المصنوع البشري إلى قدسي ومُتعالٍ)، فصنعوا وغرّبوا ذواتهم به، وحوّلوا مشاعرهم إليه، ثم قاموا بالامتثال لما صنعوا وما أضافوا إليه من خصائص حياتهم؛ فبدلاً من معاملة ذواتهم كخالقين له، شرعوا بطاعته، وخضعوا له عبر خلع ذواتهم عن جوهرها.

مـن هُنا اقتربت فكـرة الارتباط بالـ «قدسـي» من فكـرة الارتباط بالفـرد «الأعلى» كمُقاربة تتشـكل بنحو خاص، وهي ارتباط "الجنوبيين" من جهة الجنس بفرد من سـويّتهم، والفرد في هـذه المُقاربة كان (الصـدر)؛ لأنّه فردٌ مُلهِمٌ لهم، وإلهامه كان يَفترض جمهـوراً من أفراد عاديين مُرتبِطيـن بعلاقات دالّة يقدِّمـون لـه فـروض الطاعة، وهـي علاقات جرى تمثيلها في الواقع السياسي والاجتماعي المَحلّي عندمـا فوضـوا شـؤونهم العامة إليـه. وهُم بهذا المعنـى مـا كانوا جماع أفـراد فاعليـن؛ وإنما كتلة مصمدة يوجهها الفردُ الأعلى/أو المُتعالي الوجهةَ التي يشاء.

يُستدام وجود الفرد باجتراح وجود رمزي لا حدّ لسُلطانه، وجود مُفارق لوجود الأفراد العاديين، مِثالي يبعث فيهم الروح، ويُلهمها، ويحملها لا إرادياً معه وحده

لذلـك تحوّلـت الفكـرةُ القديمـة للـولاء والانتماء والإيمـان من مسـتوى الـولاء والانتمـاء والإيمان بمعطـى جماعـوي (أيديولوجيـا الدولـة) إلـى مسـتوى الولاء والانتماء والإيمـان بمعطى الفرد المُجـرَد. فبـدلاً مـن أن يقـدّم النظـامُ التضحـوي الفـردَ في التَصوّر البدئي قرباناً للقبيلة أو الطائفة، أصبـح "الجنوبيـون" أنفسـهم فـي علاقتهـم مـع الصـدر قربانـاً للفـرد المُتعالي علـى فرديته. هكذا اختزلـوا وجودهم (بوصفهم بنيـةً مؤلَّفةً من أفراد مُنسـلبين) فـي فـردٍ «أعلـى» و«كينونـةٍ نائيـة» متجاوزة لكُل تجربة مُمكِنة، تجربة جعلت - بطريقة مـا - من ذلـك الفـرد النائـي والمُتجـاوز يتأرجح ما بين سـمو ودنو، وإخفاء وكشف، وطمس وإظهار، وتجريد وتَجسُّـد فـي مُقاربـة الواقعـي بالطوبى؛ والغـرض مـن ذلك كُله كان الحفاظ على مسـتوى مُبهم وجليل ومُقدّس من هذه العلاقة ينتشـلهم من أوضاعهم السـيئة. وهكذا يُستدام وجود الفرد باجتراح وجود رمزي لا حدّ لسُـلطانه، وجود مُفارِق لوجـود الأفراد العاديين، مِثالي يبعث فيهم الروح، ويُلهمهـا، ويحملهـا لا إراديـاً معه وحـده، يحملها بقوّةِ "السـحر" المؤثرة على المعنـى. هذا الوجود المِثالـي المدعـوم بشـعورٍ جماعـي يتعسَّـر معـه اسـتيفاء الدَيـن، ما يجعله متسـامياً على وجود ما هو واقعي فانٍ.

من هُنا، وعند هذه النقطة بالتحديد، لم يكن يسَـعُ "الجنوبيين" إقامـة علاقتهم مع هذا الوجود على أنّهـا علاقـةٌ شـبيهة بتلك التـي تنبت بيـن الأقران والمتسـاوين؛ فذلـك مـا كان يتعـارضُ مـع صدى الفكـرة التغريبيـة فـي أعماقهـم، فـكان أن أضفوا عليـه صفات مـا ورائيـة، وحوّلوا علاقتهـم به إلى علاقة بمتسـامٍ، فأصبح المنطقُ الـذي ترتكز عليه علاقتهم بـ(القائد، القطب، الشيخ، الزعيم، المرجع، الغـوث...) هو منطق التقديـس لا الفهم، بمعنى أنّ صيغـةَ الاتفاق في هذه العلاقة هي تلك التي يفتح فيهـا الفهمُ باباً رحباً علـى التقديس، فيصبح التفاهـمُ علـى قبـول ما هو خطـأ صوابـاً بإطلاق، وعلى عدِّ ما هو هلاك ومحو وإبادة في المنازلات والوقائع الكبرى مبتغًى ومنًى للمريدين والأتباع.

لذلك بـدَت علاقتهم بالفـرد «الأعلى» و"الأعلم" أو الفرد المُتخلّـي علاقةً محكومة بمنظور مثالي، يتمركـز رمزيـاً فـي "الـذات الجنوبيـة" الجماعيـة، وهـذه "الـذات" لـم تكـن لتتحقـق مـن دون هذا التمركّـز؛ لذلـك اغتـرب الأفـراد "الجنوبيون" ضمن هـذه العلاقة مرتيـن: اغتربوا في إطـار جنوبيتهم، ثـم اغتربوا في ذات الفرد الأعلـى. وهذا الاغتراب فـي حقيقته منظور أيديولوجـي كان يقلبُ الواقع بخـلاف مـا تـراه الرؤيـة الواقعيـة للعِلـم؛ فالعِلمُ لا يعكـسُ الواقـعَ، ولا يُعيـد تمثيلـه، ولا يدّعـي كشـف «الحقيقـة» كاملة إذا ما قـورن بما تفعله الأيديولوجيا.

مقال

الحربُ التي أهملَها العالم

المواجهة العسكرية الباردة بين الولايات المتحدة والعراق (1991 - 2023)

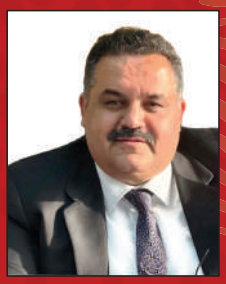

قيس قاسم العجرش

تسبب العراق، عن قصدٍ أو غير قصد، في ولادة مفاهيم عسكرية جديدة تبنّتها الولايات المتحدة في تعاملها مع أمنها القومي. وجاء الغزو العراقي للكويت، مع نهاية الحرب المُتعبة التي سمّيت بالحرب الباردة، لتوقظ لدى واشنطن حسّاً أمنياً وعسكرياً من نوع خاص لم يسبق أن جرّبته خلال المواجهة الكونية الطويلة مع الاتحاد السوفياتي، التي كانت تشبه مطوّلات قصائد الشعر الملحمي إلى حد كبير. وقد شكّلت المواجهة بين الولايات المتحدة والعراق، في مرحلة ما بعد انسحاب القوات العراقية من الكويت، تجربةً فريدة ساهمت بعمق في تشكيل هويّة الحرب المعاصرة التي باتت تتبناها القوى العظمى، فضلا عن بناء جيوشها التقليدية وقدراتها العسكرية وفقاً لمعطياتها.

تمكّنت الولايات المتحدة من سحق كتائب وألوية كبرى من الجيش العراقي خلال عملية طرده من الكويت، وتشير عشرات المصادر والمذكرات الشخصية إلى أن قرار هيئة الأركان المشتركة، وفق ما خطّط له الجنرال (كولن باول)، اقتضى ألّا يقتصر الهدف على إخراج القوات العراقية من الكويت، وإنما الهدف يجب أن يكون وضعها في (منطقة ضرب) داخل الكويت نفسها، لأن عسكرياً متمرساً مثل (باول) أدرك أن الولايات المتحدة لن تنال فرصة أخرى مثل هذه الفرصة لتحطيم آلة عسكرية سبّبت الإزعاج للهيمنة العسكرية الأميركية في أوقات زهوها بالانتصار في الحرب الباردة بلا اضطرار لخوض حرب مباشرة أو نووية مع الاتحاد السوفياتي. ويبدو أن النظرة الاستراتيجية التي تحلّى بها المخططون العسكريون الأميركيون خلال عملية عاصفة الصحراء/1991 قد ظهر فيما بعد وعبر السنوات (1991 - 2003) أنها كانت تسبق فهم الإدارة السياسية الأميركية لملف العراق بمراحل. أنقل هنا في هذه الجزئية عن الجنرال (تشاك هورنر) (Chuck Horner)، وهو معاون الجنرال (نورمان شوارزكوف) لشؤون الأهداف المنتخبة لعمليات عاصفة الصحراء، إذ يقول: "إننا لم نكن نتحدث عن عزل مسرح العمليات ومنع وصول الإمدادات له، بل كنّا نتكلم عن عزل الحرس الجمهوري ومنعه من المغادرة بالأصل. أظن أنني لو استرجعت ما حصل آنذاك، أجد أن (باول) كان قلقاً جداً إزاء هذا الموضوع ... وأظن أن (شوارزكوف) وعد (باول) بأنه سيعمل على محق الحرس الجمهوري".

أدرك المخططون العسكريون الأميركيون أنهم إذا تركوا وراءهم قدرة عسكرية (معقولة) يتمتع بها نظام صدام بعد إخراجه من الكويت، فإن هذه القوّة ستتسبب في المستقبل القريب بما يأتي:-

1. ستضطر القيادة المركزية الوسطى الأميركية أن تعزز وجود قواتها البرّية الهجومية في منطقة الخليج (برّاً) بمعدل لا يقل عن فرقة محمولة جواً، وبجهوزية عالية.
2. ستضطر هذه القيادة أن تُبقي عيناً عسكرية على العراق، بما يشكّل مظلة جوية مستدامة، وهو أمر مكلفٌ للغاية وبحاجة إلى ترتيبات كبيرة.
3. ستضطر الولايات المتحدة بكل رأسمالها السياسي، أن تجد سبباً أممياً آخر يتفق بشأنه باقي أعضاء مجلس الأمن الدولي، وحتى القوى الكبيرة من خارج المجلس، كي تحتوي العراق عسكرياً، أو أن تأخذ منهم الإذن كي توجّه ضربة عسكرية لاحقة من أي نوع وحجم.

هذه الملاحظات وضعها الاستراتيجيون العسكريون الأميركيون أمام إدارة بوش الأب، لكن القرار السياسي جاء من البيت الأبيض بأن العملية ستكتفي بطرد صدّام من الكويت، وإيقاع تحطيم واسع النطاق بآلته العسكرية التقليدية.

جرى اتخاذ هذا القرار تحت ظروف متداخلة، كانت الدول العربية البارزة طرفاً فيها، مثلما كان الفرنسيون غير مؤيدين لفكرة التحطيم الشامل، وفتح الباب أمام تغيير سياسي غير محسوب

قرار هيئة الأركان المشتركة، وفق ما خطّط له الجنرال (كولن باول)، اقتضى ألّا يقتصر الهدف على إخراج القوات العراقية من الكويت، وإنما الهدف يجب أن يكون وضعها في (منطقة ضرب) داخل الكويت نفسها

العواقـب في العراق. كل تلك الظروف قادت في النهاية إلى انخـراط الولايات المتحدة في مواجهة عسكرية باردة، جوية وبرية (كانت تشهد سخونة في أحايين كثيرة)، اسـتمرّت على شـكل حرب حقيقية، فيها ضحايا وخسـائر وطلعـات جوية يومية، وفيها قـوات برية وبحرية كانت تحت الاسـتعداد للتحرّك فـي أي وقـت، اسـتمرّت مـن صيـف عـام 1991،

ما بين عامي 1982 و1986، تلقّت الاستخبارات العسكرية العراقية والمخابرات العراقية تدريبات مكثفة من قبل عناصر المخابرات السوفياتية (KGB)، تركّزت على وسائل الإخفاء والتعمية للمنشئات الحكومية من أعين الاستخبارات الغربية، والأميركية خصوصاً،

سكوت ريتر

وإلـى غاية ربيع عام 2003، حين قررت إدارة (بوش الابن) أن تنهي تماماً هذا الصداع المفاهيمي، وأن تتخلص من نظام صدّام بعملية عسـكرية مباشرة. وبدأت مرحلة جديدة، عنوانها تفكيك برامج أسلحة الدمار الشـامل العراقية، واللجان الخاصة المنبثقة عـن قـرارات مجلس الأمـن الدولي. وبـدأت معها الولايـات المتحـدة اكتشـاف ذاتهـا و(محدوديـة) قدراتهـا في مجال المراقبة والاسـتطلاع والبحث عـن الأهـداف التي يخبئهـا نظام صـدام عن أعين التحالـف الدولي الذي انبثق لهذا الغرض واسـتمر بالعمـل إلـى غاية عام 2003، حيـن تغيرت مهامه. وكتب (سـكوت ريتـر) يقول: "ما بيـن عامي 1982 و1986، تلقّـت الاسـتخبارات العسـكرية العراقيـة والمخابـرات العراقيـة تدريبـات مكثفـة مـن قبـل عناصـر المخابرات السـوفياتية (KGB)، تركّزت على وسائل الإخفاء والتعمية للمنشئات الحكومية من أعيـن الاسـتخبارات الغربيـة، والأميركيـة خصوصاً، كمـا تلقّـت تدريبـات ووسـائل وخطـط تتيـح لهـا مناقلـة الموجـودات المهمـة وإخفاءهـا بصـورة فعّالة، وكذلك وسائل إخفاء الشخصيات المهمة". لقـد واجهت جهود التحالف لعـزل النظام العراقي وإحالتـه إلى حالـة من عدم الفاعليـة عقباتٍ قوية أعاقـت تنفيـذ هـذه الجهـود، ابتـداءً مـن قـدرة النظـام البعثـي على التخفي واسـتخدام وسـائل الاتصـال الأكثر بسـاطة والعسـيرة على الكشـف، كمـا أن الفهـم العـام لتركيبـة النظـام البعثي من قبل التحالف لم يكن بالمسـتوى المطلوب. وعلى الرغم مـن أن عاصفة الصحراء قد حققت الأهداف الأميركيـة بتحريـر الكويـت، وبأقـل الأثمـان؛ إلّا أن الرضا الحكومي والشعبي عن المخرجات السياسية لهـذه الحرب سـرعان ما خفَـت، واصبـح واضحاً أن النظـام العراقي لـم ينجُ فقط من الحرب، بل تحول إلـى رافـض للنتيجة التـي خرجت بهـا الحرب، وهي هزيمتـه، وانخـرط في محاولـة لتقويـض المصالح والأهداف الأميركية في المنطقة.

كتب (بارتون جيلمن)* (Barton Gellman) في 16 كانون الثاني 1992 قائلا: "تسببت الحرب في إيقاظ الوعي الوطني بالثقة، وتسـببت في تكوين حواجز وموانـع بالضد من تحديد الإنفاق العسـكري، كما ضربـت لنـا مثلاً نموذجياً عن نزاعـات ما بعد الحرب البـاردة، بـل إنها شـكّلت الذاكـرة الجمعيـة الحيّة. لكن لم يكن هناك من شيء أدّى بالفعل إلى خيبة الأمل لدى المزاج الوطني العام قدر ما تسـبب به استمرار صدّام حسين بالإمساك بالسلطة".

وعلـى الأرض، بـدا أن الولايـات المتحـدة تخطـط لتـرك صـدّام ونظامـه ليحيـا العزلة التـي يفهمها

الغـرب علـى أنهـا عقوبـة قاسـية، بينمـا يفهمها صـدّام ومعه العقل العربي، أنها نجـاح بالبقاء رغم أنف الأميركيين، إذًا فهي انتصار شـبه مكتمل، مع صرف النظر عمداً عن الانحدار الحضاري والمعاشي والاقتصـادي الـذي مرّ بـه العـراق، أو على الأقل تعليقه برقبة الغرب والأميركيين.

وفـي 4 أيلـول 1996، جـرى حـلّ بعثـة التنسـيق العسـكرية المتعـددة الجنسـيات (MCC)، والتـي كان مقرهـا فـي (زاخو) شـمال العـراق. وقد كتب (آلان ماكوفيسكي) (Alan Makovsky) في ذلك الوقـت يقـول: "كانـت هـذه البعثـة هي قـرار من الولايـات المتحـدة وحلفائهـا، وبعـد إلغائها أصبح العـراق لأول مرة خالياً من الوجـود الأميركي على الأرض منـذ عـام 1991". لقـد دفعـت الولايـات المتحـدة دفعاً لكـي تخرج من العراق، وسـتمضي سـت سـنوات أخرى قبل أن يُسـتعاد هذا الوجود. كان ذلـك بعـد أن حرّك صـدّام قواتـه ليتدخل في حرب الأكراد البينية (بَراي كوزي) لصلح البارزاني.

ظهر صدّام وكأنه قوي بما فيه الكفاية على الأرض، وأنه يقارع الولايات المتحدة في الشـمال بكفاءة. ويصـف (كين بـولاك)، المحلل فـي مجلس الأمن القومـي، هـذا الحال بقولـه: "لقد أظهـرت عملية ضربات الصحراء والأزمة التي رافقتها أن صدّام كان مندفعـاً في الوقت الذي لـم نتمكن فيه من كبح اندفاعه". لقد أظهرت القوات العراقية التي سـبق أن تعرّضت إلى هزيمة، كفاءةً جيدةً، وكانت بمظهر القوات الحسـنة التدريب، وأعاد صدّام تأكيد قدرته على اسـتخدام القوة العسـكرية، وعـزّز صورته بين قواته، وشرع في شرخ التحالف في الخليج.

في هذه الأثناء، بدأت الدوائر العسـكرية الأميركية المحترفـة، التـي يبـدو أنهـا كانـت تسـبق إداراتها المدنيـة فـي الفهـم السـوقي لمعانـي الحـرب والاشـتباك الجـوي علـى وجـه الخصـوص، وفـي الانتبـاه الاسـتراتيجي، بـدأت بتطويـر قابليـات المراقبة والاشتباك مع الدفاعات الجوية العراقية التـي لم تهدأ أبـداً عن محاولة التحـرش بالدوريات

تسببت الحرب في إيقاظ الوعي الوطني بالثقة، وتسببت في تكوين حواجز وموانع بالضد من تحديد الإنفاق العسكري

Barton Gellman

الجوية لقوات التحالف.

كانت المواجهة ذات مثابتين مختلفتين لكل طرف؛ فبالنسـبة للطـرف الأميركـي (التحالـف الدولـي بقيادة الولايات المتحـدة)، صار معنى الانتصار هو منع صدام وأي من أسـلحته التقليدية من تشكيل خطر على المظلة الجوية الأميركية، من أي شـكل كان، وألّا يتـاح للـرادارات العراقيـة رصـد إحداثيات طائرات قوات التحالف بشكل مطلق.

كانت هذه بعثة التنسيق العسكرية المتعددة الجنسيات هي قرار من الولايات المتحدة وحلفائها، وبعد إلغائها أصبح العراق لأول مرة خالياً من الوجود الأميركي على الأرض منذ عام 1991

Alan Makovsky

أمـا بالنسـبة للعراقييـن؛ فقـد كانـت الأهـداف الاسـتراتيجية تتمثـل في إزعـاج الطلعـات الجوية الأميركية، والاشـتباك معها بين حين وآخر، وتلقّي الضربات الموجعة، ثم إرسـال إشارات بأن الوجع لم يكن كما تصوّره الأميركيون، وإن في جعبة الحاوي العراقي المزيد من المفاجآت.

لقد وجّـه الأميركيون ضربات واسـعة عدّة للعراق خـلال المـدة (1991 - 2003)، بعضهـا جـاء علـى شـكل عمليـات اسـتمرّت لأيـام متواصلـة (عملية توفير الراحة، وعمليات كانون الثاني 1993، وعملية مراقبة الجنوب/آب 1992، وعمليات حظر الطيران في الشـمال والجنوب وتوسـعاتها، وعملية ضربة الصحـراء 1996، وعمليـات ثعلب الصحـراء/1998، وغيرهـا)، أمـا باقي الاشـتباكات التـي كانت تجري على أساس شبه يومي؛ فهي الأكثر كلفة بالنسبة للأميركيين؛ لأنها جاءت نتيجة فرض مراقبة شاملة على مدار لساعة، وتشغيل طلعات بآلاف الساعات من الطيران المتواصل والمسلح والجاهز للاشتباك، وهـذا يعني أن القوات والوحدات المشـغلة كانت في حالـة اسـتنفار وجهوزيـة مسـتمرتين. ويعرف المحترفـون العسـكريون أن رفع حالة الاسـتنفار لا يمكن أن يسـتمر في تشغيل وانتشار القوات لمدد زمنيـة طويلـة، وإلا فـإن خوض الاشـتباك وتوجيه الضربات بشكل مجموع سيكون أمراً أكثر جدوى.

فقـد العراق خلال هـذه المواجهة الطويلـة أموراً كثيرة، أوّلها على المستوى الاستراتيجي؛ إذ لم تعد دُول المنطقة تنظر إلى السيادة العراقية بأنها ذات معنى لدى نظام صدّام نفسـه، بقدر ما أنها تعني خـوض التحدي للوجـود الأميركي فقط. ومن جهة أخرى؛ فقد كفى نظام صدام الآخرين مجاناً مسألة الانشـغال الإقليمي بالوجود العسـكري الأميركي في المنطقة (الذي هو أمر غير مرغوب على نطاق واسـع، إلّا أن أحداً لا يصرح بذلك نتيجة توجيه هذا الوجود المسـتدام إلى مبرر مسـتدام، وهو الصراع المفتوح بين العراق والولايات المتحدة).

هذه الحرب التي خاضتها كل من واشـنطن وبغداد علـى مـدى 13 عاماً، خسـر فيها العراق لوجسـتياً قدرات عسكرية استلزم بناؤها عقوداً طويلة، بينما خسـرت فيهـا الولايـات المتحـدة سـمعتها كقوة باطشـة يمكـن أن تنهـي أي إزعـاج يواجههـا، وإذا بهـا تضطر إلى خوض مواجهة تسـتمر لـ 13 عاماً، دون أن تتمكن من حسمها لصالحها. وهذه الجزئية كانـت واحـدة من أعمق التفسـيرات التي فَسّـرت فيما بعد إقبال فريق المحافظين الجدد مع رئاسة الرئيـس (بـوش الابـن) علـى خـوض حرب سـريعة وشاملة انتهت باحتلال العراق عام 2003.

هـذه الحـرب (1991 - 2003) هي الحـرب التي لم ينتبه العالم إلى أنها ستنتهي إلى اضطرار الولايات المتحدة إلـى عملية احتلال لبلد هو أكبر بلد تحتلّه منذ الحـرب العالمية الثانية، وما تلا ذلك من نتائج واسـعة علـى جميـع المسـتويات، وبآثـار عالميـة تجاوزت حتى منطقة الشرق الأوسط ومصيرها.

كلمات من زمن الحصار

حيدر الجراح

مثلَ كثيرين غيري، نجوتُ من الحرب العراقية - الإيرانية، ومن حرب تحرير الكويت ... ونجوتُ من سنوات الحصار التسعيني حينما تمكنت من عبور الحدود والحصار والعراق والجغرافيا، إلى الأردن ثم وسوريا.

أيام المزبن كضن، دتكضن يا أيام اللف

مظفر النواب

هل حقا نجوتُ؟

مـا زالت الكثيـر من النـدوب فوق تضاريـس الروح وبين شـغاف القلب، إن لم تكن عبر تجربة شخصية فمِـن خـلال التأثـر بالوقائـع التي عاشـها الآخرون الذين كانوا مثلي واستطاعوا النجاة مثلما نجوت.

في اليوم الثامن من آب عام 1988 توقّفَت الحرب العراقيـة الإيرانيـة، وبعدها بسـنتين إلا سـتة أيام، وتحديدا في الثاني من آب من العام 1990 نستمع إلى بيان القيادة العسكرية العامة بعودة الفرع إلى الأصل والدخول إلى الكويت. في السادس من آب 1990 أصـدر مجلس الأمن القـرار رقم 661 بفرض عقوبـات اقتصادية على العـراق، وكان الهدف من هـذا الحظـر التضييـق عليـه لإرغامـه على سـحب قواتـه من الكويـت. لكن قبل أن تصـل الأمور إلى هذه المرحلة، قادت أميركا قوات التحالف وأخرجت القـوات العراقية. وظلّت العقوبـات نافذة بذريعة التأكد من خلو العراق من أسـلحة الدمار الشـامل، وتطبيقـه قـرارات مجلـس الأمـن، وشـملت هذه العقوبات حظراً تجارياً كاملاً باستثناء المواد الطبية والغذائية والمواد التي لها صفة إنسانية.

ولاستذكار سنوات الحصار؛ يجب أن تَستفزّ ذاكرتكَ الممتلئـة بالتفاصيـل صغيرِهـا وكبيرِهـا، وأحيانـا تُعاركها لأجـل القبض على صورة أو مفردة حاولتَ جاهـدا طيلة سـنوات عديدة أن تبتعـد عنها، لأنك نجـوتَ كمـا يبـدو لـك كل هـذه السـنوات. ربمـا تسـتعيدُ صورا ومواقف سـاخرة مضحكـة، وأخرى حزينة مُبكية، لكنّكَ في الحالتين تبدو غير مسـتريح أو مسـترخ لهذا الاسـترجاع للذاكـرة، وتجد أن تلك السـخرية وذاك الضحـك بـكاءٌ يعتمـل فـي الـروح ويخضّك بشـدة؛ فهنـاك الكثير من الحَيَـوَات التي عاشـت ذلـك الجحيـم واسـتطاعت أن تنجـو منـه بأثمـان مرتفعة، مثلما نجوت. لم يشـعر العراقيون وقت إصدار قرار فرض العقوبات الاقتصادية بتبعاته الثقيلة التي سـيلاقونها ويحملونها على أكتافهم؛ فالحديث وقتها كان حول حرب تقع أو لا تقع، وأن الحصار ورقـة تهديد لا غير. وكان العراقيون وقتها

قـد انشـغلوا بالفرهـود الكويتـي أيضا، ولـم يترك الجنـود والضباط (ليس كلهم) والقـادة والقيادات السياسـية والمقرّبون من (صدام حسـين) شيئا ذا قيمة أو عديم القيمة إلا وجلَبوه من الكويت. ولم يكن رصيف من أرصفة بغداد في المناطق التجارية (كنـتْ وقتَها في بغـداد الجديدة) يخلـو من مواد متنوعـة يعرضهـا الباعـة علـى بسـطيّاتهم أو في محلاتهـم، أو حتى يعرضها الجنـود ونواب الضباط في سياراتهم الشـخصية. بعد أسابيع قليلة، بدأت آثار الحصار تبرز تدريجيا، فارتفعت أولا أسعار المواد الغذائيـة الأساسـية، ومـع تقـدّم الأيـام فقـدت العملـة شـيئا ليـس بالقليل مـن قوتها الشـرائية. ورافـق ذلـك ظهـور كلمـات ومفـردات جديـدة يتداولهـا العراقيـون تعبيـرا عن حالات معيشـهم اليومـي، فـي كل مجـالات الحيـاة الاقتصاديـة والسياسـية والاجتماعيـة والثقافيـة. كان البعض من الكلمات موجودا، لكنّ تداوله كان قليلا لغياب الفضاء التداولي له، أو معدوما لانتفاء الحاجة إليه وأُعيـد إحياؤه من جديد، أو كانـت الكلمات جديدةً كل الجدّة ولم تكن موجودة سابقا.

بلـد المليون بسـطيّة: وكانت تُقال للسـخرية من كثرة البسـطيّات المتواجدة على الأرصفة، في بلد نفطي وغني.

جكاير لَفّ: وهي السجائر التي استبدلها العراقيون بمـا كانـوا يدخّنـوه مـن سـجائر أجنبية مسـتوردة وسـجائر محليـة الصنـع ذات جودة عاليـة. حتى إن سـجائر (سـومر) قد أصبحت بدون فلتر وتشـابهت مع سـجائر اللف. وأطلق العراقيون البيت الشعري الشـهير للشـاعر مظفر النواب: أيـام المزبن كضن، دتكضن يا أيام اللف).

النزول، خرَط السوك، الدولار هابط، الدولار صاعد فـي كانـون الثاني عام 1996 قبِل (صدام حسـين) بمـا سـمّي ببرنامج النفـط مقابل الغـذاء والدواء، فأطلق الشـارع على ذلك القبول تسمية (النزول). واليـوم أُطلقـت تسـميات جديـدة علـى مجاميـع الأوراق النقديـة - الـدولارات حصراً - فتحوّلت فئة المائة دولار إلى (ورقة)، والمئة ألف إلى (دفتر) أو (شدّة) أو (بلوكة).

الحصـة التموينيـة: وهـي مفـردات البطاقـة التموينية المعمول بها حاليا، مع بعض الاختلاف.

مكرمة السـيد الرئيس: وتشـمل توزيـع الطحين الأبيـض أو الدجـاج فـي الحصـة التموينيـة، مثلما تُطلـق على بعـض المِنَح المالية التـي كان يوزعها (صدام حسين) على الرفاق أو الضباط.

مضـروب بـوري، بـوري معـدل: (انضرب بـوري = أنبوب حديد للمياه) جملة عراقية تقال للذي يخلف موعـدا أو يحتـال علـى شـخص، ولكنه أخـذ دلالة جديـدة تقضـي بحدوث نكبة، خصوصـا خلال انهيار أسـعار السـوق وتقلّباتـه العديـدة. وهنـاك نكتـة ظهرت قبـل حرب عام 2003 تكشـف تقبّل الناس للاحتلال أو عدم الاكتراث به، وهي: أب يتصل بابنه مـن الخارج يقول له: دير بالـك ابني خاف يضربوكم الأمريكان نووي.

الابن: خل يضربونه يابه.

الأب: خاف يضربوكم جرثومي.

الابن: خل يضربونه يابه.

الأب: خاف يضربوكم كيميائي.

الابن: خل يضربونه كلشي، بس لا يضربونا بوري.

القفّـاص: الذي يقفّص عليـك، أي يخدعك ويحثّك على بيع حاجتك فتبيعها له بربع سـعرها الحقيقي قبل أن يصطادها آخر غيره.

التصنيـع العسـكري: انشـغل النظـام بتفعيـل مصانعه الحربية لتنتج المزيد من الموت؛ فالمصنع الخـاص بالصواريـخ المتوسـطة المـدى التـي لا تتعـارض مع قرارات مجلس الأمن عـاد وبقوّة إلى إنتاجـه؛ ناهيـك عـن مصانـع الراجمـات والمدافـع الثقيلـة مع بـدء النظـام بتدعيـم أجهزتـه الأمنية الأكثر أهمية والتصاقاً به.

الاسـتفتاء: مـع إعلان وزيـر التربيـة والتعليم في مطلع العام الدراسـي الذي بدأ في تشـرين الأول مـن عام 1995 عن تسـرّب 40 ألـف تلميذ وطالب خـارج صفوفهم الدراسـية، انشـغلت مطابع وزارة

التربية، وبشكل طارئ، بطبع مليون صورة ملوّنة للقائد (صدّام) تزامناً مع الاستفتاء (الصوري آنذاك).

أم المعارك، المنازلة الشعبية: وهي التسمية التي أطلقت على حرب تحرير الكويت، لكنها استمرت بالتداول على المستوى السياسي والإعلامي. حيث التقى (صدام حسين) بعدد من الضباط العسكريين والقادة وحثّهم على ضرورة كتابة التاريخ العسكري لـ«أم المعارك»، وطالبهم بتوخّي الدقة في وصف هزيمة قوات التحالف الدولي من دون مبالغة. وبين يديَّ كتاب يحمل عنوان: (المنازلة الشعبية.. أم المعارك.. رؤية شعبية.. عربية.. عالمية، صادر بطبعته الأولى في عام 1999)، وكتاب آخر يحمل عنوان: (المنازلة الكبرى وقائدها.. المقدمات والوقائع.. صادر بطبعته الثالثة في عام 2002).

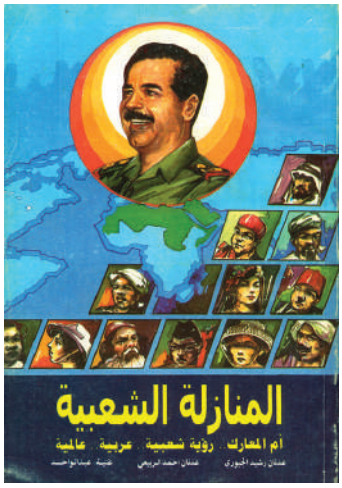

الحملة الإيمانية، عبد الله المؤمن: نتيجة لليأس المطبق الذي أمسك بأعناق العراقيين، وهم يحسّون بوطأة هذا الاختناق؛ بدأت تظهر قصص عن نهايات الزمان، وصار الحديث عن أيام الماضي (أيام الخير) بحسرة وألم ومرارة، فشاع التديّن بين الناس اعتقادا منهم بأنه عقاب ربّاني لهم لابتعادهم عن الدين، ولأننا انتهكنا أعراض الكويت. فراحوا يتحدثون عن علامات نهاية الزمان عند الشيعة، وانتشر التوجّه الوهّابي عند السنة، وارتدَت معظم النساء الحجاب، وكثر التديّن بين الناس. وركِب النظام الموجة وأعلن (الحملة الإيمانية) بإغلاق جميع البارات والمراقص وشرع بإعدام العاهرات وإغلاق بيوت البغاء، وقصّ اللقطات الجنسية وشرب الخمر من الأفلام، وقطع بث مباريات كرة القدم في أثناء الأذان (بعدما كان يُكتب الأذان بشريط في أسفل الشاشة أثناء البث فقط)، وسمّى رأسُ النظام نفسه (عبد الله المؤمن).

التوتو، اللوتو: والمقصود بذلك نوع من القمار.

بسيطة .. من ينرفع الحصار: رفعُ الحصار أصبح يُضرب به المثل؛ فيقول الشخص يقول واعدا أو متوعّدا: (بسيطة من ينرفع الحصار) بما يشابه المثل: (اقبض من دبَش) أو (موت يحمار لما يجيك الربيع).

حزام أبو التفاحة: كان هذا الحزام الموضة الدارجة للشباب، والذي انتشرت إشاعة حوله مفادها وجود مغناطيس فيه يصيب بالعقم مصنوع في إسرائيل، فاستثار الخبر الرأي العام ومُنِع من التداول.

خلي شهادتك تفيدَ، خلي شهادتك توكلَك خبز: التعليم انتهى بدءاً من تدنّي الرواتب الذي عوّضه المدرس بالدرس الخصوصي وأصبح أداةً قمع للطلاب الذي لا يدرسون الخصوصي لترسيبهم، وراح الطلاب يهربون من المدارس أو يتركونها للعمل بسبب الحصار، وهبطت قيمة الشهادة اجتماعيا لتدنّي راتب الموظف بالنسبة للكاسب (العمل الحر) الذي راح يعيّر المتعلم (خلي شهادتك تفيدَك) أو (خلي شهادتك توكلَك خبز) وبذلك انقلبت المعايير رأسا على عقب، وقبلها علو الفلاح على الموظف والمتعلم اجتماعيا، كل ذلك أنتج حالة اللامعيارية، وأصبح التعليم لا قيمة له.

ففي التسعينيات أجرى (د. قاسم حسين صالح) دراسة عن المكانة الاقتصادية للمهن في المجتمع العراقي في زمن الحصار؛ إذ بيّنت نتائج الدراسة أن الحمّال تقدّم على معلم المدرسة في مكانته

أهلا وسهلا بيچ يَم ثوب الأحمر ،،، الكلب من فركَاچ طكَ وتمرمر

الاقتصاديـة، وأن مصلـح الراديـو والتلفزيون تقدّم فـي مكانتـه الاقتصادية علـى الأسـتاذ الجامعي، مما اضطر عددا كبيرا من المعلمين إلى الاشـتغال بأعمـال مثـل سـائق تكسـي أو بائـع سـجائر على قارعة الطريق.

ذكرى البيعة، جيش القدس، فدائيو صدام، أشـبال صدام، يوم الزحف الكبير 1998، بايعناك يا صدّام

وحـش الطاوه: أصبـح طعـام العراقييـن المعتاد بالحصـار الطماطا المقليـة والباذنجـان الذي لقّب نتيجـة لذلك بـ(وحـش الطاوه)، وانتشـرت قصيدة شـعبية له مطلعها: (أسـود سـواد الليـل والزلف أخضـر ،،، واللمعـة جَـنْ روغـان والريحـة عنبـر). وللطماطـة قصيدة أيضا، منها: (أهلا وسـهلا بيچ يَم ثوب الأحمر ،،، الكلب من فركَاچ طكَ وتمرمر).

قابل سـرة مال بيض: كان ثمن اللحم والبيض غاليا، وطابور شراء طبقات البيض يُضرب به المثل، كعبارة: (قابل سره مال بيض!) التي تقال لكل طابور مزدحم متدافع. والسُّـلطة نفسـها بدأت تحث المواطنين عبر برامج تلفزيونية على الإقلال من الشاي صحيا؛ لقلـة السـكر! وتُعلّـم النـاس علـى اسـتبدال نبات الـ(عـاگول) في مصفى (حَلفَة) المبردة التالف بدلا من نشـارة الخشـب. والشعب نفسـه ابتكر وسائل تقشّف لتسيير حياته؛ كاستبدال ماء التمن (الفوح) بـدلا مـن حليب الطفل، ومزج (النشـا = مسـحوق الـذرة) أو الطحيـن مع البيض حتى يشـبع، وتقديم (چما = فطر) بدل اللحم في بعض الأعراس، لتشابه الاثنين ورخص الأول، واستخدام حزام أمان السيارة فـي تصنيـع النعالات (الشـحاطات)، وإعـادة غلي ورق (بثل) الشاي مرتين، واستخدام التمر بديلا عن السـكر في تحلية الشاي، وقلب القميص وخياطته مجـددا بعـد اسـتهلاكه مـن الخـارج، واسـتعمال البطانيات (قماصل) بعد تفصيلها.

العنب الأسـود: كُنيـة (صدام حسـين) عند بعض العراقييـن؛ حيـث يسـتعملونها للتوريـة خوفـا من النظـام، كقولهـم مثـلا: (قابـل سـبّيت العنـب الأسود!).

ثقافـة الداخـل، ثقافة الخـارج، أدباء الداخـل، أدباء الخـارج، مرتـدّون: نشـرت صحيفـة الـزوراء، وهـي

واحـدة مـن صحـف أسـبوعية كثيـرة كان يُشـرف عليها آنذاك (عدي صدام حسين)، في عددها 164 الصادر يوم 27 تمـوز عام 2000، قائمة فريدة من نوعها تتضمن أسماء 306 من المثقفين العراقيين الذين هاجـروا من البلاد، وتصنّـف أولئك الخارجين إلـى ثلاثة أصناف، هـم: أولا: مرتدون، ثانيا: باحثون عن عمل، ثالثا: وسط لم تتضح مواقفهم.

الاستنسـاخ: شُـغلت حقبة التسـعينات من القرن الماضي في العراق بالاستنساخ بوصفه إعادة إنتاج؛ إذ أصبحت هذه الظاهرة نسقا تتداوله الثقافة في مسـاربها. ففي الصناعـة هناك إعادة إنتـاج للكثير مـن المـواد، مثـل إعـادة إنتـاج الخـرق والقمـاش المسـتعمل فـي صناعة الأفرشـة، وإعـادة تصنيع الألمنيوم العتيق في صناعة الأواني، والبلاسـتك الـذي اشـتهر بـ(المُعاد)، والكثير مـن النفايات التي يُعـاد تصنيفهـا إلـى مـواد زجاجية وأخـرى معدنية ومواد ورقية ثم تُدفع لإعادة إنتاجها بحسب جهات التصنيع. وفي الثقافة بصورتها النخبوية يرتبط هذا النسـق بظاهرة استنساخ الكتب، فتمثلت أول مرة بإعـادة إنتـاج الكتـاب المطبـوع - وغالبـا المهرَّب والممنـوع من التـداول - بآلـة الاستنسـاخ، ومرة أخرى يحضُر الاستنساخ بصناعة الكتاب تأليفا ونشرا وتداولا.

كيكـة أم التمـر، المدگوگـه: وأصبحـت عنـد العراقيين بديلا عن البقلاوة.

الچولة: وهي موقد غاز نفطي.

كوادالبّـي: يتذكـر كثيـرون مسلسـل (كوادالبّـي) و(ماريا مرسـيدس) و(إزميرالدا)، وهي مسلسـلاتٌ تحكـي القصّـة النمطيـة نفسَـها للفتـاة الفقيـرة والجميلة التي يقَع في حبّها شـابّ وسـيم وغنيّ، فقالوا مثلا: (عرجة وسبيتي الناس يا كوادالبّي)

فسفوسي: شيشة (بلول) يوضع بها نفط ويُغمس بها خيط (كنديل) للإضاءة، وهي تسمية موصلية.

لالة - لوكس – فانوس، صوبة علاء الدين، شفتايات - عروك طاوة: وهي تسمية موصلية.

سـامكو: وهي شـركة أموال وهمية، نصبت على

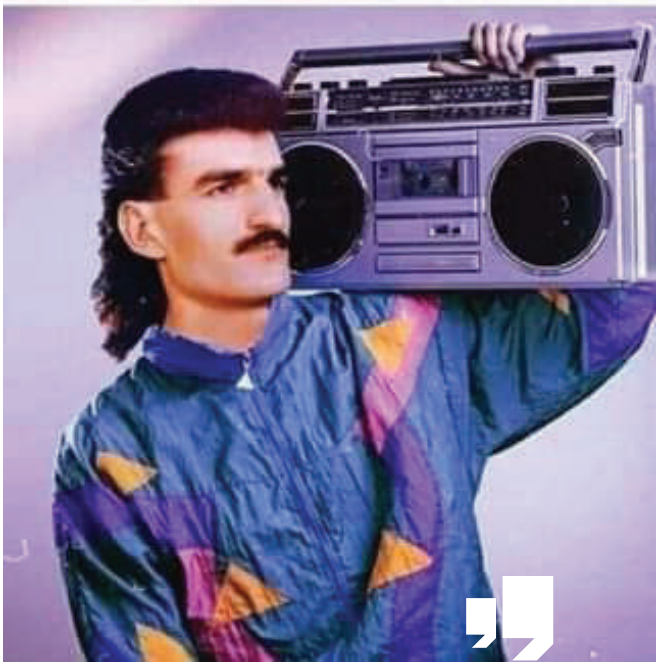

بريكي نسـبة إلى رقصة (بريك دانس).

العراقيين وسرقت مدّخراتهم.

مضروبـة، عاكسـة، بنطلون بغي، بنطلـون ريغلان، بريكي نسبة إلى رقصة (بريك دانس).

أتاري: وهو لعبة إلكترونية.

جاي الحصة، دهن الراعي، دبل فاليوم

الكذلة القاتلة: وهي تسـريحة شعر مشهورة في حينها.

تسريحة الأسد، العملة الطبع السويسري

المُعـاد، أحذية الروغـان، قميص جرجيت، تسـريحة الجنح، محروك اصبعه، قلبي نارك، سـكت بسكت، لَتلـح مِلـح، لَتلح ثلـج، لَتجادل عادل، اكلب شيشـة مالك عيشـة، آخ لو اشتغل لباخ،لا تدوخ، بيتكم نثر لو ملبوخ؟

إحالات

- محمـد لفتـه محـل: التاريـخ الاجتماعي لما قبـل الاحتـلال الأمريكي للعـراق وبعـده، الحـوار المتمـدن، العـدد: 5486 - 2017 / 4 / 9 - 20:24.
- محمد غازي الأخرس / خريف المثقف في العراق.
- (صالح زامل/ الهوية والآخر/ قراءات في ضفاف النص الشعري/ فصل شعرية عقد الاستنساخ)
- (د. قاسـم حسـين صالـح) (الشـخصية العراقيـة المظهـر والجوهـر، تحليلات سيكوسوسيولوجية).

مقال

لا خلافَ بين كل من عاش فترة ما بعد حرب «عاصفة الصحراء» 1991 ودرسها اجتماعياً وثقافياً في العراق، حول قوة مخيفة زلزلت قيم النظام الاجتماعي العراقي وزعزعت قيم المعرفة التربوية التي ترسخت لعقود من عمر الدولة العراقية المعاصرة.

الحروب والحصارات والعزلة الإنسانية (1991 - 2003)

مؤشرات اجتماعية وتربوية

علي عبد الأمير عجام
كاتب وباحث في التاريخ الثقافي العراقي

وفـي حيـن كان باحثـون في مؤسسـات حكومية عراقية ومنظمات دولية، فضلاً عن كتّاب وباحثين عراقييـن مهاجريـن، يُرجعـون سـبب تلـك «القوة المخيفـة» إلـى العقوبـات الدولية (الحصـار) التي أثقلت كاهل المجتمـع، وأن تراجع المعرفة لصالح انتشـار السـلاح واتسـاع التنظيمـات العسـكرية الرسـمية كان جزءاً مـن «التعبئة لمواجهة الأخطار الخارجيـة»؛ لكنهـم بـدَوا غاضّين النظـر عن تحول اجتماعـي نوعـي، كالقول من التآلـف إلى الصراع المسـلح لحـل قضايا تبدو هامشـية لا تسـتدعي عنفـاً كالـذي يطـاول فئات كثيـرة أبرزهـا الطبقة المتوسـطة التـي لم يُعـرف عنها ولعها بالسـلاح بوصفـه جـزءاً أساسـياً مـن مكونـات المعرفـة والثقافة و»حارسها» في أحيان كثيرة.

لقـد أكّـدت دراسـات وبحـوث داخليـة وخارجيـة أن المنعطفـات الحاسـمة التـي عاشـتها القضية العراقيـة خـلال العشـرين عاماً الماضيـة (1980 - 2002) لجهة الانهيـارات الاجتماعية والاقتصادية لا يمكـن أن تكون «مقياسـاً اجتماعيـاً ثابتاً»، وأن نتائج «عسـكرة المجتمع» يمكـن أن يخف تأثيرها مـع عـودة الوضـع الاقتصـادي فـي البـلاد إلـى مستويات طيبة من النمو (....)/ لافتةً إلى قاعدة تقـول إنّ المجتمعـات التـي تعيـش حـال حـروب طويلة تعانـي تدهوراً اجتماعيـاً، وإن رفقةً طويلة مـع السـلاح تنتـج مسـتويات متوقعـة مـن قيم العنـف، لكن أصحاب تلك الدراسـات حذّروا من أن اسـتمرار الاسـتنفار وتـردّي الأوضـاع الاقتصادية وصيرورة امتلاك السـلاح «قيمـة عليا» يمكن أن تـؤدي إلى «اختلال في البنـى الاجتماعية». وفي هذا الصدد، يشير الأكاديميون إلى أمثلة من الحياة اليوميـة العراقية في عقـد الحروب والحصار، مثل جرائم «سـطو مسـلح» ارتكبها قاصرون (أقل من 18 عاماً)، وهي حوادث لم تكن تسجَّل في العراق إلا نـادراً قبـل عـام 1990، وتصاعد نسـبة الجرائم التي ترتكبها النساء (بعضها منظّم وفق عصابات)، وتصاعـد عمليـات القتـل مـن أجل المـال (بعضها يطاول أقارب من الدرجة الأولى، كالآباء والأمهات والأخوة)، ناهيك عن هجرة مقاعد الدراسة الأولية والعليـا. عودة المجتمع العراقـي إلى حاله الآمنة والمسـتقرة والخروج من دائرة العنف، كانت تراها دراسـاتٌ ومقالاتٌ، ممكنةً إذا تـم رفع العقوبات عـن البـلاد، فهـو سـيدفع بالعجلـة الاقتصاديـة

إلى الدوران، فتنهمك قطاعات المجتمع الأكثر نشاطاً (الشباب) في العمل، مما يخلق نوعاً من الثقة بالمستقبل، وتستقر الاندفاعات الاجتماعية وتهدأ النفوس التي يؤرقها سؤال الغد، وينسحب السلوك العنيف شيئاً فشيئاً، لكن من دون أن تختفي ملامحه تماماً.

هرم المكانات الاجتماعية العراقية ... مقلوباً

وعن هذا التحول في التراتب الاجتماعي في العراق، يقول أستاذ البحوث النفسية في جامعة بغداد (د.قاسم حسين صالح)، في لقاء مع إحدى الفضائيات العربية (2001): «في قمة الهرم الاجتماعي في العراق، كانت تتسيّد أربع مهن، هي -على وجه التحديد-: طبيب، عميد كلية، مهندس، أستاذ جامعي، تليها مهن أخرى، من بينها: رجل دين، كاتب أدبي ... وهكذا، نزولا إلى المهن التي في المؤخرة، وهي: الحمّال، الكنّاس، وما شاكل ذلك. هنا المهن الأربعة الطبيب وعميد الكلية والمهندس والأستاذ الجامعي أخلّت مواقعها إلى أربع مهن جديدة هي على وجه التحديد أيضا: تاجر، مقاول، صائغ، ميكانيكي سيارات. وتراجعت أيضا مهنة الكاتب الأدبي ورجل الدين، ولو دققنا النظر لوجدنا أن المهن التي صعدت إلى قمة الهرم والقريبة من قمة الهرم أيضا هي مهن لا تعتمد على العلم ولا تعتمد على الثقافة.

والأستاذ الجامعي الذي كان يحتل المرتبة الرابعة في هرم المكانات الاجتماعية تراجع إلى المرتبة 25، وتقدم عليه مصلّح الراديو والتلفزيون!! والحمّال الذي كان يحتل آخر مرتبة في سلّم المكانات الاجتماعية تقدّم على المعلم في المدرسة الابتدائية في هرم المكانات، هذه خلخلة كبيرة، يعنى الهرم ... أصبح مقلوبا».

«يتحايلون» لتأمين دراستهم

على الرغم من العزلة والأزمة الاقتصادية؛ واصل طلاب العراق الجامعيون ذهابهم إلى

الأستاذ الجامعي الذي كان يحتل المرتبة الرابعة في هرم المكانات الاجتماعية تراجع إلى المرتبة 25، وتقدم عليه مصلّح الراديو والتلفزيون!! والحمّال الذي كان يحتل آخر مرتبة في سلّم المكانات الاجتماعية تقدّم على المعلم في المدرسة الابتدائية في هرم المكانات

كلياتهم ومعاهدهم، بعضهم مشياً على الأقدام توفيراً لأجور النقل، وبعض آخر ارتضى القليل من المصروف اليومي الذي يقبله «خجلاً» من العائلة، فيما تخلى الجميع عن «التسابق على الألبسة الأنيقة الغالية وعن ركوب سيارة تاكسي أو حتى القيام بسفرات جامعية» بحسب ما يقول عضو الاتحاد الوطني لطلبة العراق (أحمد فؤاد) لصحيفة «الرأي» الأسبوعية الصادرة في بغداد 2001 والذي يعتبر حال «التقتير» مؤشراً إيجابياً يعكس «روح التضامن».

الطالبة في كلية العلوم في جامعة بغداد (إنعام صبري) تقول إنها تتسلّم ثلاثة آلاف دينار من والدها مصروفاً أسبوعياً (نحو دولار ونصف الدولار)، وترى

ذلك كافياً للنقل وشراء بعض اللوازم الدراسية، أما ما تحتاج إليه من طعام؛ فيتكفّل به "سندويتش" تحضره من البيت، والملابس تختارها "أنيقة وجميلة وغير مكلفة"، مؤكدةً أنها لا تريد تحميل عائلتها أكثر من طاقتها: "أنا واحدة من بين ثمانية أشقاء وشقيقات، وحرصُ والدي على توفير ما احتاج إليه من مصروف يدفعني دائماً إلى النجاح والتفوق، وأتمنى أن أرد له جميله في المستقبل».

وترسم (إنعام) صورة عمّا كان يعانيه طلاب الجامعة في العراق انذاك: "نعاني صعوبات كثيرة لكننا نستخدم أساليب للاستمرار في الدراسة؛ فليس شرطاً استخدام ورق جديد في الكتابة، بل نستعمل أوراقاً سبق استخدامها».

يعانون "تدهوراً ثقافياً"

يعاني طلاب "قسم الإعلام" في كلية الآداب في جامعة بغداد "تدهوراً ثقافياً" بحسب صحيفة "الزوراء" الأسبوعية الصادرة في بغداد والناطقة باسم "نقابة الصحافيين العراقيين" سنة 2001، وفيما يرى رئيس القسم أنه "ليس من مسؤوليتنا إغناء المستوى الثقافي للطالب"، تُحمّل الأستاذة في قسم الإعلام (د.حميدة سميسم) "التنشئةَ الاجتماعية"، و"ضعف الإقبال على القراءة" السببَ في أن يَعتبر طلبةُ الإعلام شاعراً عراقياً معروفاً مثل (عبد الرحمن طهمازي) "وزير خارجية إيران في عهد الشاه».

وفي ردّهم على سؤال حول مَن وضع "ألفية ابن

مالـك"، أجاب طالبٌ بأنه (المتنبـي)، واحتارت زميلته بيـن (عـروة بـن الـورد) و(أبـو تمـام)، فيمـا اعتبرت (هنري كيسـنجر) وزير الخارجية الأسبق بطلاً لـ"افلام كارتـون"، وعندمـا أخبرهـا صاحـب السـؤال بحقيقة (كيسـنجر) أوضحت: "لم أقرأ جريدة منذ أسـبوعين"، وبحسـب "المستوى الثقافي" لصحافيّي المستقبل فـي العراق فإن الشـاعر (أدونيس) هو اسـم مكان، والنحّـات والرسـام العراقـي الشـهير (جواد سـليم) "عالم في النحو العربي».

ويعتبـر رئيسُ قسـم الإعـلام (د.لقاء مكـي)، معقّباً علـى تراجـع المسـتوى الثقافـي، أنـه "ليـس مـن مسـؤوليتنا كجامعة إغناء المسـتوى الثقافي العام للطالـب، بـل تزويده ثقافة للتخصـص"، لافتاً إلى أن الطلاب "مصابون بسـطحية الثقافة، فهم من دون اهتمـام وجدّيـة، وزادهـم التلفزيـون تخلّفـاً بسـبب برامجه الترفيهية».

الهجرة ... حلّ يسعى إليه كثيرون

تعتـرف بها مؤسسـات الدولة، وترى أنها «مشـكلة خطيـرة»، غيـر أنهـا ما إن تتولـى بحث وسـائل حلّها تكتفـي بـ»ذريعـة مثلى»، فتقـول إن ظروف الحصار فاقمـت البطالة، مشـيرةً إلى أن الشـباب من حمَلة الشـهادات الجامعية يعملون في مهن «لا تناسـب تحصيلهم الدراسي، مما يولّد خسائر كبيرة للاقتصاد الوطنـي»، بحسـب صحيفـة «الاتحاد» الأسـبوعية الصادرة في بغداد 2001.

أعلنـت «لجنـة الشـؤون التجاريـة والاقتصاديـة» فـي المجلـس الوطنـي العراقـي (البرلمـان) عـن «المقترحـات الهادفة إلـى إنهاء مشـكلة البطالة»، فيمـا نقلـت مصـادر فـي وزارة العمـل والشـؤون الاجتماعيـة أن تقديرات أولية كانت اعتمدتها الوزارة فـي قـراءة البطالـة وتفشّـيها بيـن شـباب العراق، توصّلـت إلـى أن نحـو 45 فـي المئـة مـن القادريـن علـى العمل في العراق لا يجدون فرصة عمل، فيما ربطـت وزارة التخطيط العجز الحكومي عن إيجاد حلٍّ بظروف الحصار التي أوقفت الكثير من المصانع في القطاعين العام والخاص، وقلّصت مستويات العمل فـي ميادين الوظيفـة العامة، لافتةً إلى أن تحسّـن فـرص العمل مرتبـط بإعادة العـراق العملَ بالخطط الخمسية المتوقفة منذ الحرب العراقية – الإيرانية.

السخرية من العلم والمعرفة!

يختلـف كثيـرٌ مـن شـباب العـراق اليـوم فـي قراءة متغيـرات حـادة فـي حيـاة مجتمعهم؛ فهنـاك من يـرى فـي توجـه الشـاب إلى عمـل لا علاقة لـه بما كان درَسـه فـي الجامعـة « تحـولا عمليـا؛ فليـس بالضرورة أن الدراسـة تتوافـق مع العمل»، في حين يـرى آخـرون أن تحـول الشـاب الجامعي إلـى العمل بائعـا للدخـان والعلكة والملابس المسـتعملة على الأرصفـة «احتقـارٌ للشـهادة الجامعية»، مسـتدلّين علـى ذلك بأن «أميّين كثيرين نجحوا في العمل على الأرصفة، ولم تتطلب منهم الألفا دينار (معدل الربح اليومي) قضاء سـنوات طويلة في الدراسة والجهد العقلـي والمعرفـي»، ويؤكـدون أن العمـل بعيـدا عن الشـهادة الجامعية وفـي ميادين لا تحتاج جهدا عقليا بات يؤكد مفاهيم «متدنية»، أبرزها السـخرية من العلم والمعرفة، واقتران اسـم صاحب الشهادة الجامعية بالمصير الخائب، مما ولّد انطباعا «خطيرا» عنـد أجيال مـن العراقيين اليوم، مفـاده أن لا فائدة تُرتجى من الدراسة إذا كانت آخرتها الوقوف ساعات طويلـة على الأرصفة لكسـب الـرزق. ويعترف بعضُ الشـباب الجامعـي أن «سـبب فشـلهم فـي العمل ضمـن اختصاصهم هو هروبهم السـريع مـن الواقع، وبعـد أول تجربـة يمرون بهـا». هذا ما يؤكـده (أ.ن-بكالوريـوس لغـة إسـبانية)؛ إذ يقـول: «أعتـرف أني لـم أحـاول كثيـرا، إذ هربت بعـد أول اختبـار قمت به لنفسـي، فبعـد التخـرج تقدمـت بطلـب تعيين في الجامعة، وفوجئت بأنهم يضعون لي شـروط القبول فـي الوظيفـة، وأنه يمكن الاسـتغناء عنـي في أي لحظة. سـاعتها لم استوعب هذه الشروط ولم أفكر حتى بخـوض تجربة العمل أو إثبـات كفايتي، فقمت بالانسـحاب لأعمـل في النهايـة «بقّـالا» كما ترى،

ينخرط طلبة المعاهد والجامعات العراقية بعد انتهاء فصولهم الدراسية في أعمال تعتمد غالبيتها الأيدي العاملة الرخيصة في حال تمكنوا من «الإفلات» من حملات التعبئة العسكرية، سواء عبر «التدريب العسكري الصيفي» أم «التطوع» في تشكيلات «جيش القدس»

أكثر ما يؤلمني شعوري بالحرج الشديد من مهنتي، ولاسيما عندما ألتقي بأحد زملائي أيام دراستنا لغة الشاعر (لوركا)، علما أني كنت من الأوائل في دفعتي».

الطلاب وعمل الصيف كمؤونة للشتاء

ينخرط طلبة المعاهد والجامعات العراقية بعد انتهاء فصولهم الدراسية في أعمال تعتمد غالبيتها الأيدي العاملة الرخيصة في حال تمكنوا من «الإفلات» من حملات التعبئة العسكرية، سواء عبر «التدريب العسكري الصيفي» أم «التطوع» في تشكيلات «جيش القدس»، فيما تبدو فرصة النزهة والترفيه شبه غائبة. وتكاد تكون أسواق بغداد في الشورجة، وعلاوي جميلة، والباب الشرقي، والمناطق الصناعية في البياع، وكسرة وعطش، هدفاً مثالياً لبحث طلبة المدارس الإعدادية (الثانوية) والمعاهد والجامعات عن فرص عمل، تُعينهم في تحسين أوضاعهم الاقتصادية، وتوفر لهم شهرياً نحو 50 ألف دينار عراقي (25 دولارا)، وهو ما يعتبره الطالب في كلية القانون في جامعة بغداد (أحمد الأنصاري) مبلغاً جيداً يمكّن الشاب من اقتناء ملابس جديدة تتكون من بنطلون وقميص وحذاء، من دون أن يكلّف العائلة المتعبة أصلاً بتأمين الاحتياجات اليومية. لغة صنعتها سنوات الضيم: «القفّاصة» و«النكَريّة» الأسواق المكتظة بالناس في بغداد مناطق مفضلة لدى النصّابين والمحتالين «القفّاصة»، وممن يمارسون أنواعاً من الغش والضحك على الذقون «التقفيص»؛ من اجل كسب الرزق (...)، وهم متوزعون ما بين الأسواق الشعبية: «الشورجة «، و»النهضة»، و»سوق مريدي» و«الباب الشرقي». وعلى المواطن الداخل إلى هذه الأسواق أن يكون حذراً جداً؛ لأنه قد يشتري «كيس نفايات» على أنه سترة جلدية، أو قطعة قماش قديمة على أنها قميص، أو علبا مملوءة بزيت المحركات المستخدم على أنه زيت طعام مستورد وبالغ النقاء. وبما أن أهل بغداد اكتوَوا من ممارسات «القفّاصة» الذين بدأوا نشاطهم الاحتيالي منذ سنوات الضيم الأولى التي أعقبت الحربَين وبدء تأثيرات الحصار الكارثية، فقد أصبح الوافدون من المحافظات إلى العاصمة العراقية أغلب ضحايا «التقفيص».هذه المشاهد

تتكرر يومياً وسط «تنسيق» ما بين النصّابين وأفراد دوريات الشرطة في المنطقة. وإذا كانت مفردة «القفّاصة» إحدى المفردات التي ابتكرتها سنواتُ الضيم في العراق، فإن «التنسيق» مع الأجهزة الحكومية لغض النظر عن المخالفات له تسميات عدّة من أبرزها: «التوريق»، ومعناها «عدّ أوراق النقود وتسليمها للموظف أو الشرطي أو الضابط»، وعبارة «ادهن السير»، أي جعل الطريق مدهونا بشيء يخفّف الموانع، وهو المال بالطبع، فضلا عن تسمية الشخص الواقع عليه الاحتيال بعبارة «مضروب بوري» أي إن أنبوبا طويلا دخل فيه، في إشارة إلى فداحة خسارته.

في منطقة «الباب الشرقي»، وسط بغداد، يشيع للقائمين بعمليات النصب والاحتيال اسمُ شهرة متطور، ألا وهو «النكَريّة»، وكل يوم يتعرض الكثير إلى عمليات «النكر» أو «النقر»، أي سرقة المواطن بسرعة ورشاقة على طريقة «نقرات الطائر». وهؤلاء متوزّعون في سوق «البالات» (الملابس المستخدمة)، أو محلات بيع وتصليح الأجهزة الكهربائية، أو «حديقة الأمة».

«أطفال الشوارع» ... قنبلة المجتمع الموقوتة

تعترف وزارة التربية العراقية 2001 أن نحو 23 في المئة من التلاميذ الصغار (6 - 15) سنة خارج مقاعدهم الدراسية، وأنها غير قادرة على منع ذويهم من استخدامهم في أعمال وحِرف متعذرة، مما يسهم في تخفيف الأعباء الاقتصادية المتفاقمة التي تعانيها العوائل العراقية جرّاء الحظر الذي طاولت نتائجه البنى الاجتماعية والقيمية وهزّتها بعنف، فتحوّل قرار «التعليم الإلزامي» الذي يعاقب كل عائلة لا ترسل أطفالها إلى المدرسة حتى المرحلة المتوسطة إلى مجرد ذكرى من أيام كان فيها للعراق نظام تربوي صارم وفاعل.

وفيما يرى مختصون تربويون وباحثون اجتماعيون انه يُوجد أن نحو مليون صبي أمّي وجاهل وذي معرفة مشوهة عبر علاقات السوق التي تسيطر عليها مفاهيم الكبار، إضافة إلى ألوان من الحرمان وعدم القدرة على معايشة مراحل الطفولة والمراهقة بشكل طبيعي، فإن هذه الظاهرة «أطفال الشوارع» ستكون قنبلة المجتمع العراقي الموقوتة في المستقبل؛ فهم سيحمِلون معهم

فهماً محدوداً للعالم وللأشـياء، ناهيك عن قطيعة تامـة بينهم وبين المعرفـة. وكان المجلس الوطني العراقـي (البرلمان) قد ناقش في عام 2000 قضية تشغيل الأطفال وأبعادها وتأثيرها في الطلبة الذين يغادرون مقاعدهم الدراسية لأجل العمل.

أوضحت عضو «لجنة حقوق الإنسان» في المجلس (سـاجدة الموسـوي) أن «بعض العوائل تضطر إلى تشـغيل الأطفـال لتأمين المعيشـة، وأخـرى تدفع الأطفال إلى العمل حفاظاً على مهنة الآباء»، لافتةً إلى أن عمل الأطفال يعتبر «انتهاكاً لاتفاقية حقوق الطفل التي تشدد على حق الطفل في حمايته من الاسـتغلال الاقتصادي ومـن أداء أي عمل يرجّح أن يكـون خطيـراً أو يمثـل إعاقة لتعليـم الأطفال، وأن يكون ضاراً بصحة الطفل ونموه البدني والعقلـي».

مـن جهتهـا، تقـول وزارة التربيـة إنهـا لا تملك في الوقـت الراهن القـدرة على تنفيذ قانـون «التعليم الإلزامـي» الـذي يعاقب بالغرامة أو السـجن أولياء أمور الطلبة الذين لا يرسلون أبناءهم إلى المدرسة. معلـومٌ أن نحـو ربـع تلاميـذ العـراق وطلبتـه ومن مختلف المراحل لم يلتحقوا بصفوفهم، أي ما يقارب مليـون تلميذ وطالب ذهبوا إلى الـورَش والمعامل والمطاعم والأرصفة والشـوارع بحثاً عن فرص عمل لمساعدة عائلاتهم.

وتدخل الهيئات التعليمية (المعلمون والمدرسـون) السـجال حـول هـذه القضيـة موضحـةً جانبـاً مـن «تدهـور» العمليـة التربويـة في العراق؛ فبحسـب الدراسـة التـي أجراهـا «مجلـس شـعب بغـداد»، كشـف منتسـبو الهيئات التعليمية مرارةً كبيرة جرّاء معاناتهـم فـي هـذه المهنـة المتعبة التـي تؤدي بهم إلـى أمراض مزمنة كثيرة يعجـزون عن علاجها، وبالتالـي هـم فريسـة للعـوز والمـرض والفقر على الرغم من أن مسـتقبل الأجيـال بأيديهم وأمانة في أعناقهم؛ حيـث مارس بعضهم مهناً لا تليق بمكانة المعلـم ليدفـع بها غائلـة الجوع عن عيالـه؛ لأن ما يُصـرف له من راتب لا يكفيه للمعيشـة، إضافة إلى شـعوره بالغبـن تجـاه ما يحصـل عليه زمـلاؤه في مـدارس الجـذب الجيـد (عُمـل بهـا العـام الماضي، وفيها يكون التعليم مقابل أموال)، مع نسيان كامل لحـال مـدارس المناطـق الشـعبية مـلاكاً تدريسـياً وأبنيـةً، جعلَ بعض المعلميـن لا يلتفت إلى واجباته ولا يحرص على مصير التلاميذ ولا يكلف نفسه عناء السؤال عمّن غاب أو حضر.

تعترف وزارة التربية العراقية 2001 أن نحو 23 في المئة من التلاميذ الصغار (6 - 15) سنة خارج مقاعدهم الدراسية، وأنها غير قادرة على منع ذويهم من استخدامهم في أعمال وحِرف متعذرة

د. علي المرهج

الحصار الاقتصادي والحصار الثقافي

ذاكرة بائع كتب في شارع المتنبي

لـم يكـن مفهـوم الحصـار جديدًا فـي التاريـخ؛ فلطالمـا أعلنت دولـة قوية حصـارًا علـى دولـة أخرى تمنع عنهـا المؤن وتقطـع عليها خطـوط الإمداد العسـكري والاقتصـادي، في محاولـة لعزل الدولة المحاصـرة عن محيطها الإقليمـي والدولـي، وهو إن كان حصـارًا اقتصاديًا، لكنه في الوقت نفسـه حصار اجتماعي وسياسـي وثقافي، بل هو تهديد لمجتمع الدولة المحاصرة بالإفقار والتقييد للحريات، وهو أشـبه بالإقامة الجبرية التي تفرضها سـلطة مـا على فرد من أفـراد مجتمعها؛ لتقييد حركته وحريته فـي التعبير والحياة الاجتماعية الكريمة، ومحاولة حصر وجوده في مكان واحد من أجل عزله عن محيطه الاجتماعي والثقافي.

محاذير شتّى في شارع المتنبي، في مقدمتها رجال الأمن الذين كانوا يحضرون ويُتابعون عبر (المُخبر السري)

الحصار الثقافي الذي
كانت تُمارسه السلطة
على الثقافة أشدّ وأمرّ
من الحصار الاقتصادي

أبو علي

وقد مورِس الحصار في مجتمعنا العربي ولا سيما في بداية الدعوة الإسلامية، حينما ضرب قيادات مكة حصارًا نفسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا على المسلمين وأتباع الرسالة الإسلامية.

وغالبًا ما تكون أسباب الحصار سياسية؛ إما لأن دولة ما تُهدد مصالح دول كثيرة، فتجتمع هذه الدول لتضييق الخناق على هذه الدولة لمنعها من تنمية قوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية وجعلها تعيش أزمة داخلية كي لا تتمكن من معالجة وضعها الاقتصادي المتأزم نتيجة فرض الحصار، أو لوجود دولة ما تُهدد الأمن السياسي لدول إقليمية مجاورة، فيُتخذ قرار الحصار من أجل الحد من طموحات قادتها التوسعية. أعتقد أن الأمرين قد حصلا مع العراق في اتخاذ قرار الحصار الاقتصادي ضدّه.

كانت للحصار الاقتصادي الدولي على العراق عام 1990 إثر غزو الكويت نتائجُ وخيمة على الوضع الاجتماعي والاقتصادي والصحي والنفسي للعراقيين، ولكنه جعل النظام أقوى؛ لأنه لم يعاني من الحصار بقدر ما عاناه المجتمع العراقي، فتسبب في قتل مئات الأطفال ممن لم يستطع أهاليهم توفير الحليب لهم، فكان الحصار الاقتصادي الذي قيل إنه حصار على النظام العراقي وقيادته، حصارًا على أهل العراق، فكان الجوع والفقر والحرمان هبة المجتمع الدولي للعراقيين الذين صاروا يعانون من نظام طاغية مستبد وحصار دولي جائر!. أما النظام؛ فكان في هذا الوقت يبني القصور ويعيش حياة الرفاهية ويؤكد أن الحصار لم يهدده وهو لا زال قويًا، بل زادت نقمته على شعبه، ولا سيما بعد الانتفاضة الشعبانية التي جاءت بعد هزيمة الجيش العراقي في الكويت وخسارتنا للحرب وانسحاب قواتنا المخزي بأمر من (صدام حسين) الذي كان يتبجّح قبل أن يدخل الحرب بأنه لن ينسحب من الكويت مهما حدث، بل خدع القيادات العسكرية والجنود في الجبهة بقوله: (حتى لو سمعتم تصريحا لي بالانسحاب من الحرب، فلا تُصدقوا؛ لأنهم سيُفبركون صوتي!)، الأمر الذي خدع به كل القيادات التي كانت تصدق بأنه بطل ولا يقبل الانسحاب، فلم ينسحبوا وظنوا أن صوت قائدهم الملهم «مُمنتج»، وحدث ما حدث لهم في الكويت وسفوان وطريق الموت الذي استشهد فيه آلاف الجنود.

حاول نظام (صدام حسين) كسر الحصار الاقتصادي بالبحث عن منافذ لتصدير النفط وجلب بعض المواد الغذائية عبر المنافذ غير الرسمية مع الدول المجاورة، ولا سيما مع الأردن وعبر بعض الوسطاء الذين يعرفون طرق التهريب عبر الحدود.

عمل الكُتبيّون في شارع المتنبي على توفير أغلب المصادر والمراجع المهمة في الهندسة والطب والعلوم الطبيعية الأخرى عبر شبكة أصدقاء عرب

في حال يشبه محاولات كسر الحصار الاقتصادي، أتاحت الحكومة لباعة الكتب في شارع المتنبي وغيره جلب الكتب العلمية والثقافية الحديثة بالطرق التي يتمكنون فيها من خرق الحصار وتوفيرها للقرّاء والطلبة، ولا سيما طلبة الكليات العلمية والدراسات العليا، والعمل على نسخها وبيعها لتوفير المصادر والمراجع المهمة.

عمل الكُتبيّون في شارع المتنبي على توفير أغلب المصادر والمراجع المهمة في الهندسة والطب والعلوم الطبيعية الأخرى عبر شبكة أصدقاء عرب لهم في الأردن ودول أخرى لجلب نسخة من مصدر أو مرجع مهم في هذه العلوم، ثم نسخه بنسخ عديدة تسد حاجة الطلبة آنذاك، بل عملوا على توفير كتب في الفلسفة ونقد الفكر الديني كان بعضها ممنوعا من التداول بمخاطرة غير

محسـوبة العواقب أحيانًا في ظل النظام القمعي الدكتاتـوري، الـذي إن تغاضت أجهزتـه بإرادتها عن استنسـاخ المصـادر العلمية، لكنها لا تتسـامح مع مـن يأتـي بكتـب «مشاكِسـة» للوضع السياسـي والفكري القائم.

لـم يكن باسـتطاعة الأدباء - والشـعراء بنحو خاص - إصـدار مجاميعهم ودواوينهم الشـعرية في زمن الحصار؛ لأسـباب عـدّة: إما لعدم توفـر دور طباعة لنشـر النتـاج الثقافـي العراقي وعـدم وجود ورق وأحبـار طباعيـة بسـبب الحصـار، أو لأن دواوينهـم الشعرية أو مجاميعهم القصصية تتعارض مع نظام الفكر السائد أو السلطوي المُهيمن، لذلك لجأ كثير من أدبائنا أيام الحصار لنشر مجاميعهم الشعرية أو القصصية فـي مكاتب الاستنسـاخ؛ لتوثيقها أولًا، وللخـلاص مـن سـلطة الرقيـب ثانيًا، وقد نشَـرت (مكتبـة المدى) لـ(أحمد الشـيخ) و(كريم شـغيدل) أغلـب المجاميع الشـعرية والقصص المستنسـخة أيام الحصار.

عملـتُ فـي شـارع المتنبـي بعد قبولي فـي كلية الآداب - جامعة بغداد عام 1989 بشـكل متقطع، ولكـن في عام 1992 بعد الحصار الاقتصادي على العراق، فضّلت العمل في شارع المتنبي باستمرار. كان علامـة أو أيقونـة شـارع المتنبـي الأسـتاذ (نعيم الشـطري) صاحـب (مكتبة الشـطري)، وهو

نعيم الشطري

مكتبة حنش

الـذي ابتكر مـزاد الكتب، فكان يصـدح بصوته في كل صبـاح يـوم جمعة بقولـه: (نفتح المـزاد، يقول الإمـام علـي (ع): «الكتب بسـاتين العلمـاء»)، ثم يعلو صوته فيقـول: (خير جليس في الزمان كتاب)، يدفع فلان سـعرًا، ويزيـد عليه آخر، ثم يزيد غيرهم، فيجلجل صوت الشـطري بالقـول: «راح أبيع ... راح أصالح» بمعنى توقُّف المزايدة على الشخص الذي دفع أكثر، إلى غير ذلك من الأقوال والأشـعار في حـق الكتب والعلمـاء والأدباء، فكان يُعرف شـارع المتنبي بالشطري، والشطري يُعرف به.

تأسّسـت بسـطيّات ومكتبـات لاستنسـاخ الكتب العلمية، مثل: (مكتبة منصور ناصر)، و(أبو أشـرف)، و(نبيـل المسـيحي)، و(كامـل علميـة)، و(محمـد فخري)، والمهندس (ستار حتيته).

أمـا فـي مجمـع مدينة الطـب في بـاب المعظم؛ فقد تأسّسـت مكتبات لاستنسـاخ الكتـب الطبية حصرًا، كانت أشـهرها (مكتبة الشمس) التي يديرها (د. علـي)، ثـم (مكتبـة الشـروق) التـي يديرها (أبو عمـر)، و(مكتبة الوسـام) التي يديرها (أبو أسـامة) و(ثائر أبو عمر)، ومكتبة لبيع الكتب العلمية يديرها (د. عصـام العامـري) و(د. عبـد الحسـن أبـو فرح)، وهذه المكتبات كسـرت الحصار الثقافي والعلمي على العراق.

ولن أنسـى الصديق (باسـم الراوي) صاحب (مكتبة

الـراوي) الـذي أسّـس مكتبتـه لتوفيـر المصـادر والمراجـع لطلبـة الدراسـات العليـا فـي العلـوم الإنسـانية، وكان موقعهـا مقابـل (مطعـم هـو وهي) قرب مجمع باب المعظم، والصديق (عباس الصحفـي) الذي كان ينسـخ كتـب القانون في باب المعظم، أما في شـارع المتنبـي؛ فقد كان (صفاء السنهوري) قد أسّس مكتبته لنشر الكتب القانونية التي ذاع صيتها إلى يومنا هذا.

كُنّـا نعمل مـع (كريم حنـش) وكذلك (علـي خنجر) على نسـخ الكتب التي تهتم بتاريخ العراق الحديث، ولا سـيما كتاب (حنا بطاطو) وكتب (علي الوردي) التـي برع فـي إعـادة تنظيمهـا وتجليدها الشـاعر (زيـارة مهـدي)، الذي أعـاد تجليـد وتذهيب كتاب (لمحـات اجتماعيـة) عنـد المجلّـد الأشـهر (تجليد الأهرام). أما شـيخُ الكتبييـن (القذيفي)، الذي كان جلُّ همِّه توفير الكتب الشيعية بمصادرها الأصلية؛ فقد كان يشاركه (سيد حيدر) و(مؤيد عبد صوينت) الذي سُـجن بسـبب بيعه لكتب الفكر الشيعي مع (سـعد خيون)، وكان يُساعده أخوه (أحمد) و(عمار أبـو تقـي) و(أحمـد أبو محسـن) و(رسـول) وأخوه (حسـين العبودي) و(جبار الساعدي أبو علي) و(أبو تقـى) و(جمعـة عبـد الله مطلـك) و(أسـتاذ خضير أبو مريم) و(بشـير) و(عماد هاشـم) و(سـيد هاتو) و(سـيد حيدر) و(رحيم الدراجي) و(أبـو جعفر) الذي

الروائي (أحمد خلف)

حميد المختار

قُتـل في أيام الطائفية؛ فقد كانوا يهتمّون بنسـخ وبيـع الكتب الشـيعية الممنوعة في ذلك الوقت. أمـا مكتبة أبو رائد في سـوق السـراي وأبو أحمد. أمـا أصحاب البسـطيّات فـي شـارع المتنبي؛ فقد كان (مـازن) و(قحطـان حبيـب المـلاك) و(توفيـق التميمي) يهتمون ببيع الكتب التراثية والكتب التي تهتم بالشأن العراقي.

كان (صبـاح المسـيحي) يهتـم ببيـع الكتب بشـتّى أنواعها، ولم يتخصص ببيع كتب بعينها، أما (وحيد) و(يوسـف) و(صبـاح الوالـي) و(كفـاح) و(يوسـف) و(كاظـم الحسـن) و(باسـم العكيلـي) وأخوتـه؛ فكانـوا يبيعـون كتبًا متنوعة فـي الأدب وتنوعاته وبعـض كتـب التاريـخ، وشـاركهم فـي الاهتمـام نفسـه (أبـو جمـال) و(عمـاد) و(جمـال) و(ماجـد)، والممثـل (مقـداد النقاش) الـذي كان يهتـم ببيع الكتـب التراثيـة والسياسـية ولا سـيما المذكرات، فيمـا كان المرحـوم (عدنان) - الذي استشـهد في تفجير شـارع المتنبي عام 2007 - هو الذي أسّـس (مكتبة عدنان) المعروفة اليوم بهذا الاسـم، فقد كان يهتـم بجمع مجلات (سـومر) و(المـورد) وجلّ المجلات العراقية القديمة، فضلًا عن كتب التاريخ. كانـت (مكتبـة الفلفلـي) الأشـهر في بيـع الكتب الأدبية القديمة في سـوق السرّاي، أما بسطيات: (القـاص) والروائـي (حميـد المختـار) والروائـي (أحمـد خلف) و(يوسـف إسـكندر) و(أحمد الشـيخ علـي) و(حيدر سـعيد)، وحتى (ثامـر) و(وليد) و(أبو تقـي)؛ فـكان أصحابها يهتمون بجمع نـوادر الكتب

الأدبية، بينما كان (محمد ثامر) وأخوته و(شكر أبو سيروان) و(محسن الدراجي) والفنان التشكيلي (فهد الصكر أبو أحمد) يشترون ويبيعون الكتب الفنية للتشكيليين العالميين والعراقيين. أما الأصدقاء (عباس) و(أبو سلام) ومعه (كريم الجاف)؛ فيهتمون ببيع الكتب الفلسفية، بينما كان (شعلان) و(أبو أمجد) صاحب (مكتبة عشتروت) والمترجم (عباس موسى) يركّزون على بيع الكتب الفلسفية قليلًا، ولكن شغلهم الشاغل كان توفير كتب اللغة والأدب الإنكليزي والفرنسي.

وكان عندنا في شارع المتنبي مجموعة تهتم ببيع الكتب السلفية من أهمهم (أبو حسام) و(أبو صديق) و(أبو شعيب) و(جمال أبو عبد الله) و(علي الكرخي)، أما الأستاذ (صباح أبو سوران)؛ فكان يهتم بكتب التراث الفلسفي والصوفي والكلامي، بينما اهتمّ (أحمد العبادي) و(مصطفى) وأخوته و(أبو ليث) و(أبو فراس) ببيع الكتب التراثية عن بغداد قديمًا وحديثًا.

كانت مهمة (أبو قادر) وأولاده منصبّة على توفير المصاحف بكل طبعاتها النادرة، ولا سيما العراقية والسعودية، وما زال. في حين كانت كتب اليسار الماركسي من مهمة (سعدون هليل)، ويشاركه أحيانًا (كريم حنش) و(علي خنجر) في هذا الاتجاه.

ولم تكن كتب السحر بمنأى عن اهتمام بعض باعة شارع المتنبي، مثل كتب (شمس المعارف الكبرى) و(السحر الأسود) و(السحر الأحمر)، وكتاب (أبو معشر الفلكي)، وغيرها الكثير.

أما نحن؛ فكنّا نحرص على تنويع الكتب بحسب المواسم، ففي العطلة الصيفية نهتم بشراء المكتبات القديمة من الأصدقاء والكتّاب والأكاديميين الذين آثروا الهجرة إلى بلدان مثل ليبيا واليمن للعمل هناك، فكانوا يبيعون مكتباتهم لحاجتهم لأربعمائة ألف دينار لتسديد متطلبات إصدار الجواز وأخذ موافقة للسفر كرسوم تفرضها الحكومة العراقية آنذاك، لذلك كان أغلب المثقفين والأكاديميين ممن يمتلكون كتبًا متفرقة أو مكتبات شخصية يفضّلون بيعها في شارع المتنبي.

في بداية كل عام دراسي، كنّا نحرص على توفير الكتب العلمية في الطب والهندسة، التي تم العمل على جمعها في العطلة الصيفية، إما عبر شرائها من الطلبة الذين اشتروها منّا في العام الذي مضى في حال حافظوا على نظافتها، أو شراء نسخة بإصدار جديد من الكتب الأساسية (المنهجية) من خلال توصية أحد المسافرين لـ(عمّان) ليشتريها لنا من مكتبات الأردن.

وبعد أن ننتهي من العمل في شارع المتنبي بعد الثالثة مساءً، نذهب للسير في طرقات شارع الرشيد لنمر ببعض المكتبات الموجودة فيه، مثل (مكتبة مكنزي) قرب تمثال (عبد الكريم قاسم) الآن؛ لنشتري منها بعض المصادر والمراجع العلمية والقواميس الطبية، ونستمر بالسير في شارع الرشيد لنصل إلى (مكتبة اليقظة العربية) بإدارة (حسن ضايع)، المهتمة بنشر مذكرات السياسيين العراقيين وتاريخ العراق السياسي

الحديث، فنشتري منها بعض المصادر والمراجع حول العراق، لنذهب بعدها إلى مكتبات بداية شارع السعدون، وكنّا نعرف أغلب ما فيها من كتب ودوريات، ولا سيما (مكتبة النهضة العربية) التي كان يديرها (هاشم) و(علي حسن)، وكانت للأول علاقات كبيرة بدور النشر العربية.

كان (أبو إسكندر) صاحب (مكتبة الحضارة) إنساناً صاحبَ روح مرحة، وكنّا نعرف الكثير من كتبه في المكتبة والمخزن، والحال كذلك مع الحاج (بنّاي) صاحب (مكتبة التحرير)، وهؤلاء كلهم كانوا يُحبوننا ويُدخلوننا لمخازنهم، ويُخولوننا في تسعير وشراء بعض الكتب التي طبعوها هم في دور النشر التابعة لهم بسعر مناسب محبةً بنا، أما بعض الكتب الأخرى التي تغيرت أسعارها أيام الحصار؛ فكانوا يطلبون منا أحياناً وضع السعر المناسب لها.

كثيرٌ منهم لم يستطع استيراد الكتب أيام الحصار، ولاسيما (مكتبة النهضة) لـ(بيت حياوي) و(مكتبة دار الكتب العراقية) و(مكتبة دار الكتب العلمية) لـ(بيت الراضي)، و(مكتبة القاموسي) لـ(بيت القاموسي) في شارع المتنبي، و(مكتبة الخاقاني) و(مكتبة الشرق الجديد) التي يديرها (هاشم العزاوي) في محلّة (جديد حسن باشا)، فاعتمدوا على ما كان في مخازنهم من مطبوعات كثيرة لدور عربية مصرية ولبنانية ومن الكويت، فضلا عن مطبوعاتهم القديمة؛ لأنهم في الحصار لم يتمكنوا من طبع كتب جديدة بسبب شحّة الورق والأحبار وقِدَم المطابع وصعود أسعار الطباعة، مما جعلهم يجمعون ما يبيعونه أيام سنوات الحصار من الكتب في المخازن لغرض ترتيب أمور معيشتهم والاستمرار في العمل وديمومته قدر المستطاع.

كان لِكُتُبيّي شارع المتنبي فضلٌ في المعرفة وإدامة فاعلية الثقافة العراقية وتقديم ما يخدم الباحثين الأكاديميين في العلوم الإنسانية والطبيعية على حد سواء.

وهناك محاذير شتّى في شارع المتنبي، في مقدمتها رجال الأمن الذين كانوا يحضرون ويُتابعون عبر (المُخبر السري) كل نشاطات الكتبيين، الأمر

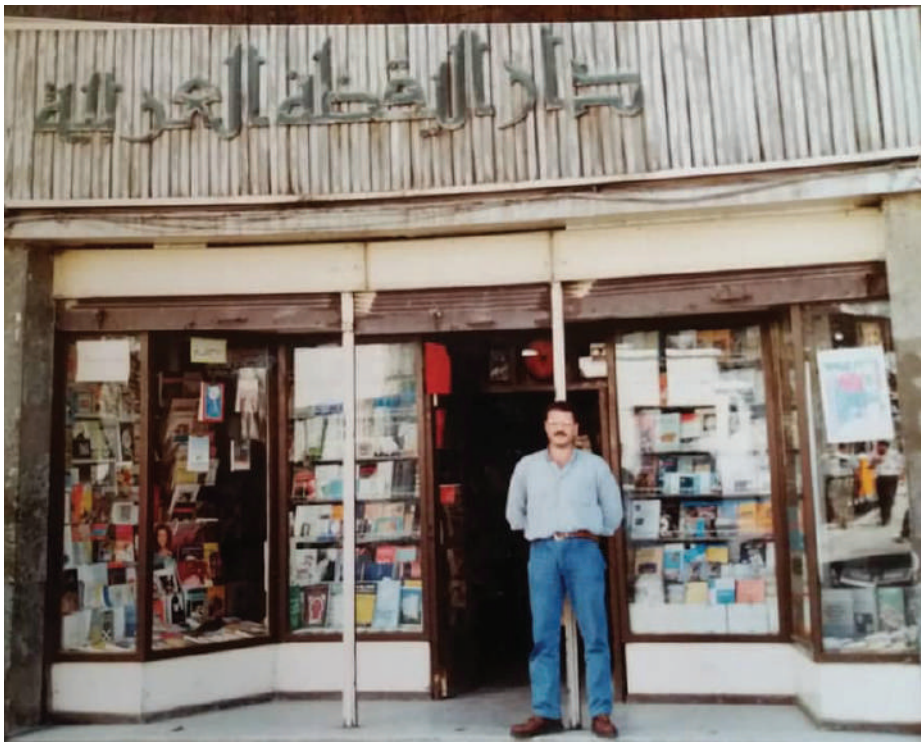

وبعد أن ننتهي من العمل في شارع المتنبي بعد الثالثة مساءً، نذهب للسير في طرقات شارع الرشيد لنمر ببعض المكتبات مثل (مكتبة مكنزي) (مكتبة اليقظة العربية) (مكتبة النهضة العربية) (مكتبة الحضارة)

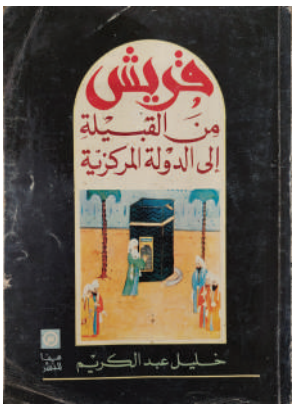

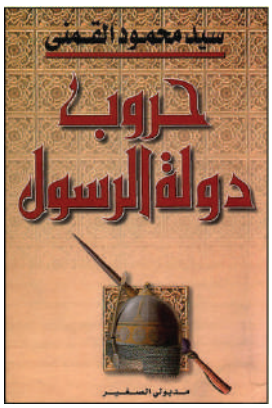

الذي تسبب في اعتقال كثير منهم بسبب بيعهم كتبًا ممنوعة من التداول أو بسبب نسخهم كتبًا نقدية في الفكر الديني والسياسي تمسّ النظام وسلطته أو تُهدد أيديولوجيته الشمولية.

لم تكن كتب (علي الوردي) متاحة للتداول إلا بحدود، والموجود منها كان قديمًا ومهترئًا؛ لذلك كان يُستنسخ بعضها. كما لم تكن كتب (صادق جلال العظم) متاحة للتداول، ولا سيما (ذهنية التحريم) و(ما بعد ذهنية التحريم)، وحتى كتابه (نقد الفكر الديني)، وقد جازفنا نحن بشراء (ذهنية التحريم) و(ما بعد ذهنية التحريم) من الأردن عن طريق صديق أردني ونسخناهما بمئات النسخ. والحال ذاته مع كتب (نصر حامد أبو زيد)، ولا سيما (نقد الخطاب الديني) و(التفكير في زمن التكفير)، بل حتى كتب (محمد أركون)، وأهمها (تاريخية الفكر الإسلامي) و(الفكر الإسلامي - قراءة علمية)، والحال ذاته مع كتاب (الشخصية المحمدية) لـ(معروف الرصافي)، وكتب (سيد محمود القمني) مثل (حروب دولة الرسول) و(النبي إبراهيم والتاريخ المجهول) و(قصة الخلق)، وغيرها. نسخنا كذلك كتب (خليل عبدالكريم)، ولا سيما (قريش من القبيلة إلى الدولة) و(مجتمع يثرب - العلاقة بين الرجل والمرأة) و(شَدو الربابة في أحوال الصحابة)، وغيرها.وفي الوقت الذي كانت تُمارس السلطة العراقية حصارَها الثقافي على العقل النقدي، تجدها تفسح المجال لكل من هبّ ودبّ من مروِّجي الفكر السلفي المتطرف، وتُتيح لهم استيراد كل الكتب السلفية وبيعها بأبخس الأثمان؛ لأنها مدعومة من طرفين: طرف المرسل (السلفيون والدول الداعمة لهم)، وطرف المستقبِل (بكسر الباء) الذي كان يأنس بوجود فكر سلفي يواجه المدَّ الفكري النقدي الذي بدأت ملامحه تظهر في بحث القُرّاء عنه ومحاولة معرفة مفكّريه والسعي لمعرفة أطروحاتهم النقدية.

كُنّا في شارع المتنبي نلحظ حريةً في البيع للكُتبيّين أصحاب اللحى الطويلة والدشاديش القصيرة، وهم يسرحون ويمرحون في شارع المتنبي ويبيعون كُتب أهل السلف بكل ما فيها من نزوع راديكالي متطرف، ولم نلحظ أحدًا من رجالات أمن النظام يعتقل واحدًا منهم، بل كانت تأتيهم تريلات (سيارات شحن كبيرة) مليئة بالكتب من مؤلّفات السلفيين يبيعونها بأسعار زهيدة، ولا أحد يسألهم عن قدرتهم الشرائية وكيف تمكنوا من شراء هذه الكميات الكبيرة، ونحن نعرف أن أغلبهم لا قدرة له على دفع قيمتها!

قد يكون الحصار الثقافي أيام الحصار الاقتصادي بحكم تحديات المرحلة ونزوع الدول المناهضة لسياسة العراق الخارجية مقبولًا، ولكن الحصار الثقافي الذي كانت تُمارسه السلطة على الثقافة أشدّ وأمرّ؛ فهي في الوقت الذي تنتقد فيه حصار المجتمع الدولي عليها نجدها تُمارس حصارها الثقافي على كل فكر تظن أنه معارِض لها، وتفسح المجال على مصراعيه لفكر متطرف قد تستفيد منه لمدة زمنية ما؛ لأنه يُناهض توجّهات

وأيدولوجيات متصارعة معها، ولكنها لم تحسب أن فكرًا متطرفًا كهذا سيكون مثل (سرطان) في جسد سليم، يأكل الأخضر واليابس. وهو ما تحقق بالفعل بعد سقوط النظام، اذ برز الفكر السلفي المتطرف كمحرك اساس للعنف والحرب الطائفية والارهاب الذي اعاق انطلاق مسيرة العراق الجديدة وحملها مضاعفات خطيرة.

كانت سلطة النظام الدكتاتوري البائد تتبنى مقولة: (عدوٌّ عدوِّي صديقي)، لذلك فهي تستقطب كل تيار سلفي «مُتأترث» يستمد حياته وحضوره وفاعليته من نزوعه النكوصي في الرجوع للماضي، وكأن الماضي هو مقياس ما هو كائن وما سيكون.

كانت أيديولوجيا البعث أيديولوجيا «دوغمائية»، ولا سيما في تأكيدها على أن حزب البعث هو «الحزب القائد»، وهي لا تختلف كثيرًا عن أيديولوجيا السلفيين والأصوليين المتطرفين، كما لا تختلف أيضًا عن أيديولوجيا دعاة الدوغمائية الخَلاصية في الفكر الشيعي الذي كان له مدافعون عنه من كُتبيِّي شارع المتنبي الذين كانوا يتصادمون أحيانًا مع السلفيين المتطرفين، وقد يُشاركهم اليساريون في تبنّي رؤية خَلاصية علمانية راديكالية مضادة لكل هذه التيارات.

عاش جماعة اليسار الذين لهم رؤيتهم الخَلاصية معاناةً أشد وحصارًا ثقافيًا لا مثيل له في عراقنا الحديث والمعاصر، وقد تشترك معهم جماعات الخَلاص الشيعي الراديكالي، وكان الحصار الثقافي يتجسد حين رؤية أي واحد منهم بطلّته وتعابير وجهه في تمثّلات البؤس وغياب الشعور بالسعادة.

وكان لهذين التيارين الخَلاصيّين وجودهما المؤثّر في شارع المتنبي الذي يحوي جميع أهل الفكر والثقافة، وكلّنا نعرف ما طال رجال هذين التيارين من تقييد وقمع فكري.

كان أغلب من يعمل في الشارع هم من مجانين الفكر بكل توهّماته ونزعاته (اليوتوبية)، سواء

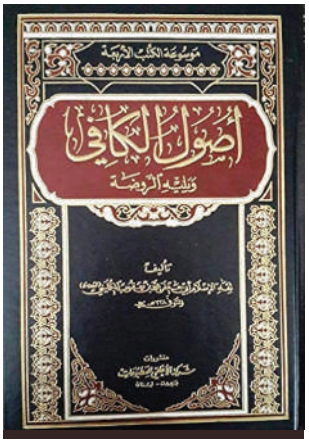

أكانت في الشعر، أو في الفكر، أو في العقيدة.

كان لكل بائع كتب ليلاه؛ فتجد مَن يهوى كتب اليسار الماركسي وفي بسطيّته كتب من هنا أو هناك تشي بأنه يتبنّى هذه الأيديولوجيا أو تلك، وربما تكون ليلى بائع كتب آخر هي جمعه وبيعه لكُتب الحديث والسُنن التي يهيم بها تبنّيًا، ولا سيما مؤلفات أهل السلف من أتباع (أحمد بن حنبل) و(ابن تيمية). وآخر تكون ليلاه كُتب الأصول في الفكر الشيعي، فتجد عنده كتاب (أصول الكافي) للكُليني، أو كتاب (الاستبصار) أو (تهذيب الأحكام) لشيخ الطائفة (الطوسي)، ويلحقها كتاب (من لا يحضره الفقيه) للشيخ (الصدوق)، وكانت هذه كُتب ممنوعة؛ فكان كثير من الباعة يتحدّون النظام ببيعها، وبعضهم تعرّض للسجن ولكنه لم يتخلَّ عن مهمته التي يعدُّها مهمة رسالية لا ربحية فقط، ألا وهي التعريف بالمذهب أو الاتجاه الذي يعتقد برؤيته الخَلاصية.

وهناك من الجنون ما يرتفع بأصحابه ليكونوا من صُنّاع الفنون ومن الشعراء الرافضين لنظام الحُكم ونزعته الاستبدادية في الحُكم، فكتبوا قصائدَ بلغة مكثفة وفيها الكثير من أساليب البلاغة في (التورية) و(الاستعارة) و(المجاز)، وقد ساعدهم في نشرها بعض باعة المُتنبي عبر استنساخها بطريقة تبدو اليوم بدائية، ولكنها في وقتها تُعدَ نوعاً من الرفض والمواجهة الثورية.

أمـا الحصار الثقافـي على أصحاب الفكـر العقلاني النقـدي؛ فهو من قبيل تحصيـل الحاصل في دائرة الفكـر الدوغمائي، فكان الحصـار الثقافي الخارجي والداخلي بمثابـة إعلان عن بدء الصراع «الهووي» بيـن الأطـراف الخَلاصيـة المتنازعـة علـى امتلاك «الهويّـة الأصل» الـذي تدّعي احتـكاره كل ثقافة أصوليـة، لتغييـب «الهويـة الوطنيـة» و«الهويـة الثقافيـة» لمجتمـع متعـدد ومتنوع لـكل جماعة فرعية فيه هويتها الفرعية التي يُسـتكمل وجودها في تنمية الشـعور بـ«الهويـة الوطنية» و«الهوية الثقافيـة» اللتيـن لا تجسـيد لهمـا خـارج تصوراتنا لفاعليـة «التعددية الثقافيـة» في مجتمع طيفي تكتمل هويته الوطنية والثقافية حينما تجد أن في هـذا المجتمـع شـاعرًا أو مفكرًا مـن الطائفة (س) وآخـرَ مـن الدين أو الإثنيـة (ص) عاشـوا في وطن واحـد وشـاركوا فـي صناعـة إبداعه؛ فشـاعر مثل (الجواهـري) مـن النجـف، و(السـياب) و(البريـكان) و(محمـد خضيـر) و(كاظـم الحجـاج) مـن البصـرة، و(حسـب الشـيخ جعفـر) و(لميعـة عبـاس عمارة) و(عبـد الرزاق عبـد الواحد) مـن العمارة، والشـاعر العراقـي الكـردي (بلند الحيـدري)، و(غائب طعمة فرمان) و(فـؤاد التكرلي) و(فائق حسـن) و(محمد غنـي حكمـت) مـن بغـداد، و(حسـين مـردان) من كربلاء، و(داخل حسـن) و(حضيري أبـو عزيز) و(ناصر حكيـم) و(طالـب القـره غولـي) مـن الناصريـة، و(سركون بولص) من الحبّانية ومن سكنة كركوك، و(كزار حنتـوش) من الديوانية، و(طـه باقر) و(ناجح

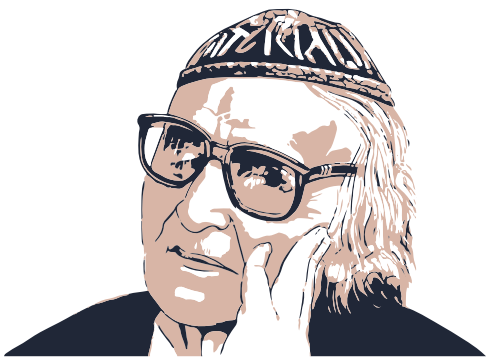

الجواهري

السياب

المعمـوري) و(موفـق محمـد) و(سـعدي الحلي) من بابل، و(مدني صالح) من هيت، و(حسـام محي الديـن الآلوسـي) مـن تكريـت، و(نصير شـمّه) من واسـط، و(ناظـم السـماوي) و(كاظم السـماوي) من السماوة، و(عثمان الموصلي) و(يوئيل يوسف عزيز) و(يوسف حبي) و(سيار الجميل) من الموصل. لكَ أن تُعدد من كسـروا نمطيـة التداول في فهم الهويـة العراقية من أمثال من ذكرتُ ممن حطّموا أيديولوجيا التصور التقليدي للهوية على أنها تمثيل لأنمـوذج إثني أو مذهبي أو ديني مائز عند جماعة نكوصية ما، لتكشـف عن وجـه «الهوية الوطنية» البهـي رغـم كل الحصـارات الثقافية التـي طالتها، لتجعلهـا هويـة متمذهبـة فرعية لا هويـة عراقية وطنيـة، ولـك أن تُعيـد الفحـص والتمحيـص فـي «الهويـة العراقية» لتكتشـف أن (الحصار الثقافي لمثل هكذا هوية متنوعة صنعها مبدعون عراقيون من أطياف العراق لكسـر نمطيـة التصور عن هوية عراقية شـارك في صناعتها من قبل تراث إنسـاني ثقافـي عربـي وإسـلامي، واسـتكمله مبدعـون عراقيون من إثنيات ومذاهب وأديان شتَى.

الحصار والتغيّر الاجتماعي

التعليم أنموذجا

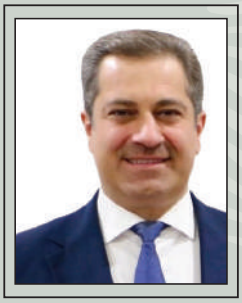

د. وعد إبراهيم خليل

يستذكر العراقيون الحصارَ الاقتصادي الذي فُرض عليهم في تسعينات القرن الماضي بألـمٍ ومرارة؛ كونه يشـكل مرحلة قاسـية عانوا فيها من صعوبـات كبيرة في حياتهم اليومية، وتركت بصمات سـوداء في ذاكرتهم وحفرت فيها عميقا اخاديد لا تُنسـى من العوز والألم. إن سنوات الحصار العجاف ألقت بظلالها على مؤسسات المجتمع كافة، وتقاسـمت المؤسسات حصصها من المعاناة والضرر بأشكال مختلفة وبنسب مختلفة. وقد نال قطاع التعليم ما نال غيره من القطاعات الأخرى من آثار اقتصادية واجتماعيـة وهيكليـة جعلت منه قطاعا مريضا أحوج ما يكون إلى الإصلاح والتأهيل، فـي وقت انشـغل النظام عنـه بهموم أخرى ركزت عليها تاركةً هـذا القطاع الحيوي والمهم الذي يبني الإنسـان ويعلّمه وينمّي ثقافته وقدراته العلمية والتربوية يغرق تدريجيا في مشـكلات متلاحقة أخذت تنخر بنية المؤسسـة التربوية والتعليمية في مستوياتها الدنيا والعليا.

ويمكن إجمـال أبرز ما طرأ على المؤسسـة التعليمية من تغيرات بسبب الحصار بما يأتي:-

1 - التراجع الملحوظ في مكانة المعلمين والمدرسين وأسـاتذة الجامعات نتيجة تراجع دخلهم إلى معدلات لا تليق بهذه الفئة المهمة في المجتمع (رغم أن جميع الفئـات والطبقـات تراجـع دخلها)؛ كونها المسـؤولة عن تربيـة الأجيال الجديدة وتعليمهـا وتثقيفها؛ فقد نشـرت جريـدة المصـور العربي تحقيقا كاشـفا يفضح الأوضاع المعيشية المتردية التي كان يعيشها أساتذة الجامعات العراقية من خلال تصويرهم بشـكل سـري وهـم يرتدون جـوارب وملابـس داخلية ممزقـة أثناء خضوعهـم لعمليـة فحص الـوزن في مركـز اليرموك التـي كانت تسـبق الترقيـات العلمية التي اشـترطت فيهـا الحكومـة حينها أن يضبط التدريسـي وزنه لكي يسـتحق الترقية العلمية، وكانـت نتيجة هذا التحقيق الصحفي الذي أثار ضجّةً في حينها أن ألغت الحكومة قـرار ربط الترقيـة العلمية بالوزن، كما قـررت منحهم بـدْلات مجانية من أحـد المصانـع الحكومية ولمرتين في السنة1.

2 - ترك أعداد كبيرة منهم الوظيفة (وخاصة أسـاتذة الجامعـات) والهجـرة إلى خـارج العراق بحثـا عن دخل يليق بمكانة الأسـتاذ وعائلته، وهنا أشير إلى صنفين: الأول هرب بشـكل مفاجئ وسـافر إلى خـارج العراق عـن طريـق (الشـمال[2])، والثاني خرج بطريقة رسـمية إما بالاسـتقالة مـن الوظيفة (وهو قليـل) أو بتقديم إجازة بدون راتب والسفر ألى ليبيا أو اليمن للعمل في جامعاتها ومدارسها.

3 - انتشـار العمـل المـزدوج لدى موظفي وأسـاتذة الجامعـات ومعلمـي المـدارس، في محاولـة لتوفير دخل إضافي يساعد في مواجهة الظروف الاقتصادية الصعبة الناجمـة عن قلة الرواتب وانهيار قيمة الدينار العراقـي، وكان من أبرز الأعمال (سـائق تكسـي لمن لديـه سـيارة خاصة، أو العمل الحرفـي لمن لديه خبرة في ذلك، أو التدريس الخصوصي بأجر، أو شـراء بعض المـواد المدعومـة فـي الأسـواق المركزيـة وإعادة بيعهـا بسـعر أعلـى، وقد انتشـر كثيرا بيـن المعلمين والمدرسين).

4 - انتشار ظاهرة عمل الطلبة في مختلف المستويات التعليميـة مـن الابتدائية إلى مرحلة الدراسـات العليا فـي الجامعات؛ فقد أصبـح لدى الطالب قناعة بعدم جدوى الدراسة وأنها مضيعة للوقت، والشهادة التي كانت غايته الأساسـية لن تحقق له طموحاته وآماله، فالطالـب الجامعي لن يحصل علـى المنصب والراتب الملائـم الذي يتناسـب مـع اختصاصه ومـا بذله من جهود.[3]

5 - ارتفـاع معدلات التسـرّب الدراسـي فـي مختلف المراحل الدراسـية نتيجة صعوبة الظروف الاقتصادية للعوائل العراقية؛ فقد ترك الكثير من الطلبة دراستهم ولاسـيما في المرحلة (المتوسـطة والإعدادية)، أما الابتدائية؛ فكانت هناك محاسبة (نوعا ما) لولي الأمر فـي حال ترك الدراسـة قبل السـادس الابتدائي، لكن ذلـك لم يمنع من تسـرب التلاميذ وتركهم للدراسـة بسـبب عـدم مقـدرة أسـرهم علـى تلبيـة حاجاتهـم الدراسية.

6 - ارتفاع نِسَـب الرسـوب في المـدارس والجامعات ولأسـباب متعـددة؛ ففـي الجامعـات بـرزت ظاهـرة الرسـوب وتأجيـل الدراسـة فـي محاولـة لتأخيـر الخدمة العسـكرية ولانشـغال فئة كبيـرة في العمل لتوفيـر لقمـة العيش على حسـاب دراسـتهم وتراجع مسـتواهم الدراسي والإحباط الذي يتولد لديهم في حـال التعيين في وظيفـة ما والحصـول على راتب لا يكفي لأسـبوع واحـد من الشـهر. أما فـي المدارس والثانويات؛ فقد أشـارت إحدى الدراسات إلى أنه (من خلال متابعة فوج من التلامذة في المرحلة الابتدائية وجـد أن مـن بين مجموع التلاميـذ الذكور في الصف الأول الابتدائـي في عـام 1992 / 1993 وصل 59,5 % منهـم إلى الصف السـادس الابتدائي ضمن المدة الاعتياديـة، وكانـت النسـب المماثلـة للإنـاث 52,2 %، ولوحظ بأن نسـب الرسـوب والتسـرب عند الإناث أعلى من تلك المتحققة لدى الذكور. أما في المرحلة المتوسـطة؛ فقد بلغت نسـبة الذكور المسجلين في الصـف الثالث المتوسـط عـام 1997 / 1998 68 %

فقـط من المسـجلين الذكور فـي الصـف الأول، أما بالنسبة للإناث؛ فقد بلغت 62 % للسنة نفسها، مما أدّى إلـى بقـاء أعـداد ضخمة في هـذه المرحلة، مما يعنـي كُلَف وجهود إضافية مهدورة لا يمكن الإفادة منهـا وتـؤدي إلـى انخفـاض العمليـة التعليمية في العراق[4].

7 - الإهمـال الواضـح وتراجع التسـجيل فـي التعليم المهنـي؛ إذ تشـير الإحصائيـات إلـى أن (مجمـوع الملتحقيـن في المراكز المهنية لعام 2000 ـ 2001م مـا جملتـه 65750 طالبًـا، منهـم 61861 طالبًـا في الوسـط والجنـوب، و3889 طالبًا في الشـمال، على الرغم من أن هذا العدد وصل إلى 124497 طالبًا في الوسـط والجنوب فقط في عام 1991ـ 1992م، مما يعني انخفاضًا في التسـجيل بنسبة 50 % في المراكز المهنيـة. وكان الفرع التجاري أكثر الفروع تضررًا؛ حيث بلـغ الانخفاض 78.4 %، بينما كانت نسـبة الانخفاض في الفرع الزراعي 38.3 %، وفي الفرع الصناعي 37.8 % في فترة عشـرة أعوام، كما انخفض عدد المعاهد من 278 إلى 236 خلال الفترة نفسـها، وزادت أعدادُ المتسـربين الكبيرة ونسب الرسـوب المرتفعة الوضع سـوءًا؛ فقد تسـرّب 1204 طلاب من المراكز المهنية خلال السنة الدراسية 2000ـ2001م، ورسب 10976 طالبًـا. وقام ما مجموعه 4043 طالبًا بالتسـجيل في البرامـج المهنيـة في شـمال العراق في عـام 2001ـ 2002م، بزيـادة مقدارهـا 24 % منـذ عـام 1996ـ 1997م، ولا تتوفـر أيـة بيانات عـن توزيع الجنس في هذا النوع من التعليم)[5].

8 - بـروز الرشـوة في المجـال التعليمـي وغيرها من القطاعـات الأخـرى (رغم أنه كان أقـل من القطاعات الأخـرى، ولاسـيما الدوائـر والجهـات العسـكرية والأمنيـة التي انتشـرت فيها الرشـوة بوضـوح اكبر)، وهو ما تسبّب في تراجع مكانة المدرسين والمعلمين وأساتذة الجامعات بحسب ما ذكر مسبقا. وهنا أشير إلـى التكتـم الواضـح مـن الدولـة عـن الحديـث حول هذه الأوضاع، وخاصة الرشـوة، حتى إن وزارة التعليم العالي أجبرت أحد طلبة الدراسات العليا على مناقشة رسالته للماجستير في علم الاجتماع عن الرشوة داخل غرفة رئيس القسـم، ومنع أي شخص من حضور هذه المناقشة أو الحديث عنها، مع تأنيب (مبطن) للقسم العلمي لأنه سمح بالكتابة عن موضوع (حسّاس) في تلك الفترة.

9 - عدم شعور نسبة كبيرة من الطلبة بالتعاطف مع المجتمع؛ إذ أصبحت شـؤونه لا تهمهم وليست لهم أيـة صلـة بالمجتمع، كما تولدت لـدى الكثيرين منهم الرغبة بالهجرة والتخلي عن المجتمع6.

10 - التراجـع الملحوظ في مكانة الجامعات العراقية بعد انسـحاب الكوادر الأجنبية التي كانت تدرّس فيها وهجرة الكفاءات منها بشـكل ملحوظ، كما انقطعت الجامعـات عـن التواصل مـع قريناتها مـن الجامعات الأجنبيـة، وهـذا بالتالـي أسـهم في عزلـة علمية عن مواكبـة التطور العلمـي والأكاديمـي العالمي الذي كان يأخذ صورًا كثيرة من آليات التعاون بين الجامعات الأجنبية والعراقية.

الانخفاض في معدل الإنفاق على التعليم خلال فترة الحصار الاقتصادي، ربما يكون هذا أحد أهم الأسباب التي أدّت إلى تراجع مستويات التعليم في العراق

11 - الانخفـاض فـي معـدل الإنفـاق علـى التعليـم خـلال فتـرة الحصـار الاقتصادي قياسـا بما سـبقها، ممـا انعكس على ضعـف الاهتمـام بالتعليم وتردي أوضاعه، ولاسـيما أن أعداد الطلبـة كانت أكبر، وربما يكـون هـذا أحد أهم الأسـباب التـي أدّت إلـى تراجع مسـتويات التعليـم في العـراق في تلـك الفترة وما تلاهـا، وبالخصـوص التعليـم الأولـي الـذي يقـدّم مخرجاته للتعليم العالي، وهي مخرجات بدأت تضعف تدريجيا، إضافة إلى بروز التسـرب الدراسـي كما ذكرنا سابقا. وقد أشارت إحدى الدراسات إلى التراجع الكبير فـي الإنفـاق الحكومـي علـى التعليـم فـي العراق، والجدول التالي يوضح ذلك:[7]

جدول ٧ - متوسطات معدلات الإنفاق على التعليم بالدولار

متوسط معدلات الإنفاق ١٩٧٨- ١٩٨٢			متوسط معدلات الإنفاق ١٩٩٥- ١٩٩٩		
السنة	دينار	دولار= ٠.٣٣٣ دينار	السنة	دينار	دولار = ٢٥٠٠ او٧٠٠ او١٠٠٠ او١٣٠٠ أو ١٨٠٠ دينار،على التوالي
١٩٧٨	١٥٤.٩	٤٦٤.٧	١٩٩٥	٣٢٦٠٠	١٣.٠٤
١٩٧٩	١٧٤.٨	٥٤٢.٤	١٩٩٦	٢٩٨٠٠	٤٢.٥٧
١٩٨٠	٢٠٩.١	٦٢٧.٢	١٩٩٧	٤٠٢٠٠	٤٠.٢٠
١٩٨١	٢٦٩.٢	٨٠٧.٦	١٩٩٨	٣٧٦٠٠	٢٨.٩٢
١٩٨٢	٣١٢.١	٩٣٦.٣	١٩٩٩	٤٢٨٠٠	٢٣.٧٨
مجموع الفترة		٣٣٧٨.٢	مجموع الفترة		١٤٨.٥٢
معدل الفترة		٦٧٥.٦٤	معدل الفترة		٢٩.٧

الجدول من عمل الباحث

من الجدول يتضح أن معدل الفترة للإنفاق على التعليم بكافة فئاته قد انخفض من ٦٧٥.٦٤ دولارا للطالب الواحد في فترة ما قبل الحصار إلى ٢٩.٧ دولار في فترة الحصار . وقد كانت نسبة الانخفاض في معدل الإنفاق على التعليم في فترة الحصار تساوي ٩٦% عن ما كان عليه قبل فترة الحصار الاقتصادي .

12 - فتح باب الدراسات العليا على مصراعيه لتعويض النقص الحاصل في الكوادر التدريسية، وقد تم اعتماد آليات جديدة لم تكن معتمدة مسبقا في القبول في الدراسات العليا، مثل قبول جميع المتقدمين، وتوسعة المقاعد بشكل كبير، والقبول الخاص الذي كان يُمنح من قبل مسؤولين كبار في الدولة، ومنح درجات وامتيازات لبعض الفئات في القبول؛ مما أتاح الفرصة للبعض من أنصاف المتعلمين للدخول إلى الدراسات العليا والحصول على شهادات ما كانوا يحلمون بالحصول عليها.

إن التغير الذي شهدته المؤسسة التعليمية هو جزء من التغيير الكبير الذي تركه الحصار على المجتمع العراقي وبقيت ارتداداته لسنوات طويلة حتى بعد رفع الحصار، وقد أسّس هذا التغيير لمرحلة ما بعد الاحتلال الأمريكي من خلال تدنّي المستوى التعليمي وقلة الاهتمام بالتعليم، وغيرها من السلبيات التي أدّت إلى إضعاف هذه المؤسسة الحيوية التي كان يُضرب بها المثل في الرصانة العلمية والكفاءة والالتزام، ونقلها من خانة المؤسسات التي تبني المجتمع وتطوّره إلى مؤسسات شكلية استهلاكية ضعيفة لا تستطيع مواكبة التطور الكبير الذي حصل في مجال التعليم وأنظمته وأساليبه، إنها فترة مريرة قاسية لا يمكن نسيانها وتجاهل آثارها الكبيرة على المجتمع ومؤسساته.

الهوامش(Endnotes)

1 - هاشم حسن، بعد خضوعهم لقرار الوزن.. الأساتذة يطالبون ببدلة أنيقة وقميص وحذاء وتعويضات عن انخفاض الوزن، مجلة المصور العربي، بغداد العدد 21 أيار مايو 1995.

2 - المقصود بـ شمال العراق هي المحافظات الكوردية الثلاث (أربيل - دهوك - السليمانية) التي كانت معزولة عن العراق بعد حرب الكويت؛ كونها خضعت لقرار حظر الطيران وأصبحت مستقلة عن إدارة الدولة العراقية في التسعينات، وكان تهريب الأشخاص والنفط والسكائر وبعض المواد الغذائية رائجا فيها حتى تغيير النظام في 2003.

3 - محمد ذنون زينو الصائغ، الحصار الاقتصادي والاغتراب الاجتماعي وأثرهما في سلوك الطلبة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، 1998، ص119.

4 - سوسن شاكر الجلبي، أثر الحصار الاقتصادي على الجوانب الصحية للأطفال في العراق، دراسة منشورة على الموقع : http://arabpsynet.com/archives/op/OP.Jalabi.embargo.htm

5 - التعليم في العراق بين الماضي والحاضر، موقع إرفاد ، http:// www.irfad.org/ar

6 - محمد ذنون زينو الصائغ، مصدر سابق، ص125.

7 - عباس ناجي جواد، دراسة قياسية لأثر الحصار الاقتصادي على الإنفاق الحكومي على التعليم في العراق، مجلة جامعة تكريت للعلوم الاقتصادية والإدارية، جامعة تكريت، كلية الإدارة والاقتصاد، المجلد 1 العدد 2 ، 2005 ، ص70

الحصار بين النظام والمعارضة قبل 2003

دراسة مقارنة

أنور المؤمن

مدخل

الحصـار الـذي فرض على العراق (1990 ـ 2003)، له قصصٌ لا نهاية لها، وصورٌ لا حصر لها؛ فهي ثلاث عشرة سنة عجاف، طحنَت المجتمع والإنسان العراقي، وامتـدّت آثاره الثقافية والنفسـية والاجتماعية والاقتصادية والسياسـية حتى الوقت الحاضر، فهو لم يكن حصارا أو مجرد عقوبات اقتصادية، وإنما هو سابقة فـي تاريخ التنظيم الدولـي، فضلا عن أنه ابتدأ بحرب عسـكرية وانتهى بمثلها، وتخلّلتـه انتفاضة شـعبية وحرب عسـكرية أخرى، أدخلت الشـعب العراقي في متواليـات المـوت، موت الإنسـان، والقيم، موتٌ كبير لحـرب، وحصار، كأنها كل حروب الدنيا وحصاراتها.

صور تدمير الجيش العراقي على الطريق السريع رقم (80) المؤدي الى البصرة، قتل 11,000، عسكري عراقي، وتم تدمير 2000 مركبة واليات عسكرية كانت في طريقها الى البصرة منسحبة من الكويت

ابتدأ الحصار الاقتصادي بحرب عسكرية هي الاعنف في تاريخ الانسانية اذا تقابل بحدود مليوني جندي وجهـا لوجه، في مسـرح العمليات، مـن 17 كانون الثانـي، إلـى 28 شـباط 1991، اسـتمرت لمدة 42 يومـا، قادتهـا الولايـات المتحـدة الامريكيـة، مع 34 دولـة اخرى من بينها تسـعة دولا عربية (مصر، السـعودية، سـوريا، المغـرب، البحريـن، الكويـت، عمان، الامارات، قطر)، قتل فيها 100,000، عراقي عسـكري ومدنـي و80,000 اسـير، و5,000 جريح، واذا مـا اخترنـا صورة مـن صور تلك الحـرب فنختار، صـور تدمير الجيـش العراقي على الطريق السـريع رقـم (80) المـؤدي الـى البصـرة، قتـل 11,000، عسـكري عراقـي، وتم تدميـر 2000 مركبة واليات عسـكرية كانـت في طريقها الى البصرة منسـحبة من الكويت، اما مؤشـرات تلك الحرب فهي: تنفيذ 118 الـف طلعة جويـة، واسـقاط 170 الف قنبلة علـى العـراق، وتدميـر800 هـدف للبنيـة التحتيـة العراقيـة العسـكرية والمدنيـة، و قـدرت خسـائر العراق بـ 190 مليار دولار[1].

أمـا نهايـة الحصار الاقتصـادي؛ فكانـت بحرب عام 2003، العمليـة العسـكرية التـي ابتـدأت فـي 20 آذار، وانتهـت المواجهـة المسـلحة بيـن القـوات الأمريكيـة والجيش العراقي بسـقوط تمثال رئيس النظام السـابق في ساحة الفردوس ببغداد في 9 نيسـان 2003، بالرغم من أنهـا بالتوصيف القانوني والواقعـي امتـدّت حتـى نهايـة عـام 2011، مـع انسـحاب القوات الأمريكية من العراق. استخدمت الولايات المتحدة في هذه الحرب القوة العسكرية خارج إطار الشـرعية الدولية؛ حيث لم يصدر مجلس الأمـن قراراً يمنحها الحـق أو التفويض الدولي في حربها على العراق لنزع أسلحة الدمار الشامل.

وفي المنهج المقارن بين تلك الحربين، نجد دراسـة (ريتشـارد هاس) في كتاب (حرب الضرورة والاختيار - سـيرة حربيـن على العـراق)، يذهب فيهـا إلى أن حـرب تحريـر الكويت كانـت تمثل ضـرورة للولايات المتحـدة الأمريكية، وتأكيدا لسـيادتها على العالم كقـوة عظيمـة لا ينازعهـا طـرف آخر، فـي مرحلة مثّلت انهيار الاتحاد السـوفيتي واحتاجت الولايات المتحـدة أن تثبت لنفسـها وللعالم تلك السـيادة، فكانت تحتاج إلى الفرصة السانحة والحجج الشرعية لحـرب (عادلـة) أو لدفـع خطر داهـم، وإذا بالعراق يقـدّم نفسـه موضـع الخطـر المطلـوب والعـدو الـذي تبحث عنه فـي تلك الحقبة الحرجة. في حين يذهـب (هاس) إلـى أن حرب عـام 2003 جرت في ظـروف مختلفـة عـن تلـك الظـروف؛ حيـث نفوذ القـوى الدولية في مرحلة عالـم متعدد الأقطاب تختلـف عـن مرحلـة هيمنـة الولايـات المتحـدة الأمريكيـة كقطب أوحد على العالم، فكان وقوف السـوفييت والصينييـن بجانـب الولايـات المتحدة إلـى حـد موافقـة السـوفييت على بيان مشـترك يدعم قرار مجلس الأمن في الحرب لتحرير الكويت، فـي حيـن لم يؤيد ثلاثـة من أعضـاء مجلس الأمن الدائميين على قـرار الحرب في العراق عام 2003، وهم فرنسا، والصين، وروسيا.

وبالرغـم مـن أن (هـاس) يؤكـد أن هنـاك تشـابها كبيـرا بين حربي العراق، حيث خـاض كلتيهما رئيسٌ أمريكـي يُدعى (جورج بوش) فـي مواجهة الرئيس العراقـي نفسـه كعدو واحـد في الحربيـن (صدام حسـين)، إلا أن ثمـة اختلافـا في دوافـع وأهداف وشـخصيات الحربين، فضلا عـن أن النتائج والآليات التـي دفعت الولايات المتحـدة الأمريكية للدخول فيهما والغطاء الشـرعي والتأييـد الدولي اختلفت كليـا مـا بيـن عـام 1991 وعـام 2003، مـن حيث الظـروف الدولية والأدوار الشـخصية المؤثرة في الإدارة الأمريكيـة، مثـل نائـب الرئيـس الأمريكـي (ديك تشـيني) ووزيـر الخارجية (كولن بـاول)، فكل شـيء مدعاة للمقارنة بيـن الحدثين، وما جرى في تلك الحقبة[2].

وحتـى شـهادة الفتـاة الكويتيـة (نيـرة) أمـام الكونغرس الأمريكي في 10 تشـرين الأول 1990، التـي اعتُقد حينها على نطاق واسـع أنها شـهادة زور، عُـدَّت أكثـر تأثيـرا مـن شـهادة وزيـر الخارجيـة

الأمريكـي (كولن بـاول) في مجلـس الأمن يوم 5 شـباط 2003، وعرضِـه لـ(قـارورة الجمـرة الخبيثة) التي ادّعى امتلاك العراق لهذه الأسلحة.

قرارات مجلس الأمن وفرض الحصار الاقتصادي على العراق

والحـق لـم يسـبق لمجلـس الأمـن أن اسـتخدم العقوبات الدولية الشـاملة مثلما حصل مع العراق بعـد احتـلال الكويـت؛ إذا إن العمل بنظـام الأمن الجماعي وما يعنيه من استخدام للقوة العسكرية، لم يُسـتخدم إلا مرتين: الاسـتخدام الأول كان عام 1950 عنـد بدايـة الحـرب الكوريـة؛ حيـث أوصـى مجلـس الأمن بغياب الاتحاد السـوفيتي بتشـكيل تحالـف دولـي تحـت قيـادة الولايـات المتحـدة الأمريكية في الحرب ضد كوريا الشـمالية، وقد أثار ذلـك القرار إشـكالات قانونية لا تـزال تناقَش حتى يومنا هذا. أما المرة الثانية التي تم اسـتخدام فيها القـوة؛ فكانـت في ظرف اسـتثنائي جـدا في عام 1961، حيـث أذِن المجلـس بعـد مقتـل أول رئيس وزراء لجمهورية الكونغو (لومومبا) وسقوط طائرة (همرشـولد) الأميـن العـام للأمـم المتحـدة بيـن عامي (1961 - 1964)، باستخدام القوة كحل أخير لمنع نشـوب الحرب الأهلية ولوقـف القتال الدائر بين طرفَي النزاع[3].

في حين نجد أن عدد القرارات الدولية حيال العراق، منذ بدايـة الاجتياح العراقي فـي آب 1990 وحتى نيسـان 2003، قـد وصـل إلـى 67 قرارا، اسـتندت جميعا إلى الفصل السـابع، باستثناء القرار 660 في 2 آب 1990 الـذي صـدر فـي نفس يـوم الاجتياح، والذي أدان فيه المجلس الغزو وطلب الانسـحاب مـن الكويت مباشـرة دون قيد أو شـرط. ثم أصدر المجلـس القـرار 1483 فـي 22 أيـار 2003، الـذي بموجـه تـم وصـف الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وبريطانيـا دولتين قائمتين باحتلال العراق. وبالرغم مـن اسـتمرار القرارات الدولية بعد سـقوط النظام السياسـي العراقـي وفقـا للفصـل السـابع؛ إلا أن طبيعـة القرارات اختلفت فـي مضمونها وصيغتها كثيرا.

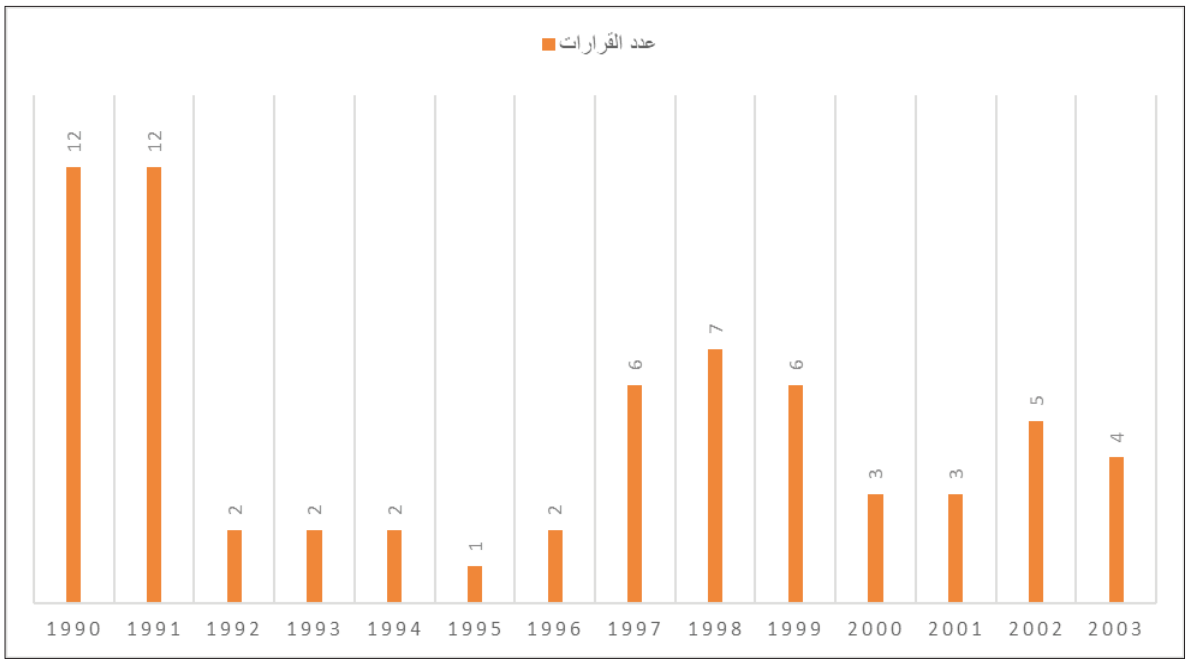

جـدول رقـم (1) يوضح عدد القرارات ضمـن الفصل السـابع التي صدرت عن مجلـس الامـن تجاه العراق خلال حقبة الحصـار الاقتصادي (1990 ـ 2003)، من اعداد الباحث[4].

وحتـى على مسـتوى السـوابق التاريخية من حيث نوعيـة القـرارات؛ نجـد أن القرار 687 في 3 نيسـان 1991، والـذي أطلـق عليه (أبـو القـرارات)، يتألف مـن 3900 كلمـة و34 مادة، وهو أطـول قرار في تاريـخ الأمـم المتحـدة، ويتعلـق برجـوع السـيادة والاستقلال والسـلامة الإقليمية للكويت وعودة حكومتها الشـرعية، ووضع شـروط محددة لوقف إطـلاق النار رسـميا، وإعادة حالة الحـدود، وتدمير الأسـلحة، والتعويضات، والعقوبـات، والمحتجزين، والإرهاب الدولي، وغيرها.

النظام السياسي السابق وفرض الحصار

فـي الواقـع، إن الدولـة العراقيـة بجميـع أركانهـا وصلـت إلـى حالـة مـن الانهيـار والضياع بعـد عام 1990، ويرجـع ذلـك أساسـا إلـى الحصـار الدولـي الذي فرضته الولايات المتحدة الأمريكية من خلال قـرارات مجلـس الأمن، واسـتمرار سـيطرة النظام السياسـي بقيـادة (صـدام حسـين) علـى مقاليـد الحكـم؛ فالحصـار الاقتصادي المفروض ووحشـية النظام السـابق تسـبَّبا فـي مَحق حيـاة العراقيين، وتدمير المجتمع بكامله وجعله بحالة من الشحوب والخـواء والاعتـلال، وعزلَـت الدولـة العراقية عن محيطها الإقليمي والدولي[5].

تلك المعادلـة المتمثّلة باسـتمرار النظام والحصار معـا، دفع الشـعبُ العراقي ثمنَهـا بوصفها محنة مزدوجـة ومركّبـة، حيـن أمسـت الدولـة العراقية بيـن المطرقة والسـندان، إلـى درجة صُـوّرت فيها العقوبات الدولية تجاه العراق كالذي يُسقِط طائرة مدنيـة بـ(300)، راكب لإنقاذها مـن خاطف واحد؛ لذلك أدّى الحصار الذي ساهمت الولايات المتحدة الأمريكيـة في أحكامه وتنفيـذه وراء القرارات التي أصدرها مجلس الأمن إلى الدرجة التي جاءت معها النتائـج معاكسـةً فـي بعـض الأحيـان، فقـد حوّل النظام السابق بوصلة نقمة المواطنين ومصائبهم وجوعهـم باتجاه أمريكا، وعدّها عـدوًا يريد القضاء علـى العـراق كدولـة بدلا من أن يسـاعد الشـعب العراقي للخلاص من نظام (صدام حسين)[6].

وعلى العموم، ومن خلال تتبعنا لسياق المؤشرات التي ذُكِرت من حيث استخدام القوة العسكرية ضد العـراق، ومؤشـرات قـرارات مجلس الأمـن؛ يمكن التوصّـل إلى تقسـيم حقبة الحصار علـى مرحلتين، هما: مرحلة الحصار الصلب، ومرحلة الحصار المرن.

إذ تبـدأ مرحلة الحصار الصلب عام 1990، حينما بدأ مجلـس الأمن بفرض حزمة من العقوبات المتتالية في السـرعة والشـمول على العـراق، فوصل عدد القرارات في الأشـهر السـتة الأولـى للأزمة منذ 2 آب 1990، ولغاية كانون الثاني 1991، إلى 12 قرارا ضمن الفصل السـابع، وبقي مؤشـر إصـدار قرارات مجلـس الأمـن مرتفعـا خـلال عـام 1991، فأصدر المجلـس 12 قـرارا، وبعدهـا بدأ بالانخفـاض حتى وصـل إلى عـام 1995، حيـث أصدر المجلـس قرارا واحدا هو القرار رقم (986) المتعلق ببرنامج النفط مقابـل الغـذاء، والـذي دشّـن المرحلـة الثانية من الحصـار (مرحلة الحصـار المرن)، التـي امتددت إلى سـقوط النظام السابق واحتلال العراق في نيسان 2003.

ولـم يعتـرف النظـام السـابق، كأي نظـام مهزوم عسكريا واقتصاديا بعد الحرب وفرض الحصار عليه، بانتصـار الطرف الآخـر في محاولة لتجنب الأسـوأ، كمـا فعلت اليابـان مثلا! بل علـى العكس، نجد أن دعايـة وإعـلام النظـام السياسـي، والمنشـورات الحزبية العامة والخاصة، تذهب إلى أن ما جرى كان يندرج ضمن أمرين: أولهما هو المؤامرة ضد العراق مـن الأنظمة العربية والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهـا، والأمـر الآخـر هـو عدالـة الحـرب وغـزو الكويت. وفيما يتعلـق بالأمر الأول، فإن المؤامرة كانت تهدف من وجهة نظره إلى[7]:-

- تحجيـم قـدرات الجيش العراقي كقوة رئيسـة ومتعاظمة في الشرق الأوسط.
- تدمير أسـلحة العـراق الكيميائيـة والبيولوجية والنووية.
- الضغط على العراق واحتوائه للقبول بمشروع التسـوية مـع الكيـان الصهيونـي في الشـرق الأوسط.

ويقدّم النظام السياسـي العراقي من وجهة نظره عناصر المؤامرة ملخّصاً إياها بما يأتي:-

- العقوبـات الأمريكية على العراق بعد 45 يوما من توقف الحرب في 22 أيلول 19888.
- مصادقـة الكونغـرس الأمريكي علـى اللائحة التشريعية الخاصة بفرض عقوبات على العراق في 27 تموز 1990.
- انخفاض أسـعار النفـط وأثره علـى العراق مع تراكـم المديونية وضعـف الاقتصـاد العراقي الـذي كان يحتـاج إلى تنشـيط، والـذي اعتبره النظـام السياسـي إعلان حالة حـرب في قمة بغداد في أيار 1990.
- سـرعة إصدار قرارات مجلس الأمن وعقوباتها الشاملة.
- تدمير الجيش العراقي المنسـحِب من الكويت علـى الطريـق الحـدودي بين الدولتيـن تدميرا شاملا.

وذلـك فـي الوقت الذي اعتمد فيـه النظام فكرة عدالة الحرب، التي أسندها على أساس حق العراق في اسـتعادة الكويت كجزء مـن الأراضي العراقية تاريخيـا، الأمـر الـذي عجّل بهـذه العمليـة (عملية اجتيـاح الكويـت) هـو سـلوك النظـام السياسـي الكويتـي فيمـا يتعلـق بالمسـاعدات المالية التي قدّمتهـا الكويت للعراق إبّان حـرب الخليج الأولى، ثم عاد وعدَّها ديونا حية واجبة الدفع على العراق، فضـلا عن خفض أسـعار النفط عبر إغراق السـوق العالميـة إلى أن وصل سـعر البرميل إلى (7) دولار بدلا من (21) دولارا.

أمـا تعاطي وتعامل النظام السـابق مع مرحلة الحصار؛ فكانت على عدّة مستويات، هي:-

أولا: نجـد فـي إحـدى النشـرات الداخليـة لحـزب البعث إشـارة بشـكل ضمني وغير مباشـر إلى دور القيـادة الحزبيـة والسياسـية (صـدام حسـين) في عدم التحضير الجيد والاستعداد لأزمة التعامل مع الكويت، وسوء تقدير الموقف الإقليمي والدولي،

إذ تنص الوثيقة على: (عدم إلغاء دور القيادات في سبق النظر، والعمل على تهيئة ما هو ممكن على مستوى مسرح العمليات وعلى مستوى خنادق المنازلة الدفاعية، على أساس ما يسمح به الظرف والإمكانات)[9].

ثانيا: تشبّث شخوص النظام السياسي في دائرة الحكم بالادعاء ان بقائهم في السلطة هو الذي اسهم في درء المجاعة التي كان من المحتمل أن تحدث في العراق، فضلا عن تمكّن النظام السياسي من الانتقال وتحويل الحصار الصلب والمحكم إلى حصار مرن؛ فالحصار الذي ابتدأ منذ عام 1990 قبيل وبعد الحرب كان صلبا ومحكما للغاية من خلال المؤشرات الآتية:-

- حجم الدمار والخسائر المادية والبشرية الهائلة التي أعقبت حرب تحرير الكويت مباشرة.
- الانتفاضة الشعبية في آذار 1991 (الانتفاضة الشعبانية)، والتي أعقبت الحرب وهدّدت النظام السياسي قبل أن يتكمن من قمعها.
- القرارات الدولية القاسية والمُثقلة بالعقوبات ونوعيتها مثلما ذكرنا سابقا، وعلى سبيل المثال القرار 687 في 3 نيسان 1991، الذي أطلق عليه (أبو القرارات).
- اهتزاز النظام السياسي بسبب ضعف الأجهزة الأمنية والقوات المسلحة، فضلا عن محاولة شقّ النظام من خلال هروب (حسين كامل) إلى الأردن، وقيادات عسكرية اخرى كرئيس اركان الجيش ومدير الاستخبارات، وسعيهم لتغيير النظام السياسي في العراق.
- القطع التام للعلاقات الدولية والثنائية بين العراق وبقية دول العالم باستثناء الأردن.

وفي مرحلة الحصار المرن، تجاوز النظام شيئا فشيئا تلك الآثار من خلال استيعابه للصدمة، وبدأ بالتحول والمرونة في التعاطي مع آثار الحصار، وهذه المرحلة تميزت بما يأتي:-

- تجاوز مرحلة الحرب ومعالجة جزء من آثار الدمار الذي لحق بالبنية التحتية العراقية في جميع القطاعات المدنية والعسكرية، والتي بدأت ثمارها بعد العام 1995.
- تجاوز جزء من الضعف في المؤسسات الأمنية والعسكرية من خلال تأسيس مليشيات (جيش القدس)، و(فدائيو صدام)، وتجاوز الأزمة السياسية بعد قتل (حسين كامل) في بغداد.
- اتخاذ قرارات دولية أقل وطأة من الناحية الإنسانية والصحية والغذائية، وتطبيق برنامج النفط مقابل الغذاء بعد عام 1995.
- عودة علاقات العراق الخارجية مع العديد من دول الجوار والمنطقة الإقليمية والدولية، وتحرك عجلة التجارة والاستيراد من الخارج.

وبالرغم من تجاوز النظام السياسي لمرحلة الحصار الصلب والتقاط أنفاسه بعد عام 1996؛ إلا أنه انهار وسقط بمدة قصيرة بحدود 29 يوما من بدء العمليات العسكرية الأمريكية عام 2003، فلم يكن قادرا على تجاوز هذه العقوبات والمراوغة أكثر بسبب موقف الإدارة الأمريكية من النظام السابق، التي وضعت شرط تغيير النظام أساسا لرفع العقوبات؛ لذلك كان هناك جدل وافتراضات فيما لو أراد النظام السابق إنهاء العقوبات المفروضة من قبل مجلس الأمن، فلم يكن ذلك ممكنا دون موافقة الولايات المتحدة الأمريكية، لذا وقع الشعب العراقي في محنة رهيبة تمثّلت برسوخ الصورة الخارجية لرئيس النظام (صدام حسين) كشخص قاسٍ وغير مكترث بأوضاع العراقيين ومعاناتهم من جرّاء العقوبات، وفي الوقت نفسه وجود الرفض الأمريكي لرفع العقوبات عن العراق طالما بقي (صدام) في السلطة. مثّلت هذه المعادلة استثماراً لطرفي الأزمة (النظام السابق، والولايات المتحدة الأمريكية)؛ فالولايات المتحدة الأمريكية كانت تلقي باللوم في المعاناة الإنسانية للشعب العراقي على النظام السابق بوصفه دكتاتوراً لا يرحم، والنظام السابق يحمّل

البيان الختامي لمؤتمر لندن 2002 (يحمّل النظام - النظام البعثي السابق - المسؤولية الأولى في فرض الحصار والعقوبات على العراق

الولايات المتحدة الأمريكية المسؤولية نتيجة موقفها المتصلب من العقوبات الدولية.

المعارضة السياسية خارج العراق

كان لسياسة النظام البعثي في العراق الأثر الكبير في ظهور العديد من التنظيمات والأحزاب المعارضة لتلك السياسة، وأخذت تلك التنظيمات تتسع بشكل كبير بعد سيطرة (صدام الحسين) على مقاليد الحكم في العراق في عام 1980، وقد أوغلت الأجهزة الأمنية والمخابراتية للنظام في قمع جميع أشكال المعارضة العراقية من خلال التصفيات الجسدية داخل العراق قبل عام 1990، فضلا عن التصفيات خارج العراق، سواء تلك التي تمّت بعلم أجهزة مخابرات الدول المعنية أو بدونها. ولكن تغيّرت الظروف بعد عام 1990؛ إذ التحق الآلاف من المدنيين والعسكريين ومن ضمنهم عناصر من صلب النظام وحزبه إلى صفوف المعارضة العراقية في الخارج؛ بسبب ظروف الحصار والاضطهاد في داخل العراق، لذلك نجد أن المعارضة العراقية خلال حقبة الحصار تكثّف نشاطها على الساحتين الأوروبية والأميركية، فضلا عن الدول الإقليمية كسوريا وإيران؛ حيث استغلّت المعارضة العراقية موقف المجتمع الدولي والغضب الإقليمي الناتج من الغزو العسكري العراقي لدولة الكويت، فعقدت عدّة مؤتمرات، أهمها: مؤتمر دمشق 1990 (لجنة العمل المشترك)، مؤتمر بيروت 1991، مؤتمر فيينا للمعارضة العراقية (1992)، مؤتمر صلاح الدين للمعارضة العراقية (1992)، مؤتمر نيويورك للمعارضة العراقية (1999)، مؤتمر لندن للمعارضة العراقية (2002).

وضمّت هذه المؤتمرات أحزاب وتيارات المعارضة العراقية، بجميع اتجاهاتها الفكرية والأيديولوجية، سواء الإسلامية والليبرالية والاشتراكية والشيوعية والقومية واليسارية، فضلا عن الأحزاب العربية والكردية والتركمانية وسائر الأحزاب والحركات التي تمثّل نسيج المجتمع العراقي بإثنياته وقومياته واتجاهاته الحزبية. وتجلّى موقف المعارضة

في آذار 1991 نجد أن الولايات المتحدة لم تقدم أي دعم عسكري ولم تفعل شيئا للانتفاضة، بل تغاضت عن ردّة فعل النظام السابق الذي قمع الانتفاضة بوحشية في وسط وجنوب العراق

العراقية بجميع الاتجاهات الفكرية من الأحزاب والتيارات والأفراد في البيانات الختامية لهذه المؤتمرات؛ فمثلا نجد أن البيان الختامي لمؤتمر لندن 2002 (يحمّل النظام - النظام البعثي السابق - المسؤولية الأولى في فرض الحصار والعقوبات على العراق، ويطالب المجتمع الدولي ودول الجوار بأن تعمل بمسؤولية مع النظام الجديد وتتعاون معه لإنهاء الأوضاع الشاذة التي يعيشها وتصفية كل الآثار العملية والقانونية والإجرائية وفق قرارات الأمم المتحدة ليعود العراق إلى حظيرة المجتمع الدولي ودوائره الإقليمية ليعيش بسلام وأمن).

وبالرغم من مطالبات بعض قوى المعارضة العراقية بفصل قضية الحصار الاقتصادي عن الحظر على الأسلحة، وتوجيه العقوبات إلى النظام حصرا[10]؛ إلا أن الموقف الأساسي للمعارضة العراقية هي تحميل نظام (صدام حسين) المسؤولية عن فرض الحصار الاقتصادي، فالمعارضة العراقية في الخارج تضاءل تفاؤلها حول سقوط نظام (صدام) بعدما فشلت انتفاضة عام 1991، وتركزت جهود اغلب قوى المعارضة على فضح النظام السابق والتعريف بمحنة الشعب العراقي والانتهاكات الخطيرة التي كانت تمارس بحقه، وذلك من خلال عقد المؤتمرات وإصدار البيانات، ولكن لم تقُم حركة عراقية منظّمة في المنافي والمغترَبات تتبنّى مأساة الحصار والمرض والجوع في الوطن

وترفع الدراسات والملفات إلى أعلى المستويات العالمية وتضع يدها بيد المنظمات غير الحكومية المناهضة للحرب في المجتمعات الغربية، وتضغط على أمريكا لرفع الحصار، في حين إن مثل هذه الأعمال سيُلاحظ الباحث أن منظمات إنسانية غربية في لندن وباريس والمدن الأمريكية هي التي تبنَّتها، وناهضت الحصار والحرب وتظاهرت وأرسلت المساعدات وتحدّت حكوماتها، وكان من أوائل التقارير حول الوضع الصحي في العراق ما أعِدَّ في جامعة هارفرد في بوسطن عام 1991.

أما بشأن موقف الولايات المتحدة الأمريكية من دعم المعارضة العراقية؛ فقد اعتقدت المعارضة أن الولايات ستدعم الانتفاضة فور حدوثها، ولكن حينما حدث ذلك في آذار 1991، نجد أن الولايات المتحدة لم تقدم أي دعم عسكري ولم تفعل شيئا، بل تغاضت عن ردّة فعل النظام السابق الذي قمع الانتفاضة بوحشية في وسط وجنوب العراق، ولكنها وفّرت الحماية وفرضت منطقة الحظر الجوي لحماية المواطنين الكرد في شمال العراق. ومع ذلك، استمرت الحكومة الأمريكية في دعم المعارضة في الخارج، وفي أيار 1991 أذِن بوش بالعمل السري؛ لتهيئة الظروف لإزاحة (صدام حسين) من السلطة. وبعد بضعة أشهر، ارتفع تمويل ودعم المعارضة من 15 مليون دولار إلى 40 مليون دولار، وقد أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل التسعينات 100 مليون دولار لدعم محاولات الانقلاب والتمرد، ووصل الدعم الأمريكي للمعارضة العراقية ذروته في عام 1998، عندما أصدر الكونغرس بأغلبية ساحقة قانون (تحرير العراق) الذي منح الرئيس الأمريكي صلاحيات إنفاق بحدود 100 مليون دولار.

الخاتمة

أيقظ الاجتياح العراقي للكويت العالَمَ أجمع بما فيهم الشعب العراقي على أزمة لم يعرفها من قبل، فضلا عن النتائج المأساوية التي ترتّبت بعد ذلك وعلى النحو الذي جرت به الأحداث؛ فالآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية بعد فرض الحصار حوّلت الدولة العراقية من دولة متقدمة في مؤشرات الاقتصاد والتعليم والصحة والثقافة إلى بلد مدمّر يعيش أغلب سكّانه في ظروف يُرثى لها، مشغولين بصراع من أجل البقاء في مأساة إنسانية خطيرة، ويرجع ذلك إلى عاملين أساسيين، هما: استمرار الحصار الدولي، واستمرار النظام السابق في حكم العراق حتى عام 2003، في حين لم تحسن المعارضة التعامل مع قضية الحصار والتفكيك بين ضرورة معاقبة النظام وتجريده من امكانات القوة وبين تخفيف معاناة العراقيين من جراء الحصار، ولذلك اتهمت بعض الاوساط القريبة من النظام، المعارضة بأنها كانت غير مكترثة بنتائج الحصار على الشعب والدولة العراقية.

الهوامش (Endnotes)

1 - جوي غوردون، الحرب الخفية امريكا والعقوبات على العراق، ترجمة عبد الرحمن أياس، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2018، ص 41.

2 - ريتشارد هاس، حرب الضرورة والاختيار، ترجمة نورما نابلسي، دار الكتاب العربي، بيروت، 2010، ص 18 ـ 24.

3 - بانوراما حرب الخليج وثيقة وخبر دراسة ونصوص قرارات مجلس الأمن الدولي 1990 ـ 1994، د.عبد الحسين شعبان، دار البراق، لندن، 1994، ص 12.

4 - الموقع الرسمي لمجلس الامن https://www.un.org/securitycouncil/ar

5 - نوافذ وألغام المجتمع المدني الوجه الآخر للسياسة، د. عبد الحسين شعبان، دار ورد، عمان 2009، ص 205.

6 - سنوات الحصار - السجل الأسود للأمريكان في العراق 1991 ـ 2003، منشورات منظمة الطليعة العربية في تونس تموز 2004، ص 14 ـ 15.

7 - جوهرة النصر في ام المعارك، نشرة داخلية تقويمية، لنتائج ام المعارك المرحلة الراهنة وفي المستقبل، دار الحرية للطباعة، اذار 1991، ص 6 ـ 9.

8 - ينظر: درء المجاعة عن العراق - مذكراتي عن سنين الحصار (1990ـ2003)، د. محمد مهدي صالح الراوي، منتدى المعارف، بيروت، 2022، ص 54 ـ 70.

9 - جوهرة النصر في ام المعارك، مصدر سبق ذكره، ص 10.

10 - كمال ديب، موجز تاريخ العراق، دار الفارابي، بيروت، 2013، ص 275.

تقدير موقف

الاقتران المرن:
الأسلمة في زمن الجوع

د. ياسر عبد الحسين

المقدمة :

((حتى الآن كان ينظر إلى حياة الرسول من الخارج، كصورة رائعة وجدت لنعجب بها ونقدسها، فعلينا أن نبدأ بالنظر إليها من الداخل لنحياها، كل عربي في الوقت الحاضر يستطيع أن يحيا حياة الرسول العربي، ولو بنسبة الحصاة إلى الجبل والقطرة إلى البحر))، كاتب هذه الكلمات ليس كاتب أو داعية اسلامية بل كتبها ميشيل عفلق (المسيحي) منظر حزب البعث.

بعيدا عن التفسيرات الجاهزة، تبقى عملية الكشف عن العلاقات السرية التي تربط بين كيانين او أتجاهين مختلفة من حيث البنى الاجتماعية والتنظيمية والفكرية تعيش التباين، تكون صعبة جدا، وربما مستحيلة في سياق البحث العلمي ، وخصوصا اذا كانت اتجاهات ترى ان عملية الاقتران شبه مستحيلة من حيث طبيعة الاتجاهات والاختلافات والميول الفكرية والعقدية، وبالتالي ليس هدف الموضوع اظهار طبيعة الترابط بين الاتجاهين، بقدر فك هذا الارتباط وفهمه.

وهذا ما سيوضح لنا لاحقا طبيعة التحالف بين تنظيم داعش وحزب البعث تثار عدة أسئلة، حيث ان معركة تحرير الموصل فتحت شهية البحث لبحث اغوار طبيعة تلك العلاقة من عدمها، لا شك في أن داعش تغذيها العديد من الحواضن الداخلية والخارجية، وكثير من الدراسات والتقارير اشارت الى ظاهرة (بعثنة داعش)، أو (دعشنة البعث)، ولكن يبدو في أطار حسابات خاصة.

المشكلة الدينية هي بلا شك من أبرز المشاكل في المجتمع العربي الحديث، لذلك لا يعقل أن يتجاهلها حزبنا

ميشيل عفلق

جذور الأقتران

التيار الديني في حزب البعث ليس بالجديد، وكما يوصفون بأن الحكام الاشتراكيون الجدد، من غلاة القوميين العرب على شدة تمسكهم بتعاليم الدين الإسلامي، وبأنه جزء لا يتجزأ من عقيدتهم القومية، وركن من أركان حكمهم ، الذي لا يسعهم أغفاله ، مؤكدين ذلك في دساتيرهم القومية، وينقشون على الأعلام الوطنية (الله أكبر)، وهم في الوقت ذاته يعيشون تحت خيمة الخوف من قبل الإسلاميين ، ولهذا حاولوا ان يصنعوا ما يسمى بالاشتراكية العربية، خوفا من نجاح اشتراكي

ماركس وأنجلز[1].

يقول ميشيل عفلق في سبيل حديثه عن دور الدين في المجتمعات (أن المشكلة الدينية هي بلا شك من أبرز المشاكل في المجتمع العربي الحديث، لذلك لا يعقل أن يتجاهلها حزبنا).[2] من منظور اجتماعي يعتقد الراحل الدكتور فالح عبد الجبار ان البعثي اليتيم – شأن اغلبية السكان– واقعا بين الحزب والإسلام والقبيلة، بين العروبة والطائفية المتأسلمة والاسلام السلفي الجامح الخالي منها، والقبيلة الغارقة في ايدلوجيا النسب وحمأة التنافس على الزعامة والموارد في أوضاع الاحتلال، نشأت وحدة ازاء الخطر.[3]

وتبقى أفكار ميشيل عفلق متذبذبة، لا هي الى الشيوعية التي بنى عقله الفكري على أساسها في بدايات حياته الفكرية، ولا الى الإسلام الذي يدين به اغلبية سكان العالم العربي ، ويتناقض مع الشيوعية تناقضا كليا، ومع كل هذا يعرف الاشتراكية أنها (دين حياة)، فهي في نظره دين الحياة، وليس الإسلام، أو هي ظفر الحياة على الموت، وعموما فأن صدام حسين من جانبه يعتقد ان البعثي الذي يؤدي واجبه الحزبي هو أفضل من الذي يحج بيت الله الحرام (99) مرة (رايح جاي)، ويؤمن صدام أن (البعثي) يمتلك حصانة

بقدر(حصانة عمر بن الخطاب) على حد قوله.[4]

الاسلمة في زمن الحصار

كانت احداث ما بعد حرب الخليج الثانية 1991 حاسمة في تشكيل بدايات الاتجاه الديني وتمظهر صدام ونظامه تحت شعار الحملة الايمانية، و ادخال اعداد كبيرة من اعضاء حزب البعث في دورات اسلامية، وتدريب عدد من المقاتلين العرب، وفي أطار ذلك عقدت ندوات عديدة لنحت مصطلح (الجهاد القومي)، منها ما صدر عن بيت الحكمة عام 2002 تحت عنوان (الجهاد فكرا وممارسة) في أطار ترسيخ مفاهيم الجهاد القومي بلونه البعثي ، وكيف يمكن وصف العراق ساحة الجهاد لمواجهة قوى الغرب كما تصفها تلك الدراسات، وكذلك صيغ الجهاد الحضاري الذي يأتي تعبيرا عن المستوى الجديد للوعي القومي الحضاري الانساني الذي لا يحصر الجهاد في بعد واحد من أبعاده، والذي يربط الابعاد الوطنية والقومية والاجتماعية والثقافية والروحية للجهاد.[5]

بل تذهب الدراسات التي ركز عليها حزب البعث، وهو تحول مركزية الانتماء عند المسلم أو غيره من الاديان الاخرى، من الدفاع من الدولة الدينية الى الدفاع عن الدولة القومية، حيث ترى بان ايجابيات الدولة الوطنية انها الزمت مواطنيها بالمشاركة الجماعية في (النضال/الجهاد) من اجل الارض والسيادة والاستقلال الوطني، بل حتى انها انتقدت الجهاد بمعناه الديني، حيث ترى تلك الدراسات ان الجهاد بمضامينه الدينية يعمل على تمزيق المجتمع ذي التعدديات المذهبية الى ولاءات متباينة قد ينحرف من خلالها كل قطاع مذهبي الى جانب شعاراته السياسية وأهدافه المذهبية ، ويرى حزب البعث ان الجهاد بمعناه القومي هو جامع وتوحيدي.[6]

صحيح لم يكن صدام حسين أول دكتاتور استغل الدين، فقد فعلَ هذا حكّام من كلّ المشارب طوال قرون متعدّدة، وعلى النحو الذي جاء في

من الجيِّد أن تبدو تقيّاً ومخلصاً وإنسانيّاً ومتديِّناً

نصيحة ماكيافيللي لأميره

نصيحة ماكيافيللي لأميره: «من الجيِّد أن تبدو تقيًّا ومخلصًا وإنسانيًّا ومتديِّنًا ونزيهًا وأن تكون كذلك». كما أردف ماكيافيللي: «يجب على أيِّ حاكم عند الضرورة أن يكون قادرًا على التحوُّل عن هذه الصفات إلى ضدِّها»، ثم يقدم كشفًا للطبيعة الثنائية لعلاقة الدين بالدولة الاستبدادية.

ولهذا يقول الصحفي (عبد الباري عطوان) لا نبالغ اذا ما قلنا ان صدام حسين هو الذي أبتدأ في التمهيد العملي والعقائدي واللوجستي لتنظيم داعش، سواء جاء ذلك بمحض الصدفة او نتيجة خطة محكمة، فعندما ادرك صدام ان الولايات المتحدة الأمريكية تريد الإطاحة به ونظامه من خلال اقامتها منطقة حضر جوي شمال وجنوب العراق ، قرر التحول الى الله وتبني الهوية الاسلامية والجهاد الاسلامي.[7]

البعث وداعش بداية الخطبة

كان حجة الإدارة الامريكية لربط العراق بتنظيم القاعدة هي: اتصالات بين المخابرات العراقية والقاعدة في السودان وأفغانستان، وباكستان منذ عام 1990، فضلا عن تواجد حركة (أنصار الإسلام) المتطرفة في شمال العراق، واخيراً تورط النظام السابق باحداث 11 سبتمبر 2001 بشكل مباشر[8]. والاخير عُد من اكثر الموضوعات جدلا، وهو بشكل عام غير متفق عليه من قبل

الخبراء وبعض المسؤولين داخل الإدارة الامريكية نفسها، بمن فيهم الرئيس جورج دبليو بوش، اذ استبعد المشاركة العراقية في هجمات 11 أيلول، في حين قدم وزير الخارجية انذاك كولن باول وجهة نظر الإدارة الامريكية، عندما أطلع مجلس الأمن في 5 شباط 2003، على الانتهاكات نظام صدام حسين، في عدم تحقيق الاتفاق مع الأمم المتحدة بشأن بتفكيك (أسلحة الدمار الشامل)[9]. ولمح الى أن العراق كان من ضمن المشاركين في هجمات 11 ايلول، ويشير بعض المحللين إلى عدم وجود إجماع داخل الإدارة على قوة تلك الأدلة.

وفيما تذهب دراسة أجراها معهد تحليلات الدفاع الامريكية، واستنادا إلى وثائق 600 الف وثيقة حصلت عليها بعد عام 2003، حيث تشير الى أن العراق وخلال وقت مبكر إلى منتصف 1990، قام بدعم نشاط حركة الجهاد الإسلامي المصرية، التي اندمجت رسميا في عام 1998 مع تنظيم القاعدة، إلا أن الوثائق لا تكشف عن مباشرة التنسيق والمساعدة بين نظام صدام حسين وتنظيم القاعدة.[10]

وحسب مذكرة لوزارة الدفاع، تؤكد بأن المخابرات العراقية حينها، قد أقامت علاقات مع تنظيم القاعدة في عام 1990، بوساطة قيادات اسلامية

لا نبالغ اذا ما قلنا ان صدام حسين هو الذي أبتدأ في التمهيد العملي والعقائدي واللوجستي لتنظيم داعش

عبد الباري عطوان

من السودان. في ذلك الوقت، عندما كان أسامة بن لادن في السودان، حيث مكث هناك حتى طردته السلطات السودانية في منتصف عام 1996، لينتقل بعد ذلك إلى أفغانستان، ووفقا للمذكرة فإن التنسيق شمل تنظيم العلاقة بين القاعدة ونظام صدام حسين، حيث ان القاعدة لا تسعى إلى تقويض نظام صدام، والاخير يعمل لتوفير الأسلحة التقليدية وأسلحة الدمار الشامل للقاعدة[11].

ووفق تلك التفسيرات فإن سبب ذلك هو كون العراق عاش معزولا للغاية في العالم العربي بعد غزوه الكويت في آب 1990، وأنه قد سعى للعلاقة مع القاعدة بكونها عدو مشترك للولايات المتحدة الامريكية والمملكة العربية السعودية، على الرغم من كون نظام صدام نظاما يدعي العلمانية، في حين سعى تنظيم القاعدة لاستبدال القادة العلمانيين بإقامة ما يسميه بالخلافة الاسلامية، وقد شملت مذكرة وزارة الدفاع الأسماء والتواريخ التقريبية لزيارات ضباط المخابرات العراقيين حينها، لمعسكر بن لادن خارج العاصمة السودانية الخرطوم، والنقاش للتعاون في تصنيع العبوات الناسفة، كما يقال أنه حدثت اجتماعات لاحقة بين ضباط جهاز المخابرات وبن لادن ومساعديه في أفغانستان وباكستان.

ووفقا لبعض الروايات وبعض التقييمات التي عممت في أكتوبر 2002، فإن الخلافات الأيديولوجية بين العراق والقاعدة كانت كبيرة جدا بحيث لا يمكن سدها، على سبيل المثال، فقد سعى بن لادن في القتال لطرد القوات العراقية من الكويت بعد الغزو العراقي في أب 1990، مما يشير إلى أن بن لادن قد عد العراق كعدو بدلا من حليف، و قد رفضت العائلة المالكة في السعودية فكرة بن لادن[12]، وقررت بدلا من ذلك أن تدعو الولايات المتحدة القوات الامريكية لطرد الجيش العراقي من الكويت[13].

كما ان الخلافات الأيديولوجية واضحة بين العراق

والقاعـدة ففي 12 شـباط 2003، اصـدر بن لادن بيـان في اشـارة الى نظام صدام حسـين بـ (صاحب العلمانيـة و القومية العربيـة) [14]، وعد حزب البعث بأنه (اشتراكي وكافر)[15].

بالمقابـل بان المشـككين في مذكـرة الارتباط بين نظام صدام حسـين و تنظيـم القاعدة، أعتقدوا ان العراق لا يمكـن ان يعترف بحركة طالبان كحكومة شـرعية في أفغانسـتان، عندمـا كان نظام طالبان قائمـا خـلال الفتـرة 1996 - 2001، وكانت تنظيم القاعدة يتمتع بملاذ آمن في أفغانستان، وايضا ان العراقيين لم يكن لديهم تفويض من صدام حسين للانضمـام الى القاعـدة عندما كان في السـلطة، وهـذا يفسـر أن عـدد قليـل جـدا مـن العراقييـن أتيحـت لهم الفرصة للانضمـام إلى تنظيم القاعدة خـلال السـنوات الاولـى لمواجهة السـوفيت في أفغانسـتان (1979 - 1989) ، وربما لان العراقيين قـد تم التركيز عليهم من قبل نظام صدام للتطوع فـي الوحـدات العسـكرية العراقيـة خـلال الحـرب العراقيـة الإيرانيـة 1980 - 1988، ولـم يكن لدى النظام الرغبة للمشاركة في حروب إقليمية[16].

وقـد جرت نقاشـات طويلـة جدا، تحدثـت عن هذا موضـوع صلـة القاعـدة بنظـام صـدام ، وخصوصا داخل الولايات المتحدة الأمريكية والعراق تتخللها اتهامات بانهـا كانت حجة امريكية تذرع بها الرئيس الاميركـي جـورج دبليو بـوش ثم تنصـل منها فيما بعـد، واخريـن يرون انها حقيقة قائمة، لكن ليسـت علـى مسـتوى التنسـيق، حيث لاتوجـد ادلة تؤكد على علاقة لنظام صدام حسـين بالتفجيرات وانما تؤكد وجود صلات له مع زعيم القاعدة أسـامة بن لادن وقادة آخرين فيها[17].

فيمـا نفت وكالة الاسـتخبارات المركزية الأميركية أن تكـون سـاعدت إدارة الرئيس بـوش في تلفيق وثيقة تشـير الى وجود علاقة بيـن تنظيم القاعدة وصدام حسـين فـي تنفيذ هجمـات 11 أيلول كي تستخدمها ذريعة لقرار شن الحرب على العراق عام 2003، وهـذا ما أكده جورج تينيت المدير السـابق لوكالة الاستخبارات المركزية قائلا: (لم يكن هنالك مثـل ذلك الأمر الذي أصدره لي البيت الأبيض كما لـم يسـبق على حد علمي لأي شـخص من سـي آي إيـه، أن تـورط بأي جهـد من هذا القبيـل) ، كما اكد ذلك ايضا توني فراتو، نائب السكرتير الصحافي فـي البيـت الأبيض قائلا (إن فكـرة أن يكون البيت الأبيض قد وجه أي شخص إلى القيام بتزوير رسالة موجهـة مـن رئيـس جهـاز الاسـتخبارات العراقـي الأسـبق طاهر جليل حبوش إلى صدام حسين لهي فكرة سخيفة وعبثية)[18].

ويضيف جورج تينت الرئيس السابق لجهاز المخابرات المركزيـة فـي مذكراته (فـي قلب العاصفـة)، انه لـم تجـد (CIA) أي ارتباط علـى الاطلاق بين صدام واحداث 11 ايلـول، وتوحي كل البيانات التي لدينا، في أحسـن الأحوال، بوجود سيناريو معقول يكون فيـه (عدو عدوي صديقي)، أي ان عدوين يحاولان ان يحددا أفضل السـبل للاستفادة من الاخر، وفي عالم الارهاب لا يوجد شـيء واضح جدا، والشـبهة في الاستخبارات تتطلب جهدا شاملا لاستكشاف كل خيـط يؤدي الى اقناعنا بعدم وجود تواطؤ مع اعمال القاعدة في 11 ايلول).[19]

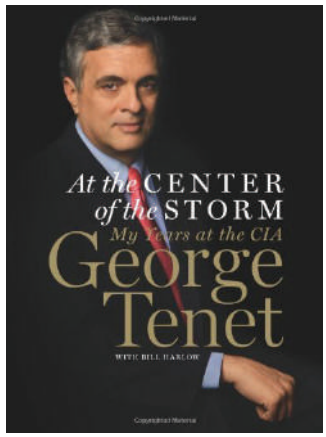

لم تجد (CIA) أي ارتباط على الاطلاق بين صدام واحداث 11 ايلول.

جورج تينيت
من كتاب قلب العاصفة

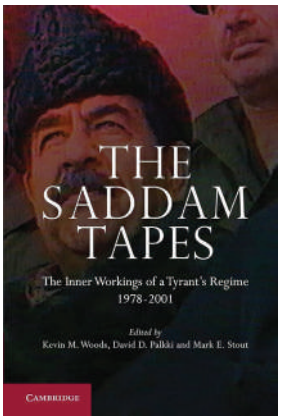

نسب صدام هجوم القاعدة على مركز التجارة العالمية إلى المخابرات الاسرائيلية

من كتاب أشرطة صدام

وخـلال مقابلة لصدام حسـين وحديث خاص له مع FBI، فقـد نفـى وجـود أي نوع من هـذه العلاقة وقـال: (أن حكومتـه أدانـت هجمـات 11 سـبتمبر الارهابيـة في الولايات المتحدة وليس لديه اتصال مع أسـامة بـن لادن)، جاء ذلك فـي مقابلة اجراها مـع وكيـل مكتـب التحقيقـات الفدرالـي الخـاص جـورج بيـرو[20]، ووصـف صدام حسـين، اسـامة بن لادن بأنـه متعصب، وقال صـدام انه: (كلف نائبه ووزير الخارجية السـابق طارق عزيز بأرسـال رسالتين شخصية لإدانة هجمات 11 سبتمبر من قبل تنظيم القاعـدة على مركز التجـارة العالمـي والبنتاغون)، وحسـب الوثائـق فقـد تـم أرسـال الرسـالتين الى النائب العام الأمريكي السـابق رمزي كلارك، وقال صدام: (ان هذه الرسـائل بمثابة وسيلة غير رسمية مـن الاتصالات للعراق للتنديـد بالهجوم، وقال أنه لـم يعلن ذلـك الاسـتنكار رسـمياً، لان العراق في حالة حرب مع الولايات المتحدة الأمريكية)[21].

وانـه رفـض ان يكون العـراق والقاعدة قـد تعاونا لانهمـا كانـا أعـداء للولايـات المتحـدة الأمريكية، وقـال: (صـدام انـه اذا كان يريد التعـاون مع أعداء الولايـات المتحـدة الأمريكيـة فانـه كان يمكن ان يتعاون مع كوريا الشـمالية أو الصين)، وقال: (لقد حصلت سابقا على صواريخ من كوريا الشمالية).[22]

وقد نفى صدام حسـين وجود أيـة صلة له بتنظيم القاعدة، مصرا بأن بن لادن كان من ألد اعدائه، وفند الحجج القائلة بتورطه في تلك العلاقة، وسـأل: ما الذي يجعلكم تعتقدون بأني فعلت ذلك؟، من أي بلد أتى هؤلاء، وذلك المدعو محمد عطا، هل كان عراقيا؟، كلا، بل كان مصريا، لم لا تذهبون لتسألوا حسني مبارك عن المسؤولين عن تلك الهجمات.[23]

ووفـق كتـاب (تسـجيلات صـدام: طريقـة عمـل نظام) الذي يضم تفريغ آلاف التسجيلات الصوتية وتسـجيلات الفيديـو التـي حصلـت عليهـا القوات الأميركية التي تغطي اجتماعات صدام حسـين مع وزرائـه والقادة العسـكريين وشـيوخ القبائل وكبار الشـخصيات الزائـرة خـلال حقبـة مهمة مـن تاريخ العـراق(1978 - 2001)، والكتـاب مـن إعداد كفن وودز من معهد التحليلات العسكرية و ديفد بالكي مـن جامعـة الدفاع الوطنـي و مارك سـتاوت من جامعة الدفاع الوطني، وحسب التسجيلات، نسب صدام هجـوم القاعدة على مركز التجـارة العالمية إلى المخابرات الاسـرائيلية، وبالرغم من أن الكتاب يغطي تسجيلات لمناقشات جرت سنة 2001 فهو لا يتضمـن مواد مرتبطة مباشـرة بهجمات الحادي عشر من سبتمبر.[24]

ثمة حديث أمريكي، على ان العراق، عرض على أبن لادن، في مرحلة معينة أمكانية لجوئه الى العراق، وبخاصـة حيـن كان الجميـع يعرفـون ان الولايـات المتحـدة تمـارس ضغطـا علـى طالبـان لاعتقاله، وان كان هـذا العـرض حقا، فان بـن لادن لم يقبله، والسـؤال هل يوجد في العراق جماعة متفرعة من القاعدة ولها مركز تدريب؟، الجواب، نعم يوجد، لكن في منطقة غير خاضعة لسلطة صدام حسين، في شـمال العراق كما ذكرنا سابقا، وكانت إدارة بوش علـى علم بها، لكن لم تقـم بقصفه، الا بعد ثمانية عشـر شـهر من دخول القوات الامريكية العراق[25]، وقـد صـرح الملا كريـكار، وهو زعيم الانصـار، الذي يقطـن في النرويج قائلا: (اسـتطيع ان اقول لكم، ان ذلك غير صحيح، أي اني لسـت حلقة الوصل بين

نظام صدام حسين، والقاعدة، وكان هدفنا الدائم هو اسقاط نظام صدام حسين)[26]، في حين يذكر الرئيس الامريكي جورج دبليو بوش في مذكراته (انه لم يكن صدام عدوا لدودا لأمريكا فحسب، بل اطلق النار على طائراتنا ايضا، واصدر بيانا اثنى فيه على الهجوم يوم 9-11 ، كما حاول اغتيال رئيس سابق وهو والدي).[27]

فيما شكل اعتراف عزة الدوري[28]، لأول مرة بوجود تحالف بين تنظيم القاعدة والبعثيين، وقال في خطاب له: (لا أعتقد أن القاعدة ومقاتليها الحقيقيين لهم فيها يد، وإنما يستخدم اسم القاعدة للتغطية على الجرائم البشعة، ومع ذلك فإنني أقول لقيادة القاعدة في العراق وهم إخوتنا في الجهاد شرط أن يستهدفوا أعداء العراق وشعبه فقط، وأن يجاهدوا من أجل تحرير العراق فقط).[29]

أقول لقيادة القاعدة في العراق هم إخوتنا في الجهاد

عزة الدوري

حتى ان حزب البعث جعل رايته وصورة زعيمه المفترض عزة الدوري تحت عبارة (شيخ الجهاد والمجاهدين)، وهي عبارة دينية صرفة، لا تبررها فقط صلات الدوري بالجماعات الصوفية ومحافل التدين الشعبي السني عندما كان في السلطة [30].

لقد ربط الكاتب فؤاد حسين في كتابه (الزرقاوي .. الجيل الثاني للقاعدة) بين شغف الزرقاوي بحياة سلطان الشام نور الدين الزنكي، والمعارك التي خاضها ضد الصليبين، وبين ذهابه الى العراق وجعله مستقرا له بعد احتلال الجيوش الامريكية

أسس الزرقاوي، قبل العراق، جماعة جند الشام، ببلدة هرات الافغانية

رشيد الخيون

لأفغانستان، هل يريد ان ينطلق من الموصل لتحرير العراق؟، وتوحيد بلاد الشام ، وشمال العراق مع مصر؟، تمهيدا لتحرير بيت المقدس؟، وهل يمكننا ان نأخذ ببعض النظريات التي تذهب الى حد القول: ان صناع التاريخ يتقمصون شخصية بطلهم، ويسيرون على خطاهم لأعادة كتابة التاريخ)[31].

يتفق الكاتب العراقي رشيد الخيون مع فؤاد حسين عندما كتب: (على الرغم من الاختلاف الكبير بين الملهم والمستلهم ، الزنكي والزرقاوي، حسب سيرة الاول في المصادر التاريخية، وما عرف عن الاخير من دموية، وما بدأ به من حياته من فوضى وتشرد، فقد أسس الزرقاوي، قبل العراق، جماعة جند الشام، ببلدة هرات الافغانية، ونقرأ في محطات حياته في العراق، أنه غادر الى باكستان، وأسس هناك معسكرا لجند الشام، وعمل على استقطاب ما عرف بالأفغان العرب ، وانقطعت بهم السبل بعد انتهاء الجهاد بأفغانستان، ثم عاد اليها، في قندهار، ثم بعدها توجه الى ايران على الحدود مع باكستان، وبعد ان القت ايران القبض على جماعته غادر الى كردستان العراق)[32]. وحسب المصادر فانه نقل عائلات شبكته الى تركيا، ومن ثم الى العراق، كان هذا لمن حمل معه وثائق سفر رسمية[33]. وعموما فأن صدام كان يعتقد ان السلفية ستتخطى توقعات الناس في سرعة انتشارها، لكونها تؤجج الناس المخذولين نتيجة فشل القادة السياسيين العرب طوال العقود الخمس المنصرمة.[34]

أوجه الأقتران

البعض يرى ان الاحتفاء بالتوحش سـمة مشتركة بين تنظيمي داعش الديني، والبعث القومـي، فكتـاب إدارة التوحـش لأحد منظري داعش يتطابق فـي الكثير من فصوله مـع المنطلقات النظرية لحـزب البعث، فكلا الكتابين قائمان على انتزاع السـيادة من النـاس مـن أجل تحقيق هدف سـام ونبيل، سـيرتقي بالبشـر حالما يقومون بتسـليم إرادتهـم لقادتهـم التاريخيين كما يدّعون، فأبو بكر البغدادي خليفة يعيد منهج الإدارة الإسلامية كما يزعم، بطريقة بدائية، وبدون محتوى يتيح للناس أي مقدار للحرية، فكل شـيء مكتوب في كتاب الله، ويعيد تفسـيره الخليفة الذي وضع نفسه بديلًا عن كل المسـلمين، من أقصى الأرض إلى أقصاها، فهو من يعيّن القضاة والقادة وأهل الحلّ والربط أو مجلس الشـورى، ويتدخل في أصغر الأمور الشخصية، البعث أيضًا اعتمد ما يسـمى التنظيم الانقلابي الذي ينتزع الإرادة من الناس بطريقة الانقلابات العسكرية (المشرعنة) ضد أي انتفاضة جماهيرية، أو حركة إصلاح سياسي، أو اقتصادي أو فكري مهما كانت واهنة .[35]

ويمكن ان نرصد بعض الامور في وجه المقارنة والاختلاف :

داعش	حزب البعث
يحاول السيطرة بالقوة العسكرية	وصل للسلطة عبر الانقلاب العسكري
ايديولوجية اسلامية	ايديولوجية قومية عربية
حاول السيطرة على العراق وسوريا	حكم العراق وسوريا
اعترض داعش على الجماعات الاسلامية الاخرى مثل الاخوان وغيرهم	اعترض الحزب على التيارات القومية الاخرى مثل الناصرية وغيرها
استخدم شعبيا شعارات معارضة للغرب	استخدم شعبيا شعارات معارضة للغرب
الطابع الاحيائي الذي تدعو له ادبيات التنظيمات المتطرفة اعادة الناس الى الاسلام	الطابع الإحيائي الذي أسسه ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار في اعادة بعث أمجاد العرب .
مشروع داعش هو امبراطورية لا تعترف بالحدود تحت حكم ما يسموه بحكم الخلافة الاسلامية	مشروع البعث هو امة عربية لا تعترف بالحدود
سجل حافل بانتهاك حقوق الانسان	سجل حافل بانتهاك حقوق الانسان

يقـول الباحث اماتزيا بارام، الـذي ألّف كتابًا عن صدام وعلاقتـه بالإسـلام مـن عـام 1968 إلـى 2003، أن البغـدادي ليـس صنيعة صدام ، وبـإن هذه التصورات غيـر دقيقـة ، لكـن صـدام اراد أن يخلـق صـورة بـإن كلا مـن الحـزب والنظـام قـد أصبحا إسـلاميين، وأن سياسات الأسلمة والسياسات الطائفية لصدام، هي جـزءٌ واحـدٌ فقط من التطـورات الأوسـع التي أنتجت داعـش، كمـا ان قيـام نظام صـدام بالفعـل بتطبيق الشريعة في مناحي هامة من الحياة، انما كان مناورة يائسـة مصممة للفوز بدعمٍ شـعبي. ووفـق الباحث فـأن الهدف الرئيسـي لحملة الأسـلمة كان مواطني العـراق العـرب الذيـن تتراوح نسـبتهم ما بيـن 80 % و85 % الذيـن لم يكونوا أعضاءً بحـزب البعث والذين واجهوا سياسـات الأسـلمة الفعلية يوميًـا: عقوبات وحشـية جديدة، أسـلمة مكثفة للتعليـم، قيود على التسـلية والكحـول، إنفـاق مبالـغ خرافية مـن المال علـى بنـاء مسـاجد سـنية باذخـة بينما كان الشـعب يحتاج إلى مسـاكن. التحول المزعوم لمؤسس الحزب المسـيحي (ميشـيل عفلق) إلى الإسلام بعد مماته، بل وأيضًا أسـلمة العلم الوطنـي، المثير للقلق بنفس القـدر كان التنافر المعرفي الذي سـببه التناقض بين علمانيـة الحـزب داخليًـا وإسـلاميته من الخـارج على الكثيـر من أعضاء حزب البعث المدنيين والعسـكريين. بالنسـبة لعـددٍ كبيـر مـن أعضاء حـزب البعـث، بدا أن الحملـة الإيمانية في التسـعينيات دفعت تشـككهم المسـبق في البعثيـة إلى العدميـة الكاملة، وهو ما تركهـم معرضيـن عاطفيًـا للتجنيـد، فـي البدايـة من قِبـل القاعدة ثم لاحقًا من قِبل داعش، بالمقابل فإن محادثـات الحـزب الداخليـة كان يراد لهـا أن تقودهم إلى الاعتقاد بأن أسس وأيديولوجية الحزب العلمانية تظل كما هي[36]. تباعا بمرور السنين، غيّر صدام حسين أيديولوجيـة البعـث العلمانية-العلمانيـة، إلى عقيدة جديدة أطلق عليها اسم: الإيمان الوطني، التي تجعل الإسلام مصدرا لسياساته لاستعادة مكانته وشرعيته في أعيـن شـعبه[37]. وعموما لم يعمد صدام حسـين في فترة حكمه إلى قمع التشـدد الديني والطائفية،

صدام اراد أن يخلق صورة بإن كلا من الحزب والنظام قد أصبحا إسلاميين، وأن سياسات الأسلمة والسياسات الطائفية لصدام، هي جزءٌ واحدٌ فقط من التطورات الأوسع التي أنتجت داعش

الباحث اماتزيا بارام

بـل احتضنهمـا، كمـا مهـد الأرضيـة الملائمـة لبزوغ حركة سلفية مسـلحة؛ فالقبائل، الشبكات الإجرامية، الميليشـيات، ومخـازن الأسـلحة الموزعـة على طول البلاد وعرضها، والتي استعملها النظام لتأمين الدعم وتجنب وقوع تمرد جديد، جميع تلك العوامل أرسـت الأساس المادي لظهور تمرد لامركزي.[38]

الخاتمة

نلخص الى جملة من النقاط :

1. ان نظـام صدام مهد الأسـباب لنشـوء داعش وتوفيـر البيئـة المناسـبة لصناعـة داعـش ووجودها. استخدم صدام الدين لكسب التأييد الشـعبي لحكمـه ولا سـيما بعد حـرب الخليج الثانية .
2. ان قيـادات البعث لهـا المسـاهمة الاكبر في طبيعـة التجنيـد العراقـي لتنظيـم داعـش، وخصوصا من قيادات الجيش المنحل.
3. ان الموضـوع لا زال بحاجـة الـى كثيـر مـن الدراسات.

الهوامش(Endnotes)

1 - للمزيـد أنظـر : جرجيس فتح اللـه ، نظرات في القومية العربية حتى عام 1970 ، ج3 ، دار أراس للطباعة والنشـر ، منشورات الجمل ، بيروت، 2012 ، ص -1846 1847.

2 - للمزيـد أنظـر : حديث ميشـيل عفلق لمجوعة من أعضـاء حزبه في طرابلـس 1956 فـي : ميشـيل عفلـق ، فـي سـبيل البعـث الكتابـات السياسية ، ج1 ، (بلا) ،ص 116 .

3 - للمزيد أنظر : د. فالح عبد الجبار ، دولة الخلافة التقدم إلى الماضي... داعش والمجتمع المحلي في العراق، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسيات ، بيروت، 2017 .

4 - للمزيد أنظر : طالب الحسن ، بعث العراق وامكانية العودة الى الله ، ذكرياتي مع فليح حسن جاسم عضو القيادة القطرية ، ج4 ، دار الرافدين للطباعة والنشر ، بيروت ،2017 ، ص 9 وما بعدها .

5 - أنظر : الياس فرح ، رسـالة الجهاد والحوار الحضاري ، في : مجموعة باحثين ، الجهاد فكرا وممارسـة ، بيت الحكمة ، بغداد ، 2002 ، ص 23 وما بعدها .

6 - أنظـر : حسـن غريـب ، الجهاد الوطنـي والقومي ، المصدر نفسـه ، ص157 – 158 .

7 - عبد الباري عطوان ، الدولة الاسلامية الجذور . التوحش ، المستقبل، دار الساقي ، بيروت ، 2015 ، ص 13.

8 - Priest, Dana and Glenn Kessler. "Iraq 9/11 Still Linked By Cheney" Washington Post, September 29, 2003

9 - Secretary of State Addresses the U.N. Security Council. Transcript, February 5, 2003

10 - Iraqi Perspectives Project: Saddam and Terrorism: Emerging Insights from Captured Iraqi Documents. http://www.fas.orga/irp/eprint/iraqi/index.html

11 - Goldberg, Jeffrey. "The Unknown. The CIA and the Pentagon take Another Look at Al Qaeda and Iraq." The New Yorker, February 10, 2003.

12 Gunaratna, Rohan, Inside Al Qaeda. New York, Columbia University Press, 2002. Pp. 27-29.

13 - Pincus, Walter. "Report Cast Doubt on Iraq-Al Qaeda Connection." Washington Post, June 22, 2003.

14 - Text of an audio message purported to be from Osama bin Laden. BBC News, February 12, 2003.

15 - Goldberg, Jeffrey. "The Unknown. The CIA and the Pentagon Take Another Look at Al Qaeda and Iraq." The New Yorker, February 10, 2003.

16 - Al Qaeda High Value Targets." Defense Intelligence Agency chart (unclassified). September 12, 2003.

17 - DAVID H. NAYLOR , AL QAEDA IN IRAQ , Nova Science Publishers, New York . 2009 .

18 - البيـت الأبيـض لفَّـق الصـلات بيـن صـدام و9/11، هيئـة الاذاعة البريطانيـة ، على الرابـط التالـي : -http://news.bbc.co.uk/hi/ara bic/world_news/newsid_7544000/7544303.st

19 - جورج تينت بالاشتراك مع بيل هارلو ، في قلب العاصفة السنوات التي قضيتها في السي اي ايه ، ترجمة عمر الايوبي ، دار الكتاب العربي، بيروت ، 2007 ، ص -353 354 .

20 - See: Joyce Battle ,Saddam Hussein Talks to the FBI: Twenty Interviews and Five Conversations with "High Value Detainee # 1" in 2004 ,
National Security Archive Electronic Briefing Book No. 279. http://www2.gwu.edu/~nsarchiv/NSAEBB/NSAEBB279/index.htm

21 - Ibid .

22 - Ibid .

23 - جون نكسـون ، اسـتجواب الرئيس ، ترجمة اياد أحمد ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، بيروت ، 2017 ، ص 114 - 115.

24 - Kevin M. Woods , David D. Palkki, Mark E. Stout, The Saddam Tapes The Inner Workings of a Tyrant's Regime, 1978–2001, Cambridge University Press (September 30, 2011), P .P 45- 185.

25 - رتشـارد كلاك ، فـي مواجهة جميع الاعـداء من داخل حرب امريكا على الارهاب ، شركة الحوار الثقافي ، بيروت ، 2004 ، ص 344 - 345.

26 - نقلا عن : ميلان راي ، الحرب على العراق نظام لم يتغير لماذا لم تتغير الحرب على العراق شـيئا ، شـركة الحوار الثقافي ، بيروت ، 2005، ص 86.

27 - جـورج دبليـو بوش ، قـرارات مصيرية ، شـركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ، 2012 ، ص 304

28 - نائب الرئيس الأسبق صدام حسين والمطلوب للسلطات العراقية فيما بعد، وتزعم جيش رجال الطريقة النقشـبندية، وهو الفرع الصوفي لتنظيم القاعدة.

29 - عـزة الـدوري يعتـرف لأول مـرة بتحالف البعث مـع القاعدة.. وينتقد غزو الكويت ، صحيفة الشـرق الاوسـط ، الاربعاء 31 يوليو 2013 العدد 12664.

30 - رشيد الخيون ، مصدر سبق ذكره ، ص 238.

31 - فؤاد حسـين ، الزرقاوي الجيل الثاني للقاعدة ، دار الخيال ، 2005، ص 7 وما بعدها .

32 - رشيد الخيون ، مصدر سبق ذكره ، ص 242.

33 - فؤاد حسين ، مصدر سبق ذكره ، ص 31.

34 - نقلا عن جون نكسون ، ص 111.

35 - ابراهيـم العلـوش ، (إدارة التوحـش بيـن داعش والبعـث) ،-5-21 2017 ، علـى الرابـط الإلكترونـي : https://www.enabbaladi.net/archives/150841#ixzz4q6ToJfEk

36 - Amatzia Baram , Saddam's ISIS Tracing the Roots of the Caliphate , foreign affairs , April 8, 2016 , https://www.foreignaffairs.com/articles/iraq/2016-04-08/saddams-isis

37 - How Saddam Hussein's old ideology may have contributed to the modern Islamic State , February 19, 2018 , https://theconversation.com/how-saddam-husseins-old-ideology-may-have-contributed-to-the-modern-islamic-state-84937

38 - Kyle W. Orton , How Saddam Hussein Gave Us ISIS , Dec. 23, 2015, https://www.nytimes.com/2015/12/23/opinion/how-saddam-hussein-gave-us-isis.html?module

كُنْ للتدريب والتطوير

هو مشروع يهدف الى صناعة قادةٍ بادواتعصرية تمكنهم مـن مواكبة التقدم والتـطور العالمي وتاهـلهم لمزاولـة عملهم بمهنية واحتراف.

كُـنّ KUN

الرؤية

السياسات العامة ..

من المفهوم الى التطبيق

الرسالة

السعي نحو خلق قدرات بشرية كفوءة قادرة على وضع السياسات العامة موضع التطبيق وبما يرفد مؤسسات الدولة والمجتع

الهدف

1. المساعدة في اعداد وتمكين المتدربين, من طلبة الجامعات وخريجيها.
2. تأهيل المتدربين لمواكبة التغيرات الحاصلة في العالم المتقدم وبما ينسجم مع سوق العمل المحلي والعالمي.
3. تحفيز قدرات المتدربين على تحقيق درجة عالية من الكفاءة والموضوعية والمهنية, بمنحهم المهارات والقدرات المطلوبة المرتبطة في مجال تخصصهم او عملهم.
4. تأهيل المتدربين لشغل المناصب القيادية.
5. تأهيل المتدربين لفهم ومعرفة مفاهيم السياسة العامة وكيفية استخدامها كأداة لاحداث تغييرات في العمل المؤسسي

القيم

07835776157 @kun _fortraining كُنْ للتدريب والتطوير@

AL - R e w a q

ترجمة

الترجمة من الانكليزية

حصار حتى الموت

جون بيلجر

ترجمة: د. عذراء ناصر

الترجمة من الفرنسية

ملف العقوبات على العراق

إعداد موسى أشرشور

المركز والأقليم

عقد من التراجع الكردي ..

هل بات كيانُ الإقليم الدستوري مهددًا بالضياع؟

سامان نوح

حصار حتى الموت

«نصـفُ مليون طفل لقَوا حتفَهم في العراق منذ أن فرَضت الأمم المتحدة عقوبات لاقت حماسـاً شديداً من قبل بريطانيا والولايات المتحدة. اسـتقال ثلاثةٌ من مسؤولي الأمم المتحدة في حالة من اليأس على إثر ذلك. في غضون ذلك، يسـتمر قصف العراق بشكل شبه يومي.

(جون بيلجر) يحقق في صحيفة الغارديان».

جون بيلجر[2] - 4 آذار 2000

ترجمة: د. عذراء ناصر

أينما تذهب في مدينة البصرة جنوب العراق، هناك غبـار يدخـل في عينيـك وأنفك وحلقـك، يدور في ملاعب المدرسة ويستهلك الأطفال الذين يركلون الكـرة البلاسـتيكية. يقـول الدكتور (جـواد العلي) أخصائي السرطان وعضو الكلية الملكية البريطانية للأطبـاء: «إنـه [الغبـار] يحمـل المـوت». ويضيف: «تشـير دراسـاتنا الخاصـة إلـى أن أكثر مـن 40 في المائـة من السـكان في هذه المنطقة سـيصابون بالسرطان في غضون خمس سنوات ابتداءً، ثم بعد ذلك بفتـرة طويلة. معظم أفـراد عائلتي مصابون الآن بالسـرطان، وليـس لدينـا تاريـخ مـن الإصابـة بالمـرض. لقد انتشـر إلـى الطاقم الطبـي في هذا المستشفى. لا نعرف المصدر الدقيق للتلوث؛ لأنه لا يُسـمح لنا بالحصول على المعدات لإجراء مسح علمي مناسب، أو حتى لاختبار المستوى الزائد من الإشـعاع في أجسامنا. نعتقد أن السبب هو وجود اليورانيـوم المنضّب الـذي اسـتخدمه الأمريكيون والبريطانيـون في حرب الخليج عبر سـاحات القتال الجنوبية».

بموجـب العقوبـات الاقتصاديـة التـي فرضَهـا مجلـس الأمـن التابـع للأمـم المتحـدة منـذ مـا يقرب من 10 سـنوات، يُحرَم العـراق من المعدات والخبرة لتنظيف سـاحات القتـال الملوثة، بينما تم فعـلا تنظيـف الكويت. في الوقت نفسـه، قامت لجنـة العقوبات فـي نيويورك، التـي يهيمن عليها الأمريكيون والبريطانيون، بحجب أو تأخير مجموعة من المعـدات الحيويـة وأدوية العـلاج الكيميائي، وحتـى مسـكنات الآلام. قـال الدكتـور (العلـي): «بالنسـبة لنا نحن الأطباء، هـذا مثل التعذيب. نرى الأطفـال يموتـون من هـذا النوع من السـرطانات التي - بوجود العلاج المناسب - يكون هناك معدل شفاء جيد». مات ثلاثة أطفال بينما كنتُ هناك.

ولقي ستّة أطفال حتفهم في مكان قريب في 25 يناير من العام الماضي. أصاب صاروخ أمريكي شارع الجمهورية في منطقة سـكنية فقيرة. وأصيب 63 شـخصا بجـروح، عدد منهـم بحروق بالغـة. وقالت وزارة الدفاع في واشـنطن: «أضرار جانبية». لا تزال بريطانيـا والولايـات المتحدة تقصفـان العراق كل يوم تقريبًا: إنها أطـول حملة قصف أنجلو-أمريكية منذ الحرب العالمية الثانية، ومع ذلك - باستثناءات مشـرِّفة - لم يظهر عنها سـوى القليل في وسائل الإعـلام البريطانيـة. ووفقًـا لـ(تونـي بليـر)، فـإن الطائرات التي تم إجراؤها تحت غطاء «مناطق حظر الطيـران»، التي لا أسـاس لها في القانون الدولي، «تـؤدي مهامَّ إنسـانية حيويـة». وزارة الدفاع في لنـدن لديهـا موقف بشـأن «اتخـاذ إجـراءات قوية

أريد التحدث إلى الطيار الذي فعل ذلك

لحمايـة الطياريـن» مـن الهجمـات العراقيـة. ومع ذلك، يقول تقرير داخلي لقطاع الأمن التابع للأمم المتحدة إنه في فترة واحدة مدتها خمسـة أشـهر كان 41 في المائة من الضحايا مدنيين في أهداف مدنيـة؛ القـرى وأرصفة الصيـد والأراضـي الزراعية والوديان الشاسعة الخالية من الأشجار حيث ترعى الأغنـام. قُتـل راعٍ ووالده وأبنـاؤه الأربعة وأغنامه على يد طائرة بريطانية أو أمريكية أطلقت قذيفتين نحوهـم. وقفتُ فـي المقبرة حيـث دُفن الأطفال وسمعتُ صرخة والدتهم: «أريد التحدث إلى الطيار الذي فعل ذلك».

هذه حربٌ ضـد أطفال العراق على جبهتين: قصفٌ كلّف العام الماضي دافعي الضرائب البريطانيين 60 مليون دولاراً، وحصار هو الأشـد قسوة في التاريخ الحديث. وفقًا لليونيسيف (منظمة الأمم المتحدة للطفولـة)؛ فـإن معدل وفيات الأطفال دون سـن الخامسة يزيد على 4000 طفل في الشهر، أي أكثر من 4000 حالة وفاة عمّا هو الحال قبل العقوبات.

بهـذا يكـون نصـف مليـون طفـل قـد ماتـوا في غضـون ثماني سـنوات. إذا كان مـن الصعب فهم هـذه الإحصائية؛ ففكِّـر، في اليوم الـذي تقرأ فيه هذا، أنه قـد يموت ما يصل إلى 200 طفل عراقي دون داعٍ. وتقول منظمة الأمم المتحدة للطفولة: «حتـى لـو لم تُنسَـب كل المعاناة فـي العراق إلى عوامل خارجية؛ فإن الشـعب العراقـي ما كان ليمرّ بمثـل هذا الحرمـان في غياب الإجـراءات المطوّلة التي فرضها مجلس الأمن وآثار الحرب».

مـن خـلال الأبـواب الزجاجيـة لمكاتب اليونيسـف فـي بغـداد، يمكنـك قـراءة بيـان المهمـة التالي: «قبل كل شـيء، البقاء والأمل والتنمية والاحترام والكرامة والمسـاواة والعدالة للنساء والأطفال». سـيكون الشعور بالسخرية السوداء مفيدًا إذا كنت شـابًا عراقيًا. وكمـا هو الحال، فـإن الأطفال الذين يتجوّلون في الشـارع بالخـارج، بأطرافهم الرصاصية وعيونهـم الكبيرة جدًا بالنسـبة لوجوههم الطويلة النحيلة، لا يمكنهم قراءة اللغة الإنجليزية، وربما لا

يستطيعون القراءة على الإطلاق.

أخبرتني (أنوباما راو سينغ)، كبير ممثلي اليونيسف في العراق: «التغيير في 10 سنوات لا مثيل له، في تجربتي». «في عام 1989 ، كان معدل معرفة القراءة والكتابة 95 ٪، وكان 93 ٪ من السكان يتمتعون بحرية الوصول إلى المرافق الصحية الحديثة. وفُرض التغريم على الوالدين في حال عدم إرسال أطفالهم إلى المدرسة، ولم يُسمع بظاهرة أطفال الشوارع أو الأطفال المتسوّلين. وصل العراق إلى مرحلة كانت فيها المؤشرات الأساسية التي نستخدمها لقياس الرفاه العام للبشر، بما في ذلك الأطفال، من بين أفضل المؤشرات في العالم. وهي الآن من بين أدنى 20 ٪. خلال 10 سنوات، تصاعدت وفيات الأطفال من واحدة من أدنى المعدلات في العالم إلى الأعلى.»

أمضت (أنوباما راو سينغ)، وهي في الأصل مدرِّسة في الهند، معظمَ حياتها العملية مع اليونيسف. إن مساعدة الأطفال هي مهمتها، لكنها الآن المسؤولة عن برنامج إنساني لا يمكن أن ينجح أبدًا، تقول (راو سينغ): «أنا حزينة». أخذَتني إلى مدرسة ابتدائية نموذجية في مدينة صدام، حيث يعيش أفقر سكان بغداد، اقتربنا على طول شارع غمرته المياه؛ انهار نظام الصرف الصحي وتوزيع المياه في المدينة. (علي حسون) مدير المدرسة، تملَّكت منه الكآبة التي تميّز المعلّمين والأطباء العراقيين ومقدّمي الرعاية الآخرين؛ أولئك الذين يَعرفون أنهم لا يستطيعون فعل الكثير «حتى تقرر أنت، في العالم الخارجي، ذلك». قادَنا حول بِرَك مياه الصرف الصحي الخام في الملعب، وأشار إلى علامة المياه المرتفعة على الحائط: «في الشتاء يصل الأمر إلى هنا، عندها نخرج، نبقى لأطول فترة ممكنة، لكن بدون مكاتب، يجب أن يجلس الأطفال على الطوب، أنا قلق من سقوط المباني.»

المدرسة على حافة مقبرة صناعية واسعة. المضخّات في محطات معالجة مياه الصرف الصحي وخزانات المياه صامتة، باستثناء القليل من أزيز المحركات التي تعمل بجزء بسيط من قدرتها. كان العديد منهم أهدافا في الهجوم

لقاحات الأطفال ممنوعة؛ «لأنها قابلة للاستخدام في أسلحة الدمار الشامل»

لقد تلقيتُ تعليمات لتنفيذ سياسة تلبّي تعريف الإبادة الجماعية، سياسة متعمّدة قتلت بالفعل أكثر من مليون فرد وطفل وبالغ.

دينيس هاليداي

الخاطف بقيادة الولايات المتحدة في كانون الثاني (يناير) 1991، ومنذ ذلك الحين تفكّك معظمها وبقيت بدون قطع غيار من شركات البناء البريطانية والفرنسية والألمانية. تأخر وصول تلك القطع بسبب إجراءات لجنة الجزاءات التابعة لمجلس الأمن في الغالب. المصطلح المستخدم لوصف مثل هكذا حالة هو «معلَّق Placed on hold". قبل عشر سنوات، كان 92 ٪ من السكان يتمتعون بمياه صالحة للشرب، وفقًا لليونيسيف. اليوم، تم سحبها من نهر دجلة دون معالجة، إنها مياه قاتلة. يقول مدير المدرسة وهو يمسّد رأس شقيقين: "هؤلاء الأطفال يتعافون من الزحار، لكنه سيهاجمهم مرة أخرى، ومرة أخرى، حتى يصبحوا ضعفاء للغاية". تم حظر الكلور، الحارس العالمي للمياه الصالحة للشرب، من قبل لجنة العقوبات. في عام 1990، كانت احتمالية الإصابة للرضيع العراقي بالدوسنتاريا واحتمالية الوفاة هي واحد من كل 600، لكنها الآن واحد من كل 50.

قبل عيد الميلاد بقليل، منعَت وزارة التجارة والصناعة في لندن شحنة لقاحات تهدف إلى حماية الأطفال العراقيين من الدفتيريا والحمى الصفراء. أخبر الدكتور (كيم هاولز) البرلمان لماذا. كان لقب وكيل وزارة الخارجية للمنافسة وشؤون المستهلك مناسبًا بشكل بارز لردّه الأوروبلي[3]؛ حيث قال إن لقاحات الأطفال ممنوعة؛ «لأنها قابلة للاستخدام في أسلحة الدمار الشامل». لكن بدا أن إصبعه الذي كان مثبّتًا على زناد سلاح دمار شامل - العقوبات - لم يخطر بباله. استقال (دينيس هاليداي)، وهو رجل إيرلندي فصيح، من منصب منسق الإغاثة الإنسانية للعراق في عام 1998، بعد 34 عامًا مع الأمم المتحدة، ثم شغل منصب الأمين العام المساعد للأمم المتحدة، وكان من نخبة كبار المسؤولين. لقد قضى جلّ حياته المهنية في التنمية، «محاولًا مساعدة الناس، وليس إلحاق الأذى بهم». كانت استقالته أول تعبير علني عن تمرّد غير مسبوق داخل بيروقراطية

الأمم المتحدة. كتب (هاليداي): «أنا أستقيل؛ لأن سياسة العقوبات الاقتصادية مُفلسة بالكامل، نحن في طريقنا لتدمير مجتمع بأكمله. الأمر بهذه البساطة، والمخيف ... يموت خمسة آلاف طفل كل شهر ... لا أريد إدارة برنامج ينتج عنه أرقام مثل هذه».

عندما قابلت (هاليداي) أول مرة، أدهشتني الرعاية التي اختار بها الكلمات التي لا هوادةَ فيها. قال: «لقد تلقيتُ تعليمات لتنفيذ سياسة تلبّي تعريف الإبادة الجماعية، سياسة متعمّدة قتلت بالفعل أكثر من مليون فرد وطفل وبالغ. كلّنا نعلم أن النظام (صدام حسين) لم يدفع ثمن العقوبات الاقتصادية، بل على العكس، تم تعزيزه بها. فالأشخاص العاديون هم الذين يفقدون أطفالهم أو آبائهم بسبب نقص المياه غير المعالَجة. والواضح أن مجلس الأمن الآن خارج السيطرة؛ لأن أفعالها هنا تقوّض ميثاقها وإعلان حقوق الإنسان واتفاقية جنيف. سيذبح التاريخ هؤلاء المسؤولين».

داخل الأمم المتحدة، كسر (هاليداي) صمتًا جماعيًا طويلًا. ثم في 13 فبراير من هذا العام، استقال (هانز فون سبونيك)، الذي خلَّفه كمنسق للشؤون الإنسانية في العراق. وتساءل: «إلى متى يجب أن يتعرض السكان المدنيون في العراق لمثل هذه العقوبة لشيء لم يفعلوه من قبل؟» بعد ذلك بيومين، استقالت (جوتا بورغارت)، رئيسة برنامج الغذاء العالمي في العراق، قائلة إنها أيضًا لا تستطيع تحمّل ما يجري بحق الشعب العراقي. ومن المتوقع استقالة أخرى.

عندما التقيتُ (فون سبونيك) في بغداد في تشرين الأول (أكتوبر) الماضي، بدا جليًّا عليه الغضب الذي يعتمر وراء مظهره الخارجي المتّزن. مثل (هاليداي) من قبله، كانت وظيفته هي إدارة برنامج النفط مقابل الغذاء، الذي سمح للعراق

إلى متى يجب أن يتعرض السكان المدنيون في العراق لمثل هذه العقوبة لشيء لم يفعلوه من قبل

هانز فون سبونيك

منـذ عـام 1996 ببيع جـزء صغير مـن نفطِه مقابل المال الذي يذهب مباشـرةً إلـى مجلس الأمن. ما يقرب مـن الثلث يُدفع «نفقـات» الأمم المتحدة، والتعويضـات للكويـت، ومطالبـات التعويـض. ثم يطرح العراق عطاءات في السوق الدولية للحصول على إمـدادات غذائيـة وطبية وإمدادات إنسـانية أخرى. يجب أن تتم الموافقة على كل عقد من قبل لجنـة العقوبات في نيويورك. وقال: «ما يتعلق به هو أننا نسـتطيع أن نُنفـق 180 دولارًا فقط للفرد على مدى سـتة أشهر. إنها صورة يُرثى لها. ومهما كانـت الحجج حـول العراق، لا ينبغـي إجراؤها على أكتاف السكان المدنيين.»

سـافرتُ أنـا و(دينيس هاليـداي) إلى العـراق معًا، كانـت رحلتَه الأولـى. تتمتع واشـنطن ولندن بقدر كبيـر من تأثير الدعاية العراقيـة عندما تكون دعايةُ كل منهمـا، دون منـازع، هي الأقوى إلى حد بعيد. مع وضع هذا في الاعتبار، أردتُ إجراء تقييم مستقل مـن بيـن 550 شـخصًا من الأمـم المتحـدة، وهم شـريان الحياة في العـراق. ومن بينهـم (هاليداي) و(فـون سـبونيك) أبطـال. لقـد أبلغـتُ عـن عمل الأمـم المتحـدة في العديد من البلـدان، لم أعرف قطُّ مثل هذا الانشـقاق والغضـب، الموجّهين إلى التلاعب بمجلس الأمن، وفسـاد ما لا يزال البعض يشير إليه على أنه «المثل الأعلى» للأمم المتحدة. اسـتغرقت رحلتنا مـن عمّان في الأردن 16 سـاعة قلق على الطريق. هذا هو الطريق الوحيد المصرّح بـه للدخول إلـى العـراق والخروج منه، شـريط من السـيارات المحطّمـة وناقـلات النفـط المحترقـة. كانت بغداد مرئية للتو تحت بقعة بيضاء من التلوث؛ نتيجـةً لاسـتراتيجية القوات الجويـة الأمريكية في اسـتهداف البنيـة التحتيـة الصناعيـة فـي كانـون الثاني (يناير) 1991. وصلت أذرع الشباب إلى نافذة شـاحنتنا، صبـيٌّ يعـرض مـوزة ناضجـة، فتـاةٌ زهرة واحـدة. قبـل عـام 1990 ، كان مثل هذا المشـهد نادرًا ومثيرًا للاستياء.

بغداد نسخة حضَرية من «الربيع الصامت» لـ(راشيل كارسـون). ذهبت الطيور كما ماتت شوارع النخيل، وكانـت هذه أرض التمر. بقع الألوان، على أكشـاك الفاكهـة، هي خيالية. حفنةٌ من موز(دوول) وكيسٌ تفـاح من بيـروت يكلّفان المعلّم راتب شـهر، فقط الأجانـب والأغنيـاء يأكلـون الفاكهـة. العملة التي كانت تساوي دولارين للدينار في يوم من الأيام لا قيمة لها الآن. الأغنياء، والسوق السوداء، وأصدقاء النظام والمفضّلون، ليسـوا مرئيين، باسـتثناء طراز متأخر من الزجاج الملوّن من مرسيدس يشقُّ طريقه عبـر صناديق الصـدأ. بعد أن أُمروا بإبقاء رؤوسـهم منخفضة، اسـتمروا في شبكة النوادي والمطاعم والعيـادات المجهزة جيـدًا، مما يجعل الدعاية التي تقـول إن العقوبـات تضـرُّ بهـم، وليـس بالعراقيين العاديين، مجردَ هراء.

يوجـد فـي وسـط بغـداد نصـبٌ تـذكاري للحـرب العراقية الإيرانية 1980 - 1988 التي بدأها (صدام حسـين) بتشـجيع من الأمريكيين، الذين أرادوا منه تدميـر خصمهـم الكبير (آيـة الله الخمينـي). عندما انتهى الأمر، فُقِد ما لا يقل عن مليون شخص في قضيـة ليس لها وجـود، تغذّيها صناعات الأسـلحة فـي بريطانيـا وبقيـة أوروبـا والاتحـاد السـوفيتي والولايات المتحدة، الأعضاء الرئيسيين في مجلس الأمـن. السـاعدان الضخمـان للنصـب التـذكاري، المصمَّممـان علـى غـرار ذراعَـي (صـدام)، يحمـلان سيوفًا منتصرة متقاطعة. يُسمَح للسيارات بالمرور فوق خوذات الجنـود الإيرانيين القتلى الموجودين في الردهة. لا أستطيع التفكير في مشهد في أي مكان في العالم يعبّر بشكل أفضل عن جريمة حرب التضحية.

أقمنا في (فندق فلسـطين)، الذي حصل مرةً على خمـس نجـوم. كانت رائحة البنزين ثابتـة. ونظرًا لأن المطهِّـر غالبًـا ما يكـون «معلّقًا»؛ فقـد حلّ محلَّه البنزيـن، وهـو أكثر وفـرةً مـن الماء. يوجـد مكتب للخطوط الجوية العراقية يفتح كل يوم، مع موظف يجلـس خلف مكتب يبتسـم ويقول: (صبـاح الخير) للضيـوف المارّين. ليس لديهـا عملاء؛ لأنه لا توجد

فُقِد ما لا يقل عن
مليون شخص في
قضية ليس لها وجود

خطوط جوية عراقية، ماتت بسبب العقوبات. يقود الطيارون سيارات الأجرة ويكنسون الفناء الأمامي ويبيعون الملابس المستعملة. في غرفتي، كان الماء الجاري في غرفتي بلون المرق البنّي. تحمل الخادمة المنشفةَ البالية كأنها ميراث. عندما طلبتُ إحضار القهوة، بقي النادل مرابطاً في الخارج حتى انتهيتُ، الكؤوس غالية الثمن. كان وجه الشاب ملطَّخًا بالحزن: «أنا حزين دائمًا»، اتفق هو مع ذلك بشكل واقعي. في غضون شهر، سيكون قد ربح ما يكفي لشراء أقراص لأخيه المصاب بالصرع.

نفس الحزن يخيّم على وجوه الناس في مزادات المساء، حيث تباع ممتلكاتهم الخاصة بالطعام والأدوية. أجهزة التلفاز هي العناصر الأكثر شيوعًا في تلك الأسواق؛ شاهدتُ امرأة مع طفلين صغيرين يراقبون عرباتهم الصغيرة وهي تُباع مقابل أجر ضئيل. جاء رجل كان يجمع الحَمام منذ أن كان عمره 15 عامًا مع آخر طائر له، سيذهب القفص بعد ذلك. على الرغم من أننا توصّلنا إلى صيد؛ إلا أنني وطاقم الفيلم الخاص بي تم الترحيب بنا. مرة واحدة فقط، كنتُ أتحمل العبء الأكبر من الأذى الذي يكاد يكون ملموسًا في مجتمع أكثر غربية من أي بلد عربي آخر. «لماذا تقتل الأطفال؟» صرخ رجلٌ من خلف مكتبه. «لماذا تقصفوننا؟ ماذا فعلنا بكم؟» تحرّك المارة بسرعة لتهدئته. وضع رجلٌ ذراعًا حنونًا على كتفه، والآخر مدرِّس، وقف إلى جانبي، وقال: «نحن لا نربط شعب بريطانيا بأعمال الحكومة». قال لي (ليث كبة)، وهو عضو قيادي في المعارضة العراقية المنفية، في وقت لاحق في واشنطن: «الشعب العراقي و(صدام حسين) ليسا نفس الشيء، ولهذا السبب يوجد منّا الذين كرّسوا حياتهم لقتاله، وهم يعتبرون العقوبات غير أخلاقية.»

في مشهد يُشبه الأعمدة الإدواردية المكونة من أعمدة (دوريك) و(كورنثيان)، يأتي الناس لبيع كتبهم، ليس كما هو الحال في سوق للسلع الرخيصة والمستعملة؛ ولكن بدافع الحاجة الماسة. تم بيع الكتب الفنية ذات الأغلفة الجلدية المطبوعة في بغداد في الثلاثينيات،

ونصوص التوليد والأشعة، ونسخ المجلات الطبية البريطانية، والطبعة الأولى والثانية من «في انتظار جودو»، و«الشمس تُشرق أيضًا» ، وكذلك كتاب «سياسة الإسكان البريطانية لعام 1958» مقابل بضع سجائر. قال رجلٌ يرتدي شاربًا رماديًا مقصوصًا، وهو عراقي (بيرتي ووستر)[4]: «أريد أن أذهب جنوبًا لأرى أختي المريضة. أرجو أن تكون طيبًا، وأعطني 25 دينارًا». (حوالي بنس واحد). أخذها، وأومأ وذهب بكامل أناقته.

يهيمن على أستوديو (محمد غني) صليبٌ ضخم يقوم بنحتِه في كنيسة الصعود في بغداد. بصفته النحّات العراقي الأكثر شهرة، فهو فخور بأن الفاتيكان كلّفه، وهو مسلم، بنحت محطات الصليب في روما، وهي استعارة رومانسية لبلده باسم بلاد ما بين النهرين، «مَهد الحضارة الغربية». أحدثُ أعماله شخصيةٌ طولها 20 قدمًا لامرأة وطفلها يمسك بساقيها ويطلب الطعام. قال: «أراها كل صباح تنتظر، مع آخرين مثلها، في طابور طويل في المستشفى في نهاية طريقي. هم من أجبرنا على أن نكون». لقد أنتج سلسلةً من التماثيل التي تصوّر انتظارهم، جميع الرؤوس منحنية أمام باب مغلق بشكل دائم. قال: «الباب هو المستوصف، لكنه أيضًا العالم الذي يغلقه أولئك الذين يديرون العالم». في اليوم التالي، رأيتُ نسلاً مماثلاً من النساء والأطفال والآباء والأطفال في جناح السرطان في (مستشفى المنصور) للأطفال. إنه لا يختلف عن (سانت توماس) في لندن. قالوا إن الأدوية وصلت، ولكن بشكل متقطع، حتى يتمكن الأطفال المصابون بسرطان الدم، الذين يمكن إنقاذهم بدورة كاملة من ثلاثة مضادات حيوية، من اجتياز نقطة لا يمكن إنقاذهم بعدها؛ لأن أحدهم مفقود. يمكن للأطفال المصابين بالتهاب السحايا أيضًا البقاء على قيد الحياة بجرعة دقيقة من المضادات الحيوية، هنا يموتون. قال الدكتور (محمد محمود): «أربعة مليغرامات تنقذ حياة، لكن في كثير من الأحيان لا يُسمح لنا بأكثر من مليغرام واحد». هذا مستشفى تعليمي، ومع ذلك يموت الأطفال؛ لأنه لا توجد أكياس لجمع

أتعسُ ما رأيتُه في العراق هو موت الأطفال؛ لأنه لم يكن هناك علاج كيماوي ولا مسكّن للآلام

الـدم ولا آلات تفصـل الصفائـح الدمويـة، وهـي المعدات الأساسـية في أي مستشـفى بريطاني. تم «تعليق» عمليات الاسـتبدال وقطع الغيار في نيويورك، إلى جانب حاضنات، وآلات أشـعة سينية، وآلات للقلب والرئة.

جلسـتُ في عيـادة حيـث كان الأطباء يسـتقبلون الآبـاء وأطفالهـم، بعضهم يمـوت. بعد كل فحص آخر، كتبَت استشـارية الـدم والأورام لدى الأطفال الدكتـورة (لقـاء فصيـح كزيـر) باللغـة الإنجليزيـة: «لا توجـد أدويـة متاحـة». طلبـتُ منهـا أن تدوّن فـي دفتر ملاحظاتـي قائمةً بالأدويـة التي طلبَها المستشفى، ولكن نادرًا ما رأيتُها. في لندن، عرضتُ هذا على البروفيسور (كارول سيكورا) بصفته رئيس برنامج السرطان في منظمة الصحة العالمية، الذي كتبَ فـي المجلة الطبية البريطانية العام الماضي: «معـدّات العـلاج الإشـعاعي المطلوبـة، وأدوية العلاج الكيميائي والمسكّنات يتم حظرها باستمرار مـن قبـل (شـركة يونايتد). الـدول والمستشـارون البريطانيـون [فـي لجنـة العقوبات فـي نيويورك]. يبـدو أن هنـاك فكرة سـخيفة إلى حد مـا مفادها أن مثـل هذه العوامـل يمكن تحويلها إلى أسـلحة كيميائية أو أسلحة أخرى.»

قـال لي: «تقريبا، كل هذه الأدوية متوفرة في كل مستشفى بريطاني. إنها أساسية جداً. عندما عُدتُ مـن العراق العام الماضي، قمتُ مع مجموعة من الخبـراء بإعداد قائمة بـ 17 دواءً تعتبر علاجاً ضرورياً لمرض السـرطان. أبلغنا الأمم المتحدة أنه لا توجد إمكانيـة لتحويـل هـذه الأدويـة إلى عوامـل حرب كيميائية. لم نسـمع أكثر من ذلـك. أتعسُ ما رأيتُه فـي العراق هو مـوت الأطفال؛ لأنه لم يكن هناك علاج كيماوي ولا مسكّن للآلام. يبدو الأمر جنونياً، لكن لم يكـن بمقدورهم الحصول علـى المورفين؛ لأنه بالنسـبة لكل شخص يعاني من آلام السرطان، هـو أفضـل دواء. عندما كنتُ هنـاك، كانت لديهم

زجاجة صغيرة من حبوب الأسبرين ليتقاسمها حوالي 200 مريض يعانون من الألم. كانوا يتلقّون دواءً معينًا مضادًا للسرطان، ولكن ثمّة إمكانية للحصول على أجزاء صغيرة فقط من المخدِّرات هنا وهناك، وبالتالي لا يمكنك التخطيط لأي شيء، إنه أمر غريب.»

في كانون الثاني (يناير) من العام الماضي، قال (جورج روبرتسون)، وزير الدفاع آنذاك: «لدى (صدام حسين) في المستودعات أدوية وإمدادات طبية بقيمة 275 مليون دولار يرفض توزيعها». علمت الحكومةُ البريطانية أن هذا غير صحيح؛ لأن مسؤولي الشؤون الإنسانية في الأمم المتحدة أوضحوا مشكلة دخول الأدوية والمعدّات بشكل متقطع إلى العراق - مثل الآلات التي لا تحتوي على الأجزاء الأساسية، والسوائل الوريدية والمحاقن التي تصل بشكل منفصل - بالإضافة إلى صعوبات النقل والحاجة إلى مخزون احتياطي كبير. قال (هانز فون سبونيك): «يتم توزيع البضائع التي تأتي إلى هذا البلد إلى حيث تنتمي» ... «يُظهر تحليلنا الأخير للمخزون أنه تم توزيع 88.8 ٪ من جميع الإمدادات الإنسانية». وأكّد ذلك ممثّلو اليونيسف وبرنامج الأغذية العالمي ومنظمة الأغذية والزراعة. إذا كان (صدام حسين) يعتقد أنه يمكن أن يستفيد من عرقلة المساعدات الإنسانية؛ فإنه بلا شك سيفعل ذلك. ومع ذلك، وبحسب دراسة لمنظمة الأغذية والزراعة، فإن: «الحكومة العراقية أدخلت نظام الحصص الغذائية العامة اعتبارًا من شهرٍ من فرض الحظر. وهي توفّر أغذية أساسية بأسعار 1990، مما يعني أنها أصبحت الآن مجانية فعليًا. وقد أدّى ذلك إلى فائدة غذائية منقذة للحياة ... وحالت دون وقوع كارثة على الشعب العراقي».

يصل التمرّد في الأمم المتحدة إلى (كوفي عنان)، الذي كان يُعتقد أنه اكثر امين عام امتثالا. عُيِّن بعد أن شنّت (مادلين أولبرايت)، مندوبة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة آنذاك، حملةً للتخلص من سلَفِه (بطرس بطرس غالي)، وجدّد عقد (هانز فون سبونيك) في مواجهة حملة مماثلة من قبل الأمريكيين. لقد صدمهم في تشرين الأول (أكتوبر)

عندما سُئلت مادلين أولبرايت في التلفزيون الأمريكي عمّا إذا كانت تعتقد أن موت نصف مليون طفل عراقي كان ثمناً يستحق الدفع، أجابت:

«نعتقد أن الثمن يستحق ذلك»

الماضي عندما اتّهم الولايات المتحدة «باستخدام عضلاتها في لجنة العقوبات لفرض» تعليق «لأجل غير مسمى على أكثر من 700 مليون دولار من البضائع الإنسانية التي يرغب العراق في شرائها». عندما قابلتُ (كوفي عنان)، سألتُ عمّا إذا كانت العقوبات قد قضَت على مصداقية الأمم المتحدة كهيئة حميدة، قال: «أرجوكم لا تحكموا علينا اعتمادا على موقفنا من العراق».

في 7 كانون الثاني (يناير)، أفاد مكتب برنامج العراق التابع للأمم المتحدة أن شحنات تقدّر قيمتها بنحو مليار ونصف المليار دولار «معلقة»، تضمنت تغطية الغذاء والصحة والمياه والصرف الصحي والزراعة والتعليم. وفي 7 شباط / فبراير، هاجم مديرها التنفيذي مجلسَ الأمن لحمله على قطع غيار لصناعة النفط العراقية المتدهورة. وكتب: «نناشد جميع أعضاء مجلس الأمن أن يفكّروا في الحجة القائلة بأنه ما لم يتم توفير العناصر الرئيسية لصناعة النفط في غضون فترة زمنية قصيرة، فإن إنتاج النفط سينخفض. وهذا أمر واضح. تحذير.»

بعبارة أخرى، كلما قلّ النفط المسموح للعراق بضخّه، قلَّ المالُ المتاح لشراء الغذاء والدواء. وفقًا للعراقيين في الأمم المتحدة، كان ممثل الولايات المتحدة في لجنة العقوبات هو مَن استخدم حق النقض ضد الشحنات التي سَمح بها مجلس الأمن. في العام الماضي، قال مسؤول أمريكي كبير لصحيفة (واشنطن بوست): «كلما طالت مدة مراوغتنا في مجلس [الأمن] وإبقاء الأمور ثابتة، كان ذلك أفضل». هناك تفاهة في العقوبات تقترب من النزعة الانتقامية. في بريطانيا، توقفت الجمارك والضرائب عن إرسال الطرود إلى الأقارب، والتي تحتوي على ملابس ولعب أطفال. في العام الماضي، كتب رئيس المكتبة البريطانية (جون آشورث) إلى (هاري كوهين) النائب أنه «بعد التشاور مع وزارة الخارجية»، تقرّر أنه لا يمكن إرسال الكتب إلى الطلاب العراقيين.

في واشنطن، أجريتُ مقابلة مع (جيمس روبن)، وكيل وزارة الخارجية الذي يتحدث نيابةً عن (مادلين أولبرايت)، التي عندما سُئلت في التلفزيون

الأمريكي عمّا إذا كانت تعتقد أن موت نصف مليون طفل عراقي كان ثمنًا يستحق الدفع، أجابت (أولبرايت): «هذا خيار صعب للغاية، لكننا نعتقد أن الثمن يستحق ذلك». وعندما سألتُ (روبن) عن هذا الأمر، ادّعى أن كلمات (أولبرايت) مقتطعة من سياقها. ثم تساءل عن «منهجية» تقرير منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة، والذي قدّر نصف مليون حالة وفاة. نصحني بعدم «المثالية المفرطة»، قال: «في صنع السياسة، على المرء أن يختار بين خيارين سيئين ... وللأسف كان تأثير العقوبات أكثر مما كنّا نأمل». أحالني إلى «العالم الحقيقي» حيث «يجب اتخاذ خيارات حقيقية». وقال في سياق التخفيف: «إحساسنا هو أنه قبل العقوبات، كان هناك فقر خطير ومشاكل صحية في العراق». كان العكس صحيحًا، كما توضّح بيانات اليونيسف حول العراق قبل عام 1990.

المفارقة هي أن الولايات المتحدة ساعدت في جلب حزب البعث بزعامة (صدام حسين) إلى السلطة في العراق، وأن الولايات المتحدة (وبريطانيا) في الثمانينيات تآمرتا لخرق قوانينهما من أجل - على حد تعبير تحقيق في الكونجرس - «التودّد سراً لـ(صدام حسين) بتنازل متهور»، ممّا يمنحه كل ما يريده تقريبًا، بما في ذلك وسائل صنع الأسلحة البيولوجية. فشل (روبن) في رؤية المفارقة في قيام الولايات المتحدة بتزويد (صدام) بمخزون بذور الجمرة الخبيثة والتسمم الغذائي، والتي يمكن أن يستخدمها في الأسلحة، وادّعى أن (شركة ماريلاند) المسؤولة قد تمّت ملاحقتها. لم يكن الأمر كذلك؛ فقد حصلت الشركة على موافقة وزارة التجارة.

الإنكار سهل؛ لأن العراقيين هم أمة من غير الناس في الغرب، معاناتهم البانورامية لا تحظى باهتمام إعلامي كبير، وعندما تكون أخبارًا يتم دائمًا الحرص على تقليل الذنب الغربي. لا أستطيع أن أفكّر في أي قضية أخرى من قضايا حقوق الإنسان التي سُمح للحكومات بتحمّل مثل هذا الخداع بشأنها وقول الكثير من الأكاذيب المكشوفة. الحكومات الغربية لديها هدية في «جزّار بغداد»، الذي يمكن لومُه بأمان على كل شيء. على عكس رؤساء المملكة العربية السعودية، والجلّادين في تركيا، وأمير القتل الجماعي (سوهارتو)؛ فقط (صدام حسين) بغيض لدرجة أنه يمكنه معاقبة

(صدام حسين) بغيض لدرجة أنه يمكنه معاقبة شعبه الأسير على جرائمه

شعبه الأسير على جرائمه. إن الخضوع البريطاني لمخططات واشنطن بشأن العراق له صفة جبانة معينة؛ حيث تتبع حكومة (بلير) ما يسميه (سايمون جينكينز) «رجولية منخفضة التكلفة ومنخفضة المخاطر، تقوم على شيء سهل نسبيًا، لكنها قاسية بشكل فاضح». إن تصريحات (توني بلير) و(روبن كوك) والوزراء المرافقين المتنوعين ستكون مضحكة في ظروف أخرى. يقول (كوك): «يجب أن نرفض الادّعاء السخيف بأن العقوبات هي المسؤولة عن معاناة الشعب العراقي» ، ويقول: «يجب أن نتمسك بقدسية القانون الدولي والأمم المتحدة.». أمر مثير للغثيان. يتباهى البريطانيون بـ «مبادرتهم» في الترويج لقرار مجلس الأمن الأخير، الذي يعرض فقط احتمالية المزيد من دلالات كافكاوية[5]، ومراوغة تحت ستار «الحل» الذي لا يغير شيئاً.

ما هي العقوبات؟ قرار مجلس الأمن: القضاء على أسلحة الدمار الشامل العراقية. أخبرني (سكوت ريتر)، كبير مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة في العراق لمدة خمس سنوات، قائلا: «بحلول عام 1998، تم تفكيك البنية التحتية للأسلحة الكيميائية أو تدميرها بالكامل من قبل UNSCOM (هيئة التفتيش التابعة للأمم المتحدة)، أو من قبل العراق امتثالاً لتفويضنا. لقد انتهى برنامج الأسلحة، وتم القضاء على جميع المنشآت الرئيسية، وتم القضاء على برنامج الأسلحة النووية بالكامل، وتم القضاء تمامًا على برنامج الصواريخ الباليستية الطويلة المدى. إذا كان عليّ تحديد التهديد العراقي، فسأقول إنه صفر ". استقال (ريتر) احتجاجا على تدخل الولايات المتحدة. تم طرده هو وزملاؤه الأمريكيون عندما عثر العراقيون على معدّات تجسس أمريكية. لمواجهة خطر قيام العراق بإعادة بناء ترسانته، يقول إن مفتشي الأسلحة يجب أن يعودوا إلى العراق بعد الرفع الفوري لجميع العقوبات غير العسكرية، مفتشو الوكالة الدولية للطاقة الذرية قد عادوا بالفعل.

على أقل تقدير، يجب أن تكون مسألتا العقوبات والتفتيش على الأسلحة منفصلتين تمامًا. وقالت (مادلين أولبرايت): "لا نتفق على أنه إذا امتثل العراق لالتزاماته فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل، فيجب رفع العقوبات". إذا كان هذا يعني أن (صدام حسين) هو الهدف؛ فسيستمر الحظر إلى أجل غير مسمى، مما يجعل العراقيين رهينة امتثال طاغوتهم لوفاته. أم إن هناك أجندةً أخرى؟

في كانون الثاني (يناير) 1991، أتيحت الفرصة للأمريكيين للضغط على بغداد وإزالة (صدام)، لكنهم توقفوا بشكل واضح. بعد بضعة أسابيع، لم يفشلوا فقط في دعم الانتفاضة الكردية والشيعة، التي دعا إليها الرئيس (بوش)؛ بل منعوا حتى القوات المتمردة في الجنوب من الوصول إلى مستودعات الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها، وسمحوا لطائرات الهليكوبتر التابعة لـ(صدام حسين) بذبحهم بينما كانت الولايات المتحدة قد حلّقت الطائرات فوقها. في الوقت نفسه، رفضت واشنطن دعم جماعات المعارضة العراقية والمطالبات الكردية بالاستقلال.

"احتواء" العراق بالعقوبات يقضي على قدرته على تهديد سيطرة الولايات المتحدة على نفط الشرق الأوسط، بينما يسمح لـ(صدام) بالحفاظ على النظام الداخلي. وطالما بقي ضمن الحدود الحالية؛ يُسمح له بالحكم على أمة مشلولة. يقول الكاتب (سعيد أبو الريش): "ما سيحبّه الغرب بشكل مثالي هو (صدام حسين) آخر". تبرّر العقوبات أيضًا الوجود العسكري الأمريكي الضخم في الخليج، مع توسع الناتو شرقًا، مشاهدًا محمية نفطية جديدة واسعة تمتد من تركيا إلى القوقاز. يعتبر القصف والعقوبات مثاليَّين لمراقبة هذا النظام الجديد، استراتيجية أطلَق عليها رئيس منظمة الأطباء الأمريكية لحقوق الإنسان: "فَجِّر الآن، مُتْ لاحقًا". لا ينبغي السماح لمرتكبي هذه الجرائم بأن يُفلتوا من هذا باسمنا، من أجل أطفال العراق، وكل العراق في المستقبل.[6]

الهوامش (Endnotes)

1 - https://www.theguardian.com/theguardian/2000/mar/04/weekend7.weekend9

2 - جون ريتشارد بيلجر John Pilger (من مواليد 9 أكتوبر 1939) صحفي وكاتب وباحث ومخرج أفلام وثائقية أسترالي، يقيم أساسًا في بريطانيا منذ عام 1962. وكان أيضًا أستاذًا زائرًا في جامعة كورنيل بنيويورك. بيلجر منتقد قوي للسياسة الخارجية الأمريكية والأسترالية والبريطانية، التي يعتبرها مدفوعة بأجندة إمبريالية واستعمارية. كما انتقد بيلجر معاملة بلده الأصلي للأستراليين الأصليين. لفت الانتباه الدولي أولاً لتقاريره عن الإبادة الجماعية في كمبوديا.

3 - في إشارة إلى الكاتب (جورج أورويل) : إذا قلت إن شخصًا ما هو شخصية أورويلية؛ فمن المحتمل أن يكون هذا الشخص في صفك وهو شخص جيدًا أيضًا. للانتقال إلى الجزء الثاني من المعنى - فإن قول أي شيء آخر هو "Orwellian" يعني أنه شيء لا تحبه. المصدر: مجلة الغارديان (https://www.theguardian.com/books/booksblog/2014/nov/11/reading-group-orwellian-1984).

4 - بيرترام ويلبرفورس ووستر هو شخصية خيالية في قصص P.G Wodehouse الكوميدية التي أنشأها المؤلف البريطاني Jeeves. رجل إنجليزي ودود وواحد من "الأثرياء العاطلين" ، يظهر بيرتي إلى جانب خادمه جيفز الذي تمكن ذكاؤه من إنقاذ بيرتي أو أحد أصدقائه من العديد من المواقف المحرجة. وُصف بيرتي ووستر وجيفز بأنهما "أحد أعظم الأعمال الكوميدية المزدوجة في كل العصور

5 إشارة إلى فرانز كافكا، وتعني صفات مميزة أو تذكّرنا بالصفات القمعية أو الكابوسية لعالم فرانز كافكا الخيالي.

6 - © John Pilger 2010 - 2022

ملف العقوبات على العراق

موسى أشرشور

ملف

العراق: درس الحصار

فـي مقـال نشـرته مجلـة Questions internationales (قضايـا دوليـة) التـي يصدرهـا معهد العلوم السياسـية بباريـس، في عدد مـارس 2013، تناول الباحث والدبلوماسـي الفرنسـي (فرانسـوا نيكولود) موضـوع الحصار الدولـي المضروب علـى العراق، ويقول إن السـبب الأصلي في كل سلسـلة الأحـداث التي تلت غزو الجيـش العراقـي للكويت سـنة 1990 هو «تملّص الاتحاد السـوفياتي من دعمه لعراق صدام حسين».

يعتقد الباحث أن (صدام حسين) كان يؤمن بأن موسكو سوف تحميه من أمريكا إذا ما قرّر اجتياح الكويت، وبالتالي فلقد تفاجأ بالنتائج الوخيمة التي أعقبت هذا القرار. أول تلك العواقب كان إصدار مجلس الأمن بعد أربعة أيام فقط من الغزو للائحة 661 التي تفرض الحظر الشامل على كافة الواردات والصادرات من العراق وعلى جميع الحركات المالية، لكن هذا لم يحلّ المشكلة؛ بل زاد من تعقيدها، في رأي الكاتب.

نحن نريد أن نُقنع ولا نريد أن نفرض. لم أرَ يوماً لسياسة العقوبات أي آثار إيجابية»

جاك شيراك

يقول: «على مر السنين، أثارت التكلفة الاقتصادية والاجتماعية والصحية التي تكبّدها الشعب العراقي نتيجة للحصار تساؤلات متزايدة في وسط الرأي العام الدولي. المنظمات الإنسانية قدّرت عدد القتلى بمئات الآلاف، ولا سيما بين الأطفال. ونتذكر (جاك شيراك) لما أعلن في عام 1997، في قمة الفرانكفونية في هانوي: «نحن نريد أن نُقنع ولا نريد أن نفرض. لم أرَ يوماً لسياسة العقوبات أي آثار إيجابية».

يذكّر الكاتب بالواقع المأساوي الذي عاشه العراقيون طيلة سنوات من جرّاء القصف، بالتوازي مع الحصار الاقتصادي الخانق، ليحذّر من مغبّة تكرار نفس الاستراتيجية المدمّرة التي دأبت عليها القوى الكبرى تحت غطاء هيئة الأمم المتحددة ومتذرّعةً بلوائح مجلس الأمن، واستنساخها على إيران، مع كل الفوارق بين الحالتين. يقول: «بالطبع، يعاني الشعب الإيراني بشدة من العقوبات، وأيضًا من التسيير الاقتصادي الكارثي لحكومته، مثلما عانى الشعب العراقي من قبل. فالواردات الإنسانية والغذائية والصحية لا يشملها عادة الحظر، لكن تعقّد الإجراءات التي تسمح بتفعيل هذا القرار يجعلها تقريباً غير عملية، إلا في حالات استثنائية، كما هو الحال عندما يجد (كارجيل)، العملاق الأمريكي للصناعات الغذائية، مصلحةً في بيع الحبوب إلى إيران.» في الخلاصة، إن صدمة العقوبات تبدو، في نظر الباحث، أقل وطأة على إيران مما كانت عليه في الحالة العراقية؛ ربما بسبب الكثافة السكانية، وكذلك مستوى الاكتفاء الذاتي زراعيا وصناعيا في الجمهورية الإسلامية الذي كان أعلى بكثير من مستوى الاكتفاء الذاتي الموجود في العراق في عهد (صدام حسين).

على فرنسا أن تتحمل مسؤوليتها من أجل أن يستمر الضغط وتشتد العقوبات، إلى أن يحترم القادة الإيرانيون التزاماتهم الدولية بلوائح مجلس الأمن

فرانسوا هولاند

مقارنة بين العراق وإيران

وفي نفس السياق، يتساءل الكاتب عمّا إذا كان الشعب الإيراني أكثر استعداداً لتحمل تكلفة السياسة الحكومية من الشعب العراقي، وما إذا سيكون النظام من جانبه مستعداً، لو ثار الشعب، أن يتعامل بنفس القسوة التي كان يتعامل بها حاكم بغداد بالأمس، أو حاكم دمشق اليوم. ورأي الباحث أن الإيرانيين ذاقوا مرارة القمع الذي رافق تزوير انتخابات عام 2009، ولهذا فليسوا مستعدين لمواجهة النظام مرة أخرى. بالإضافة إلى أنه لم تظهر - إلى ذلك الحين - ملامح أزمة داخلية كفيلة بتهديد استقرار الجمهورية الإسلامية إلى درجة تلزمها بتقديم تنازلات للغرب حفاظاً على بقائها.

في ظل غياب أي مؤشرات جديدة على تداعي أركان النظام، كان لزاماً على القوى العظمى تكثيف الحصار وتمديد فترة العزلة الاقتصادية على إيران إلى أمد أطول. وهنا يذكّر كاتب المقالة بما قاله الرئيس الفرنسي آنذاك، (فرانسوا هولاند)، في هذا الشأن: «على فرنسا أن تتحمل مسؤوليتها من أجل أن يستمر الضغط وتشتد العقوبات، إلى أن يحترم القادة الإيرانيون التزاماتهم الدولية بلوائح مجلس الأمن». وكانت الصعوبة حينذاك تكمن في تحديد نوعية العقوبات «الحاسمة» التي يمكن إضافتها للقائمة الموجودة. وبما أن مثل هذا التصعيد لا يمكن أن يستند إلى الشرعية الأممية ولن يحظى بتأييد ومشاركة غالبية الدول الأعضاء، كان من المتوقع ألاّ تتوصل العقوبات إلى إحداث القطيعة المرجوة، مثلما كان الحال مع العراق.

وبعد وصول كل الحلول إلى الطريق المسدود، لم يبق أمام الدول الغربية سوى التفكير في اللجوء إلى استعمال القوة، تماماً مثلما حدث مع العراق. لكن نظام طهران كان حريصاً على عدم إتاحة أي فرصة لأمريكا حتى تُقدِم على هذه الخطوة، وذلك بتحاشي تخطّي الخط الأحمر الذي رسمه له (باراك أوباما)، والمتمثل في الشروع بصنع آلية نووية، وبتحاشي تخطّي حتى الخطر الأحمر الذي رسمه (بنيامين نتنياهو)، وهو تراكم مخزون اليورانيوم المخصّب بنسبة 20 ٪ بما يكفي للحصول في وقت وجيز على المادة الانشطارية الصالحة لصنع أول قنبلة. وسوف لن تجرؤ الإدارة الأمريكية على فبركة ملف مثل ذلك الذي أدّى إلى غزو العراق عام 2003.

يتابع الكاتب: «يبقى هناك حلّ ثالث، وهو التعديل الحاسم لمعايير التفاوض للخروج أخيراً من عنق الزجاجة. وهذا التعديل لن يتم إلا حول فكرة واحدة، وهي الاعتراف بحق إيران في متابعة أنشطتها التخصيبية، مقابل تأطير ومراقبة كافيَين لمنعها من التوصل إلى صنع القنبلة. المرشد الأعلى للثورة الإسلامية (علي خامنئي) قال مؤخرًا إنه يؤيّد مثل هذه الصيغة. وإذا كان الجميع متفقين على المضي في هذا الطريق، فإن المبادرة ستقع على عاتق المعسكر الغربي، أو بالأحرى على (باراك أوباما)، الزعيم الوحيد القادر على إعادة إطلاق المفاوضات على أسس جديدة. فيما وجد الأوروبيون أنفسهم في معزل عن كل هذه الحركية؛ بسبب افتقارهم للخيال والانسجام والإرادة السياسية».

(فرانسوا نيكولود): محلل دبلوماسي فرنسي وسفير سابق في طهران. من مواليد مصر سنة 1940، عمل مستشارا دبلوماسيا في وزارة الداخلية الفرنسية بين عامي 1988 و 1991، ثم في وزارة الدفاع بين عامي 1991 و 1993. وفي عام 2001 عيّن سفيراً في طهران، وهو المنصب الذي استمر فيه إلى غاية سنة 2005. توفي يوم 20 مارس 2021.

هل كانت العقوبات على العراق مطابقة لميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان؟

نشر (معهد كيبيك للدراسات الدولية) العليا في كندا سنة 2004 دراسة مهمة تحت عنوان: «هل كانت العقوبات الاقتصادية الشاملة ضد العراق (1990 - 2003) مطابقة لميثاق الأمم المتحدة

وحقـوق الإنسـان والقانـون الدولي الإنسـاني؟» مـن تأليف (مايكل ليسـارد)، وهـي خلاصة لبحوث وتحريات لم تكن زمنياً بعيدة عن الأحداث.

بعد نبذة عن تاريخ العقوبات الاقتصادية المطبّقة علـى عدد من الـدول، وتذكير بمسلسـل الأحداث التـي انتهـت بغـزو العـراق للكويـت سـنة 1991 والقرارات الأممية الصادرة بهذا الشأن، وبعد عرض للجـدل القانوني الذي نشـب حول مـدى مطابقة تلك الإجـراءات للقوانين الدولية؛ تناقش الدراسـة جوهـر الموضـوع بشـروح مسـتفيضة، إذ يقـول الكاتب: «كما يشـير إليه عنوان الفصل السـابع من ميثـاق الأمـم المتحـدة، يمكن لمجلـس الأمن أن يأمـر «فـي حالـة وجود تهديـد للسـلم، وإخلال به ووقوع عدوان». إلا أن عبارة «تهديد السلم» تبقى فضفاضة لأنها قابلـة للتأويل.“لأن زمرة العقوبات

العقوبات الاقتصادية تهدف باستعادة السلم أو الأمن الدوليين، ولا ينبغي أن تُفرض كوسيلة للتعبير عن خلاف من قبل مجلس الأمن، ولا للمعاقبة بعد وقوع الفعل.

المفروضـة علـى البلـد كان ينبغي أصـلاً، كما يرى الباحـث، أن تُطرح من خلال الفصل السـادس الذي يبحث الحلول السـلمية لأي نـزاع، وليس من خلال الفصل السـابع الـذي يبحث اللجوء إلى اسـتخدام القوة. في حين إن خبراء قانونيين يرون أن العقوبات الاقتصادية مرتبطـة بأهداف محددة، وتتمثل في اسـتعادة السـلم أو الأمن الدوليين، ولا ينبغي أن تُفرض كوسـيلة للتعبير عن خلاف من قبل مجلس الأمن، ولا للمعاقبة بعد وقوع الفعل.

ويتابـع: ”فـي حالة العـراق، نعتقد أنـه كان بإمكان المجلس، إلى حـدٍّ ما ولفترة محدودة، تبرير الإبقاء

على العقوبات الأممية (الجماعية) بعد حرب الخليج؛ لمنع النظام العراقي من استعمال أسلحة الدمار الشامل انتقامًا لهزيمته العسكرية، ولإجبار هذا النظام على وضع حد للانتهاكات الجماعية لحقوق الإنسان ضد الشعب العراقي. بمعنى آخر، في عام 1991 كان هذان العنصران يوحيان بأن تهديد السلم والأمن الدوليين لم ينتفِ تمامًا على الرغم من انتهاء احتلال الكويت والوقف الرسمي لإطلاق النار. لكن بمجرد انتهاء الانتفاضة الشعبية والقمع الدموي الذي قوبلت به، أي بمجرد استقرار الوضع من ناحية العنف المسلح، لم يعد ممكناً تبرير التدابير الاستثنائية للعقوبات الشاملة والأممية بتهديد مادي أو ملموس للسلم والأمن الدوليين.»

ثغرات في الفصل السابع:

في نفس السياق، تذكّر الدراسة بأن مجلس الأمن قد برّر إبقاء عقوباته الشاملة بتقاعس النظام العراقي عن التعاون مع مفتّشي الأسلحة الذين أوفدتهم منظمة الأمم المتحدة. "قيل إن احتمال وجود أسلحة دمار شامل في العراق يشكّل تهديداً للأمن الدولي، لكن الوضع هنا لا ينسحب عليه الفصل السابع من الميثاق؛ ذلك لأن طلب المجلس (أو عدد من أعضائه) لا يمكنه أن يبرّر عقوبات اقتصادية أممية (جماعية)، ناهيكم عن عقوبات شاملة، في ظل انعدام وجود تهديد ضمني للسلم أو إخلال به أو عمل عدواني."

ويستطرد الباحث في تحليله ويقول: "موضوعياً، لم يكن هناك أي تهديد، خاصة في ظرف عالمي

كان فيه العراق إما من ضمن البلدان التي لا تمتلك أي سلاح من أسلحة الدمار الشامل، أو من ضمن تلك التي تمتلك عدداً أقل من الأسلحة أو لا تمتلك الوسائل التقنية لاستعمالها بشكل فعلي. لهذا رأى العديد من المحللين والقانونيين بأن المجلس استعمل تلك العقوبات الأممية لمعاقبة العراق على عدم خضوعه، وليس حفاظاً على السلم والأمن الدوليين."ومن نفس المنظور، جاء في الدراسة أن إجراءات الردع الجماعية التي اتخذت تحت بند الفصل السابع من الميثاق "مخالفة للتعهد الدولي بحل الصراعات أو النزاعات بالطرق السلمية." مع الإشارة إلى أن البت في مسألة وجود "تهديد" للسلم أو الأمن الدوليين هو "حكم ذاتي بالضرورة يختص به المجلس حسب المادة 39 من الميثاق". لكن السؤال المطروح هنا: "ما العمل إذا ما كان لعضو ما أو أكثر من مجموع أعضاء المجلس الخمسة الدائمين نية سيئة؟" توضّح الدراسة أن القانون الدولي الوضعي "لا ينص على أي إجراء لمنع قرار صادر عن مجلس الأمن، بدليل أن انتقادات الصين وفرنسا وروسيا وعدد لا يُحصى من أعضاء آخرين في هيئة الأمم المتحدة، بالإضافة إلى الموقف المعارض لعدد من كبار الموظفين الأمميين والتقارير المشددة لوكالات إنسانية ولجان أممية لمراقبة حقوق الإنسان، والضغوط التي مارستها تحركات جماهيرية عالمية تطالب برفع تلك العقوبات الشاملة، كلّها باءت بالفشل."

ومن هنا يستنتج الباحث أن مجلس الأمن، فيما يتعلق بالعقوبات المفروضة على العراق من سنة 1991 إلى سنة 2003، قد تجاوز الصلاحيات التي خوّلها له الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة. يسرد الكاتب أمثلة عن تلك المواقف المناهضة للعقوبات، منها تقرير لـ(مركز كارتر للتفاوض الدولي)، الذي أكد بأن العقوبات الشاملة قد ساهمت في خلق "ظروف صحية مريعة" في البلدان المستهدفة؛ من أجل نتائج نسبية وقابلة للنقاش. وهنا يشير إلى وجود ما يصطلح عليه بـ"مفارقة حقوق الإنسان"، بمعنى أن اللوائح التي تفرض عقوبات اقتصادية غالباً ما تتضمن أحاديث عن حقوق الإنسان، بينما هي نفسها صمّاء أمام أي انتقاد بخصوص حقوق الإنسان. وهنا يذكّر بتقرير للفدرالية الدولية لحقوق الإنسان في هذا الشأن، تقول فيه إن "احترام مبدأ أولوية الميثاق (المادة 103) يستلزم احترام حقوق الإنسان التي تتصدر أهداف الميثاق (المواد 1(3)، 55 و56). وعلى نفس النهج، تقول لجنة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية الثقافية إن فرض عقوبات اقتصادية في الحالات الضرورية لا يمنع تطبيق المواد الثلاث المشار إليها أعلاه بحذافيرها.

أحكام القانون الإنساني التي تطبّق في زمن الحرب ينبغي حتماً أن تطبّق في زمن السلم.

ومن زاوية القانون الدولي الإنساني المنصوص عليه في (معاهدة جنيف)، تشير الدراسة إلى أن أول الأسئلة المطروحة تدور حول ما إذا كانت تطبّق في حالة إجراءات غير عسكرية. الجواب هو أن هذه المعاهدة طبّقت خلال حرب الخليج الأولى (1991)، لكن فيما يتعلق بالعقوبات الاقتصادية، كان لابد من مراعاة حقوق الإنسان الدولية. وفي النتيجة، كان لتلك الإجراءات غير العسكرية "آثار مدمّرة وغير إنسانية". مع أنه حتى في زمن الحرب، يُفترض أن (معاهدة جنيف) تحمي بعض حقوق الإنسان الأساسية. وهنا يذكّر الكاتب بالقاعدة التي تقول بأن أحكام القانون الإنساني التي تطبّق في زمن الحرب ينبغي حتماً أن تطبّق في زمن السلم. وبتعبير آخر، إن ما هو محظور في وقت الحرب لا يمكن أن يُسمح به بآلية سلمية مثل العقوبات.

رهينة بين الدكتاتورية والعقوبات:

مـن الناحيـة النظرية، نجـد أن لوائـح مجلس الأمن التـي فرضـت العقوبات الشـاملة ضـد العراق، من سـنة 1990 إلى سـنة 2003، كانـت دائماً تتضمن بنوداً خاصـة باحترام القوانيـن العرفية، مثل واجب السـماح بحرية تنقّل الأغذية ومـواد ضرورية أخرى كالأدويـة. وبالفعـل يملـك المجلس آليـات تحظر تقنياً عرقلة اسـتيراد الأغذية والأدوية في العراق، ويضـاف إلى ذلـك برنامج «النفـط مقابل الغذاء». لكـن بعيداً عن النوايا، ثبت أن العقوبات المفروضة علـى العراق قد أعاقت بشـكل خطير الوصول إلى المواد الأساسية لمعيشة عدد كبير من الأشخاص المدنيين ولرفاهية أغلبية السكان.

ويتفـق الخبـراء علـى أنـه إذا كانـت كل أنظمـة العقوبـات الاقتصاديـة تقريبـاً منـذ سـنة 1990 تسـمح باسـتيراد المواد الضرورية، إلا أن العقوبات مـن النـوع الشـامل تسـبب تلقائيـاً فـي معانـاة الفئـات السـكانية المتواجـدة في أسـفل المراتب الاجتماعيـة، بينما تسـتفيد منهـا النخبة في بعض الأحيـان. وباعتبار أن العقوبات المتخذة ضد العراق كانـت مفروضـة علـى مجمـل المجتمـع العراقي؛ فإنـه يتعين وصفها، اسـتناداً إلى عـدد من مبادئ القانـون الدولي، بالعقاب الجماعـي، وهذا يخالف روح (معاهدة جنيف)، على سبيل المثال.

هـذا الوضع دفع أحد الخبراء المذكورين في التقرير إلـى القول بأن الشـعب العراقي تحـوّل إلى رهينة بيـن الدكتاتوريـة والعقوبـات، أي إن المجلس بدلا مـن أن يحمي حقوق الإنسـان عمد إلـى توظيفها كوسـيلة ضغـط وابتـزاز لنظـام (صـدام حسـين). وهـذا مـا عبّر عنـه المنسـقّان الإنسـانيان التابعان للأمـم المتحـدة (دينيـس هاليـداي) و(هانس فان سـبونك)، اللّذان اسـتقالا مـن مهامهمـا احتجاجاً على الأسلوب المتبّع وعلى الخروقات التي شابت نظـام العقوبات في العراق. وجاء في هذا الصدد: «حتى فـي زمن الحرب، لا يُعقل أن يكون السـكان المدنيـون الهدف الرئيسـي. لكن فـي العراق، كان السـكان المدنيـون، والأكثـر فقـراً بشـكل أخـص، الهدف الرئيسـي، بـل والضحية الوحيـدة.» وعليه، فـإن الكثير من الحقوقيين والمنظمـات أكّدوا بأن العقوبـات الشـاملة المسـلّطة علـى العـراق غيـر مطابقة للمبادئ العامة للقانون الإنساني الدولي، ولاسيما مبدأ الضرورة ومبدأ التناسب.

العقوبات من النوع الشامل تسبب تلقائياً في معاناة الفئات السكانية المتواجدة في أسفل المراتب الاجتماعية، بينما تستفيد منها النخبة

إذ تنـص هذه المبـادئ العامة على عـدم التعرّض للأشخاص غير المسؤولين عن النزاع، وعلى ضرورة التمييـز بيـن المقاتليـن وغيـر المقاتلين، ولاسـيما أن مبـادئ القانون الإنسـاني تنـدرج ضمن أهداف ومبـادئ الأمـم المتحـدة طبقاً لميثاقهـا. فبعض المعاييـر التـي وردت فـي البروتوكـول 1 (1977)، ومنهـا البروتوكـول الخاص بالتناسـب مـع الأضرار الملحقة بالملكية والحيـاة المدنية، تحوّلت إلى ما يُصطلح عليه باسـم «القواعد الآمرة» في القانون الدولي. وهي قواعد تُلزم جميع الدول، كما توصي بذلك محكمة العدل الدولية.

تصل الدراسـة إلى خلاصـة بخصوص مراحل تطبيق العقوبـات علـى العـراق مـن 1990 إلـى 2003، مفادهـا أنـه بالرغـم مـن الجهـود والإعفـاءات الإنسـانية للتخفيـف مـن الآثـار المدمّـرة الناجمة عـن هـذه العقوبـات، دون وضع حد لهـا لأكثر من عشـر سـنوات، إلا أن أعضاء مجلس الأمن الدولي «تصرّفـوا بنيّة سـيّئة» في تفسـيرهم وتطبيقهم للقانون الدولي الإنساني وللقوانين الدولية عامة.

درء المجاعة عن العراق

مذكراتي عن سنين الحصار

(2003 – 1990)

عرض أنور المؤمن

يُعد مؤلِّف الكتاب (د. محمد مهدي صالح الراوي) الذي كان يشغل منصب وزير التجارة في العراق، صاحبَ أطول مدة وزارية في تاريخ العراق؛ إذ وصلت مدة وزارته إلى ستة عشر عاما بين عامي 1987 - 2003. (*) أما كتابه هذا؛ فيضم بين دفتيه ستة عشر فصلا، إضافة إلى الملاحق، انتظمت في 443 صفحة، وصدرت الطبعة الأولى منه عن منتدى المعارف في بيروت سنة 2022.

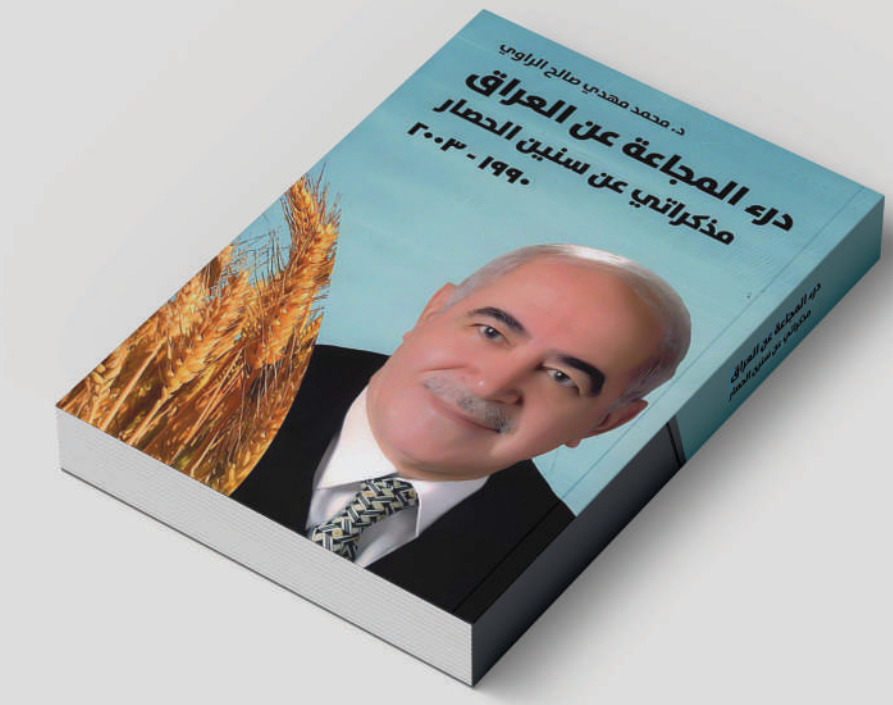

يشير المؤلف في الفصل الأول من الكتاب إلى طبيعة العلاقات الاقتصادية والسياسية بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق التي بلغت ذروتها خلال عقد الثمانينيات؛ إذ استُأنفت العلاقات الدبلوماسية المقطوعة عام 1986، وتوصّل الطرفان إلى توقيع اتفاقية التعاون التجاري والاقتصادي، لكن ما إن انتهت الحرب العراقية الإيرانية عام 1988 حتى بدأ مؤشر التطور بالتراجع؛ فبعد 45 يوما من توقف الحرب، بدأت العلاقات بالتوتر، إذ يشير المؤلف إلى فرض الولايات المتحدة عقوبات على العراق لاستخدامه الأسلحة الكيمياوية في كردستان العراق، وفضلا عن ذلك، بدأت أوضاع العراق بالتدهور اقتصاديا وماليا؛ بسبب الديون المتراكمة جرّاء الحرب من جهة، وانخفاض أسعار النفط من جهة أخرى، في وقتٍ بدأ العراق فيه حملة إعادة الإعمار والتوسع في خطط التسلح والصناعات العسكرية، التي يرى المؤلف أنها كانت غير صحيحة وأعطت صورة إعلامية مبالغ فيها للغاية عن برامج التسلح العراقي.

أما الفصل الثاني من الكتاب؛ فيتحدث عن الاجتياح العراقي للكويت، وعن قرارات مجلس الأمن والعقوبات الشاملة التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية بشكل أحادي في 2 آب 1990، ويناقش المؤلف سرعة إصدار القرارات الدولية بين القرار 660 في 2 آب 1990، والقرار 661 في 6 آب 1990؛ إذ يعدّها مؤامرة أُعدَّ لها مسبقا لنسف أي جهود للوساطة والحوارات مع العراق، ويحتج الكاتب على وجهة النظر هذه على بأن العراق وافق على سحب قواته من الكويت، ولكن الإدارة المصرية والأمريكية أحبطتا هذا القرار سواء في الجامعة العربية أو في مجلس الأمن، وذلك بإصدار القرار 661 الذي فرض الحصار الشامل

على العراق على الأصعدة كافة، وبضمنها المواد الغذائية والصحية، والتي عُدَّت سابقة تاريخية على مستوى العقوبات التي لم تطُل أي دولة بهذا الحجم والمضمون، ويشير الكاتب إلى دور المملكة الأردنية في عدم امتثالها للعقوبات التي التزمت بها دول العالم جميعا.

القرار 661 فرض الحصار الشامل على العراق على الأصعدة كافة، وبضمنها المواد الغذائية والصحية، والتي عُدَّت سابقة تاريخية على مستوى العقوبات التي لم تطُل أي دولة بهذا الحجم والمضمون

وأما الفصل الثالث؛ فيبيّن المؤلف فيه مكانة العراق في ظل المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والتربوية والغذائية والصحية، ويقدم أرقاما عن هذه المؤشرات في عام 1989؛ إذ يشير إلى أن الناتج القومي بلغ 75 مليار دولار، وتساهم عوائد النفط بنسبة 60 % من الناتج القومي، و95 % من توفير العملة الصعبة، وبلغ تعداد السكان 18،3 مليون نسمة. أما في مجال الطاقة؛ فيشير الكاتب إلى عمل 13 محطة توليد الكهرباء لإنتاج 8903 ميغاواط. وفي المجال التربوي بلغت نسبة الالتحاق بالمدارس الابتدائية والثانوية 75 %، وبلغ الإنفاق على قطاع التربية 5 % من الموازنة العامة. ويشير أيضا إلى أن 90 % من المواطنين يحصلون على مياه صالحة للشرب، كما بلغ معدل السعرات الحرارية للفرد في اليوم الواحد 3130 سعرة حرارية. كان الإنتاج المحلي يؤمّن ربع الحاجة من القمح والأرز، والفواكه والخضروات كانت تُنتج محليا، أما السكر والشاي وزيت الطعام وحليب الأطفال والكبار والبقوليات واللحوم الحمراء؛ فكانت تُستورَد بالكامل من دول الولايات المتحدة وأستراليا والبرازيل. ويتحدث الكاتب عن أن المخابرات الأمريكية كانت تتقصّى عن كل هذه المعلومات منذ شهر تموز 1990، أي قبل فرض العقوبات بشهرين.

وأما الفصل الرابع؛ فيتناول إجراءات مواجهة الحصار قبيل الحرب، وخاصة في الجانب الغذائي أو ما يطلق عليه (مواجهة المجاعة)، فيقول: (إن رصيد الدولة العراقية من العملة الصعبة كان بحدود 700 مليون دولار، وهذا المبلغ يشكّل 28 من حاجة العراق السنوية للمواد الغذائية)، في وقت امتنعت جميع الدول التي فيها أرصدة مالية عراقية عن تحويلها للعراق بسبب العقوبات. أما رصيد المواد الغذائية؛ فالمؤلف يشير إلى أنه كان يكفي لمدة أربعة أشهر فقط، وبالتالي كانت إجراءات اعتماد البطاقة التموينية لتامين كفاية التخزين من المواد الغذائية لمدة أطول، وتوزيع الخزين الغذائي بالتساوي بين المواطنين والمقيمين في العراق، وأصبح توزيع مفردات البطاقة التموينية عن طريق الاستيراد باسم وزارة التموين الأردنية والشركات الأردنية الأهلية، وبدأ تطبيق نظام البطاقة التموينية في بداية أيلول 1990.

وأما الفصل الخامس؛ فيتحدث فيه الكاتب عن حرب عام 1990 التي شنّها التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية لمدة 40 يوما من القصف الجوي، واتّهمها المؤلف بأنها استهدفت معظم المشاريع والبنى التحتية المدنية والعسكرية، في حين وافق العراق على مبادرة الاتحاد السوفيتي للانسحاب من الكويت تجنبًا للحرب البرية الشاملة. ويعتقد الكاتب أنه كان لزاما على مجلس الأمن أن يرفع الحصار الذي فُرض استنادا لأحكام القرار 661 بعد انسحاب العراق من الكويت عسكريا، ولكن على العكس من ذلك بقيت العقوبات مفروضة عليه، وأضيف لها شرط جديد هو تدمير أسلحة العراق النووية والكيمياوية والجرثومية. ويشير المؤلف إلى الاحتجاجات الشعبية التي كانت مناهضة للنظام بعد انتهاء الحرب (أحداث الانتفاضة الشعبانية) في 3 آذار 1991، والتي أطلق عليها النظام (صفحة الغدر والخيانة)، والتي يقول

العام 1995، والذي يعدّه الكاتب هو العام الأقسى والأصعب خلال مدة الحصار؛ إذ يحمّل (حسين كامل) مسؤولية تفاقم الأوضاع في العراق وتعثّر المفاوضات مع الأمم المتحدة بعد أن قدّم معلومات خاطئة

الكاتب إنها لم يُحسب لها أي حساب، ويحمّلها مسؤولية تفاقم الوضع الاقتصادي والغذائي؛ إذ يتّهمها بممارسة أعمال التدمير والنهب في محافظات الوسط والجنوب وشمال العراق.

وأما الفصل السادس؛ ففيه يتحدث المؤلف عن السنوات الأولى للعقوبات التي كانت تمثل الحصار الصلب، وكيف تمكّن النظام من تجاوزها بإجراءات اعتمدت على (الاحتياطي المتبقي من الذهب والمقدر بـ600 مليون دولار، والأموال المجمدة لدى الدول التي أبدت عدم معارضتها في استخدام تلك الأموال لشراء المستلزمات الغذائية والطبية، والقروض الحكومية التي في مقدّمتها القرض الجزائري والليبي بقيمة 100 مليون دولار لكل دولة، فضلا عن التبرعات المحلية والإقليمية، مثل تبرع اليمن بباخرتين للطحين والقمح.

وأما الفصل السابع والثامن والتاسع؛ فتناقش قضية هروب (حسين كامل) وتطبيق برنامج النفط مقابل الغذاء في العام 1995، والذي يعدّه الكاتب هو العام الأقسى والأصعب خلال مدة الحصار؛ إذ يحمّل (حسين كامل) مسؤولية تفاقم الأوضاع في العراق وتعثّر المفاوضات مع الأمم المتحدة للتخفيف من حدّة العقوبات، وذلك بعد أن قدّم معلومات خاطئة - حسب ما يذكر المؤلف - إلى فريق من الأمم المتحدة والمخابرات الأمريكية عن برامج التسليح في العراق، فضلا عن قبول العراق للتفاوض حول تصدير النفط العراقي تحت إشراف الأمم المتحدة مقابل العوائد المالية التي تُخصص للغذاء والدواء، الذي بدأ العمل به في 10 كانون الأول 1996 وفقا لقرار مجلس الأمن رقم 986 لسنة 1995، ويشير المؤلف إلى أن (صدام حسين) أمر بشمول الشعب الفلسطيني ضمن هذا البرنامج على اعتبار أن العوائد النفطية أصبحت جيدة ومحددة في إطار الغذاء والدواء.

وأما الفصل العاشر؛ فيتحدث فيه المؤلف عن الآثار الناجمة عن فرض الحصار، وتحولات العراق من بلد متطور إلى بلد فقير مثل الصومال ورواندا، ومن مجتمع يتميز بعلمائه ومهندسيه وأطبائه إلى مجتمع يسوده الشحاذون والمجرمون والعاملون في السوق السوداء. ويذهب الكاتب إلى أن هذا التدهور لم يحصل بسبب منع شحنات الغسيل أو بناء قصور رئيس النظام، وإنما جاء نتيجة تقييد الاقتصاد بشكل شامل. ثم يتحدث عن الحصار المرن بعد عام 1997، الذي تمثّل بعودة العلاقات الاقتصادية والتجارية مع بعض دول العالم ومن أهمها الأردن، وتركيا، والإمارات، وإيران، وسوريا، ولبنان، ومصر، ودولة المغرب العربي، واليمن، والسودان، وروسيا الاتحادية، وفرنسا، والصين، وفيتنام، وإندونيسيا، وتايلاند، وسريلانكا، وماليزيا، أمريكيا، وبريطانيا، وأستراليا، ضمن برنامج النفط مقابل الغذاء من جهة، ومن جهة أخرى في استيراد المواد التي تحتاجها القطاعات والوزارات ضمن قرار مجلس الأمن (986).

ونجد في الفصول (11، 12، 13، 14) أن المؤلف يشير إلى محاولة رئيس النظام السابق فتح قناة تواصل مع الإدارة الأمريكية، عندما بعث (طارق عزيز) إلى ملك المغرب، وحمّله رسالة إلى الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون) طالبا فيها تخفيف العقوبات المفروضة، وكان جواب الإدارة الأمريكية الاستعداد لذلك مقابل الانضمام إلى مشروع التسوية الفلسطينية، وهو الأمر الذي رفضه رئيس النظام، فكانت النتيجة تهديد الإدارة الأمريكية بعرقلة وإيقاف برنامج النفط

مقابل الغذاء.

وأما الفصل الخامس عشر؛ فيناقش المؤلف فيه الحرب التي ابتدأت في 19 آذار 2003 من خلال عدّة نقاط، منها: دخول القوات الأمريكية إلى محافظة النجف واستسلامها مباشرة، واستقبال القوات الأمريكية هناك من قبل العشائر وإقامة الولائم لهم، والاجتماعات الثلاثة بينه وبين رئيس النظام خلال مدة الحرب، التي ركّز فيها على قضية تخزين المواد الغذائية داخل العاصمة بغداد في سايلو الدورة والعطيفية واستخدام مواقع طارئة، فضلا عن تكثيف استخدام الدخان الناجم عن حرق الوقود داخل بغداد لمنع الصواريخ من الوصول لأهدافها. وفي الاجتماع الأخير عندما بدا الانهيار واضحا، أشاد المؤلف ببسالة قتال (فدائيو صدام). ويتحدث الكاتب عن وزير الداخلية (محمود ذياب الأحمد)، الذي وعد قيادة النظام بمنع القوات الأمريكية من الدخول إلى بغداد المحصنة بثلاثة أسوار، في حين إن وزير الدفاع (سلطان هاشم) قال إن القوات الأمريكية ستصل إلى بغداد في غضون سبعة أيام، حيث يعتقد المؤلف أن هذا التصريح تسبب بانهيار معنويات القوات المسلحة والاستعدادات النفسية لها. وفي النهاية وبعد 9 نيسان 2003، يحمّل الكاتب الولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية تدمير العراق منذ عام 1990، وفرض الحصار الذي راهنت عليه في إسقاط النظام، ثم الحرب عام 2003 التي معها تحول العراق إلى دولة فاشلة لم تكن كذلك قبل الحرب.

وأما الفصل السادس عشر (الأخير)؛ ففيه يعود المؤلف ليتحدث عن رئيس النظام السابق (صدام حسين)، إذ يشير إلى أن رئيس النظام اهتم بشكل أساسي بدعم البطاقة التموينية والقوات المسلحة، حيث كان يردد دائما عبارة (الخبز والبندقية). ويتحدث المؤلف في هذا الفصل عن الصراع الذي دخل فيه مع (حسين كامل) الذي كان مسؤول التصنيع العسكري في حينها، ويذكر أن (كامل) حاول مرارا وتكرارا إلغاء البطاقة التموينية وتحويل الدعم المالي للتصنيع العسكري، ولكن رئيس النظام رفض هذا الموضوع وهدّده أن لم يترك وزير التجارة وشأنه، ويشير المؤلف إلى ارتياحه الكبير باختفاء هذه المشكلة بعد هروب (كامل) إلى الأردن ثم مقتله؛ لأنه كان صاحب النفوذ والسطوة العليا بعد (صدام حسين) على أغلب قطاعات الدولة وأجهزتها، متفوقا على (عُدي) و(قُصي) ابنَي الرئيس.

ثم يتحدث المؤلف عمّا يسمّيه (العدالة في تطبيق نظام البطاقة التموينية وتوزيعها على المواطنين)، ويسرد في ذلك ثلاثة أحداث: الأول طلب مدير مكتب (عزّت الدوري) - صديق المؤلف وزميله في جامعة مانشستر حسب ما يذكر - تجهيز عزاء والدة (الدوري) بكميات من المواد الغذائية، وامتناع الوزير (المؤلف) عن ذلك. ويروي في الحادثة الثانية أيضا عزاء والدة أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة، حين طلب أحد مرافقيه كميات محدودة من المواد الغذائية، فامتنع عن ذلك أيضا. أما الحادثة الأخيرة؛ فهي عندما طلبت زوجة رئيس النظام (ساجدة)، عن طريق أحد المرافقين، شراء صفيحتين من زيت الطعام التركي، فاعتذر الوزير عن ذلك أيضا. وكذلك يتحدث عن موقف المعارضة العراقية في الخارج من البطاقة التموينية، التي يتّهمها بأنها تبنّت موقف الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا.

---

* الراوي من مواليد 1947، حاصل على شهادة الدكتوراه في التخطيط الإقليمي من جامعة مانشستر في المملكة المتحدة عام 1978. عمل مديرا عاما في وزارة التخطيط ثم أستاذا في جامعة بغداد حتى عام 1981. شغل منصب مستشار رئيس الجمهورية للشؤون الاقتصادية، ورئيس ديوان الرئاسة حتى عام 1987، حيث عيّن وزيرا للتجارة، واستمر في هذا المنصب حتى عام 2003، كما شغل منصب وزير المالية بالوكالة للفترة 1989 - 1991. بعد سقوط النظام في 9 نيسان 2003، غادر العراق إلى سوريا، ثم طُلِب من السلطات السورية إعادته إلى العراق، فسلمته السلطات السورية إلى القوات الأمريكية في 23 نيسان 2003. كان تسلسله (35(في قائمة أبرز المطلوبين للقوات الأمريكية الذين طُبعت صورهم على بطاقات اللعب (الورق). أفرجت عنه الحكومة العراقية في 18 آذار 2012 لعدم ثبوت التهم الموجهة إليه، وفي كانون الأول 2020 رفعَ مجلس الأمن اسمَ الراوي من قائمة المطلوبين.

بحوث ودراسات

مستقبل الثقافة في العراق

رسائل الى المجتمع العراقي

مدير المشروع ورئيس التحرير

د. صائب عبد الحميد

بقلم: مجموعة من الباحثين

دار الرواق

AlRewaq publishing house

dar@rewaqbaghdad.org

009647835774081

CHATHAM HOUSE
العراق
بعد 20 عامًا
تأمـــلات من الداخل
على الحرب وتداعياتها
تحرير: د. ريناد منصور
وثناسيس كمبانيس
AlRewaq publishing house
dar@rewaqbaghdad.org
009647835774081

عقد من التراجع الكردي ..

هل بات كيانُ الإقليم الدستوري مهددًا بالضياع؟

سامان نوح

مدخل:

بين محطة الاستقلال الاقتصادي في 2013 واستفتاء انفصال الإقليم بما حمَله من تداعيات، وبيـن مُخرجات (محكمة باريس) بشـأن بيع الإقليم للنفط وإقـرار الموازنة الثلاثية في 2023، عشرُ سنواتٍ تختصر حكاية الفشل والتشظّي والتصارع والتراجع الكردي وأفول قوة إقليمهم إلى حد التقوقع، وربما التفكك، إذا لم تحصل معالجات جذرية في السياسات العامة.

تراجـعٌ كـرديٌّ يمكـن رؤيته وتلمّسـه وقياسـه في أكثـر من موضع حيـوي، بدءًا مـن فقدان السـيطرة الأمنية والإدارية علـى المناطق المتنازَع عليها والتي تكاد تعادل مسـاحة الإقليم ككل، ومـرورا بانتكاسـة تطلّعات الاسـتقلال الاقتصادي والمالي حيث ينتظـر الإقليم اليوم حصّتـه من تخصيصـات الموازنة الاتحادية التـي تدفعها وتقرّها بغداد، وليـس انتهاءً بالتراجع السياسي لقوة الفيدرالية الكردية ومكانتها وتأثيرها في أروقة صنع القرار بالدولة الاتحادية.

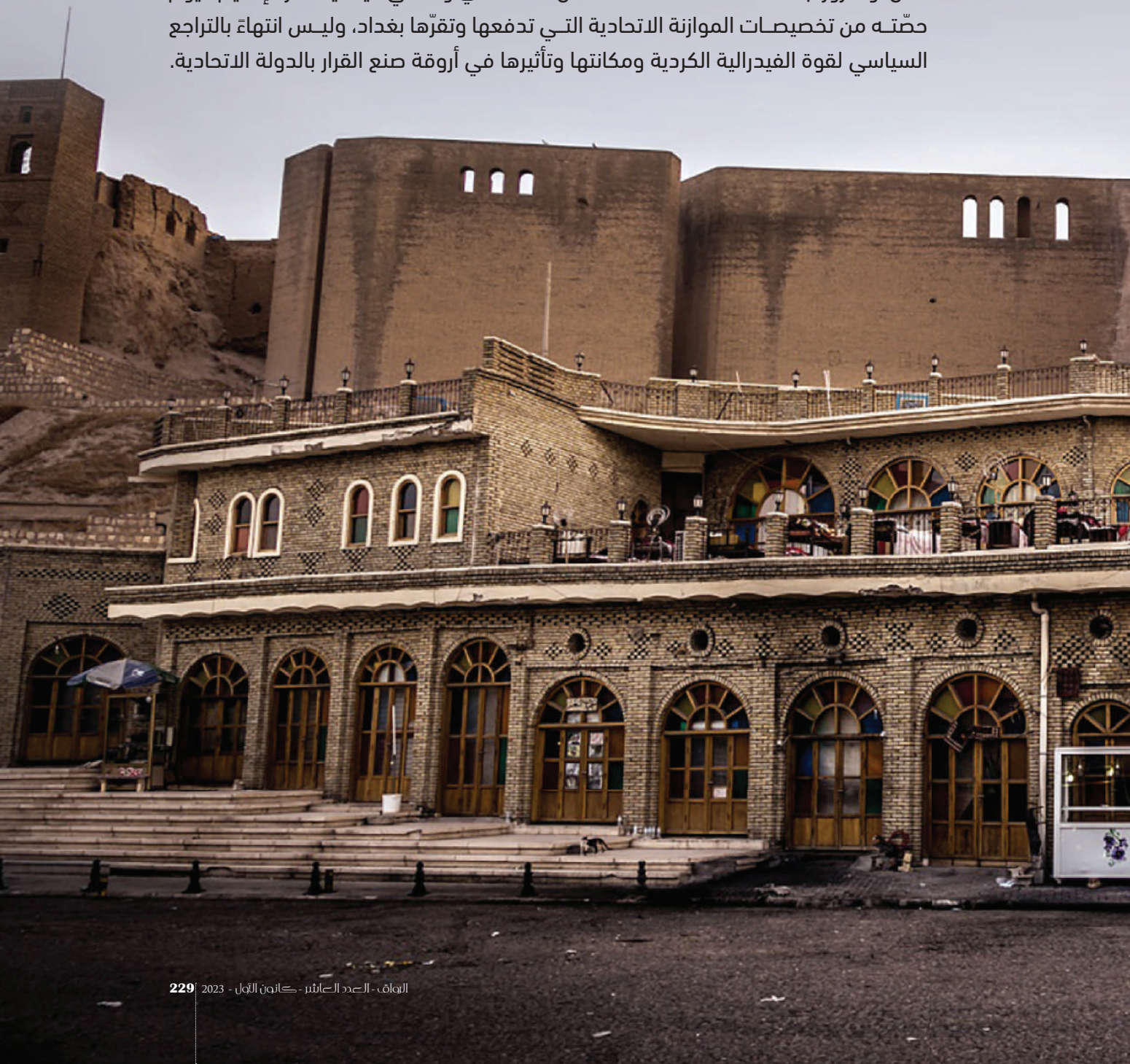

حدثت الانتكاسات في ظل صراع الحزبَين الحاكميَن في كردستان على السلطة والمال ومراكز التأثير ومفاصل الأمن والسلاح

حدثت تلك الانتكاسات في ظل صراع الحزبَين الحاكميَن في كردستان على السلطة والمال ومراكز التأثير ومفاصل الأمن والسلاح، وتغليب المصالح والرؤى الحزبية على مصلحة الإقليم ككيان ومجموعة بشرية، والتي نتج عنها تدهور في البنى والدعائم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الساندة لكيان الإقليم، والتعثّر الخطير في المسار الديمقراطي بما فيه إجراء الانتخابات في مواعيدها، وتفتّت المؤسسات العامة الحاكمة كالبرلمان والسلطة القضائية إلى حد الاندثار لصالح الهياكل الحزبية الحاكمة، وتراجع حرّيات الصحافة والتعبير والنشر.

النفق المظلم:

ليس رأياً استثنائيا القولُ إن الإقليم دخل في نفقٍ مظلم، نفقٍ مليء بالألغام «الإدارية، والأمنية، والقانونية، والسياسية» في ظل قوى متربصة إذا لم تدّخر جهدا لإضعافه فإنها لن تكون أبدا مكترثة لانهياره، وإن كانت قد استفادت منه لعقود، وداخل ساحة وطنية معقدة ومليئة بصراعات الأحزاب (المتضادة والمتحالفة) ذات البنى الطائفية، ومع عدم وضوح مصادر دخلِه المالي بغياب موارد مستقلة وإنتاج محلي، نفقٍ قد ينتقل بالكيان الدستوري إلى مرحلة جديدة لا تتمثل بضعف التأثير في القرارات الاتحادية فقط، بل تتجاوزها إلى تدخّل المركز في بعض مفاصل القرار الداخلي في الإقليم.

تتمثل قوة أي إقليم فيدرالي في النظام الاتحادي بمدى قوته المالية واستقلاله الاقتصادي، وتبدو هذه الحقيقة مقلقةً لحكومة الإقليم، الذي حاول لسنوات مقاومة قيود بغداد المالية والإدارية والاقتصادية، لكن الحزبين الحاكمين (الديمقراطي الكردستاني، والاتحاد الوطني)، بالرغم من تراكم مؤشرات فقدان الاستقلال الاقتصادي منذ سنوات، لم يتحركا جدّياً لمعالجة تلك المشكلة الجوهرية. الخطر كان يكبر أمام النظام الذي أسّسه الحزبان، لكن قياداتهما ظلت تتفرج بلا حراك جدّي لإيجاد المعالجات، بل انخرطت في صراعات داخلية مدمرة ساهمت في إضعاف دورها السياسي في العراق وفقدان فاعليتها ووجودها كقوة توازن، وفي تسريع فقدان سيطرتها على الملف الاقتصادي لاحقا.

نجحت القيادات الكردية في إطلاق عملية إعمار وتنمية في ظل توافق سياسي داخلي وشراكة محكمة قادها الزعيمان (جلال طالباني) و(مسعود بارزاني)

على الأرض، لا يهتم غالبية مواطني الإقليم بكل ذلك التداعي السياسي الإداري المالي، فهمومهم وتطلعاتهم ومطالبهم مختلفة. إنهم يبحثون عن ضمان تسديد رواتبهم (مليون و251 ألف متلقي راتب)، وعن تدفّق الأموال للسوق (بغض النظر عن مصدرها) بما يبقي فرص العمل والاستثمار، حتى وإن كان في مشاريع غير منتجة اقتصاديا.

وحسابات المواطن الكردي لا تكترث كثيرا بالمسار الديمقراطي المتعثّر، ولا بوضع الانتخابات والبرلمان المنحل، أو مجالس المحافظات التي لا دور لها ولا وجود إلا على الورق، أو بالمؤسسات المهمشة وغير القادرة على أداء دورها في ظل الإرادات الحزبية المتغالبة.

ساهمت الصراعات الكردية الداخلية في إضعاف الاستقلال الاقتصادي والمالي لإقليم

أكبر الخسارات:

ترى نخبٌ سياسية وثقافية في كردستان أنه إذا كان الاستفتاء شَكّلَ انتكاسات سياسية وأمنية، وإذا كانت مُخرجات (محكمة باريس) شكّلت انتكاسة اقتصادية، وإذا كانت موازنة 2023 قيّدت الإقليم ووضعت حكومته في صندوق تتحكم به المؤسسة المالية في بغداد؛ فإن الخسارة الأكبر تتمثل في الانهيارات السياسية والمؤسساتية وفي البناء الديمقراطي التي هي قد تكون المهدّد الأول والجوهري لنهاية الإقليم كقوة فيدرالية داخل العراق، حتى مع بقائه ككيان دستوري.

حدث كل ذلك في وقت ظلّت فيه الأحزاب الكردية الحاكمة والنافذة، وتحديدا الحزب الديمقراطي والاتحاد الوطني، في حالة تشابك وتصارع مع الكثير من التباهي والتغافل واللامبالاة والإصرار على الفوز بالمزيد والمزيد من الامتيازات، ولم تقم بأي مراجعة لسياساتها.

لم يتحرك الحزبان بعد كل انتكاسة، منذ الانهيارات العسكرية في منتصف العام 2014 في سنجار وسهل نينوى وصولا إلى حدود دهوك وأربيل والسليمانية، ومرورا بالاستفتاء وخطأ الحسابات السياسية وخسارة السيطرة على كركوك ومعظم المناطق المتنازَع عليها.

فلم تحصل مراجعات حقيقية وتصحيح للأوضاع، ولا مؤتمر جامع لمناقشة التحديات ولا بحث في الحلول؛ لأن ذلك يتطلب قبلها اعترافا بالأخطاء

والفشـل. في حين يتحدث الجانبان عن انتصارات أو نجاحات سياسـية وإدارية واقتصادية، وعن خيانات تسـببت بالخسـارات. ذلك التجاهـل للوقائع هو ما يمهّد بحصول انتكاسات جديدة.

ما الذي حدث؟

لم يكن الكرد مجرد لاعب قوي في «العراق الجديد» نجح في فرض دسـتور يضمن للإقليم كيانا دستوريا بصلاحيات واسـعة من قوى أمنية وعسكرية خاصة، إلـى الاسـتفادة من المـوارد المتاحـة وأفضلية في حقوق استثمارها واستغلالها محليا.

وكان الكـرد طـوال الفترة بيـن 2006 - 2013 صنّاع الملـوك فـي العراق، مسـتفيدين من ترسّـخ الأمن فـي مناطقهم في ظل تجربـة إدارة ذاتية مدعومة دوليـا امتدت لـ13 عاما، ومع صـراع طائفي محتدم في باقـي مناطق العراق. نجحت القيـادات الكردية فـي إطلاق عمليـة إعمار وتنمية غير مسـبوقة في تاريـخ الإقليـم، فـي ظـل توافـق سياسـي داخلـي وشـراكة محكمـة قادهـا الزعيمان (جـلال طالباني) و(مسـعود بارزانـي). وفرض الإقليـم معادلة تفوّق في بغـداد، جوهرها الاحتفاظ باسـتقلاله إلى جانب فـرض شـروطه ومنـع تمريـر أي قانـون أو اتخاذ أي إجـراء دون موافقتـه (حكومة الإقليـم) ضمن نظام توافقي محكم يقيّد كل النظام. كما نجح في فرض نفسه كلاعب مهم في الأروقة الإقليمية والدولية، فبـات رقما لا يمكن تجاهله في معادلات المنطقة السياسية أو الاقتصادية.

لكـن الأحوال تغيرت تماما فـي العقد الثاني للتجربة الكردية ما بعد 2003، مع رحيل (مام جلال) عن قمة السـلطة الكردية في بغداد، وظهور مشاكل الحرب مع تنظيـم (داعش) وانهيار أسـعار النفط في نفس الفتـرة، بالتزامن مع وصـول قيادات جديدة إلى هرم السـلطة في أربيل والسـليمانية، قيادات لا يجمعها تاريخ نضالي، وبينها تفاهمات هشّـة، وتحمل تجارب أقـل، وتحرّكهـا مصالـح ذاتيـة لإبـراز قوتهـا وفرض وجودها.

فـي تلـك الفتـرة، ارتسـمت ملامـح مسـار جديـد لقيادة الإقليم، مسـار يحاول تجاوز مرحلة التشارك فـي الحكـم والتناصـف فـي المواقـع القياديـة والامتيازات. برز ذلك المسار بشكل أوضح مع رغبة الديمقراطيـة في إنهـاء حالة التوازن والاسـتحواذ علـى حصـة أكبر مـن مراكز صنـع القـرار، والتعامل مع الآخر كمشـارك وليس كشـريك، مع تعاطٍ أقل تقديـرا لـدور الأحـزاب والقوى الأصغـر في صناعة السياسات.

انقسم الحزبان الكرديان على جبهتين سياسيتين متنافستين داخل العراق، وسعى كل طرف إلى إضعاف هيمنة الطرف الآخر حتى وإن كان الثمن إضعاف الإقليم.

في ظل الوضع الجديد وصراع المصالح المتقاطعة، انقسـم الحزبـان الكرديان على جبهتين سياسـيتين متنافسـتين داخل العراق، ولم يعـودا ضمن جبهة كردسـتانية قويـة واحـدة بمطالـب وسياسـات موحـدة تسـتطيع فرض شـروطها؛ بل سـعى كل طـرف إلى إضعـاف هيمنة الطرف الآخـر حتى وإن كان الثمـن إضعاف الإقليم. وفي كردسـتان، غرق الحزبـان في صـراع الامتيازات والمـال، الذي تحول إلـى صـراع سياسـي إداري وصـل إلـى حـد وجـود إدارتيـن منفصلتين علـى الأرض، رغم جهود القوى الغربيـة وضغوطهـا الكبيـرة لإقناع قـادة الحزبين بمعالجة مشاكلهما.

ومع ذلك الصراع، لم تكن الأحزاب الشيعية الباحثة عن تعزيز نفوذها وسـيطرتها على إقليم كردستان بحاجـة إلـى العمـل بشـكل موحـد ووفـق أجندة سياسـية لإضعاف الإقليـم، ولم تكن تلك الأحزاب بحاجة إلى خرق اتفـاق "تحالف إدارة الدولة" الذي

يحتاج إقليم كردستان الآن إلى إجراء انتخابات لاستعادة شرعيته القانونية المفقودة، ويحتاج إلى نسبة مشاركة عالية في التصويت لاستعادة شرعيته الجماهيرية والمسار الديمقراطي المتعثر

وقّعت عليه ومرّر داخل البرلمان الاتحادي؛ فقد مهّدت الانقسامات الكردية واختلاف الرؤى بين (الاتحاد) و(الديمقراطي) الطريق إلى تحقيق ذلك، وكانت الموازنة الثلاثية بعد فترة قصيرة من مخرجات (محكمة باريس) فرصة ماثلة.

تم هيكلة وتمرير الفقرات المتعلقة بالإقليم ضمن الموازنة بشكل يزيد من قيود بغداد على الإقليم، ويجعل كل شيء تقريبا خاضعا لرقابتها الدقيقة ومتحكَّما به من قبلها. بل صار البتُّ في أي نزاع داخلي (مالي حاليا) في الإقليم محكوما بإرادة بغداد وسلطة رئيس الوزراء والبرلمان العراقي، بعد أن كان لعقدين من الزمن أيُّ تدخل في الوضع بالإقليم خطأ أحمر لا يمكن الاقتراب منه.

ما حصل سيسهل على المركز التدخّل في تفاصيل إدارية وفنية في الإقليم كان الاقتراب منها إلى وقت قريب مستحيلا. ووفقا لذلك فإن من سيتحكم بالواردات المالية هي الحكومة الاتحادية، وكذلك من سيتحكم بأي خلافات كردية - كردية. وبات الإقليم محكوما بقرارات المحكمة الاتحادية التي كان يرفض في الماضي تطبيق بعضها، بل بات محكوما بإجراءات المفوضية العليا العراقية للانتخابات، أي إن كل تفاصيل العملية الانتخابية التي هي ذات أهمية خاصة للإقليم ستكون محكومة من قبل بغداد.

الوضع الجديد الذي تشكّل سيؤثّر على مكانة الإقليم على المستوى الوطني كما في المحيط الإقليمي، وعلى الساحة الدولية التي كان لهم صوت فيها يوازي - وأحيانا يتجاوز - صوت الحكومة الاتحادية، كما أنه سيلقي بظلاله على قوانين يفترض أنها تترجم الوضع الدستوري على أرض الواقع. فإقليم كردستان اليوم أضعف من أي وقتٍ مضى، والنظام الفيدرالي الذي تأسس بصلاحيات واسعة تصل إلى الاستقلال شبه التام يبدو أنه بات جزءًا من الماضي، ولم تعد التطلّعات الكردية الكبيرة قابلة للتحقّق في ظل إدارة ذاتية غير واضحة القدرات والمعالم.

يحتاج إقليم كردستان الآن إلى إجراء انتخابات لاستعادة شرعيته القانونية المفقودة، ويحتاج إلى نسبة مشاركة عالية في التصويت لاستعادة شرعيته الجماهيرية والمسار الديمقراطي المتعثر، لكنه يحتاج قبل ذلك إلى ضبط التوترات وإنهاء الصراعات السياسية، وإطلاق رؤية استراتيجية مشتركة لإعادة بناء الثقة، وذلك يتطلب مراجعات سياسية قاسية وتغيير شامل في قواعد العمل الحزبي والإداري، لا يعرف ما إذا كان الحزبان الحاكمان مستعدّين للقبول بها؟.

حـوار مع الدكتور مظهـر محمد صالح حول
الحصار الاقتصادي على العراق (1990 ـ 2003)

الحرب الخرساء
الحصار على العراق

بـدأت نذُر الأزمة عـام 1990 حينما طالبت الكويت بديونها

التضخّم هو أخطر مؤشر اقتصادي حصل في مرحلة الحصار، وقد وصل في سنواته الأولى إلى 90 %

حاوره: د. علاء حميد إدريس / أنور المؤمن

س/ الدكتور (مظهر)، كيف تصف لنا أوضاع العراق في المرحلة التي سبقت الحرب، ووضع العراق بين حربي الخليج الأولى والثانية؟

عندمـا حصلتُ على شـهادة الدكتـوراه في الاقتصاد مـن جامعة (ويلز ابريسـويث) في المملكة المتحدة، عدتُ إلى بغداد بتاريخ (28 تشرين الأول 1989)، أي بعد نهاية الحرب العراقية الإيرانية بسـنة، وقبل حرب تحرير الكويت بسـنة، وجدتُها مدينة جميلة ونظيفة، ولكـن الأوضـاع العامة كانت تبعث على الركود والخمول، والناس تنتظر تغييرًا ما، وإزالة لآثـار الحـرب، وهنالـك ترقّب لإجراءات وسياسـات الحكومـة في مرحلة مـا بعد الحرب. وبالرغم من التفاؤل حينها بالانتقال إلى وضع أفضل؛ كانت مستويات المعيشة بالنسبة للمواطن العراقي تعد متوسطة إلى حدا ما، حتى أن بعض الأصدقاء اتصلوا بي للتهنئة بحصولي على شهادة الدكتوراه وعودتي إلى البلد، ولكن اعتذروا عن إقامة وليمة على شـرفي كمـا جـرت عليه عـادات العراقيين؛ لأوضاعهـم الصعبة، فهي كانـت تعدُّ مرحلة قلقة عموما.

خلّفت الحرب العراقية الإيرانية ديونا على العراق بلغت بحدود (77 ــ 78) مليار دولار

توصّلت الأمم المتحدة والعراق إلى توقيع مذكرة تفاهم عرفت بـ(برنامج النفط مقابل الغذاء)، التي وقّعت بين وزارة الخارجية العراقية والأمين العام للأمم المتحدة في عام (1995)

س/ متى بدأت نُذُر الأزمة بين العراق والكويت؟

بدأت نذُر الأزمة والحرب مع حلول عام (1990)، حينها طالبت الكويت بديونها، وبدأ التوتر في العلاقات العراقية الكويتية يتصاعد حتى وصلنا إلى يوم (2 آب 1990)؛ إذ اجتاحت القوات العراقية الكويت وجرى ما جرى بعدها من الحرب والحصار.

س/ كيف كانت أحوال الدولة العراقية مع تصاعد الأزمة بين العراق والكويت، على مستوى المجتمع العراقي والنظام السياسي؟

كان هناك تهيؤ لصدمةٍ ما في تلك المرحلة؛ إذ كان المجتمع في حالة تُشبه وقوفه على شفا حفرة ثم تدحرج وانهار كل شيء. عموما، لم يتصور أحد صدمة الحصار، فكانت صدمتهم الكبرى هي الحرب؛ إذ لم تمضِ سنتان منذ أن وضعت الحرب العراقية الإيرانية أوزارها، فكانت المخاوف حينها من دخول النظام السابق (صدام حسين) بحرب جديدة، وبكل ما يترتب عليها من آثار اجتماعية واقتصادية ونفسية.

وبنحو عام؛ إذا ما أردنا أن نقسّم أنواع الحروب، فهي: التقليدية (كالحرب العراقية الإيرانية)، والحرب الباردة (الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية)، والحرب الخرساء (الحصار على العراق) والحرب الناعمة.

فالحروب الخرساء هي الحصارات الاقتصادية، التي تشتمل على جانبين: الجانب الأول هو الجانب الذي يهدف إلى تعطيل الاقتصاد، والذي يعني فرض الحصار الاقتصادي لتحقيق خسارة اقتصادية على ذلك البلد، الذي يعتمد على التصدير. أما الجانب الآخر؛ فهو الجانب الأقصى الذي يهدف إلى العمل على تحطيم وإزالة النظام السياسي والإضرار بنظام الحكم لذلك البلد.

والحقيقة، كان الهدف من الحصار الاقتصادي هو إزالة النظام السياسي من خلال تعطيل تصدير النفط؛ لأن النظام كان يعتمد عليه بدرجة أساسية، لذلك صُوّبت أولى العقوبات التي فرضها مجلس الأمن باتجاه صادرات النفط العراقية، فالدولة الريعية العراقية المعتمدة على النفط توفر العوائد المالية الضخمة لتمويل الحروب التي يشنّها النظام.

س/ كم بلغ حجم الديون التي ترتّبت على العراق من جرّاء الحرب العراقية الإيرانية؟

خلّفت الحرب العراقية الإيرانية ديونا على العراق بلغت بحدود (77 ــ 78) مليار دولار، ومع عدم قدرة العراق على تسديدها خلال مرحلة الحصار ارتفعت الديون نتيجةً للغرامات التأخيرية المترتبة على الديون، فوصلت قيمتها إلى حدود (128

ـ 129) مليار دولار، وأنا افتخر بأنّي كنتُ ضمن الفريق الذي استطاع أن يُسقط (100) مليار دولار من أصل (129) مليار دولار في اتفاقية نادي باريس عام (2004).

س/ دكتور، هل لك أن تذكر لنا أبرز المؤشرات الاقتصادية لمرحلة الحصار؟

كانت قدرة العراق الإنتاجية للنفط بحدود أربعة ملايين برميل يوميا، وفي مرحلة الحصار وصلت إلى صفر، بل الأكثر من ذلك طلب رئيس النظام (صدام حسين) أن يعطي نفطا مجانيا ولكن رفضت الدول ذلك العرض التزاما بقرارات مجلس الأمن.

وهناك مجموعة مؤشرات لتلك المرحلة:-

أولا: إن متوسط دخل الفرد في مرحلة الحصار، ومع كل مذكرات التفاهم والانفتاح الاقتصادي بعد عام (1995)، لا يتجاوز (700) دولار سنويا، وبالتالي عُدَّ العراق من البلدان الفقيرة، والطبقة الفقيرة أصبحت بحدود (75 ـ 80%) من المجتمع، ثم بنسبة قليلة الطبقة المتوسطة، وبنسبة أقل طبقة الأغنياء.

ثانيا: إن ديون العراق المتراكمة قد سجّلت ما نسبته حوالي (670 %) من الناتج القومي الإجمالي، وهي نسبة أعلى بـ (10) مرات من النسبة العليا المقبولة عالميا وهي (60 %).

ثالثا: إن التضخّم هو أخطر مؤشر اقتصادي حصل في مرحلة الحصار، وقد وصل في سنواته الأولى إلى (90 %) سنويا، ولكن استقرت نسبته بعد توقيع مذكرات التفاهم وتطبيق برنامج النفط مقابل الغذاء عام 1995 على (50 %) سنويا، في حين إن النسبة المعقولة للتضخم عالميا هي (2,5 ـ 3 %).

س/ كيف تأثّر الاقتصاد العراقي بالحصار؟ وما أثره في المجتمع والإنسان العراقي؟

كان نمط الاقتصاد في تلك المرحلة اشتراكيا ومركزيا، لكن أصبح هنالك انفلات، بالرغم من أن النظام السابق وضع برنامج البطاقة التموينية

> **كانت قدرة العراق الإنتاجية للنفط بحدود أربعة ملايين برميل يوميا، وفي مرحلة الحصار وصلت إلى صفر**

التي نجحت في تحقيق الحد الأدنى من الغذاء للشعب العراقي، فضلا عن مذكرات التفاهم وبرنامج النفط مقابل الغذاء التي أدخلت نوعيات جيدة من الغذاء الخبز والرز وغيرها إلى البطاقة التموينية بعد عام (1995).

إن العقوبات التي استهدفت الاقتصاد العراقي جاءت متسارعةً ومتسلسلة وفق للقرارات مجلس الأمن، وأخطر تلك القرارات هو القرار (687) الذي صدر في (3 نيسان 1991)؛ كونه جمع كل قرارات مجلس الأمن السابقة وفقا للفصل السابع، وأضاف لها مواد تتعلق بالتفتيش عن الأسلحة العراقية للدمار الشامل، وترسيم الحدود مع الكويت، والتعويضات العراقية لأي شخص كان في الكويت سواء كان مواطنا كويتيا أو من الأجانب والمقيمين وقت الاجتياح العراقي، وإنشاء صندوق تحت وصاية الأمم المتحدة للتعويضات، واستقطاع نسبة مما يمكن أن يصدره العراق من نفط أو غاز لأغراض التعويضات، وفرض حصار مالي وتجاري على العراق بما في ذلك الفعاليات المصرفية والتحويلات المالية، ولكي تُحدد نسبة الاستقطاع من عوائد النفط العراقي؛ كُلّف الأمين العام للأمم المتحدة بإعداد تقرير يحدِّد فيه تلك النسبة، والذي بدوره طلب من الحكومة العراقية حينها أن يبيّنوا وجهة نظرهم بخصوص التعويضات، وإعداد تقرير خاص بهذا الملف.

أنا كنتُ في لجنة شكّلت لتقييم أضرار الحرب في العراق، رأسها وزير التخطيط حينها (سامان مجيد فرج)، وكنتُ ممثلا عن البنك المركزي العراقي، مع ممثلَين آخرَين عن وزارة الخارجية ووزارة

الماليـة، كنّا نجتمع وأعمدة الدخان ما تزال تتصاعد من جـرّاء الحرب والقصف مع انقطـاع تام للطاقة الكهربائيـة لنعـد تقريـرا إلـى الأمين العـام للأمم المتحـدة، ووضّحنـا فيه عدم قدرتنـا على دفع أي تعويضات بسـبب وضع العراق وما حل به من دمار هائـل، إضافة إلـى الديـون السـابقة المترتبة عليه منـذ الحرب العراقية الإيرانية، وبـدوره قام الأمين العـام برفع تقريـر إلى مجلس الأمـن، الذي توصّل حينهـا إلـى صيغة قـرار تُلزم العراق بدفع نسـبة لا تزيـد علـى (30 %) مـن أي برميل نفـط أو صادرات نفطية أو غازية أخرى، وهذا ما تضمّنه قرار مجلس الأمن (705) في (15 آب 1991).

س/ ولكـن كيـف يسـتقطعون هـذه النسـبة والصادرات النفطية متوقفة تماما؟

توصّلـت الأمم المتحدة والعـراق إلى توقيع مذكرة تفاهـم عرفت بـ(برنامـج النفط مقابل الغـذاء)، التي وقّعـت بيـن وزارة الخارجية العراقيـة والأمين العام للأمـم المتحدة في عـام (1995)، والتي بُنيَت على أن يصدِّر العراق كل (6) أشـهر نفطا بقيمة (2) مليار دولار، أي (4) مليار دولار بالسنة الواحدة، بغض النظر عن حجم وعدد البراميل ومتوسط السعر العالمي.

بـدأ العمـل بهـذا البرنامـج سـنة (1996)، وبـات العـراق يصدِّر النفط تحت إشـراف الأمم المتحدة، ومـع اسـتقطاع نسـبة لا تزيـد علـى (30%)، وما يبقـى للعـراق من أمـوال يكون له الحـق في فتح اعتمـادات، وفقـا لقوائـم تحدّدهـا لجنـة خاصـة شُـكّلت لهذا الغرض من مجلـس الأمن، للنظر في ما يطلبه العراق من المستلزمات الصحية والطبية والعلمية والغذائية وغيرها، وبعد أن تدرس اللجنة تلك الطلبات ثم ترفض أو تقبل بحسب قرارها.

وفي عـام (1997)، قـرر مجلس الأمـن رفع قيمة المبلـغ إلـى (5,2) مليـار دولار سـنويا، وارتفع هذا الرقـم فيمـا بعد، ولكـن الرقابـة والإشـراف على الاستيراد اسـتمرت، وأُودعت الأموال العائدة من صادرات النفط العراقية لدى حساب مصرفي باسم الأميـن العام للأمم المتحدة في البنك الفرنسـي فـي نيويـورك (PMB)، وجـاء اختيار هـذا البنك بناءً علـى رغبـة رئيس النظام السـابق (صدام حسـين)، وهـو الأمر الذي قاد بالنهاية إلـى أن يفقد العراق سيادته المالية والاقتصادية تماما.

س/ هـل كان النظـام العراقـي متفائـلا لتلـك المذكّرات وتطبيق برنامج النفط مقابل الغذاء؟

العـراق كان رافضا في البداية لهذا القرار؛ لأنه كان يتوقـع أن تُرفـع العقوبـات كليا، فالنظام السـابق اعتـرف وفقـا لقـرار مجلس قيـادة الثـورة المنحل رقم (200) في (10 تشـرين الثاني 1994) بالحدود العراقيـة الكويتيـة، وسـيادة دولـة الكويـت على أراضيها واسـتقلالها، وعلى أساس ذلك تم توقيع مذكـرة التفاهـم وتطبيـق برنامـج النفـط مقابـل الغـذاء بين العراق والأمم المتحدة، ولو لم يعترف النظـام السياسـي بذلك تجـاه الكويـت لما حصل توقيع مذكرات التفاهم تلك وتطبيق برنامج النفط مقابـل الغـذاء، الأمـر الـذي خفّف مـن العقوبات الدوليـة، فـي وقت كان النظام السـابق يأمل فيه أن تُرفع كليا بعد اعترافه بالكويت كدولة مستقلة.

س/ بقيت دولـة الأردن توفّر للنظام، من خلال القطـاع العـام والقطـاع الخاص، منفـذا تجاريا واقتصاديـا مهمـا، فلماذا لم تُقطـع العلاقات الأردنيـة مع العـراق كما هو حـال جميع الدول التي التزمت بقرارات مجلس الأمن؟

كانت الأردن في الأساس تتلقّى مساعدات نفطية مـن العراق خـلال حقبة الحـرب العراقيـة الإيرانية، وذلـك بناءً علـى رغبـة أمريكية، وكانـت العلاقات العراقية الأردنية جيدة، وتمثل الأردن للعراق منفذا تجاريـا مهمـا عبر مينـاء العقبة، وحتى مـع قرارات مجلـس الأمـن التـي ألزمـت جميـع الـدول بقطع علاقاتها مع العراق، حصل الأردن على استثناء من الأمـم المتحدة لتوقيـع بروتوكول يسـمح للأردن بـأن يـورِّد سـلعا محليـة الصنـع للعـراق لاعتبارات

سُمح للعراق بأن يصدِّر الكميات التي يستطيع تصديرها من النفط، ولكن بقيت العوائد المالية تودع في الحساب المصرفي للأمين العام للأمم المتحدة

إنسانية تصل قيمتها إلى حدود (400 ــ 480) مليون دولار، مقابل أن تأخذ الأردن مساعدات نفطية على نوعين: الأول خصم (15%) من السعر العالمي للنفط، والنوع الثاني حصة مجانية من النفط بحدود (30) ألف برميل، ولم تحصل أي دولة على مثل هذا الاستثناء (البروتكول العراقي الأردني).

والحق أن الأردن كانت تتجاوز على البروتكول، كأن تأتي بسلع مستوردة غير أردنية، مثلا جاء بماكينات استنساخ، أو سيارات، أو أدوات احتياطية وقطع غيار، أو مستلزمات مدرسية كأقلام الرصاص، (فقد مُنع العراق من استيرادها، حيث اتُّهم النظام السابق بإدخالها في صناعة الأسلحة)، وقد سجّلت تلك السلع كديون على العراق، وبقيت الأردن تطالب بها منذ ذلك الوقت، ووصلت قيمتها إلى (1.5) مليار دولار، سُميت بـ(ديون التجار الأردنيين) الذين جلبوا تلك السلع المستخدمة إلى وزارة التجارة العراقية.

كيف بدأ النظام السياسي بمحاولة تجاوز الأزمة الاقتصادية والعقوبات الدولية؟

سُمح للعراق بأن يصدِّر الكميات التي يستطيع تصديرها من النفط، ولكن بقيت العوائد المالية تودع في الحساب المصرفي للأمين العام للأمم المتحدة، ثم أعقب ذلك توقيع اتفاقيتَين تجاريتَين مع تركيا وسوريا، سبقتهما مشاورات أمنية وفنية حتى وقّعت عام (2000)، وتضمّنت الاتفاقيتان إصلاح أنبوب النفط الواصل من العراق إلى ميناء بانياس، وبدأ العراق بتصدير النفط بحدود (50 ـ 60)، ألف برميل يوميا، مقابل أن تُحول عوائده المالية إلى سلع ومنتجات سورية، وكذلك الاتفاق مع تركيا على تصدير النفط عبر الأنبوب النفطي إلى ميناء جيهان التركي، وعوائد ذلك النفط تحوّل إلى سلع ومنتجات تركية.

كانت الاتفاقيتان تنصّان على أن ما نسبته (60 %) يعود إلى العراق كسلع وخدمات، وما نسبته (40 %) يحوّل إلى أموال تودع في بنوك لبنانية، وكان

إيـداع هذه الأمـوال وفـق تقنية مجهولـة لا أحد اطّلـع عليها ولا علـى آلياتها، إلى حسـابات يُطلق عليها (حسابات جسرية)؛ فبمجرد دخولها إلى البنك تحـوّل إلى حسـابات (100) شـخص مثـلا، يمثّلون النظـام السـابق والدائـرة الخاصـة برئيـس النظام (صدام حسين) وعائلته، يضاف إلى ذلك أن النظام السـابق اتفق مع الأمم المتحـدة على صيغة تُلزم الشـركات التي تفتـح اعتمادات وتـورّد إلى العراق سـلعا وخدمات وفق برنامج النفـط مقابل الغذاء، والتـي يُدفـع لها من حسـاب الأمين العـام للأمم المتحدة، أن تدفع إلى العراق ما نسبته (10 %) من المبالغ تسـمى خدمـات ما بعد البيـع، وتُودع في البنـوك اللبنانية أيضا، وتمثّل تلك الأموال النسـبة الكبـرى التي حصل عليها النظام السـابق، أكثر من

> **الحصار الصلب الذي أعقب الحرب مباشرة هو الذي أضاف ثلاثة أصفار إلى العملة من جرّاء التضخم الذي ارتفع ثلاث مراتب عشرية، ووصل معدله إلى (90 %)**

نسـبة الأموال التي حصل عليها وفـق الاتفاقيات مـع تركيـا وسـوريا، التـي كانـت تتعثـر فـي بعض الأحيان، وكان النظام السـابق يحـوّل تلك الأموال عبر السـفارة العراقية في بيروت ثم عبر سـوريا ثم إلـى وزارة الخارجية العراقية ثم إلى البنك المركزي العراقي، وتدخل بحسـاب ديوان رئاسة الجمهورية، سـواء كانت بالدولار الأمريكـي أو باليورو الأوربي، أو حتـى بمعدن الذهب، وبلغـت قيمتها (3 - 3,5) مليـار دولار، مع السـحب المسـتمر لهـا من ديوان رئاسـة الجمهوريـة، وبعـد طلـب وزيـر الماليـة أن يتـم السـحب من هـذه الأمـوال لإسـتيراد المواد والسـلع، وأصبحت إدارة هذه الأموال مناصفةً بين ديوان رئاسـة الجمهورية ووزارة المالية، وهي ذات الأمـوال التـي سـحبها نجل رئيس النظام الأسـبق (قصـي صدام حسـين) عشـية حرب عـام (2003)، والتـي كانت بحـدود (مليـار دولار)، والتي صادرتها قـوات الاحتـلال فيمـا بعـد وادّعـت إعادتهـا إلى الشعب العراقي.

س/ مـن خـلال بحثنـا في تلـك المرحلـة وفقا للقـرارات الدوليـة والمؤشـرات التـي شـملت قطاعـات الدولة العراقية، توصّلنا إلى تقسـيم الحصار على مرحلتين: الأولى هي الحصار الصلب (1990 ـ 1995)، والثانيـة هـي الحصـار المـرن (1995 ـ 2003)، ما رأيكَ بهذا التقسيم؟

أنا مع هذا التقسـيم؛ فالحصار الصلب الذي أعقب الحـرب مباشـرة هو الذي أضـاف ثلاثـة أصفار إلى العملة مـن جرّاء التضخم الـذي ارتفع ثلاث مراتب عشـرية، ووصل معدله إلى (90 %)، وانخفض بعد ذلك حين بـدأ تطبيق برنامج النفـط مقابل الغذاء، وبجمـع معـدل التضخـم للمرحلتيـن نصـل إلى ما نسـبته (50 %) كمعـدل للتضخـم خـلال مرحلـة الحصار كاملة.

س/ كيـف تصفُ لنا القطـاع الصحي في مرحلة الحصار؟

أصـاب هذا القطـاع تدهـورٌ خطيرٌ مـن حيث نقص الأدوية والمستلزمات الطبية، خاصة بمرحلة الحصار الصلب التي مثّلت المـوت الأحمر للمواطنين، إلى درجـة أنه تم إجراء عمليـات جراحية من دون مخدّر، فضـلا عـن تدويـر المسـتلزمات والأدوات الطبية وإعادة استخدامها بين المواطنين.

فالتدوير في السـلع والمنتجـات للمواطنين وصل لـكل شـيء، مـن الأدوات والمسـتلزمات الطبيـة والصحيـة إلـى الأدوات الميكانيكيـة والكهربائيـة، ولعـل تلك المرحلة فجّرت إبداعات العقل العراقي الذي بذل كل جهوده حتى لا تقف الحياة.

عمومـا، ومـع تطبيق برنامج النفـط مقابل الغذاء،

أصاب القطاع الصحي تدهورٌ خطيرٌ من حيث نقص الأدوية والمستلزمات الطبية، إلى درجة أنه تم إجراء عمليات جراحية من دون مخدّر

أصبح هناك توفّر ولو بشكل جزئي للأدوية والمستلزمات الطبية، واعتُمدت خلال مرحلة الحصار بطاقة الأمراض المزمنة، كأمراض السكر والضغط على سبيل المثال، أما الأمراض المستعصية والثقيلة كالسرطان؛ فلم توفَّر لها الأدوية وارتفعت نسبة الوفيات بنحو كبير.

س/ أطلق النظام السابق حملةً لإعادة الإعمار بعد الحرب (حملة الإعمار الكبرى) وبناء القصور الرئاسية، فكم كانت تكلفتها؟ وكيف وفّر النظام مستلزمات البناء والإعمار في ظل الحصار الدولي؟

هذه الحملة نفّذها النظام السابق بعد انتهاء الحرب لتصليح وتعمير البنية التحتية المدمّرة، كمحطات الطاقة الكهربائية والمياه والطرق والجسور وغيرها، وعادت بعضها جزئيا للعمل، لكن لا تتوفر أرقام عن تكلفة تلك الحملة بسبب عدم وجود نظام مالي دقيق وشفاف حينها.

اعتمد النظام على تدوير الأدوات ومستلزمات البناء والمواد الأولية، فمثلا تم قلع المرمر في ساحة التحرير وسط بغداد والخاص بالنفق الكائن هناك والمحال التجارية، وقضبان الحديد الخاصة بسياج مطار المثنى وبناية مجلس الوزراء التي أنشأتها شركة هندية؛ من أجل بناء القصور الرئاسية.

يضاف إلى ذلك أنه كانت هناك مواد أولية مسروقة من الكويت، وأخرى من خزين الحرب العراقية الإيرانية، وأخرى كانت بحوزة الجيش العراقي، فضلا عن أن القدرات العراقية من المهندسين والخبراء والقوى العاملة كانت ما تزال عاملة ولم تُستنزف، وقبل أن تغادر العراق تمكنت من إصلاح وإعادة إعمار جسر الجمهورية، والجسر المعلق، ومحطة الدورة لتوليد الكهرباء، وغيرها

المهندسين الذين عملوا على إعادة إعمار الجسر المعلق احتاجوا إلى الأنابيب الواصلة على جانبي الجسر، والتي هرِّبت حينها إلى العراق من الأردن عبر ميناء العقبة، مع غضّ الأمريكان الطرف عنها.

الكثير من المنشآت التي دمِّرت في حرب تحرير الكويت عام (1991).

على سبيل المثال، إن المهندسين الذين عملوا على إعادة إعمار الجسر المعلق احتاجوا إلى الأنابيب الواصلة على جانبي الجسر، والتي هرِّبت حينها إلى العراق من الأردن عبر ميناء العقبة، مع غضّ الأمريكان الطرف عنها.

أما قصة بناء الجسر ذي الطابقين ببغداد؛ فقد ادّعى (حسين كامل) أنه قادر على بناء هذا الجسر مقابل بند ورق وقنينة حبر، ولكن (صدام حسين) كتب له برقية توبيخ وامتعاض: (لو كنتُ أعلم أن الجسر سيكلّف هذه الكلفة فلن أوافق عليه)، وبلغت تكلفة بناء الجسر (700) مليون دينار عراقي، وبالرغم من أنه أنشئ بجهد وطني إلا أنه كان مكلّفا للغاية.

كيف أدار النظام السابق الاقتصاد في مرحلة الحصار؟

بدأ النظام السابق بطبع العملة محليا، وهو الأمر الذي يعني ارتفاع معدل التضخم الاقتصادي، وعمد النظام إلى معالجة التضخم بالتضخم، بمعنى أن الدولة توزّع الرواتب وتسد التزاماتها المالية، ولكن لا يوجد إنتاج أو استيراد، فترتفع الأسعار فتصبح الأموال لا قيمة لها، ثم تعود الدولة وتموّل التضخم مرة ثانية بطباعة أموال أكثر، فترتفع الأسعار الموجودة، وقد أثّر ذلك في الاقتصاد العراقي بشكل عام، ولا تزال آثاره إلى الوقت الراهن.

هـذه المعالجـة للاقتصـاد التـي اعتمدهـا النظام السـابق أدّت إلـى تدميـر مسـتوى المعيشـة، وأفقـرت الطبقات المحـدودة الدخـل، فمثلا نجد أن الموظـف أصبـح راتبـه الشـهري كلّـه لا يكفيه لأجرة سـيارة تكسـي، أو شـراء طبقة بيض، وأتذكر أن سـيدةً فاضلـة فـي كليـة الإدارة والاقتصـاد عرضَـت علـيّ أن أعطـي محاضرات فـي الاقتصاد علـى المصـارف الأهليـة مقابل مبلـغ (700) دينار فـي الأسـبوع، وبالفعـل قدّمتُ تلـك المحاضرات واستلمتُ المبلغ، واشتريتُ به كيسًا من (4) أرغفة من الخبز (الصمون).

> كان الموظف وبجميع العناوين والدرجات الوظيفية إذا ثبَت أنه سلَك سلوكا فيه صبغة فساد فإنه قد يتعرّض إلى عقوبة تصل إلى الإعدام

س/ كيف تصـف الجهاز الإداري والوظيفي في دوائر الدولة خلال مرحلة الحصار؟

أصبحـت الوظيفة (حيازة) للموظـف وتملّكا مؤقتا لـه؛ وذلك لشـعور الموظـف بالعـراق حينهـا بأنه يعمـل مجانـاً، وبالتالـي يتيح لـه ذلـك الوضع أخذ الرشـوة، وعدم الإخلاص بالعمل، وعدم الانضباط، وعـدم الالتـزام بوقـت العمل، وهـذا هـدّد أركان الدولة العراقية والجهاز الإداري والتنفيذي، وتحوّل الموظف من شـخصية وطنية مخلصة كفوءة إلى موظـف حائـز دخلُه لا يكفيـه لتوفير الحـد الأدنى من المعيشـة، مقابل السماح له بأخذ الرِّشا وعدم الانضبـاط، بدليل أن أحد أركان النظام السـابق قال (شكو بيها إذا تقبل الهدية).

وهكـذا دفعـت تلـك المرحلـة الموظفيـن وحتـى الدرجات العليا والوظائف المرموقة من الأسـاتذة والقضاة والمعلمين إلـى العمل بوظائف أخرى أو تقبلهم للرِّشا، وغيرها من الممارسات التي حطّمت قيم الوظيفـة العامة في العـراق التي عُرف عنها بأنها ذات قيمة وطنية عليا؛ إذ ورث الجهاز الإداري العراقي كيانا وظيفيا محترما منذ تأسـيس الدولة العراقية عام (1921).

س/ هـل تعتقد أن الفسـاد الإداري والوظيفي بدأ من مرحلة الحصار؟

نعم، الفسـاد بدأ بمرحلة الحصار، وإن كان قبل تلك المرحلـة محصـورا بالعائلة الحاكمة، فـي حين كان الموظف وبجميع العناوين والدرجات الوظيفية إذا ثبَـت أنه سـلَك سـلوكا فيه صبغة فسـاد فإنه قد يتعـرّض إلى عقوبة تصل إلى الإعـدام، ولكن ذلك انتهـى فـي مرحلـة الحصار؛ فالفسـاد أصبـح واقع الجهاز الإداري والوظيفي وبقيت آثاره إلى الآن.

وأتذكـر حادثةً فـي مرحلة الحصار، عندمـا ذهبنا أنا وعائلتي إلى المحكمة لعقد قران ابنتي في محكمة الكرخ مقابل منتزه الزوراء، وإحدى الموظفات التي كانـت تعمـل هنـاك فتحـت درج المكتـب وطلبت مبلغـا بقيمـة (25) دينـار، دون خـوف أو وَجل، مع أننـي كنـتُ خائفـا، إلا أن الموظفـة تعاملـت بكل صلافـة فـي وقت عُـرف عن النظـام السـابق أنه صارم فيما يتعلق بالفساد الإداري والوظيفي، فما كان مـن والد الـزوج إلا أن يضع لها في الدرج ذلك المبلغ، وأيقنتُ أن النظام الإداري والوظيفي انهار، والأمور خرجت عن السيطرة.

س/كيف تصـفُ النظـام التعليمي فـي مرحلة الحصار؟

فـي ما يتعلق بالوضـع التعليمي والتدريسـي في العـراق؛ نجـد أن الطالب حينها بـدأ بتقديم الهدايا للمـدرس والأسـتاذ، والمدرسُ بدأ بسـلوك طريق التدريـس الخصوصـي، إلـى آخرها من الممارسـات التـي زعزعت اسـتقلالية الأسـتاذ وقيمـة التعليم وهزّت تلك القيم العليا في المدرسة أو الجامعة.

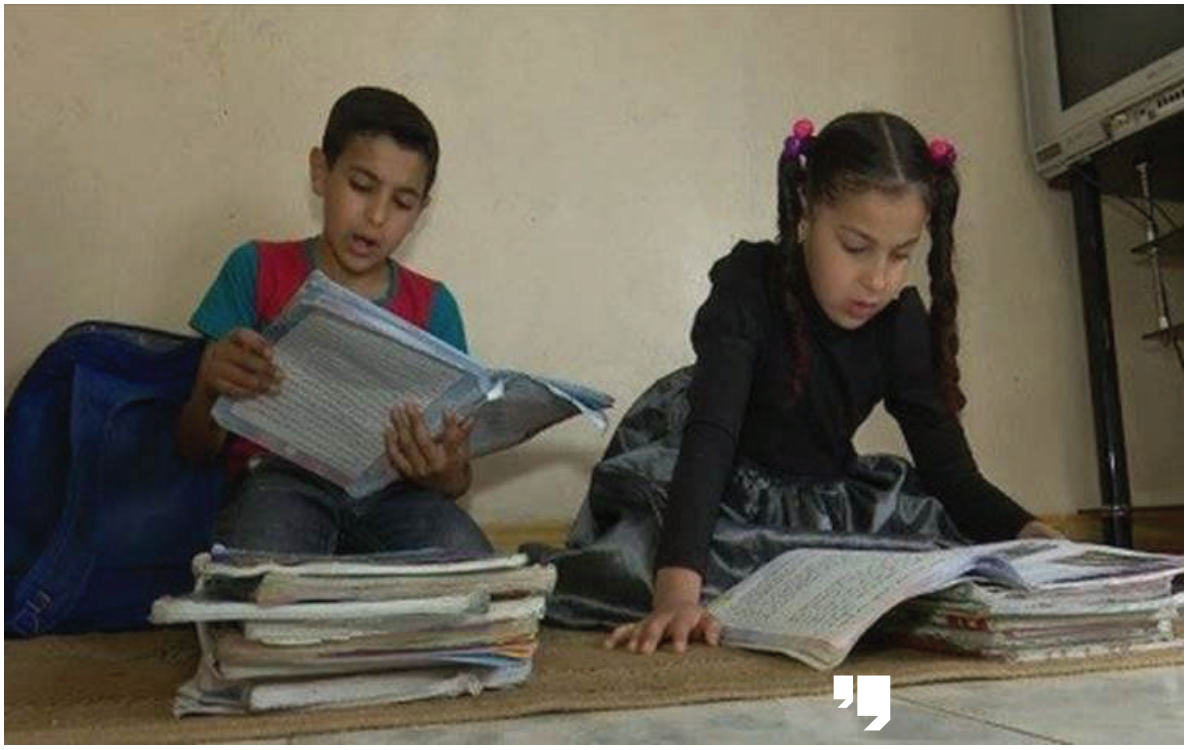

بدأ الطالب بتقديم الهدايا للمدرس والأستاذ، والمدرسُ بدأ بسلوك طريق التدريس الخصوصي، إلى آخرها من الممارسات التي زعزعت استقلالية الأستاذ وقيمة التعليم

س/كيف تأثّر حجم السكان في مرحلة الحصار انخفاضا أو ارتفاعا؟

ارتفع حجم السكان في تلك المرحلة، وفي الواقع يرجع ذلك إلى نزعة البشرية التي تبرز في مثل هذه الأحوال، فهي تدفع إلى زيادة إنجاب الأطفال، ويكون هدفها الحصول على مصدر ومورد مالي للعائلة. وبالرغم من كثرة الوفيات التي حصلت للأطفال في مرحلة الحصار؛ إلا أن هناك تعادلا في النسب مقابل الولادات، حالنا في ذلك هو حال الهند، فبسبب البطالة يصبح الإنجاب وسيلةً لتوفير المال، فضلا عن الأسباب النفسية من الضغوطات والعوامل الأخرى، وبالتالي يكون الإنجاب فيها نوعا من أنواع المتعة.

يضاف إلى ذلك انخفاض تكاليف الزواج حينها، الأمر الذي دفع الناس للقبول بأشياء بسيطة من أجل الزواج، وهذا ما رفع عدد السكان إلى الدرجة التي أصبح معها العراق من البلدان التي تواجه انفجارا سكانيا، و هذا مؤشر غير معقول، بل مخيف.

س/ هل عمل الحصار على إنتاج قيم اجتماعية لم تكن مألوفة عند العراقيين؟

نعم، فما ذكرناه حول تقبّل الموظف الحكومي للرشوة لم يكن مألوفا قبلها عند الناس. فضلا عن ذلك، أذكر مقولةً لصديقي أستاذ الاقتصاد (باسل البستاني) عندما قال: (إن العراقيين كلهم أصبحوا دلّالين) أي يبيعون كل شيء يملكونه في بيوتهم، وهذه تحمل دلالة اجتماعية وهي الفقر، بمعنى أنك لا تدّخر، وتبيع كل أصولك المالية حتى تسد الحد الأدنى من الاستهلاك، وهذا يسمى التآكل، الذي يعني انعدام الرفاهية بالكامل.

> إن العراقيين كلهم أصبحوا دلّالين.. أي يبيعون كل شيء يملكونه في بيوتهم، وهذه تحمل دلالة اجتماعية وهي الفقر،

س/ أتعتقد بفرضية تركّز آثار الحصار على مناطق ومدن العراق دون أخرى، أم تعتقد بعدالة المأساة الاجتماعية لو جاز التعبير؟

الحق أنه لا أحد مرفّه في العراق حينها إلا الطبقات القريبة من النظام وعائلته، وهذا شمل كل المحافظات وكل المدن، ولكن بشكل عام نقول إن المحافظات التي تأثرت بشكل مباشر بالحصار وآثاره هي المحافظات ذات الكثافة السكانية العالية، كمحافظات ومدن الوسط والجنوب، فضلا عن أنها كانت مسرحا للعمليات العسكرية والانتفاضة الشعبية، وهو ما زاد من معاناتها وتركّز المأساة فيها.

س/ هل كانت العقوبات الدولية التي تسببت بالمأساة الإنسانية والأخلاقية تتناسب مع جريمة الاجتياح العراقي لدولة الكويت؟

المأساة جاءت بالنمط الثاني من الحصار مثلما تحدّثنا، وهو هدف إزالة النظام التي تقتضي أن يتحمل الشعب المسؤولية عن ذلك، حتى عندما سئلت (مادلين أولبرايت) وزيرة الخارجية الأمريكية في عهد (كلينتون) عن موت أكثر من نصف مليون طفل في العراق: (هل الثمن يستحق؟) أجابت ببرود دم وإهانة قائلة: (أعتقد أن الثمن يستحق)، مما يعني أنهم كانوا عازمين على هذا الأمر وبأي ثمن.

س/ هل تجد صلةً بين ما مرّ به المجتمع العراقي من تحولات في زمن الحصار، وما يمرّ به المجتمع في مرحلة بعد (2003)؟

نعم، وأبرز تلك الآثار وأولها هو مفهوم التعويض، الذي أخذ شكل نهبِ مؤسسات الدولة العامة بما سمّي (الحواسم)، وهي تفسير لانتقام المجتمع من النظام السابق، دون أن ينتقم المجتمع بعضه من بعض؛ إذ لم تحصل حالات سرقة بيوت للمواطنين إلا بالحالة الفردية أو ذات الطابع الجنائي والإجرامي، وبالرغم من أنها تعدُّ سرقةً؛ إلا أن المجتمع أراد أن يستردَّ بعض حقوقه كردٍّ فعل عشوائي.

والأمر الآخر هو أن الوظيفة العامة بقيت مؤسسة للموظفين على أنها حيازة مؤقتة وليست وظيفة وطنية، وهذه الحيازة للوظيفة، التي تعني أنها ملك للموظف وخاصة به، تتيح له التفاوض والمساومة مع الآخرين.

> شجّع النظام السابق على التهريب، ومنح المهرِّبين بطاقات تعريفية رسمية (هوية مهرِّب)، ليهرّب بها عبر الحدود العراقية سلعا من إيران وتركيا وسوريا والسعودية والأردن

وفيما يتعلق بالتجارة، فإنها كانت من اختصاص النظام السابق حصرا؛ نظرا لأن النظام الاقتصادي يعدُّ اشتراكيا ومخططا مركزيا، إلا أن في مرحلة الحصار أصبح هناك انفلات اقتصادي، وسمَح النظام السابق بالاستيراد الخاص لكل من يمتلك المال. أما القضية الأخرى في مرحلة الحصار؛ فقد شجّع النظام السابق على التهريب، ومنح المهرِّبين بطاقات تعريفية رسمية (هوية مهرِّب)، ليهرّب بها

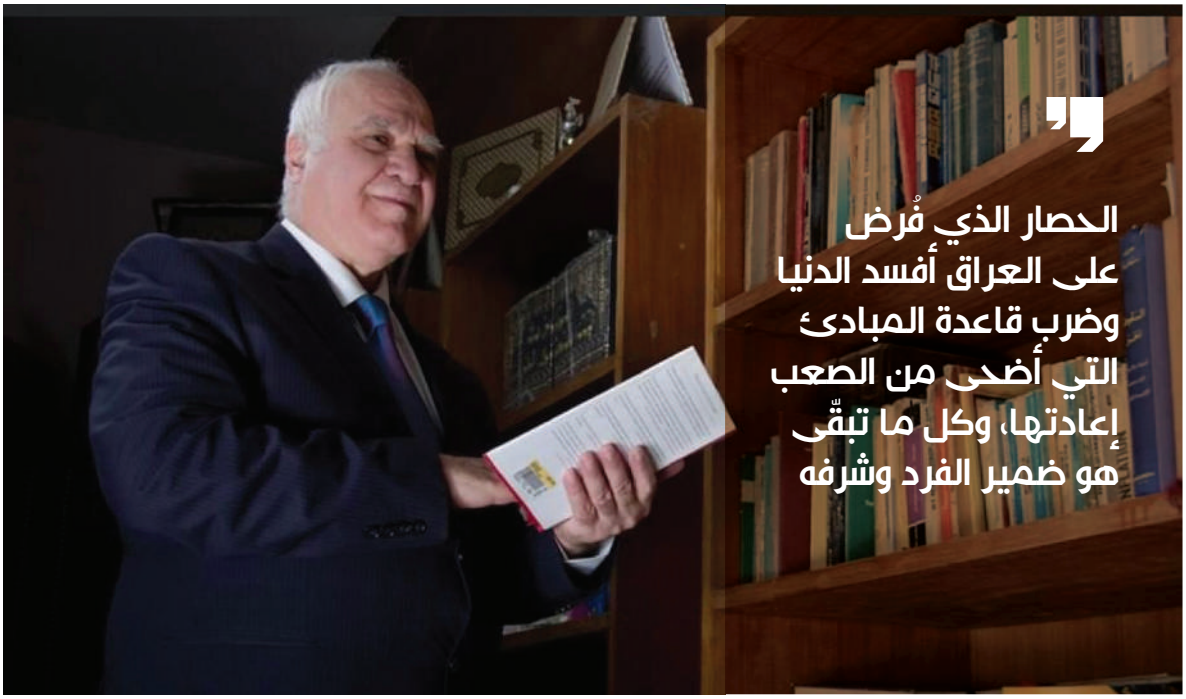

عبر الحدود العراقية سلعا من إيران وتركيا وسوريا والسعودية والأردن، وبالتالي نجد أن هؤلاء استمروا بهذا السلوك في مرحلة ما بعد عام (2003)، وأصبحوا ذوي خبرة عالية، فازدهرت هذه الظاهرة، وأصبحت قطاعا تحكمه أعراف وتقاليد، ويعمل فيه عدد كبير من الأفراد.

فضلا عن ذلك، نجد في مرحلة ما بعد عام (2003) تأسيسا لتجارة حرة منفلتة مع التحايل على الأنظمة والقوانين من قبل التجار، أو من بعض مَن ورث مهنة التهريب، أو ممّن عمل فيها وازدهرت تجارته بعد عام (2003). وكل هذه القيم أسّست في مرحلة الحصار واستمرت إلى مرحلة ما بعد عام (2003)، وبات من الصعب السيطرة عليها.

س/ برأيك، هل تعافى المجتمع من آثار الحصار بعد عام (2003)؟

بشكل عام، لم يعد هناك جوع مثلما كان يعاني الفرد والمجتمع في مرحلة الحصار، ولكن الكثير من السلوكيات الخطرة التي وُلدت في مرحلة الحصار قد استمرّت إلى الدرجة التي صارت معها حالة من التوحّش، وإباحة الانتقام وأخذ المال الحرام؛ فالحصار الذي فُرض على العراق أفسد الدنيا وضرب قاعدة المبادئ التي أضحى من الصعب إعادتها، وكل ما تبقّى هو ضمير الفرد وشرفه.

س/ دكتور هل تعتقد أن النظام الاقتصادي بعد عام (2003) كان واعيًا بآثار الحصار وعمل على إزالتها؟

النظام الاقتصادي بعد عام (2003) هو نظام هجين بطبيعته، ليس اشتراكيا وليس رأسماليا؛ إذ نجد أن الدستور العراقي عام (2005) شرّع مجانية التعليم والصحة، واستمر باعتماد الحصة التموينية التي تكلّف الدولة مبالغ طائلة وتوزّع إلى 40 مليون عراقي، ودعم الوقود، وحتى الكهرباء، فالدولة تحصل على إيرادات ضعيفة جدا من عوائدها، إلى الدرجة التي يصل فيها هدر الطاقة الكهربائية إلى (60%) من الإنتاج، مقسّم على (30%) هدرا تقنيا متعلقا بنقل الطاقة الكهربائية، و(30%) هدرا تجاريا، مما يعني تخلّف المواطنين عن دفع فواتير الطاقة الكهربائية.

س/ كم نحتاج مـن الوقت لإزالة آثار الحصار عن المجتمع؟

في الحقيقة، نحتاج إلى جيلَين على الأقل، وبحدود (50) سـنة، إضافة إلى ضرورة أن تشـكّل حكومات مسـتقرة أكثر لتخطط بشـكل أفضـل وتعمل على إيجـاد الحلـول عبـر اسـتراتيجيات طويلـة الأمـد للمشـكلات القديمة والطارئة؛ فمثلا أزمة التصحّر وأزمة شحّة المياه باتت أزمات خطيرة تواجه الدولة العراقية، فالتقارير تشـير إلى أن عدد سكان العراق فـي عـام (2090) سـيكون بحـدود (100) مليـون نسـمة، والميـاه التـي تصل إلـى العراق سـتكفي لـ(10 %) فقط من سكانه.

س/ هـل لـك أن تحـدد لنـا التكلفـة التخمينية للحصار على العراق؟

الحصـار بـدأ بحـرب وانتهى بحـرب، وحدثـت هناك انتفاضة شـعبية، وعملية عسـكرية محـدودة عام (1998)، وعقوبـات اقتصاديـة، وخسـائر بشـرية هائلة، وتدمير للبنية التحتية، كلّفت تلك العقوبات والحروب بحدود تريليون دولار أمريكي.

س/ هل خرج العراق من الفصل السـابع لميثاق الأمم المتحدة؟

للأسـف لـم يتخلص من ذلـك؛ فمـا زال العراق يتعثّـر بذيـول الفصـل السـابع، الـذي يُقصد به أن العـراق دولـة مارقـة تهـدد الأمن والسـلم الدوليين. ويواجَـه بالقـوة العسـكرية بسـبب ميولـه العدوانيـة على دول أعضـاء في مجلس الأمن، فلم يتأكّد بعد أن العراق خرج رسـميا من الفصـل السـابع، أو نُقـل إلـى الفصل السـادس مـن ميثاق الأمـم المتحـدة، بالرغم مـن إيفائه بجميـع التزاماتـه الماليـة تجاه الكويـت وقضايا التعويضـات لبقية الـدول والأفـراد الذين كانوا فـي الكويت وقت الاجتيـاح العراقي، فضلا عن حسـمه قضايا ترسـيم الحدود وكل المتعلقات والملفات مع الكويت.

حـوار مع الدكتـور مهدي العـلاق حول
الحصار الاقتصادي على العراق 1990ـ2003

تسبب الحصار في إنهيار العملة العراقية بشكل كبير

فقد الدينــار العراقي حوالي 90 %
من قيمته عام 1995

تجويع الشــعوب يؤدي الــى حصول ارتباك
في منظومة القيم الاجتماعية

مســتوى التلقيح الإجمالي انخفض بحدود
50% عما كان عليه قبل الحصار.

حاوره: د. علاء حميد إدريس / أنور المؤمن

س/ هل ممكن ان تقدم لنا مؤشـرات رقمية عن التحول في المسـتوى المعيشي والصحي والتعليمي لمقارنة مرحلة الحصار مع المرحلة التي سبقته..

في ضوء تحسـن الوضع الإقتصادي في العراق بعد ارتفاع أسـعار النفط في منتصف السبعينات حصل تحسن في مؤشرات جودة الحياة إلّآ إن تلك المؤشرات تراجعت بشكل واضـح مـع فـرض الحصار على العـراق. وإذا أردنـا أن نركز فـي المقارنة على مسـتويات التنمية البشـرية بأبعادها الثلاث (الصحة، التعليم، المسـتوى المعيشـي) فإن بالإمكان ملاحظة مايأتي:

المؤشر	سنوات ما قبل الحصار	سنوات الحصار
1. الصحة: توقع الحياة عند الولادة	65 سنة	58 سنة
2. التعليم: معدل الالتحاق بالتعليم الابتدائي	%95	%82
3. المستوى المعيشي: حصة الفرد من الناتج المحلي (دينار) (سنوي)	3 ألف دينار	98 ألف دينار

ومع الأخذ بنظر الإعتبارمعدلات التضخم الهائلة خلال سـني الحصار حيث كان متوسـط نصيـب الفـرد مـن الناتج المحلـي لسـنة 1992 حوالي ثلاثـة آلاف دينار ارتفـع الى مائة وخمسة آلاف دينار أي أنه ازداد بنسبة ثلاثة آلاف بالمائة لكنها لا تقابل سوى 30% من قيمتهـا الحقيقية لعـام 1988 ويعكس ذلك انهياراً للقوة الشـرائية الحقيقية للمواطن العراقي التي تفاقمت بشكل كبير عام 1995.

معاناة المواطن العراقي خلال سنوات الحصار في جانب تأمين الغذاء اللازم هي الأخطر

س/ كيف أثر الحصار على الاقتصاد العراقي من حيث الناتج القومي للدولة ودخل الفرد، وقيمة الدينار العراقي والاحتياطي من العملة الصعبة والذهب؟.

لقد تسبب الحصار في انهيار العملة العراقية بشكل كبير ولذلك أصبحت البيانات مشوهة، ولم يكن ممكناً حينذاك إطلاق الأرقام بالأسعار الثابتة لإخفاء تراجع الوضع الإقتصادي إذ ارتفع الناتج المحلي ظاهرياً من (49) مليار دينار عام 1992 الى (2) ترليون عام 1995 لكن ذلك يخفي التراجع الكبير في المستوى الإقتصادي. فقد كان سعر الصرف الرسمي قبل بدء الحصار هو ثلاثة دنانير للدولار الواحد لكنه ارتفع الى ثلاثة الاف دينار للدولار الواحد، أي إن الدينار العراقي فقد حوالي 90 % من قيمته عام 1995 التي تشكل أصعب سنوات الحصار.

س/ كان النظام الاقتصادي الاشتراكي، يوفر ما يحتاجه المواطن من مواد غذائية وتموينية، هل يمكن ان يقدم لنا الدكتور مهدي أرقامًا لنقارن بها الواقع الغذائي في مرحلة ما قبل الحصار، والمرحلة ما بعد الحصار، خاصة بعد تطبيق نظام البطاقة التموينية، وكيف تقلص الغذاء المقدم للمجتمع؟. هل كنا على اعتاب مجاعة؟.

لعل معاناة المواطن العراقي خلال سنوات الحصار في جانب تأمين الغذاء اللازم هي الأخطر كونها تمس حياة الانسان ودوامها وقدرته على العمل وتجنب الإصابة بالأمراض. ونتيجة لتراجع المستوى المعيشي بسبب الحصار صار اهتمام الأسرة العراقية في تأمين حد ولو أدنى من الغذاء (كماً ونوعاً)، إن المعطيات الرقمية تشير الى أن الأسرة العراقية كانت تنفق أقل من 50% من دخلها الشهري على المواد الغذائية قبل الحصار لكنه ارتفع الى 62% وهي علامة واضحة لتردي المستوى المعيشي. إذ كلما زاد الإنفاق على الغذاء كلما عنى ذلك أن الأسرة تعيش في حالة من العوز والفقر. ولذلك يُلاحظ التحسن الكبير في المستوى المعيشي بعد عام 2003 بدليل تراجع الانفاق على الغذاء ضمن فاتورة الانفاق العام للأسر العراقية.

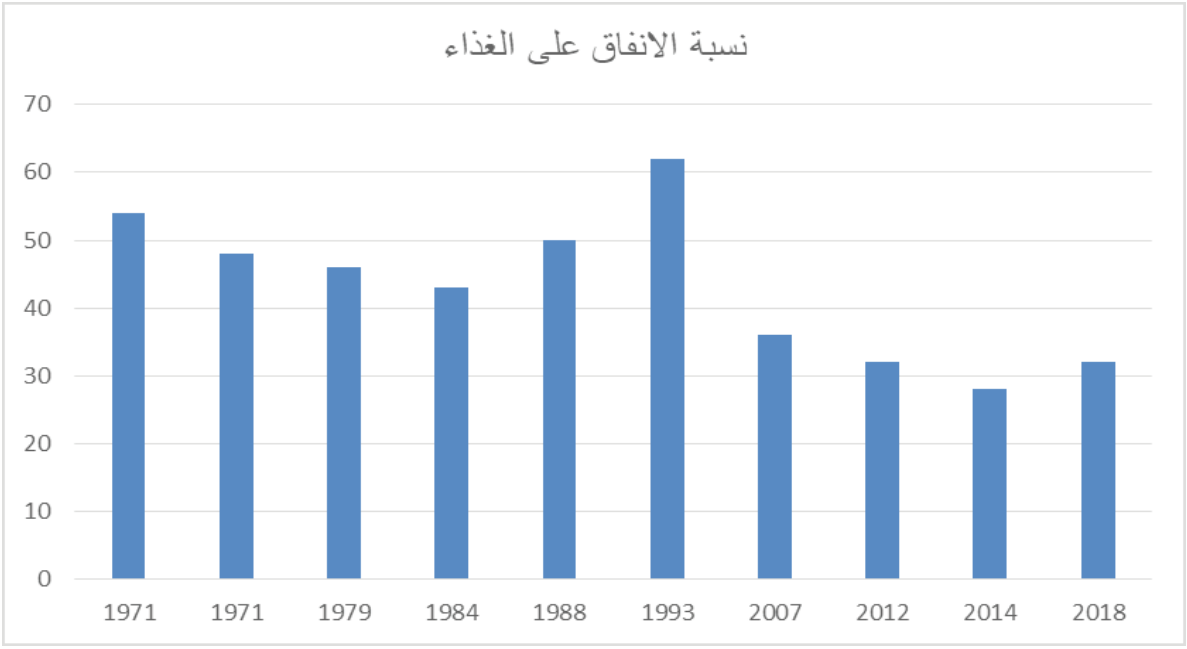

س/ هل كان بأمكان النظام السياسي السابق المراوغة للتخلص من العقوبات الدولية نهائيا؟.

انعكس تطبيق برنامج النفط مقابل الغذاء على حلحلة الوضع المعيشي للعراقيين. إذ تدهورت قبله امدادات الغذاء بشكل كبير هدَد غالبية السكان بالتعرض لخطر الفقر المدقع الذي يوصف بأنه عجز الدخل العائلي عن تأمين الغذاء الكافي للأفراد فقط. وتشير أحدى الدراسات التي صدرت عام 1993 الى أن نسبة الفقر ارتفعت الى 75%. ولكن بعد إطلاق برنامج النفط مقابل الغذاء تراجعت حدة الفقر المدقع.. فقد سمح البرنامج المذكور بتصدير كميات محددة من النفط مقابل تأمين المواد الغذائية والأدوية والمستلزمات الإنسانية الأخرى الملحة. وسبَب ذلك تحسناً مؤقتاً في قيمة الدينار العراقي فقد انخفضت قيمة الدولار من (3000) دينار لكل دولار الى حوالي (500) دينار لكل دولار وأدى ذلك الى حصول ارتباك شديد في أوضاع السوق العراقية لكن سرعان ما تراجع الوضع مع ارتفاع سعر صرف الدولار مجدداً بسبب محدودية العوائد التي ترتبت على إطلاق البرنامج من جهة، وما تعرض له من هيمنة السلطة آنذاك وما أشيع عن مظاهر فساد كبيرة فيه، ويمكن القول أن العقوبات الإقتصادية الصارمة التي فرضت عام 1990 أبان احتلال قوات النظام للكويت خفت بشكل نسبي لكن تأثيراتها ظلت واضحة على الوضع الإقتصادي والمعيشي.

نسبة الفقر ارتفعت الى 75% في العام 1993

س/ بالنسبة للواقع الصحي كيف تأثر بالعقوبات التي فرضت على العراق (1990 ـ 2003).

شهد الوضع الصحي تراجعاً كبيراً خلال فترة الحصار لاسيما في النصف الأول منها. فقد ارتفع معدل وفيات الأطفال الرضع الى أضعاف ما كان عليه قبل عام 1990 حيث كانت تقدر ب 28 وفاة لكل ألف ولادة حية ارتفعت الى حوالي 90 وفاة لكل ألف ولادة حية. كما شهدت وفيات الأمهات بسبب مضاعفات الحمل أو الولادة أو النفاس نتيجة نقص الخدمات الصحية والطبية ارتفاعاً كبيراً وقُدرت هذه الحالات بـ 250 وفاة لكل مائة الف ولادة حية، ومع وجود المستشفيات والمراكز

مستوى التلقيح الإجمالي انخفض بحدود 50% عما كان عليه قبل الحصار.

الصحية القائمة إلاّ إن مستويات الخدمة والأدوية والمستلزمات الأخرى تراجعت بشكل كبير، وسببت معاناة لشرائح المجتمع المختلفة لاسيما الأطفال والنساء وكبار السن كما تراجعت معدلات تلقيح الأطفال ضد الأمراض حيث تعذر تأمين الأعداد الكافية من اللقاحات وتقدر الإحصاءات أن مستوى التلقيح الإجمالي انخفض بحدود 50% عما كان عليه قبل الحصار.

س/ كم بلغ عدد الوفيات بالنسبة للاطفال وباقي الفئات هل انخفض متوسط حياة الفرد في للمجتمع العراقي.

بناءً على إحصاءات وزارة الصحة فأن عدد وفيات الأطفال الرضع فقط وصلت الى 13600 حالة وفاة ارتفعت الى 14320 حالة عام 1992. لقد واجه الأطفال مخاطر صحية أخرى منها بشكل خاص زيادة معدلات التقزّم (أي قصر طول الطفل مقارنة بعمره) بما يسبب من مضاعفات لعل من أخطرها التخلف الذهني. وقدرت نسبة التقزم عام 1995 ب % 22 لكنها انخفضت بعد عام 2003 لتصل الى حوالي 8% عام 2018

س/ كيف تأثر حجم السكان في مرحلة الحصار انخفاضا او ارتفاعا؟. وكيف تفسر ذلك.

لم يشهد سكان العراق تغيرات لافتة خلال سنوات الحصار. فقد ظل معدل النمو السكاني مرتفعاً وقُدَر بحوالي 3.1% عام 1997 سنوياً وهو قريب من معدلات النمو السكاني المسجلة خلال العقد السابق له. ويعود ذلك الى استمرار ارتفاع معدلات خصوبة المرأة العراقية حيث قدرت بحوالي (6) ولادات عام 1997 وهي تعد من أعلى المعدلات المسجلة عالمياً وعربياً. كما بقي

المجتمع العراقي مجتمعاً فتياً ترتفع فيه نسبة الأطفال وتتدرج للفئات الأخرى.

س/ كيف تصف مؤشرات القطاع التربوي والتعليمي في مرحلة الحصار.

لعل قطاع التربية والتعليم من أكثر القطاعات تأثراً بأوضاع الحصار.. فقد توقف تشييد المدارس توقفاً تاماً وتشير الإحصاءات الى أن حاجة البلد مع سقوط النظام للأبنية المدرسية بلغت سبعة الاف مدرسة. كما إن الأبنية الحالية أصبحت في الغالب بحاجة الى إعادة تأهيل بناها التحتية أو مستلزماتها التربوية.

ونتيجة لتردي الوضع الإقتصادي والتربوي فقد انخفضت معدلات الإلتحاق بالدراسة الإبتدائية بشكل خطير.. ففي نهاية السبعينات وبداية الثمانينات وصلت معدلات الإلتحاق الى حوالي 100% بسبب الإلتزام بتطبيق قرار الزامية التعليم الإبتدائي. لكن مع تردي الأوضاع لم يكن في الإمكان تتبع هذا التوجه. وتشير الإحصاءات الى أن معدلات الإلتحاق بالدراسة الإبتدائية انخفضت الى 80% فقط وهذا يعني أن 20% من الأطفال في سن المرحلة الإبتدائية تسربوا من مقاعد الدراسة وازداد الوضع سوءاً في مرحلة الدراسة المتوسطة والإعدادية حيث انخفضت معدلات الإلتحاق الى أقل من 50%.

س/ هل عمل الحصار على انتاج قيم اجتماعية لم تكن مألوفة عند العراقيين؟.

لاشك إن تجويع الشعوب يؤدي الى حصول ارتباك في منظومة القيم الاجتماعية ليس في العراق فقط بل في عموم البلدان. وهناك شواهد كثيرة تؤكد ازدياد جرائم السرقة والسطو، والتلاعب والغش نتيجة الإنفلات الذي حصل مع عدم جدية النظام في معالجة التراجع في منظومة القيم الإجتماعية.

س/ هل تعتقد بفرضية تركز اثار الحصار على مناطق ومدن العراق دون اخرى، ام تعتقد بعدالة المأساة الاجتماعية لو جاز التعبير؟.

عانى العراقيون عموماً من آثار الحصار وكان منفذ البطاقة التموينية هو المخرج الأهم لتخليص الناس من الوقوع ببراثن الفقر الشديد، لاشك أن هناك شرائح وفئات سياسية ومناطقية كان وقع

الحصار أقل وطأة عليها.

س/ لـو عدنا الـى مفهوم العمـل والدخل، في تلـك المرحلة نجد بـأن هنالك تناقـض كبير بين العمل والدخل، برأيكم كيف استوعب المجتمع هذا الامر؟.

نتيجة ارتفاع معدلات التضخم، إنحدرت بشكل كبير مستويات الرواتب والأجور لاسيما في القطاعات الحكومية. إذ بعد أن كان راتب الموظف خريج الكلية يزيد في المعدل على مائة دولار قبل سنوات الحصار انخفض الى أقل من 10% عما كان عليه. مما اضطر الكثير من الموظفين لترك العمل كلما أتيح لهم ذلك. وتسربت آلاف منهم الى سوق العمل التجاري في البيع والشراء والخدمات الأخرى لتأمين رزق يومي لأسرهم. وشاع مفهوم العمالة الناقصة التي تعرَف بأنها العمل أما دون مستوى التأهيل العلمي، أو دون استحقاقه المادي، أو الإشتغال بعدد من أقل من الساعات يومياً. لكن ذلك تم على حساب حرمان الشرائح العاملة من أبسط حقوقهم في الحياة فتراجعت مستويات امتلاك الأسر للسلع المعمرة الرئيسة بشكل كبير في حين أصبحت غير مستعملة لعدم إمكانية الإستفادة منها كالثلاجات والمجمدات. في حين يتزاحم الخريجون والعاطلون عن العمل حالياً على قطاعات العمل الحكومي نظراً للمردود المناسب.

س/ هنالك من يذهب الى ان الحصار استفز الجهد العراقي في مجالات عديدة هل ترى هذا حقيقي؟.

نعم حصلت بعض الإنجازات في هذا الجانب من أجل استنهاض بعض القطاعات. على سبيل المثال إن نسبة مساهمة القطاع الزراعي زادت على 12% كمكون للناتج المحلي الإجمالي في حين لا تتجاوز في الأحوال الإعتيادية 5% . كما شجع النظام آنذاك بعض المنشآت لانتاج بعض السلع والمعدات لكن غالبيتها كانت تصب في مجالات محددة ومنها المجال العسكري.

س/ هـل تعافـى المجتمـع العراقـي مـن آثـار الحصـار؟ ومـا هـو برأيكم ابـرز تأثيـر تركه على المجتمع العراقي؟.

أعتقـد أن الفترة بين فرض الحصـار والوضع الحالي طويلـة وقـد تعافى المجتمـع العراقي مـن آثاره. إن مراجعـة سـريعة للمؤشـرات الإحصائية تعكس تحسـناً كبيراً في المسـتويات المعيشـية لشـرائح المجتمـع المختلفة لكن ذلك لا يعني القضاء على الفقر إذ مازال خمس السكان (20%) هم دون خط الفقر ويفترض أن تتبنى الدولة استراتيجية التخفيف مـن الفقر المعدة لهذا الغـرض. لعل واحداً من أبرز الفـروق بيـن مسـتويات الدخـول قبل عـام 2003 وبعده هو أن التفاوت في الدخول كان عالياً.

هنـاك شـريحة مرفهـة فـي المجتمـع اسـتثمرت أوضاع البلد وأثرت في كسـب أرباح عالية قبل عام 2003 لاسـيما في قطاعات محددة كالتجارة مثلاً لكن تحسـن مسـتويات الدخول (الرواتب خصوصاً) خصوصـاً بعد عـام 2003 قللت من هـذا التفاوت. يشـير معامل جينـي لقياس التفاوت فـي الدخول الى أنه ارتفع الى 0.41 (التفاوت الكلي المطلق = 1) خلال سـنوات الحصار في حين أن قيمة معامل جيني المقدرة حالياً تقترب من 0.3.

س/ هل تعتقد ان النظام السياسي الجديد بعد عـام 2003، عمل على ازالة اثار النظام السـابق ومرحلة الحصار، من حيث التشـريعات والقرارت والادارة الجديدة؟.

نعـم .. لكن ذلـك مرتبط بتأثيرات سياسـية وأمنية واجتماعيـة تحـدَ أحياناً من القدرة علـى تجاوز الآثار التـي خلفهـا النظام السـابق، أما تشـريع القوانين والقـرارات وإلغـاء مـا لايصلـح من قوانين سـابقة فمازال العمل بطيئاً نسبياً.

س/ كم نحتاج من الوقت لازالة آثار الحصار على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي؟.

تعتمـد فتـرة إزالـة آثـار الحصـار المختلفـة على النجـاح فـي تنفيـذ البرنامـج الحكومـي المعلن بشكل خاص.

اضطر الكثير من الموظفين لترك العمل كلما أتيح لهم ذلك. وتسربت آلاف منهم الى سوق العمل التجاري في البيع والشراء والخدمات الأخرى لتأمين رزق يومي لأسرهم

د.علاء حميد إدريس

الوجه الآخر للحصار!

تقع مرحلةُ الحصار (1990 - 2003) التي مرّ بها العراق في منطقةٍ شبه منسيةٍ، ولا يُذكَر منها سوى بعضُ الأحداث والممارسات التي تخص فئاتٍ معنيةً من المجتمع العراقي؛ فمَن وُلِدوا في العام (1989) وصولاً إلى مواليد مرحلة التسعينيات من القرن الماضي ليس من السهولة أن يتذكروا ما جرى في أيام الحصار، من تحوّلاتٍ اجتماعيةٍ واقتصاديةٍ أدخلت المجتمع العراقي في تغييرٍ غير مسبوقٍ؛ إذ اعتاد العراقيون قبل الحصار على حياةٍ قائمةٍ على الوفرة، فتلاشت هذه الوفرة تدريجياً منذ الأيام الأولى للحصار، وباتوا يواجهون صعوبات الحصول على الطعام والمتطلبات الأساسية من دواءٍ ورعايةٍ صحيةٍ. وربما يتساءل البعض: لماذا نذكُر الحصارَ الآن بعد كل هذه السنين من النسيان؟ وتكمن الإجابةُ في أننا حين نعود بالذاكرة إلى سنوات الحصار نجد منطقةً مبهمةً وغيرَ معروفةٍ نتيجةَ ما دار فيها من تغيّرٍ اجتماعيٍّ في قيم العراقيين وسلوكياتهم والعلاقات فيما بينهم؛ فبين ليلةٍ وضحاها تخلّى العراقيون عن عاداتهم وسِماتهم التي كثيراً ما تباهَوا بها من أجل البقاء على قيد الحياة، وهنا نتساءل عمّا يحمل العراقيون اليومَ من قيمٍ وأخلاقٍ وتعاملٍ، وهل لها صلةٌ بمرحلة الحصار وما استجدَّ فيها من ظواهرَ أخلاقيةٍ واجتماعيةٍ؟

قد لا يتقبل البعضُ هذا التساؤل؛ بسبب صعوبة وجود صلةٍ تربط ما بعد (2003) بالحصار ومجرياته، وعلى الرغم من وجود فئاتٍ اجتماعيةٍ ليست بقليلةٍ عاشت الحصار، وتشبّعت بتأثيراته النفسية والاقتصادية التي تبلورت وتعمّقت في مرحلته؛ فإن ما عزّزه الحصار عند العراقيين هو الطارئُ على حساب الاعتيادي والطبيعي؛ إذ إن البحث عن الدواء كان لا يجري بشكلٍ اعتياديٍّ، وإنما ضمن سلسلة من المفارقات المحكومة بقدرة العراقي المالية ومكانته في المجتمع، وهذا الأمر محصورٌ بفئةٍ قليلةٍ ذات مكانةٍ في السلطة والمجتمع، أو تمتلك إمكانياتٍ ماليةً مميزةً. كما تغيّرت في الحصار علاقةُ العراقيين بالطعام، وأصبحت تعتمد على الرخيص المتاح والقليل الذي تتكرر فيه الأصناف نفسها، فضلاً عن تحوّل جهد الفرد العراقي نحو نيل ما يُديم وجودَه المادي؛ إذ ظلّ مدار تفكيره مرتبطاً بكيفية الحصول على الغذاء ومتطلبات الحياة الأخرى. وقد جرَت خلال أزمة الحصار أوسعُ عمليةِ تغيّرٍ اجتماعيٍّ مرّ بها الفردُ العراقي منذ خمسينيات القرن الماضي، فلم يبق شيء عند العراقيين في أثناء هذه السنوات لم يطرأ عليه التغير، إلا النظام السياسي والحاكم

فيـه، وهـذا الحـال وضَـع المجتمـعَ العراقي في تناقضٍ غريبٍ؛ إذ تغيّرت أكثرُ مناحي الحياة بشـكلٍ تدريجيٍّ فباتت تنحصر في كيفية اسـتمرار العيش، فضـلاً عـن شـبه التوقف فـي نشـاطات التفاعل الاجتماعـي والاقتصـادي؛ لأنهـا أمسَـت تتطلب كُلَفاً ماديةً ومعنويةً.

> **لقد كرّست سنواتُ الحصار في الشخصية العراقية الخوفَ والقسوةَ والضنكَ، وجعلت سلوكها يقترب من سلوك الاستبداد الذي حكمها منذ 1968 ولغاية 2003،**

لقد كرّست سنواتُ الحصار في الشخصية العراقية الخـوفَ والقسـوةَ والضنـكَ، وجعلـت سـلوكها يقتـرب من سـلوك الاسـتبداد الـذي حكمها منذ 1968 ولغاية 2003، وربما يفسِّر لنا هذا الاقتراب بقاءَ النظام السياسـي آنذاك وعدم وقوعه تحت تأثيـر التغير الاجتماعي الـذي أوجده الحصار، وهذا يجعلنـا نتأمّل ونفكّر بتفسـير أبرز ظاهـرةٍ في تلك المرحلة (مجتمع متغيّر ونظام سياسي ثابت)، وقد يردُّ البعض على هذا التصوّر بأن النظام السياسـي قـد طالـه التغيّر وتنـازَل عـن الكثير مـن مقولاته واعتقاداته السياسية، لكن هذا التنازل لم يغيِّر من أهـداف النظام فـي الاسـتبداد والتحكّم وإغلاق المجتمـع، ولم يتعدَّ الأمرُ إجراء تغييرٍ في أولوياته؛ إذ أدخـل أسـباباً جديـدة للقمـع واسـتعمل الدينَ وما سـمّي بـ(الحملة الإيمانية) التـي أُطلقت عام (1993) كوسـيلة جديدة للسـيطرة على المجتمع وضبطه.

تشـير (جوي غوردون) في كتابهـا (الحرب الخفيّة: أمريكا والعقوبات علـى العراق)، الصادر عن (مركز دراسـات الوحدة العربية) عام (2018)، إلى قضيةٍ لافتةٍ، حينما تقارن بين الغاية من فرض الحصار على (جنوب أفريقيا) وفرضِه على (العراق)؛ ففي الأول تحقّقـت غايـة إجبار نظـام الفصـل العنصري على تغيير سلوكه السياسـي وإنهاء ممارسة العنصرية فـي إدارة الدولـة والمجتمـع، أما الحصـار الثاني؛ فيبـدو أن الغايـةَ كانت تحمل مسـتويَين، أحدُهما ظاهرٌ، والآخرُ خفيٌّ، والظاهر هو إجبار النظام على الرضوخ لقرارات مجلـس الأمن الدولي والاعتراف بالكويت دولةً ذات سيادةٍ، في حين يتمثل الخفيُّ في إعادة تشـكيل المجتمع العراقي وإفراغه من كل قدراته الاجتماعيـة والاقتصادية، ودفعِه نحو تقبّـل أي حـلٍّ يُطـرح لمعالجـة أزمته، ولهـذا رأت (غـوردون) أن مـا حقّقـه الحصـار فـي العـراق هو أفقار البلد كاملاً، مع صعوبة الرجوع إلى مسـتوى المعيشـة الذي كان معظـمُ العراقيين قد وصلوا إليه حتى عام (1990).

وهنـا يمكـن أن نتسـاءل: أيُّ جـزءٍ من غايـة فَرض الحصـار هـو الحقيقـيُّ والمـرادُ نيلُـه (الظاهـرُ أم الخفي)؟ قد نجد الإجابة عن هذا التساؤل بمراجعة مضمـون القرار (687) الذي أصـدره مجلسُ الأمن فـي (3 نيسـان 1991)، والـذي يتكـون مـن (34) مادةً، وعددُ كلمات نصِّه (3900) كلمةٍ، إذ سـمِّي (أبـو القـرارات)؛ لأنه يضع آليـات وخطوات تطبيق الحصـار على العـراق بشـكلٍ دقيقٍ ومحكـمٍ، ولا يترك مجالاً للمجتمـع العراقي في تجنّب الإفقار، بـل وصـل الأمـر إلـى سـلب قدرتـه علـى العيش بالشـكل الطبيعـي، لنقـل المجتمـع مـن وضعـه الاجتماعـي الاعتيادي إلـى الوضـع البدائي الذي يعتمد على ممارسـات بدائية في العيش والحياة، ولذلـك أخـذ يتقبّـل بالتدريج نمط حياتـه في ظل الحصـار؛ لأنه بات يتعامل مع أسـلوب العيش عبر مـا ينال من غذاءٍ يومياً، بغض النظر عن كمية هذا

الغذاء وكفايته لحاجته الجسدية.
وبعد كل هذه السنين التي مرّت على انتهاء الحصار، أيـن نجـد اليـومَ آثاره في سـلوك وقيـم المجتمع وعاداتِـه؟ المفارقةُ أن مَن عـاش الحصار وما جرى فيـه مـن أحـداثٍ وأزمـاتٍ هما جيـلَا السـبعينيات والثمانينـات اللـذان يمثّلان اليوم فئةً واسـعةً من المجتمع العراقي، ولعلّنا بحاجة إلى معاينة سلوك ومعتقـدات وقيم هذَيـن الجيلَين ومـدى تأثيرهم في بقية أفراد المجتمع العراقي بعد (2003).
طـرح الأميركيون والبريطانيون الذين كانوا بشـكلٍ رئيسٍ وراء فرض الحصار على العراق، أن الغاية منه تقع في ثلاثة أهداف، هي: (الاحتواء، وتغيير النظام، والمسـاعدة الإنسـانية)، وجاء ذكرُ هـذه الأهداف علـى لسـان أكثر مـن مسـؤولٍ أميركيٍّ، ولاسـيما وزيرة الخارجية الأميركية (مادلين أولبرايت) (1937 - 2022)، وحيـن نتأمّل هذه الأهداف نجد أنها غير مترابطـةٍ، بل هـي قائمة علـى التناقـض؛ فاحتواءُ النظام السياسي وتحييدُه عسكرياً وسياسياً إذا تمّ فما الداعي إلى تغييره!، أما المسـاعدةُ الإنسانية؛ فهـي كانـت نوعـاً مـن التغطيـة علـى فداحـة أثر الحصـار علـى حيـاة العراقييـن وجعلهـم يواجهون صعوبـة البقاء في مسـتوى الحيـاة الطبيعية، كما لم تكن - المسـاعدة الإنسـانية - في وقتها شـيئاً يُذكـر. إن مراجعـة تاريخ الحصار ونتائجه تكشـف لنا أن المقصود منه تغيير المجتمع العراقي كمقدمة لتغيير النظام، وليس العكس، حيث وضْع المجتمع أمـام تحـدّي الحفاظ علـى الحيـاة الاعتيادية، مما دفعـه نحو التنـازل عمّا يملك مـن جوانب معنوية ومادية، فقـد تحوّلت وجبـةُ الإفطار فـي الصباح عند العراقيين مثالاً إلى محنة ليس لها حلٌّ سـوى القبـول بالقليل والتغاضي عـن الجوع والألم الذي يتركـه علـى الجسـد والنفـس، ومعنويـاً؛ تم وضع أغلـب قيم المجتمع الإيجابية تحت ضغط الحصول علـى متطلبات العيش، وأصبحت هذه القيم تَفقد رويـداً رويـداً معناها وقابليتها على توجيه سـلوك الفـرد العراقـي نحـو الجيِّد والمنطقي، بل أمسـى شـبهَ مبـرّرة الكثيـرُ من السـلوكيات غيـر الطبيعية التـي أخـذت تظهـر بسـبب القيـم والمعاييـر التي أنتجهـا الحصـار، ومثال ذلـك تقبُّل الرشـوة وعدم الرفض الاجتماعي للسرقة.

لمـاذا ندرس مرحلة الحصـار الان، اثارها الاجتماعية والنفسـية على بنية وسلوك الافراد في المجتمع العراقـي، كذلـك ان الكثير مـن الظواهر النفسـية والاجتماعيـة التـي اعاقـت وتعيـق بنـاء الدولـة وتحديثهـا وتنميتهـا راهنا، تعود في اساسـها الى التدميـر المنهجـي الـذي مارسـه النظام السـابق وكرسـته سـنوات الحصـار المدمـرة، واثـار الفقـر والحروب والتخلـف الاجتماعي الذي ترك بصماتها على انمـاط التفكير والسـلوك والعلاقات والرؤية للـذات والأخـر، فضلا عن تفشـي ظواهر الفسـاد والتطـرف والتشـدد وتغليب الـرؤى الايديولوجية علـى الممارسـات والسياسـات العقلانيـة، مردها ارتكاز الاجيال السابقة على نمطية ثقافية وقيمية وعلائقيـة، اعـادة انتاج بنيـة التخلف الراسـبة في قاع المجتمع وافشـلت مظاهر التحديث، والتمدن والتطور المعرفي والعلمي.

إن إعـادة العراقـي الـى مرحلـة مـا قبـل عصـر الصناعـة، بفعـل التدميـر الواسـع الـذي مارسـته الولايـات المتحـدة الامريكيـة وحلفائهـا ابان حرب تحريـر الكويـت، وما تلاها من حصـار قاس، تمظهر بشكل فعال في تحطيم بنى الدولة والانسان في العراق، وليس يسـيرا اعادة بنـى الدولة من جديد، واعـادة تشـكيل عقل الافـراد وسـلوكياتهم دون دراسـة معمقـة للحقيقـة التاريخيـة التي سـبقت التدميـر وانتجت كل هذا الحطام، وذلك يسـتدعي اعـادة فحـص الممارسـات والهدر وضيـاع الفرص، اي الـدروس المنهجيـة والتعلـم منها فـي عملية التأهيل النفسي والاجتماعي والسياسي.